نيكولاي برديايف

فلسفة اللامساواة

رسائل إلى قادة الثورة الروسية

ترجمة: بسام مقداد

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

فلسفة اللامساواة

رسائل إلى قادة الثورة الروسية

==========

نيكولاي بردياييف

ترجمة

بسام مقداد

==========

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

==========

الفهرسة في أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

فلسفة اللامساواة: رسائل إلى قادة الثورة الروسية/ نيكولاي بردياييف؛ ترجمة بسام مقداد.

(سلسلة ترجمان)

يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-614-445-169-4

1. العدالة - فلسفة. 2. الفلسفة الروسية. 3. العدل والسياسة - فلسفة. 4. العدالة الاجتماعية - فلسفة. 5. الاجتماع، علم - فلسفة. 6. الاشتراكية - الاتحاد السوفيتي. 7. الشيوعية والمسيحية - الاتحاد السوفيتي. 8. الاتحاد السوفيتي - تاريخ - الثورة، 1917 - 1921. 9. الليبرالية - فلسفة. 10. الديموقراطية. 11. الدولة - فلسفة. أ. مقداد، بسام. ب. العنوان. ج. السلسلة.

197

هذه ترجمة عن الروسية لكتاب

ФИЛОСОФИЯ НЕРАВЕНСТВА

ПИСЬМА К НЕДРУГАМ ПО СОЦИАЛЬНОЙ ФИЛОСОФИИ

by Николай Бердяев

عن دار النشر

ОБЕЛИСК

БЕРЛИН

1923

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن

اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة - منطقة 70

وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان

هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني:

beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني:

www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الثاني/ نوفمبر 2017

المحتويات

الرسالة الأولى

في الثورة الروسية
الرسالة الثانية

في الأسس الدينية - الأنطولوجية للمجتمع
الرسالة الثالثة

في الدولة
الرسالة الرابعة

في الأمة
الرسالة الخامسة

في النزعة المُحافظة
الرسالة السادسة
في الأرستقراطية
الرسالة السابعة

في الليبرالية
الرسالة الثامنة

في الديمقراطية
الرسالة التاسعة

في الاشتراكية
الرسالة العاشرة

في الفوضوية
الرسالة الحادية عشرة

في الحرب
الرسالة الثانية عشرة

في الاقتصاد
الرسالة الثالثة عشرة

في الثقافة
الرسالة الرابعة عشرة

في ملكوت الله
خاتمة

الرسالة الأولى
في الثورة الروسية

هذه الرسائل التي أَلخص فيها جميع أفكاري حول الفلسفة الاجتماعية، أتوجه بها مباشرة إلى خصومي، الناس المعادين لي تفكيرًا، المتناقضين مع شعوري بالحياة، الغرباء عني أفكارًا. كُثُرٌ هم خصومي، أكثر، بما لا يُحصى، من أصدقائي. وهم على تنوع شديد ويحيطون بي من الجهات المختلفة. وفي الطليعة من خصومي، يأتي خصوم إيماني الذين تخلت أرواحهم عن المسيح وخانوه وقاموا عليه باسم أصنام وآلهة دنيوية. يلج العالم زمنًا مفصليًا عصيبًا، حين ينبغي أن يُفتضح دينيًا كل ما هو غامض، مموه وانتقالي. لم يجلب المسيح السلامَ، بل السيفَ. وبالسيف الروحي ينبغي أن يُقسم الناس مَن مع المسيح ومَن ضده. لكن هذا التقسيم الأساس لا يمكن أن يُطبق آليًا وخارجيًا على الحياة التي لا نهاية لتعقيداتها. فالكمال والصراحة اللذان يسمحان بالتطبيق المباشر لمعايير الإنجيل على جميع التقويمات الحياتية، ليسا فيه. فكل تقويم للحياة يطرح أمام النفس البشرية مهمة إبداعية. في الإنجيل خميرة الحياة الجديدة فحسب، البذرة لا غير، التي تنبت منها الحياة السامية للنفس، إنما ينبغي ألا نرى فيه مجموعة قواعد ووصايا. ليس في العهد الجديد وحي إيجابي بالمجتمع المسيحي. علاقة المسيحية والمجتمع، مسألة إبداعية معقدة مطروحة أمام العقل البشري الحر، وهي لا تسمح بحل تبسيطي رتيب. وكانت مسألة المجتمع المسيحي دائمًا إغراءً عظيمًا للمؤمنين المسيحيين ولأعداء المسيحية أيضًا. واستغلوا المسيح والإنجيل لأهداف متناقضة كليًا. فالرجعية والثورية الأشد تطرفًا مستعدتان، على قدم المساواة، لتبرير نفسيهما بالمسيحية. ومن الواضح جدًا أن إطلاقية النفس المسيحية لا يمكن، وبهذه السهولة، أن تُترجم إلى نسبية العالم التاريخي؛ إذ تتعذر المقارنة بينهما دومًا. كما يُخطئ، وبالقدر عينه، أولئك الذين يعتبرون المسيحية ملائمة للقيصرية المطلقة، وأولئك الذين يعتبرونها ملائمة للفوضوية. المسيحية ليست رجعية، كما أنها ليست ثورية، ولا يمكن اقتناص أي منفعة منها لهذه الدنيا.

يهيمن اليوم على العالم أولئك الذين يودون، إما أن يطيحوا المسيحية كليًا، وإما أن يستخلصوا منها مكاسب ثورية، مكاسب اشتراكية وفوضوية. يتوجه كتابي هذا ضد هؤلاء الخصوم، بالدرجة الأولى. أود فضح أمرهم، لأنهم الخطر المقبل والشر المقبل. الشر السابق الذي مضى، والذي مات أو يموت، أقل خطرًا. المسيح الدجال سوف يظهر في سنوات مقبلة، وغواياته هي الغوايات المقبلة للبشرية. ليست في الشر القديم تلك الغواية الشديدة من الغموض وازدواجية المعنى في نماذج المستقبل. وليس من شعب في العالم معرض لغوايات نماذج المستقبل الغامضة والملتبسة هذه، النماذج المعادية للمسيح، كما هو شعبي، الشعب الروسي. ليس من بلدٍ في العالم يَسَعُه أن يتحول، بكل سهولة، بؤرة لهذه الغوايات، كما هو بلدي، روسيا. لكم، أنتم الذين سممتم روح الشعب الروسي بسُم رهيب، إليكم أنتم الذين دمرتم روسيا، أوجه رسائلي هذه. أنتم كُثُرٌ، أنتم الأكثرية، أنتم بدأتم عملكم منذ زمن بعيد، أنتم بدأتم عملكم الذي يقوض أسس الحياة الروحية للشعب الروسي، بدأتم، كمُضطهَدين تدعون، بخطاب بريء متسامٍ، إلى أفكار إنسانية تقدمية. لكن، سرعان ما أخذ فكركم يتكشف، الفكر العدمي، وسرعان ما تحولتم مُضطهِدين. في البداية، كنتم مُضطهَدين فكريًا، كَسِبتُم ضعفاء النفوس من الإنتلجنسيا الروسية، وأخذتم تضطهِدون الحياة الفكرية الراقية كلها، وحاصرتم كل من آمن بالحقائق الروحية والقيم السامية، كل من اعترف بالمعنى الديني للحياة والغاية الدينية لها. وكنتم تبررون اضطهَادكم هذا بالظلم الذي ألحقَتْه بكم السياسة الخاطئة للسلطة القديمة. لكن، أتت الساعة التي كشفتم فيها نهائيًا عن طبيعتكم، فواتتكم الفرصة كي تكونوا مُضطهِدين، وأقمتم طغيانًا غير مسبوق يهدد بتدمير النمط البشري كليًا. كنتم دومًا كارهين الحرية،

كنتم دومًا تُخمدون شعلة الروح البشرية وتقتلون كل ما هو إلهي. كنتم دومًا تبيعون حقوق الإنسان الطبيعية بحساء عدسٍ وبالعابر من الخيرات والموقت من المصالح. أنتم قتلة الخلود، كنتم تودون لو تنتزعون من القلب البشري الإحساس بالخلود والتوق إلى الخلود. الوقت، نذير الموت، يخوض عبركم القتال ضد الخلود. أنا أدركت هذا الأمر منذ زمن بعيد، ومنذ زمن بعيد أُقاتلكم قدر استطاعتي. وأخذ أولئك يكشفونكم الآن أيضًا الذين كانوا قبلًا مفتتنين بفكركم، أولئك التنويريون جميعهم والتقدميون والإنسانيون الذين يَبقون عند القشور من الحياة، لا يستبطنون الشر، البريئون، الحالمون بمصلحة الشعب وبالسعادة على الأرض. لقد حذرنا نحن منذ زمن بعيد، وكشفنا منذ زمن بعيد، إلى أين تؤدي تلك السبل التي سلكها المجتمع الروسي المثقف ودفع الشعب الروسي إليها. لقد تحدثنا نحن أيضًا عن تلك المسؤولية الرهيبة التي تقع على عاتق سلطة المالكين والطبقات المسيطرة التي لم تقم بأي شيء تقريبًا للحؤول المبدع دون هذا السقوط القاتل لروسيا وللشعب الروسي في الهاوية. وليتذكروا الآن مجموعة المقالات فيخي[1] «VEKHI» (الأزمنة) وليقيّموها بنزاهة أكبر.

***

ولدت فكرة هذا الكتاب في غمار الثورة الروسية. وبدأت كتابته يوم الذكرى السنوية للثورة. وأقل ما أبتغيه هو الكتابة عن منظومة الفلسفة الاجتماعية. لقد ولى زمن مثل هذه المنظومات. أود أن أكشف عن الأسس الروحية للفكر الاجتماعي، وأقدم ما كان يمكن أن نطلق عليه اسم السيكولوجيا الاجتماعية، أو علم الظاهرات العامة (phénoménologie publique). تقدم الثورة الروسية الحوافز والدوافع الداخلية لمثل هذا العمل الفكري. وتوفر الثورة خبرة هائلة وتطرح جميع مشكلات الفلسفة الاجتماعية بحدة أكبر. ليست الثورة هي التي تعمّق الفكر وتشحذه، بل العكس؛ أولئك الذين يصنعون الثورة ويجرفهم تيارها، وهم يطفون على السطح، فاقدين القدرة على التمييز والتقويم العميق. هؤلاء الناس سُلخوا عن كل عمق وعن كل مصادر الحياة الروحية، وهم عاجزون عن أي معرفة. لكن، في معرض ردة الفعل الفكرية على الثورة والتمعن الداخلي بها، ينشط الفكر وتتعمق المعرفة بها ويتكَشف الكثير مما هو جديد. ثمة مَنْ يعتقد أن الثورة هي فعل ديني، وأن الثورة الروسية دينية بامتياز، وأن إنسانًا جديدًا يولد فيها، ويتفتح وعيٌ جديد. هذه اللعبة في مقارنة الثورة بالدين وتغطية العاصفة الثورية بلباس فاره من التعابير الدينية، وهذا التمجيد الصوفي لها، ما هما إلا عهر روحي. إن لغو الثوريين الحقيقيين، أولئك الذين يصنعون الثورة، لا مَن يقدمها من بعيد بقالب سحري شاعري، هو أفضل وأنقى بألف مرة. حين بدأ الشاعر الغنائي الرومانسي يُنشد الأناشيد لجنون الثورة، ويكتب المقالات التي تبرر جميع فظائعها، لم يكشف إلا عن تعفن روحه التي فقدت أي تمييز بين الحقيقة والبهتان، بين الوقائع والأشباح، وارتكب فعل خيانة الروح القدس. أنتم، الروحويون والعاملون في الإبداع الأدبي، المدعوون إلى أن تكونوا «حفظة السر والإيمان»، كنتم المشهد الأكثر بؤسًا وحقارةً، حين استسلمتم، بكل عجز وضعف، للعواصف المهيمنة، حين تواطأتم مع الرعاع الهائجين الذين يدمرون أعظم المقدسات والقيم، حين لم تُفلحوا في العثور على كلمة قوية واحدة في الذود عن الخلود وحياة الروح السامية. في ساعة التجارب الحياتية الصعبة، حين تكشّفت أهمية الأفكار والكلمات والمعتقدات البشرية والآمال كلها، ظهرتم ضعفاء روحيًا ومشوشين، فقدتم جميع معايير الروح، وتبين أن ليس لكم كلمتكم الخاصة، المنتزعة من تجربة التواصل الروحية مع الأبدية. أخذتم تنطقون بكلمات ليست كلماتكم، وأخذ ضجيج الشوارع

والساحات يُسمَعُ في خطاباتكم ومقالاتكم. لم تعثروا على الوفاء الفروسي والنبل الفروسي، وظهرتم بائسي الروح. لقد نسيتم الفارق الأبدي بين الفرسان روحًا والدهماء. لم تتوافر فيكم قوة الروح قط، ولم تسعوا وراء مكارم الروح. أنتم عاجزون، ضعفاء، متقلبون، غير قادرين على اختيار عاقل لما تحبون وما تعتبرونه الحقيقة والجمال. إذا كان جمالكم وصحيحكم وحقيقتكم كلها مرتبطة بهبوب الهواء، بضوضاء الشارع وضجيجه، بالساحات والطرقات، فليس لديكم إذًا، جمال ولا صحيح ولا حقيقة. أنتم متسولون مجردون من السلاح ساعة المعركة، ولستم على أهبة الاستعداد للحرب. لكن بعضكم كان مولعًا بالحديث عن أن الإنسان ينبغي أن يحصن نفسه بالدروع، وأن يعتمر الخوذة ويتدرع، وأن يحمل الرمح والترس. أين كان درع الفارس ساعة المعركة، ساعة المبارزة المصيرية بين روحين نقيضين؟ كنتم الضعفاء المترددين المترنحين كالقصب، عزلًا من السلاح لا حول لكم ولا قوة. ورحتم تخترعون من الجبانة تبريرات لعجزكم أمام القوى الظالمة، ولممالأتكم الأرواح الظالمة. لكنكم لم تخدعوا أحدًا. أنتم فحسب أهنتم كرامة الكاتب الروسي والشاعر الروسي والمفكر الروسي. لن أذكر أسماءكم، فأنا معني الآن بظاهرة الروح، لا بأشخاص منفردين وبمواطن ضعفهم وأقدارهم الغامضة. لم تكن دينية الثورة فحسب، ولا يمكن أن تكون كذلك. إن الثورة، كل ثورة، هي بطبيعتها معادية للدين، وكل تبريراتها الدينية متدنية القيمة. لكن الثورة واسعة النطاق، قد يكون لها معنى ديني، وربما نجد فيها علامات العناية الإلهية وحكم الله المنزَّل. هذا المعنى وهذه العلامات أراها في أكثر ثورة معادية للدين من بين الثورات، في الثورة الروسية.

***

الثورة، هي عقاب السماء على خطايا الماضي، هي الأثر القاتل الشرَّ القديم. هكذا رأى الثورةَ الفرنسيةَ أولئك الذين تعمقوا في معناها، ولم يتوقفوا عند المشهد الخارجي منها. كانت الثورة بالنسبة إلى جوزيف دو ماستر[2] (Joseph de Maistre) حدثًا غامضًا، واعتبرها قدرًا من لدن العناية الإلهية أرسلته السماء تكفيرًا عن خطايا الماضي. ورأى كارلايل[3] (Carlyle) في الثورة - وهو من كتب أفضل تاريخ لها - نتيجة للكفر وفقدان مركز الحياة العضوي، وعقابًا على الخطايا. الثورة هي نهاية الحياة القديمة، لكنها ليست بداية حياة جديدة، هي الحساب عن درب طويل. في الثورة يتم التكفير عن خطايا الماضي. تقول الثورة دائمًا، إن سلطة من يملكون لم تقم بما عليها القيام به. ومما يُدين الطبقات التي كانت تسيطر في المجتمع قبل الثورة، أنها أوصلت الأمور إلى الثورة، وأتاحت إمكان حدوثها. كان المرض والعفن يتفشيان في المجتمع، وهما اللذان جعلا الثورة حتمية. هذا صحيح بالنسبة إلى النظام القديم أيضًا الذي سبق الثورة الروسية. فلم تحدث التنمية الخلاقة من فوق، ولم يَشع الضوء، لذا تسللت الظلمة من تحت. وهذا ما يحدث دائمًا. ذلك هو قانون الحياة. تسبق الثورات عملية تحلل وتراجع في الإيمان، وفقدان الشعب والمجتمع مركز الحياة الروحي الجامع. لا تُفضي إلى الثورات عمليات بناءة خلاقة، بل عمليات تعفّن هدامة. إن شعور الحب واندفاعات الخلق وأعمال الإبداع لا تُفضي إلى الثورات مطلقًا. كل ثورة تحمل وصمة إنكار النعمة وتخلي الله أو لعنته. إن الشعب الذي يقع تحت سيطرة العاصفة الثورية يفقد حرية الروح ويخضع لقانون قاتل ويعاني مرضًا ليس له من علاج، ويصبح مهووسًا يسكنه مس من الشيطان. ويتوقف الناس عن التفكير والعمل، ويأخذ أحدٌ ما، شيئًا ما في دواخلهم يفكر ويعمل بدلًا منهم. يتهيأ للشعب أنه حرٌ في الثورات، وهذا خداع نفس رهيب. هو عبد قوى ظالمة، تقوده أرواح بدائية غير بشرية. ليس في الثورات حرية ولا يمكن أن يكون كذلك؛ الثورات معادية لروح

الحرية دومًا. في عواصف الثورات أمواج داكنة تُغرق الإنسان. ليس في عواصف الثورات مكان للفرد والفردية، بل يسودها مبدأ اللافردية. الثورة لا يصنعها الإنسان الذي على صورة الإله، الثورة تحدث للإنسان، كما المرض، كما المصيبة، كما الكارثة الطبيعية، كما الحريق أو الفيضان. الجموح الجماهيري في الثورة الشعبية هو ظاهرة من الطبيعة، على غرار العواصف والفيضانات والحرائق، وليس ظاهرة إنسانية. صورة الإنسان في الثورات مشوشة دومًا، يُغرقها طوفان ظلمة الوجود السفلي. إن دائرة الضوء التي تتشكل بذلك الجهد المضني كله في سياق التاريخ وتتسامى فوق الظلمة الشاسعة، تغمرها، في عاصفة الثورات، ظلمة جامحة لا حدود لها. تطيح عاصفة «ديونيسوس»[4] كل ما له علاقة «بأبولون»[5]، كل شكل وحدود، كل وجه وصورة، كل ما له علاقة بالشكل والحدود. ومن السذاجة الاعتقاد، أن الشعب الذي يقع تحت سلطة قانون العاصفة الثورية الذي يدخل الدائرة السحرية للثورة، يمكن أن يسلس قيادته لاتجاهات أكثر اعتدالًا وثقافة من الجيروندیين والكاديت. كلا، السيطرة في الثورات حتمية لليعاقبة أو البلاشفة. فالمرض ينبغي استئصاله، والسم ينبغي أن يفتك بنفسه. تستحيل قيادة الثورة. فأنتم، يا من تصنعون الثورة وتمجدونها، عبثًا تعتقدون أنكم تقودون الثورة وتوجهون وتبنون. آه، كم أنتم سُذج! كم أنتم جهلة وعجزة! إذ تعتقدون أنكم أحرار، وأن روح الحرية تسكنكم، وأنكم ناشطون وأقوياء. كلا، أنتم ضعفاء وعبيد سلبيون، عبيد أهواء الظلم، أداة عواصف سود. أنتم بلاشفة ومتطرفون وفوضويون وغيرهم، أنتم أكثر الناس سلبية، خاملون روحيًا، غير قادرين على مقاومة العواصف، وعلى الجهد العقلي، تتملككم طاقات موجودة خارجكم. وجوهكم غير مرئية، وأنتم بلا وجوه. أنتم وسط عواصف لا هيئة لها، تتكلم فيكم أصوات غير أصواتكم، يستحيل التقاط أصوات بشرية فيها، ولا يُسمع سوى ضجيج عواصف طبيعية عادية وزئيرها. أنتم، ناس الثورة، عبثًا تعتقدون أنكم نفوس جديدة، وأنه يولد فيكم إنسان جديد. أنتم نفوس مترهلة، ينتهي فيكم الإنسان القديم مع خطاياه القديمة وعاهاته. مشاعركم السلبية كلها، الغضب والحسد والثأر، تُرغمكم على البقاء في الحياة القديمة وتجعلكم عبيدًا للماضي. أنتم ردة فعلٍ سلبية على شر الماضي، ولا يسعكم التخلص منه. أنتم لا ذاكرة لكم عن خير الماضي، عن الحقيقة الخالدة والجمال فيها، أنتم لا ذاكرة خلاقة مبدعة لكم.

هل كان روبسبيير روحًا جديدة، إنسانًا جديدًا؟ كلا، كان حتى أعماق كيانه، إنسانًا قديمًا، إنسان النظام القديم ممتلئًا بالغرائز القاتلة. الثورة الفرنسية صنعتها نفوس قديمة، وحملت إليها جميع الخطايا والأهواء القديمة. النفس الجديدة خُلقت لاحقًا، حين كتب شاتوبريان (Chateaubriand) قصته القصيرة **رينه** وكتابه الفلسفي **عبقرية المسيحية**. حينذاك بدأ العهد الجديد الذي يختلف داخليًا عن القرنين السابقين. ولد الإنسان الجديد في ردة الفعل الكاثوليكية والرومانسية. وهذا ما يؤكده أكثر المؤرخين إيجابية. عبثًا صنعتم الثورة التي استحوذت عليكم شياطينها، وتعتقدون أنكم خلاقون وأعمالكم خلاقة. عبثًا تعتقدون أنتم أن حقب الثورات هي حقب إبداعية في حياة البشرية. أنتم بشر محرومون من الإبداع كليًا، تكرهون الإبداع وتقضون عليه؛ لأن الإبداع، في الحقيقة، هو أرستقراطي، هو عمل ذوي المراتب العليا، ولا يطيق سلطة ذوي المراتب الأدنى وسيطرة الحشود التي تخدمونها أنتم. هل ثمة روح إبداعية في روبسبيير أو لينين؟ أليسا هما قاتلي كل اندفاعة إبداعية؟ الإبداع لا يطيق المساواة، وهو يتطلب اللامساواة، يتطلب الترفع، ولا يطيق تَلَفتنا خشية العجز من أن يتجاوزنا الجيران. إن روح الثورة، روح أصحاب الثورة، تكره العبقرية والقداسة وتقضي عليهما، ويجتاحها حسد أسود من العظماء والعظمة، وهي لا تطيق النوعية وتتعطش دومًا لإغراقها بالكمية. لم يعرف عهد الثورة في يوم من الأيام ازدهار الروح الإبداعية، ولا قيام نهضة

دينية وثقافية، ولا انتعاش «العلوم والفنون». إن مقياس الثورة هو التسطيح لا العمق. ليس في الثورات حراك داخلي حقيقي. الثورة تعني توقف الحراك الداخلي. الثورة دينامية في الظاهر فحسب، أما في الداخل فهي ساكنة. الثورات لا تُقدر أبدًا رجالات الحراك الروحي والإبداع الروحي، وهي تلفظ هؤلاء الناس، وغالبًا ما تكرههم، ودائمًا تعتبرهم غير مفيدين لقضيتها. إن حراكاتكم الخارجية الصاخبة، أنتم يا أصحاب الثورة، ينبغي ألا تخدع أحدًا. في هذه الحراكات ثمة دوران لا مخرج له. وفي الدوران هذا يتم تجاوز الأهواء الفارغة. يقضي حراك الثورة دائمًا على ذاته، وهو لا يُفضي إلى حياة جديدة. هذا ليس حراكًا في العمق، بل هو حراك على سطح السطح. وهو يتناثر عن السطح كما الغبار. غوصوا في العمق، يا أصحاب الثورة، وسوف تتبخر جميع تحركاتكم، وجميع حركات أيديكم، والضجيج الذي تصدرونه كله. حينذاك يبدأ فيكم أنتم أيضًا، أصحاب الحياة السطحية، حراك حقيقي، حينذاك ربما يتفتح أمامكم، أنتم أيضًا، إمكان الإبداع. إن إقلاع الحراك الداخلي وبدء الإبداع والتعمق الروحي، يعنيان نهاية الثورة وبداية الردة. مرجل الثورة يتبخر، وتبرز الحاجة إلى التفكر عميقًا في تجربة الثورة، والتعرف إلى تناقضات الحياة المأساوية.

إن الثورة ليست روحية بطبيعتها. تولد الثورة من ضمور الحياة الروحية وعطبها، وليس من نهوضها وتطورها الداخلي. تتحدث وجوه الناس الذين تأسرهم الثورة عن انحطاط الحياة الروحية؛ فتعبير هذه الوجوه ليس روحيًا إلى حد الرعب، وهو يشكل إدانة للثورة. إن وجوهكم تعبر عن الغضب والتعصب، ويستحيل أن تُقرأ فيها أفكار عميقة ومشاعر نبيلة. وجوهكم ليست مضيئة، بل تُشعِرُ بالسقوط إلى أسفل درك العالم المادي. الثورة تنفي معنى الحياة الروحية. تنطلق أيديولوجيا الثورة من الخارجي والمادي، وليس من الداخلي والروحي، وتُعرّف كل شيء بهما. لهذا، لا يستطيع الناس الروحيون أن يقروا بثوراتكم، أبدًا، وهم لهم ثوراتهم الخاصة التي لا تعرفونها أنتم. ليس لثورة الروح صلة بثوراتكم الخارجية المادية السياسية والاجتماعية. لم يكن ماركس، في يوم من الأيام، ثوريًا روحيًا. الثوري الروحي كان نيتشه. لكن، ما علاقة نيتشه بثوراتكم؟ احتقرها كما انتفاضة العوام. ثوري الروح كان دوستويفسكي. لكنكم كنتم، دائمًا، تعتبرونه محافظًا ورجعيًا. وماذا ستفعلون مع صاحب الفكر الرؤيوي فلاديمير سالافيوف[6] (Vladimir Salavyov)، وماذا سيفعل هو معكم؟ كل ما هو مهم روحيًا في تاريخ الفكر والإبداع الروسي إبان القرن التاسع عشر، لم يكن معكم، بل كان ضدكم. بوشكين، الظاهرة الأعظم في الثقافة الروسية، ليس لكم. شتمتموه ودمرتموه وعارضتموه بالجزمة. حتى ليف تولستوي (Lev Tolstoï) لم يحببكم ودان أعمالكم. لم يكن معكم سوى أشخاص من الدرجتين الثانية والثالثة. لم تولد فكرة عبقرية واحدة في بيئتكم، ولم تصدر عنكم، وعن فكركم المظلم العقيم. أنتم أصحاب الثورة، أصحاب الروح المتوسطة والفقيرة، أصحاب الأفكار الشعبية المتوسطة والبائخة. حتى غضبكم، هو غضب الدهماء التي تحسد كل عظمة، كل مجد وكل عبقرية. كشف دوستويفسكي، بكل براعة، طبيعتكم وتنبأ بما سوف تبلغون. وتستحيل مقارنة ثوراتكم بثورة الروح والخلط بينهما، إلا في حال التعصب والعمى المطبق. سوف تولد ثورة الروح من ردة الفعل الداخلية العميقة على ثوراتكم، وضد نفيكم كل ما هو روح. أنتم قتلة الروح، أنتم أكثر الرجعيين قتامة، وبأعمق ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. أنتم كنتم دائمًا قتلة الأفكار، وجمود أفكاركم مُخيفٌ، يولّد الانطباع بالتصخر. كنتم دومًا تطاردون الدين والفلسفة والشعر وجمالية الحياة. ثوراتكم لا تفعل الأفضل، بل الأسوأ؛ يتمسك بالثورات ويستغلها أولئك

الذين يعتبرون أنفسهم منكودي الحظ ومُهانين، والغاضبون وربيبو الله لا أبناؤه. تولد الثورات من الوعي النبيل للذنب من أبناء الله، وليس من الوعي الوضيع للإهانة من أبناء التراب.

***

تنتهي جميع الثورات بالارتداد عليها. هذا حتمي. هذا قانون. وكلما كانت الثورات أكثر شراسة وعنفًا، جاءت الردات أكثر قوة. في توالي الثورات والردات ثمة دائرة سحرية ما. تنطوي الردات على كثير من القتامة، وفيها الغيظ والثأرية عينها التي في الثورات. وأنتم، أصحاب ردات محض، عاجزون عن الارتفاع فوق الحراك المسطح نحو اليمين أو اليسار، فوق تناقض الثورة والردة، أنتم أيضًا عاجزون عن رؤية الحقيقة الأكثر كمالًا وبعدًا. أنتم غالبًا ما تكونون متماثلين عكسيًا مع الثوار. لكن، بعد زلزال الثورة الدموية، الردة لا مفر منها، وهي تمتلك حقيقتها التي تنعكس في عاصفة بشرية مظلمة. أنتم، أصحاب الوعي الثوري التافه المسطح، اعتدتم استعمال كلمة «رجعية» (الردة (reaction) (المترجم)) بالمعنى السطحي للكلمة والسلبي للغاية. أنتم تضعون «الرجعية» بمواجهة كل ما هو تقدمي إبداعي، وكل تطور وحراك. بالنسبة إليكم، الرجعية هي الجمود أو الحراك إلى الخلف، هي العودة إلى ما كان قبل الثورة. وهذا ليس صحيحًا. في الردات (الرجعيات) عمق مختلف. فالردة قد تكون خلاقة، وقد يكون فيها حراك حقيقي نحو حياة جديدة، نحو قيم جديدة. والردة لا تُعيدُ أبدًا إلى الحياة القديمة. في كل ردة فعل روحية على الثورة، يتكشف أمر ما جديد لم يعرفه العالم القديم، وتولد أفكار خلاقة. يولد أمر ثالث، يختلف عما كان في الثورة، وعما كان قبل الثورة. في الأمر الثالث يتكشف جديدٌ ما غير مسبوق. تجربة صِدام العالمين تشحذ الوعي والفكر، وتمنح شعورًا جديدًا بالحياة. هذا ما تعلمنا إياه الردة الروحية في فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر ضد الثورة. إنني أنصحكم، أنتم أيديولوجيو الثورة، أن تدرسوا هذا الحراك الروحي وتتعمقوا بمعناه المفيد. فربما تكمن أهمية الثورة الفرنسية الأساسية في أنها حفزت في مطلع القرن التاسع عشر، الحركة الكاثوليكية والحركة الرومانسية اللتين أغنتا كل فكر القرن التاسع عشر. كانت ظاهرة جوزيف دو ماستر الظاهرة الأبرز، مقارنة بظاهرة روبسبيير ومارات (Jean-Paul Marat) داخل الثورة. إن أهمية أفكار جوزيف دو ماستر «التقدمية» والإبداعية بدأ يعترف بها أكثر مؤرخي فكر القرن التاسع عشر إيجابية وموضوعية. وهو عانى في أعماق روحه تجربة الثورة الرهيبة، الأمر الذي جعل الفكر الكاثوليكي لديه أكثر عمقًا. جوزيف دو ماستر أصبح إنسانًا جديدًا، إنسان ما بعد الثورة وليس ما قبل الثورة، ودان المهاجرين الفرنسيين ومخططاتهم الخارجية لإعادة الملكية. وكانت جميع كاثوليكية القرن التاسع عشر الفرنسية جديدة، كاثوليكية ما بعد الثورة، وهي أكثر عمقًا، مقارنةً بكاثوليكية القرنين السابع عشر والثامن عشر. ذهب «الرجعي» جوزيف دو ماستر بعيدًا إلى درجة أنه افترض إمكان وحي جديد، وحي الروح القدس. كما كانت رومانسية شاتوبريان المسيحية ظاهرة جديدة أيضًا، وما بعد الثورة. إن توجه «رجعيي» مطلع القرن التاسع عشر إلى الماضي والبحث في القروسطية عن جذورهم، كان توجهًا خلاقًا وبحثًا إبداعيًا. التنوير العقلاني الذي قوض أسس الحياة الروحية للشعب الفرنسي وأصاب الكاثوليكية عينها، تم التغلب عليه في الردة الروحية الخلاقة في مطلع القرن التاسع عشر. وبعد هذا النصر الخلاق، يجب اعتبار العودة إلى التنوير العقلاني رجعية فكرية بكل ما للكلمة من معنى سلبي. إن كاثوليكيي حقبة الردة الروحية ورومانسييها ضد الثورة الفرنسية وضد التنوير السلبي، هم أجدادنا الروحيون. ومنذ ذلك الحين، أصبح فكرنا أكثر تطورًا وتعقيدًا واغتنى بتجارب جديدة، وهم غرباء عنا روحيًا، أولئك الذين يتحدر نسبهم من فولتير (Voltaire) أو ديدرو (Diderot). وكنت

لأردد سعيدًا كلمات مونتالامبير[7] (Charles de Montalembert): «نحن أحفاد الصليبيين ولن نتنازل لبذرة فولتير». أنتم، يا أصحاب ثورة اليوم الراهن، لا تملكون أسلافًا، أنتم أشخاص بلا أصل، لأن الأصل من روبسبيير أو ماركس ليس أصلًا. لا يمكن أن توصف الأيديولوجيا الثورية بالعمق؛ إذ لا جذور قديمة لها، فهي محكومة بالسطحية. ليس عميقًا في أيديولوجيا الثورة هذا الإنكار العقلاني للشر المتأصل في طبيعة الإنسان وطبيعة العالم، وليست عميقة هذه النظرة المتفائلة إلى المستقبل. القطيعة الثورية بين المستقبل والماضي ليست إلا فصل السطح عن العمق، انسحابًا من مركز الحياة الروحي. الثورية هي دائمًا القطيعة بين البنوة وأقنوم الأبوة، هي نفي الأبوة، أي تأكيد الموت والعدم بدلًا من الحياة الأبدية. في ثوراتكم الخارجية، يُنتهك الأصل التراتبي الأبدي، أصل التواصل العضوي، أي إنكار النظام الإلهي للعالم.

***

للثورة الروسية سمات منشأ أنموذجية، تميز كل ثورة. وتَتَكشف فيها قوة فوضى، ظهرت في الثورات كلها، وتلاحقها كقدرٍ، كما لاحقت الثورات كلها. كان للثورات الكبرى مسارها الحتمي؛ إذ كانت كلها تفيض عنفًا وغضبًا وثأريةً، وكانت تنتصر فيها جميعًا الاتجاهات الأكثر تطرفًا، ويتم إنكار الحرية وتشويه صورة الإنسان. سُذجًا وعُميًا كانوا أولئك منكم الذين نسجوا لأنفسهم أوهامًا حول الثورة وتصوروها مثالية. الثورات ليست مثالية، ولم تكن قط جميلة وطيبة، ولم تنتصر فيها يومًا الجوانب الفضلى في الطبيعة البشرية. كلّ الثورات أيقظت العاصفة المظلمة والشريرة في الإنسان، وأيقظت الفوضى القديمة. الثورات لم تكن عاقلة في يوم من الأيام. وهي لم تحمل الفرح ولم تمنح ذلك التحرر الذي كانت تحلم فيه الأجيال السابقة. ولا يحدث في التاريخ، أبدًا، ما يتوقعه الحالمون. وفي الثورة الروسية، وكما في كل حدث تاريخي، خصائص فردية لا تتكرر. تلك هي خصائص الشعب الروسي الذي لا يشبه أي شعب آخر في العالم، وخصائص الظروف التاريخية التي لا تشبه ظروف أي ثورة أخرى سابقة. الثورة الروسية هي حدث مشتق من الحرب العالمية. هي لحظة من الحرب العالمية. وتحمل هذه الثورة معنًى مريرًا ومذلًا للشعب الروسي؛ إذ تحمل الشعب الروسي تجربة الحرب العظيمة. جميع الشعوب شاركت في الصراع العالمي بالخلفية المادية والروحية عينها، التي تراكمت لديها عبر تاريخ طويل؛ اتضح أن الشعب الروسي مفلس. وتبين أن الشعور بالشرف منخفض النمو. لكن، ليست الجماهير الشعبية هي المذنبة في ذلك، بل الذنب أعمق من ذلك. إنما ليس عن هذا الجانب من علاقة الثورة بالحرب أود أن أتحدث الآن. أود أن أتحدث عن خصائص الشعب الروسي وتأثير هذه الخصائص في الثورة. الغربيون لا يفهمون الشعب الروسي. وهم لا يفهمون الثورة الروسية أيضًا. كل نسيج الطبيعة الروسية مختلف عن نسيج الطبيعة الغربية.

الشعب الروسي ليس شعبًا أوروبيًا غربيًا، هو، على الأغلب، شعب شرق آسيوي. روح الشعب الروسي روح معقدة ومشوشة، اصطدم وتقاطع فيها تياران من التاريخ العالمي، الشرقي والغربي. هذان التياران لم يجدا ترجمتهما العضوية في شخصية كاملة، في إرادة مشتركة وعقل مشترك. أنتم جميعًا عرفتم قمم الفكر الغربي العالية، ولم تغوصوا في يوم من الأيام في أعماقه. أنتم، المثقفين الروس الذين يجتمع فيكم الجموح الشرقي غير المتنور مع الوعي الغربي المسطح، غير قادرين على وعي ذواتكم، عاجزون عن بلوغ سر روسيا. أنتم غربيو الهوى وأصحاب النزعة

السلافية، لم تستطيعوا فهم سر الروح الروسية. ولفهم هذا السر، يجب أن تكون ثالثًا في أمر ما، يجب أن ترتفع فوق تباين النظرتين الغربية والشرقية، وفوق الوعيين، وعي أصحاب النزعة السلافية ووعي غربيي الهوى، يجب معرفة الشرق ليس من خلال الإحساس الغامض بالجموح الشرقي فحسب، ومعرفة الغرب، ليس من خلال الوعي السطحي المُغرب فحسب. إن عمق المعرفة يُولد في الخروج إلى الثالث من الضدين الاثنين. روسيا هي الشرق - الغرب العظيم والكامل وفق التصور الإلهي، وهي الشرق - الغرب الهجين والفاشل وفق حاله الفعلية في الواقع. أنتم، الثوريون الشرقيون بجموحكم والغربيين بتعليمكم، دمرتم التصور الإلهي العظيم حول روسيا، أنتم حلتم دون ترجمة النظرتين والطبيعتين إلى إنسانية شاملة أصيلة وسامية. إن سر روح روسيا والشعب الروسي، والكشف عن جميع أمراضنا ومعاناتنا، يكمن في العلاقة الكاذبة والزائفة بين الجذور الرجولية والجذور الأنثوية. لم يتم في أعماق روسيا، في روح الشعب الروسي، زواج داخلي، اتحاد الجذور الرجولية والجذور الأنثوية. لم يتحقق الأنموذج الأندروجيني (androgynie). لم تتحد الجذور الرجولية عضويًا بجذور روسيا الأنثوية، ولم تتمكن من الجموح الشعبي من الداخل. لم يحدث في روسيا ما حدث في فرنسا وبريطانيا وألمانيا، ولدى كل شعوب الغرب. عند مرحلة معينة من التطور، وفي إطار شكل وطني خاص، استيقظت هناك الروح الرجولية وشكلت عضويًا من الداخل الجموح الشعبي. الأرض الروسية لا تزال أنثوية، لا تزال عروسًا، ولا تزال تنتظر عريسًا من الخارج. استسلمت لرجال كثرٍ وافدين من الخارج، لكن ذلك لم ينتهِ بزواج حقيقي قط. لم يتمكن الشعب الروسي، في يوم من الأيام، أن يلد من أحشائه سلطة رجولية، بل كان يبحث عنها في الخارج، فكان يستدعي الفايكنغ أو الموظفين الألمان. الكنيسة الروسية والدولة الروسية يعود الفضل في تنظيمهما وتماسكهما إلى الجذور البيزنطية. الطبيعة الروسية، هي طبيعة خليستيانية[8] (Khlystyan)، وثنية ديونيسية ومعادية للثقافة. إن تحلل الجذور البيزنطية جعل كل روسيا عرضة لأخطار التحلل. في بنية الدولة الروسية، المنقسمة ومهيضة الجناح الآن، كان هناك تمزق ما، علاقة ما مرضية وغير طبيعية بين الشعب والسلطة. الشعب كان يحتاج إلى سلطة فوقه ويشعر بغربة هذه السلطة. كان الشعب ضعيفًا، فوضويًا، منح السلطة الاستبدادية غير المحدودة تفويضه ودعمه. إن تخلف الطبقات والفئات الاجتماعية في روسيا والتطور الاستثنائي للبيروقراطية كان هو قصور الرجولية في الشعب، والنشاط والأداء الرجوليين. إن الأوتقراطية الروسية كظاهرة أصيلة في الحياة الروسية، تجد تفسيرها بالأنثوية الاستثنائية للطبيعة الروسية. كان بطرس هو الظاهرة الرجولية في الدولة الروسية. لكن بطرس لم يكن رجلًا، بقدر ما كان مغتصبًا. اغتصب الروح الأنثوية للشعب الروسي. ولم يحصل، من خلاله أيضًا، زواج شرعي بين الرجولية الروسية والأنثوية الروسية. كان قسم من الشعب الروسي يعتبر بطرس معاديًا المسيح. لكن الشعب خضع طائعًا، في ما بعد، للبيروقراطية الألمانية التي دخلت عبر بطرس. شد بطرس اللجام وجعل روسيا تقف على قائمتيها الخلفيتين، فقد كان يدعوها إلى مستقبل عظيم. لكن، لم يترسب في روح روسيا الأنثوية سوى استياء أصَم ضد دعوة بطرس الرجولية، تحول إلى سخطٍ لاحقًا. وبقيت الإنتلجنسيا الروسية قرونًا بكاملها تُعد لتدمير قضية بطرس والقضاء عليها. بقي الانقسام في النفس الروسية عصيًا على التغلب عليه، وتحول إلى كارثة مرعبة، سقوط روسيا كدولة عظمى. لم يكن هناك من فروسية في التاريخ الروسي. لذلك، لم تمر روسيا عبر تصليب عود الشخصية وتدريبها على النظام، التي تعبر عن ثقافة الشرف الشخصي.

كانت علاقة الانفصام المرضية بين الجذور الرجولية والأنثوية، موجودة على الدوام في الحياة الروحية الروسية، وفي الثقافة الروحية الروسية، كما في حياة الدولة الروسية. وغالى الشعب الروسي في خضوعه الروحي لبيزنطية الغريبة، وشوه هذا الخضوع الكثير في روحه. ونهضت تحت هذا النير الخليستية وهاجت وماجت. في الأرثوذكسية الروسية نفسها، ثمة خلط ما غير عضوي بين البيزنطية والخليستية. الأرثوذكسية الروسية هي تعبير أصيل عن الروح الروسية، وتختلف كثيرًا عن الأرثوذكسية اليونانية. أنا لا أتحدث عن الكنيسة المسكونية التي تشتمل على الحقيقة الواحدة، بل أتحدث عن التدين المميز للشعب الروسي؛ حصل الشعب الروسي على تربية دينية مختلفة عن تربية شعوب الغرب ونشأ الشعب الروسي على عبادة القديسين والقدسية. منحته الكنيسة الأرثوذكسية إمكان تحمل قدره التاريخي الصعب. لكن التربية الدينية الأرثوذكسية لم تمنح تشذيب النفس وانضباطيتها وثقافتها التي منحتها في الغرب التنشئة الدينية الكاثوليكية، بل أعطت، وعلى طريقتها، بروتستانتية أيضًا. حصنت الكاثوليكية النفس وأعطتها ملامح ثابتة وواضحة ومعايير نقية للخير والشر. النقاء الكاثوليكي عزز النفس، لكنه، هو أيضًا، سد الآفاق الشاسعة اللامحدودة، وجعلها غير حساسة تجاه التبدلات الصوفية. النفس الروسية بقيت في اللامحدود، مبهمة لا تتحسس حافة الهاوية. العواصف المظلمة تطوق النفس الروسية وتستحوذ عليها من دون أن تلقى مقاومةً. لهذا، تتقبل النفس الروسية الأرواح التي قليلًا ما تتقبلها النفس الغربية. وهذا ما يمكننا أن ندعوه أبوكاليبتية (apocalyptique) الروح الروسية. لكن الأرثوذكسية لم تُهيئ الإنسان الروسي لحياة تاريخية، لخلق ثقافة. أما التربية الدينية الغربية، وحتى بعد الارتداد عن العقيدة، فتترك ترسبًا صلبًا يأخذ شكل معايير ثقافية وخصائل حضارية. نفس الإنسان الروسي تقع، بعد الارتداد عن العقيدة، في قبضة العدمية (nihilisme). الفرنسي قد يكون دوغمائيًا أو متشككًا (sceptique). الألماني صوفي أو كثير الانتقاد (krititsist). الروسي أبوكاليبتي أو عدمي. إرث النفس الروسية، هو الأصعب. يمكن خلق ثقافة دوغمائية أو متشككة، صوفية أو نقدية. لكن، من غير الممكن خلق ثقافة لاأبوكاليبتية ولاعدمية. الأبوكاليبتية والعدمية هما نهاية كل شيء. لا الأبوكاليبتية ولا العدمية تعترفان بوسطية مملكة الثقافة. لهذا، تأتي مشاركة الإنسان الروسي في العملية التاريخية وفي خلق الثقافة على هذه الدرجة من الصعوبة. فهو يريد أن ينتهي كل شيء سريعًا إما للجميع وإما للأحد. الجموح الشعبي الروسي يجد التعبير عنه في المئة السود وفي البلشفية على حد سواء. المتطرفون اليمينيون والمتطرفون اليساريون هم، بالنسبة إلينا، العاصفة الظلامية نفسها، وهم ذلك الخليط نفسه من الأبوكاليبتية المنحرفة غير المدركة مع العدمية.

كانت روسيا مملكة ذكورية مظلمة يقف على رأسها قيصر. وكانت هذه المملكة الشاسعة تتموه بقشرة ثقافية رقيقة للغاية. وكانت فكرة القيصر على أهمية هائلة بالنسبة إلى الانضباط النفسي للشعب الروسي. كان القيصر هو الرابط الروحي للشعب الروسي، وكان يدخل في التربية الدينية للشعب. من دون القيصر لا يمكن تصور وجود شعب ودولة، ووجود قانون وانتظام، ووجود خضوع للعام والشامل. كانت روسيا، بالنسبة إلى قطاع واسع من الشعب الروسي، تتفتت وتتحول إلى كومة نفايات من دون القيصر. حال القيصر دون تفتيت روسيا، ولَجَم الفوضى. والقيصر هو الذي حمى الطبقة المثقفة من ضغط الدهماء التي لا تحتاج إلى الثقافة الرفيعة. يتقلب الاعتقاد الشعبي بين حدين اثنين: إما القيصر وإما الفوضى الشاملة. وكان الديسيبلين الكنسي يرتبط بالقيصر أيضًا. وحين انتُزعت فكرة القيصر من روح الشعب، تفتتت الروح واختفى كل انتظام

وكل رباط، وبدا كل شيء مباحًا. إن كل ما تم بناؤه خلال التارخ الطويل للشعب، وارتبط بأعماق حياته الروحية، لا يمكن تغييره بهذه السرعة. ووقف الجميع موقفًا غير مسؤول تجاه هذا الأمر، ولستم وحدكم، أنتم، الثوريون الروس، اشتراكيين وفوضيين وعدميين، بل كثرٌ منا أيضًا. لقد تعرضت روح الشعب الروسي الأنثوية والخاملة للتحلل، حين سقطت منها فكرة القيصر الرجولية الناظمة، وربّت الأرثوذكسية الشعب الروسي خلال قرون عدة على الخضوع الديني للقيصر. ولم تُنشئ الأرثوذكسية الشعب الروسي على النشاط وضبط النفس. وهنا يكمن أحد أسباب مأساتنا. وينبغي الاعتراف بذلك، بغض النظر عن المثل الأعلى السياسي الذي نؤمن به.

أنتم، الصبية الروس المثقفون الذين أجاد دوستويفسكي في الكتابة عنهم، أنتم، الأنثويون بطبيعتكم، كنتم دائمًا تبحثون في الخارج عن الزواج الروحي. أنتم لم تتمكنوا يومًا من كشف الروح الرجولية في داخلكم، بل كنتم تأخذونها من الغرب، من النظريات الرجولية الغربية. كانت تتحرك في أعماقكم دومًا الفوضى (chaos) الروسية الشرقية. أنتم كنتم تأخذون النظريات الغربية الأخيرة بحماسة شديدة، وتستسلمون لها بنوع من الجنون. لكنكم لم تحصلوا من ذلك، في أي يوم، على تشذيب نفس شجاع. كنتم أكثر من تبحثون عن تخصيب رجولي بروح ألمانية. مارست روح ماركس العنف الأفظع بحق أرواحكم؛ إذ وضعت الروح الرجولية الألمانية منذ زمن بعيد نصب عينيها مهمة تحضير الأرض الروسية الأنثوية، وفرضت نفسها عليها زوجًا. ونشطت الروح الألمانية بطرائق مختلفة ومعقدة: عبر ماركس وكانط وشتاينر (Steiner)، وعبر كثرٍ سواهم من المعلمين الذين أغوونا وأضعفوا الإرادة الروسية. إن السلطة الاستثنائية للألمانية (germanisme) في روسيا وفي حياة الدولة وحياتنا الروحية، تجد تفسيرها في عدم تحقق زواج داخلي في روح الشعب الروسي، في أن الأساسين الرجولي والأنثوي بقيا منفصلين. وعلى هذا الأساس، تطورت الهيستيريا الميتافيزيقية في الطبيعة الروسية، والميل نحو الهوس. ويجب أن نبحث هنا عن مفتاح كثير من تعاساتنا. حين أصبح الروس مثقفين غربيين، وتغلغلت فيهم روح الانتظام، فهم لم يخلقوا الثقافة من ذواتهم، ليس من أصولهم العضوية، ولم يقهروا في دواخلهم جموحهم الروحي والجسدي، بل أخذوا الثقافة من الخارج، ومن الخارج لقحوا أنفسهم بروح مُكونة. هذه الدرب هي عكس تلك التي قاد عبرها فيخته (Fichte) الشعب الألماني إلى الوعي القومي. إن الوعي القومي الناضج عند الشعب هو الاتحاد الغامض فيه بين الأساس الرجولي والأساس الأنثوي، بين الروح الرجولية والجموح الأنثوي الروحي. في كل شعب، يحصل هذا على نحو مميز وأصيل كليًا. ولم يحصل هذا حتى الآن في روسيا. وأنتم، المثقفون الروس من مختلف الاتجاهات، لم تساعدوا في ذلك، بل عرقلتم هذا الوعي القومي الرجولي الناضج. لم تقوموا بواجبكم القومي. إن الوعي القومي الناضج سوف يكون عندنا بتخطي النزعة السلافية (slavophilisme) والنزعة الغربية (occidentalisme) اللتين ارتبطتا بمراهقتنا. بإمكان الروسي أن يشبه الألماني في أمرين متناقضين: في وسعه أن ينظر إلى روسيا كما الألماني ينظر إلى روسيا، وفي وسعه أن ينظر إلى روسيا كما الألماني ينظر إلى ألمانيا. ينبغي أن نشبه الألمان بالمعنى الثاني.

كانت الشعبوية الروسية التي سيطرت، بأشكال مختلفة، على عقول الروس وقلوبهم، هي العقبة التي وقفت دومًا في طريق وعينا القومي الناضج. كانت لدينا شعبوية محافظة وشعبوية ثورية وشعبوية دينية وشعبوية مادية. لكنها كانت دائمًا استسلام طبقتنا المثقفة، المدعوة إلى حمل النور إلى الظلمة، أمام الظلمة اللامحدودة للمملكة الذكورية، وكانت دائمًا تعني التخلف الروسي والنزوع

الروسي نحو الكمية (وليس النوعية)، كما كانت دائمًا تعني قصور الرجولة الروحية. قاد الوعي الشعبوي إلى تأليه الشعب كمُعطى عملي، ككتلة كمية، كانت دائمًا تُخضِع الحياة الروحية للبيئة الاجتماعية المادية، تسحق دائمًا البذرة الفردية الخلاقة، وتُغرق الفرد في الجماعة. والأمر عينه ينبغي قوله في شأن النزعة السلافية التي تمثل نوع تدين شعبوي خاص. لكن النزعة السلافية أعلى بما لا يقاس من الشعبوية الثورية المادية التي سيطرت على الإنتلجنسيا الروسية حوالى قرن من الزمن، وأدت إلى كارثة الثورة الروسية. في النزعة السلافية، كانت هناك أوهام ونظرة أحادية الجانب، لكن كانت فيها حقيقتها الخاصة بها أيضًا. أما الشعبوية اليسارية فكانت خيانة مطبقة للقيم الدينية والقومية والثقافية؛ إذ استُبدل الإله بالشعب، والقيم بالمصالح، والحقائق الروحية بالمنافع الزائلة للطبقات الاجتماعية. هذه العبادة الكافرة للشعبوية التي خانت جميع القيم والمقدسات الخالدة، هي التي دمرت روسيا. كانت، على امتداد قرن من الزمن، تقوض أسس روسيا الروحية، وتدنس الكنيسة الروسية والدولة الروسية والثقافة الروسية، وتعرقل تطور روسيا المادي. هذا أنتم، الشعبويون على اختلاف ألوانكم، مدمرو الروح في سبيل مصلحة الشعب الوهمية، قتلتم روسيا ودمرتموها. روسيا ليست موجودة بالنسبة إليكم، كحقيقة سامية، كغاية إلهية راسخة، بالنسبة إليكم لا يوجد سوى شعب، لا شعب - أمة، ليس كائنًا حيًا، ليس جسدًا متكاملًا عمره آلاف السنين ويجمع الأجيال كلها، بل شعب من الفلاحين والعمال مع مصالحهم المادية الزائلة. باسم مصلحة الشعب كنتم تقتلون روسيا، كنتم تقتلون أمة عظيمة ذات قدر عظيم. باسم الصغير والصغار أنتم نهضتم ضد الكبير والكبار. أنتم قتلة كل عظمة. أنتم لم تستطيعوا تحمل عظمة روسيا. كنتم تُبعثون من جديد ومن جديد تحت مختلف المظاهر. أنتم الشعبيون الروس، من لحم ودم الظلامية الروسية والتخلف الثقافي الروسي، ارتديتم اللبوس الغربي المتنوع، وارتكبتكم أفظع فعلاتكم وأكثرها تدميرًا في لبوس الاشتراكية الديمقراطية الألماني. لكن، حتى بوصفكم اشتراكيين ديمقراطيين، بقيتم شعبويين، حيث كنتم المعبرين عن النزعة التوسعية (extensif) في التفرقة، لا عن الروح (intensif) العميقة في الإبداع. فالفكرة المتأصلة في الإنتلجنسيا الروسية، هي أن المسألة الاجتماعية ينبغي معالجتها بالتفرقة، وليس برفع الإنتاجية، ليس بالعمل الخلاق. أنتم، الاشتراكيون الديمقراطيون الروس الذين نسيتم بعض جوانب نظرية معبودكم ماركس، والذين أدخلتم البوغاتشوفية(9) والفوضوية الروسية في اشتراكيتكم الديمقراطية، قمتم بالتفرقة وبمذبحة شملت كل روسيا وأغرقتموها بالفقر، وحكمتم عليها بحياة بائسة مديدة. هكذا، حققتم أنتم حلم الشعبويين المزمن بالتفرقة والمساواة الشاملة، هكذا أسقطتم أنتم الثقافة الروسية في هاوية مظلمة. وضعتم الدولة الروسية والثقافة الروسية تحت رحمة الجماهير الظلامية التي أيقظتم فيها أنتم أشرس الغرائز. هكذا، غرقت الدولة الروسية والثقافة الروسية في ظلام شعبي لا حدود له، خدمةً لرفعة أعدائنا ومجدهم. هذا ما فعلتموه أنتم الذين رفعتم في البداية شعارات حب الشعب، ومن ثم تحولتم وحوشًا غاضبة. لن تغفر الأجيال المقبلة من الشعب الروسي فظائعكم.

أنتم، الشعبويون الروس على اختلاف أطيافكم، كنتم دائمًا أعداء الثقافة، إنكم أنتم من كان يضع مصلحة الشعب في معارضة الثقافة. بالنسبة إليكم لم يتمتع شيء قط بقيمة ذاتية، كل شيء كان يتحول إلى أداة نافعة. فلا الدين ولا الكنيسة ولا الدولة ولا الوطنية ولا الفلسفة ولا العلم والفن ولا الأخلاق والقانون لا شيء كان يتمتع بالنسبة إليكم بقيمة ذاتية، لا شيء أصيل وحقيقي روحيًا. كل شيء يخضع لمصلحة الشعب، لمصالح الناس، لإرضاء الناس. أسقطتم أنتم كل شيء في هاوية المصالح المظلمة للجماهير وغرائزها. أنتم كنتم دائمًا تعترفون بأن الثقافة برجوازية، لأنها نشأت

على أيدي الطبقات المسيطرة. لكنكم أنتم أنفسكم، الناس العاديون الأسفل والأغبى والأردأ، أنتم برجوازيو الروح. أنتم تريدون تحويل العالم جمعية صناعية، أنتم تودون تحويل المجتمع البشري بأسره مجتمعًا استهلاكيًا. إن مثلكم الأعلى في الحياة هو مثل أعلى حيواني. لكن، مما يحزننا أننا يجب أن نعترف بأن ليس الشعبويون الثوريون الماديون فحسب، بل والشعبويون ذوو النزعة السلافية أيضًا، الذين ينطلقون من أسس دينية، وقفوا موقفًا معاديًا من الثقافة وقيمها أيضًا، وكانوا يبحثون عن الحقيقة ليس في الطبقة المثقفة، ليس في الشخصيات الإبداعية، بل في الشعب البسيط، في الجماعة. إن الجماعة الروسية الأصيلة كانت دائمًا معادية للثقافة، معادية للأصول الفردية، وكانت دائمًا تجرنا إلى الأسفل، تعرقل خروجنا إلى الضوء، إلى رحابة العالم. كانت هذه الجماعة تُشل فينا الشعور بالمسؤولية الشخصية، وكانت تجعل المبادرة الفردية مستحيلة. لم تكن هذه الجماعة جديدة، بل قديمة من مخلفات الطبيعة البدائية. لكن كثرًا منا كانوا يخلطون بينها وبين الشمولية الروحية، بينها وبين الأنموذج السامي للأخوة بين البشر. على هذا الأساس، كنتم تؤلهون المشاعة الروسية وسواها من ظاهرات الحياة الروسية. وترتبط بالجماعية (collectivisme) الروسية أيضًا العلاقة السلبية بالحقوق، وخلط الحقوق بالأخلاق. لكن إنكار الحقوق عند الروس كان يأتي من اليسار ومن اليمين، وهو إنكار للشخصية واستعبادها من الجماعة. الحقوق تحمي الشخصية من اعتداء الحقودين عليها. والحقوق تجعل الحرية الشخصية الإنسانية مستقلة عن فضائل الناس الآخرين ورذائلهم، عن مستواهم الأخلاقي واستبدادهم. الحقوق تجعل الحرية الفردية ممكنة حتى في ظل وجود الشر والإرادة الشريرة للناس. الروس يخلطون الحقوق بالأخلاق ويجعلون مصير الشخصية متعلقًا بوعي الناس الأخلاقي وفضائلهم. لكن ثمة حرية ينبغي أن تُضمن لي حتى في ظل خبث الناس وميلهم إلى العنف. وهذا ما لم يفهمه قط الوعي الشعبوي سواء اليميني أم اليساري. هذا الإنكار للحقوق هو علامة ضعف الوعي الذاتي الشخصي، هو نقص في الكرامة الشخصية، هو الغرق في الجماعة ذات الملامح المبهمة.

***

الثورة الروسية هي حساب عسير على خطايا الماضي وأمراضه، على الكذب المتراكم، على عدم قيام السلطة والطبقات المسيطرة بواجبها، على سلوك الإنتلجنسيا الروسية خلال مئة عام، التي كانت تُلهم المثل العليا السلبية والأشباح الكاذبة المخادعة. الثورة الروسية هي موت كثير، كثير جدًا من الأوهام الروسية، من الأوهام الشعبوية، الاشتراكية، الفوضوية، التولستوية[10]، النزعة السلافوية، الثيوقراطية، الإمبريالية وسواها. تعرضت نظرة الإنتلجنسيا الروسية التقليدية لانهيار فظيع. يُكلف تعليم الإنتلجنسيا الروسية الآن ثمنًا مرتفعًا، وتأتي المعرفة إليها بثمن باهظ أيضًا. كان على روسيا أن تبلغ حافة الموت، كي يتعلموا بدهيات الحقائق. ومن قصر النظر والظلم أن نتهم البلاشفة في كل شيء. أنتم، الاشتراكيون والراديكاليون الروس من مختلف الأطياف الأكثر اعتدالًا. أنتم، التنويريون الروس جميعًا، سليلو بيلينسكي[11] (Belinsky)، سليلو النقاد الروس، سليلو الشعبويين الروس، أنتم جميعًا يجب أن تلقوا باللوم على أنفسكم أيضًا. لم يقم البلاشفة سوى بالاستنتاج الأخير من دربكم الطويلة، وأظهروا بالملموس إلى أين تؤدي جميع أفكاركم. الثورة الاشتراكية التي انتظرتموها طويلًا، وقامت على القاعدة المادية التي أرسيتموها أنتم، كثرٌ منكم خافوا حين بدأت إبادتكم، ورمت بكم إلى هامش الحياة. حتى إنكم بدأتم الحديث عن فائدة الدين الذي كنتم تنكرونه دائمًا، وبدأتم تتوجهون إلى الكنيسة التي كنتم تكرهونها دائمًا وتلاحقونها. لكنكم

تأخرتم كثيرًا في طلب مساعدة الدين، وموقفكم من الدين نفعي جدًا. نعمة الله لا تنزل على أولئك الذين يسعون إليها لأسباب نفعية، وطلبًا لإنقاذ النفس. كان يجب التفكير قبلًا بالله وبالأسس الروحية للحياة. كنتم، حتى الأمس القريب، تفكرون في أن الشعب يمكن أن يوجد من دون الأسس الروحية، من دون الإيمان بالمعنى الإلهي السامي للحياة، من دون المقدسات، وفي أن الأسس المادية والتعليم العقلاني تكفي لحياة الشعب. والآن، ها أنتم قد رأيتم ما يحدث للشعب حين تنهار المقدسات في روحه، حين يبتعد هو من الإيمان بكل ما هو بعيد من مصالحه. لكنكم بقيتم طويلًا ترغبون في أن يسقط كل مقدس في الشعب وكل إيمان، وعملتم كل شيء من أجل هذا. افهموا ذنبكم الفظيع، تعاملوا بعمق أكبر مع المأساة الحاصلة. كفوا عن التفكير في أن كل شيء كان سيكون ممتازًا، لو استُخدم تكتيك أكثر عقلانية واعتدالًا. في مثل هذه اللحظات، لا يجوز البقاء على السطح. من الضروري إدراك أنه وقع انهيار مريع، ليس خارجيًا فحسب، بل انهيار داخلي، وافتضح خطل ذلك التفكير الذي اعتمدتموه طوال قرن من الزمن تقريبًا. كان انهيار إيمانكم الأرضي وسقوط أوثانكم الأرضية مخزيين. حصل سقوط مريع للمادية الروسية والإلحاد الروسي المتوارث، للاشتراكية الروسية والفوضوية، ولجميع ما كنتم تقتاتونه وتتنفسونه وتحيون عليه. كانت ساعة الفوز السهل لأفكاركم المتوارثة هي نفسها ساعة سقوطها المريع، ساعة افتضاح كذبها ولا واقعيتها. أنتم لن تُبعثوا روحيًا من جديد أبدًا، ولن يكون لأفكاركم سحر أبدًا. أجيال جديدة من الروس سوف تأتي، وتنشأ على كراهية أفكاركم والاشمئزاز منها، وسوف تلعن تلك الفظائع التي أدت إليها تلك الأفكار. ومن المحتمل أنها قد تذهب بعيدًا في ذلك. كان الزائف في وعيكم والنشاز في ألحانكم كثيرين جدًا. كان موقفكم من الدولة ومن القومية ومن الحياة الاقتصادية وتطور الصناعة زائفًا. كانت أخلاقكم كمثقفين وأخلاقيتكم المرتبطة بالعدمية، ونزعتكم النفعية (utilitarisme) زائفة. وكان موقفكم من الجمال واضطهاده زائفًا. كانت كراهيتكم للمعرفة ولامبالاتكم بالحقيقة التي كنتم دائمًا تعرضونها للتقويمات النفعية، زائفة. وزيفكم الأول والأشد رعبًا كان الكفر والإلحاد، خيانتكم الأسس الروحية للحياة، ابتعادكم من المنابع الدينية للحياة. إن تعطشكم المحموم للمساواة كان إبادةً للوجود وثرواته وقيمه كلها، كان تعطشًا للسطو على العالم الإلهي وتدمير كل عظمة في العالم. روح العدم هي التي تحرككم، إنها هي التي ألهمتكم أفكاركم وعواطفكم المساواتية (égalitariste). إن قانون الإنتروبيا (entropie) الذي يقود إلى فناء الكون من طريق التوزع المتساوي للحرارة، يعمل عبركم في الحياة الاجتماعية. لكنكم كنتم دائمًا لا تحبون الحرية، وكانت الأخوّة دائمًا غريبة عنكم. في الفكر الثوري، لا يمكن أن يكون أبدًا لا إخاء ولا حرية. في مملكتكم، في حدود وعيكم وأفقكم الفكري، لم يعد ممكنًا وجود أي حراك. كانت مملكة البلشفية هي سقف الحركة على دروبكم، وفي فكركم. هذه هي النهاية، هذا هو السقف، هذه هي هاوية العدم المظلمة. أنتم لم تحبوا الإبداع قط، كان يبدو لكم دائمًا ترفًا غير متاح. الإبداع أرستقراطي. وأنتم افترضتم ذلك منذ زمن بعيد. وحين يبدأ عهد الإبداع، حين تحين الساعة، سوف تُبعدون، كما اللافائدة، كما الجثث الفكرية. قوّضتم منذ زمن بعيد مبدأ التسلسل التراتبي للحياة. وحصل في الثورة الروسية تدمير غير مسبوق في التاريخ للبناء التراتبي، وإسقاط كل تراتب للنوعية. لكن تهديم كل تراتبية هو تهديم للشخصية أيضًا، لأن الشخصية مرتبطة بالتراتبية. في التراتبية فحسب ممكنة الفردية على اختلاف أنواعها. أنتم أوصلتم كل شيء إلى مساواة العدم.

***

سوف تكون العواقب الروحية للثورة الروسية كبيرة. ولن تكون هذه العواقب سلبية فحسب، بل إيجابية أيضًا. نحن ننتقل إلى بعد آخر في الوجود. جميع التقويمات التقليدية معرضة للتساؤل. وسوف تتعين إعادة تقويم القيم الاجتماعية كلها. عبّر بسمارك يومًا عن رغبته في وجود بلد تُجرب فيه الاشتراكية، على أمل بألا تبرز بعد ذلك رغبة في إعادة التجربة ثانية. وتم العثور على هذا البلد، وقام بهذه التجربة بمقاييس هائلة. لكن تجربة تحقيق الاشتراكية في روسيا تذكر، حقيقة، بالنهب واللصوصية. وليس في وسع الثورة الاجتماعية إلا أن تذكر بالنهب واللصوصية. وأثبتت الثورة الروسية ذلك بصورة نهائية. وكان هذا الأمر واضحًا جليًا منذ العهد القديم. كانت الإنتلجنسيا الليبرالية والراديكالية الروسية تميل دومًا إلى التفكير في أن الاشتراكية هي شيء سامٍ، على الرغم من أنها قد لا تكون قابلة للتحقق راهنًا. أنتم، الراديكاليون الروس، كنتم في قرارة نفوسكم تفكرون دومًا في أن لا شيء أرفع من الاشتراكية الثورية، وفي أن الثوري الاشتراكي يمثل الأنموذج الإنساني الأرفع، وفي أنكم أنتم أنفسكم، وبسبب ضعفكم وانشغالكم بالحياة اليومية، لا تستطيعون أن تكونوا على هذا المستوى وتلجأون إلى المساومة. الراديكالية الروسية لم تمتلك يومًا أفكارها الخاصة، وهي كانت تعيش دائمًا على الأفكار الغريبة المخففة بالماء. أنتم، الراديكاليون الروس، متعددو الوجوه والأنواع، أنتم، الجنس البشري الأقل نفعًا، ليس لديكم أي شيء خاص بكم. حانت نهايتكم. في الآونة الراهنة، ينبغي أن تمتلك فكرتك الخاصة بك. ومن الآن فصاعدًا، لم يعد من الممكن الانبهار بالاشتراكية من الخارج، كأمر بعيد رائع. من الآن فصاعدًا، أصبحت الاشتراكية أمرًا إشكاليًا، أصبحت مشكلة معقدة للوعي، وكل شيء في الاشتراكية يجب إعادة تقويمه. وليس الآن وقت الليبرالية الضعيفة التي تفتقد الأسس الفكرية العميقة. مضى زمنكم، أنتم جميعًا، الاشتراكيون والراديكاليون والليبراليون والمحافظون من الطراز القديم، الحائرون والجالسون بين مقعدين. يحل الآن زمن مسؤولية رهيب. والأفكار الأكثر إشعاعًا وعمقًا في وسعها التغلب على الظلمة التي تلفّنا. أفكار جديدة ينبغي أن تأتي، روح جديدة يجب أن تهبط على وطننا التاعس المعذب الذي يحتضر. الأمل ضعيف، وضعيف جدًا، في أنكم أنتم، عالم الروحية القديمة والفكر الخمول، سوف تتبدلون بصورة جذرية، سوف تعترفون بذنبكم، سوف تخرجون من الدائرة المفرغة، سوف تفتحون عيونكم لاستقبال ضوء جديد، وآذانكم لأصوات عالم جديد لا يشبه عالمكم المتعفن السري، عالم المصالح الضيقة الرديء. كثر بينكم ميؤوس منهم، أنتم مصيركم محتوم، وسوف تموتون عميًا وصمًا. بشر جدد يجب أن يأتوا في روسيا من أجل خلق حياة جديدة. كل قماشة وجودكم غير صالحة لإبداع الحياة. أنتم نهاية القديم، ولستم بداية الجديد. كما لا يمكن أن يسمى المرممون على اختلافهم والمعادون الخارجيون للثورة، بشرًا جددًا.

تقدم الثورة مادة حيوية هائلة للفكر الاجتماعي الفلسفي، وتُعبر عن الهزات والنبضات الداخلية. أنتم كنتم دائمًا كسالى، جامدين في تفكيركم. كنتم تحبون تكرار الأفكار التي حفظتموها، وتشرحونها بعاميتكم المقرفة في مناشيركم العديمة القيمة. أنتم كنتم تحملون في جيوبكم كتب تعاليم صغيرة وتقرأون منها في شتى الظروف أفكاركم المنسوخة. من الآن فصاعدًا، من غير الممكن فعل هذا. من الآن فصاعدًا، يجب حرق جميع كتب التعاليم التي تخصكم، وجميع مناشيركم، ولعن فكركم الرمادي الرتيب. لماذا لم يكن فكركم فرديًا أبدًا في يوم من الأيام؟ لماذا لم يكن لكتابكم وجوههم الخاصة بهم؟ هذا ليس بفعل المصادفة. في هذا إدانتكم. آن أوان انهيار طوباوياتكم كلها عن الجنة على الأرض، الطوباويات الرمادية الرتيبة الفارغة، طوباويات المساواة القصوى

والسعادة القصوى في العدم. آن أوان التشاؤم الاجتماعي الصحي، الأكثر نبلًا، والأكثر تعقيدًا ورهافة من تفاؤل المتعصبين الاجتماعيين الأغبياء. ينبغي حاليًا اتخاذ موقف أشد صرامة تجاه الحياة الاجتماعية، موقف أكثر مسؤولية. التخيل الاجتماعي هو فجور. وغدت ثمار هذا التخيل الفاجر معروفة. وكانت متطابقة على الدوام. إن التطلع إلى الكمال الاجتماعي المجرد، هو طموح كافر غير شريف. إن تجارب تحقيق الجنة على الأرض كانت دائمًا تودي إلى الجحيم على الأرض، إلى الشراسة، إلى الكراهية، إلى التدمير المتبادل، إلى الدم، إلى العنف، إلى العربدة. هكذا، كان في زمن الإصلاح (الديني)، حين أقام القائلون بتجديد العمادة (anabaptistes) القدس الجديدة. ليس للإنسان الحق في أن يكون ساذجًا وحالمًا في الحياة الاجتماعية، ولا يجرؤ على ترك العنان لعواطفه. عليه أن يكون إنسانًا مسؤولًا، عليه أن يرى الشر والخطيئة، عليه أن يتعلم التمييز بين الأرواح. كلفت تخيلاتكم وعاطفيتكم وسذاجتكم، وعدم رؤيتكم الشر غاليًا جدًا. كونوا أشداء، كونوا مسؤولين، اعرفوا الشر في المحن القاسية. كونوا رجالًا. على الشعب الروسي أن ينفذ القانون، قانون الثقافة، قانون الدولة، قانون الوجود النسبي على الأرض. هذا هو قدر البشرية الخاطئة. إن الطريق إلى الحياة السامية الخلاقة تمر عبر القانون والتكفير عن الخطايا. الشعب الروسي شعب عظيم، لكنه شعب آثم، مليء بالضعف والغوايات. وانتظار المعجزة الاجتماعية هو واحد من مواطن ضعف الشعب الروسي، واحدة من غواياته الأكبر. هذه الغواية رفضها المسيح في الصحراء. سوف يكون على الشعب الروسي أن يمر عبر ديسيبلين العمل القاسي. الثورة تعلمنا أن ثمة عدم تطابق مأساويًا وتباعدًا بين القمم الروحية للحياة الروسية ومنخفض ظلمتها. فوق القمم، ثمة أزمة ثقافية مزمنة، في حين أنه لا يوجد أي ثقافة بعد في الأسفل. أنتم، الثوريون، عالم المنطقة المتوسطة. أنتم لم تعرفوا الأزمة الثقافية، لأنكم لم تعرفوا الثقافة. أنتم أنصاف متعلمين. وليس لكم أنتم أن تقولوا إن الشعب الروسي أرفع من الثقافة. أنتم أنفسكم أدنى منها. يجب على الشعب الروسي أن يصعد أدراجًا ترفعه من الظلمات إلى النور. معقدة هي مسألة الخلاص الروسي، ولفهمها يمكن المرء أن ينحرف إلى طريق كذب رهيب. والكذب الأكبر هو الخلاص الثوري. وبينت البلشفية ما هو الخلاص الثوري، وتلك هي الخدمة التي أدتها. كما أن لها خدمة أخرى أيضًا في فضح كذب النزعة الإنسانية (l'humanisme) التي يغرق فيها كليًا الاشتراكيون الثوريون. تتحول النزعة الإنسانية في البلشفية إلى نقيضها، إلى تدمير الإنسان. دائمًا هناك تناقض بين البلاشفة والمناشفة، بين القمم الروحية والمنخفضات المادية للحياة. وتبقى حقيقة أرستقراطية الروح خالدة. إنها حقيقة البشرية العريقة التي لا يمكن أي ثورة أن تسقطها. على الروح الإنسانية أن تقاوم ببسالة ضغط التجريبية. فهي لا يمكنها أن تتلقى من التجريبية، بما هي عليه من فوضى عشوائية وظلامية، قيمها العليا، بل هي تجدها في أعماقها. والثورة تعلم هذا مرة أخرى. الثورة هي مملكة التجريبية التي تُسقط حرية الروح البشرية. لكن، بعد الثورة تتم إعادة تربية الجماهير الجاهلة. في هذا معنى إيجابي للثورة. في رسائلي عن الفلسفة الاجتماعية أريد أن أضع حرية الروح البشرية في مواجهة التجريبية الفوضوية والظلمة. إن فلسفتي الاجتماعية تمتلك مصدرًا دينيًا يقع في الطبقة العميقة من الحياة. إن الحقيقة الأبدية للمسيحية تتكشف مرة أخرى في تجارب الثورة، لكن الكشف عنها في الفلسفة الاجتماعية هي مهمة إبداعية أبدية. ولا أود أن أكتب عن فلسفة اجتماعية مجردة، بل عن فلسفة اجتماعية ملموسة.

(1) مجموعة مقالات معروفة جدًا لفلاسفة روس عن الإنتلجنسيا الروسية ودورها في تاريخ روسيا. صدرت المجموعة في عام 1909. وأعيد طبعها في عام 1990، وطبع منها 50000 نسخة. (المترجم)

(2) فيلسوف وأديب وسياسي وديبلوماسي كاثوليكي فرنسي (1753 - 1821). مؤسس التوجه المحافظ في السياسة. (المترجم)

(3) كاتب وصحافي ومؤرخ وفيلسوف اسكتلندي (1795 - 1881). كان يؤمن بدور «الأبطال» الذين ينفذون إرادة إلهية ويدفعون البشرية إلى أمام. (المترجم)

(4) هو باخوس أيضًا، أصغر آلهة الأولمب، إله الخمر والنشوة. (المترجم)

(5) إله الضوء ونور الشمس، شفيع الفنون. (المترجم)

(6) مفكر ديني صوفي روسي، ناقد أدبي وشاعر وكاتب (1853 - 1900). يُعتبر أحد أبرز آباء «النهضة الفكرية» الروسية في مطلع القرن العشرين. وهو الأب الروحي لشعراء ومفكرين روس كثرٍ، بمن فيهم مؤلف هذا الكتاب بردياييف. (المترجم)

(7) كاتب فرنسي وخطيب وناشط سياسي (1810 - 1870). كان زعيم الحزب الكاثوليكي المتشدد في فرنسا. (المترجم)

(8) من أقدم الطوائف الدينية الروسية التي ظهرت خارج الكنيسة الروسية في القرن السابع عشر وسط الفلاحين الروس. التسمية المحلية هي «شعب الله». وأتباعها يمارسون طقوس جلد الذات. هذه الطائفة لا تزال موجودة في عدد من المناطق الروسية والقفقاز. (المترجم)

(9) نسبة إلى إميليان بوغاتشوف (Yemelyan Pougatchev) قائد قوزاق الأورال الروس في انتفاضتهم بين عامي 1773 - 1775، التي تحولت إلى انتفاضة فلاحية عمت جميع المناطق الروسية. (المترجم)

(10) نسبة إلى الكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي (Lev Tolstoï). (المترجم)

(11) أشهر نقاد الأدب الروسي في القرن التاسع عشر وأشدهم تأثيرًا، وهو في الوقت عينه كاتب وفيلسوف ومفكر (1811 - 1848). (المترجم)

الرسالة الثانية

في الأسس الدينية - الأنطولوجية للمجتمع

عمد الوعي السائد في القرن التاسع عشر الذي كان يُوهم نفسه بأنه «طليعي» و«تقدمي»، إلى استبدال اللاهوت بالسوسيولوجيا. وغدت السوسيولوجيا «إنجيل» تقدميي العصر. وبدأوا يبحثون عن الله في المجتمع وفي ما هو اجتماعي. إن موقفكم ووعيكم السوسيولوجي للعالم حجبا عنكم أسرار دنيا الله هذه، وجعلاكم في قطيعة مع الحياة الكونية. أنتم، «تقدميو» العصر، سقطتم من النظام الإلهي للعالم، وتسمرتم عند السطح المحدود من الأرض. أصبح كل شيء عندكم اجتماعيًا مشتقًا من المقولات الاجتماعية، وخضع كل شيء للسوسيولوجيا (socialité). لهذا، أصبح كل شيء لديكم سطحيًا، وفقد كل شيء الأسس العميقة، بما فيها السوسيولوجيا نفسها. إن سوسيولوجيتكم واجتماعيتكم هي تجريد التجريد. إن نظرة كونت (August Comte) وماركس السوسيولوجية إلى العالم هي نظرة تجريدية. صرفتكم سوسيولوجيتكم، ليس فحسب عن الحياة الكونية، بل عن الحياة التاريخية أيضًا. إن السوسيولوجيا المجردة هي نقيض الكونية الملموسة والتاريخية الملموسة على السواء. والحق، إن النظرة السوسيولوجية المجردة إلى العالم نشأت من عزلة الإنسان العميقة، من تحوله إلى ذرة. وتود الذرات المعزولة أن تتوحد ميكانيكيًا، كي لا تشعر بعجزها وعزلتها. جميعكم أنتم، الاجتماعيون المتطرفون الذين تبشرون بديانة السوسيولوجيا، ذرات مفككة. إن نظرة أحد أوائل رسلكم وأنبيائكم، كارل ماركس، إلى العالم هي نظرة ذرية ترفض الوقائع العضوية كلها، نظرة تفكك كل شيء إلى مصالح. إن اشتراكيتكم هي الاسمانية (nominalisme) الأكثر تطرفًا، هي الإنكار الأكثر تطرفًا للجماعات الوجودية (ontologique) الكنسية والقومية والثقافية وغيرها، إنكار الحقائق الكونية والإلهية. قولوا، وبصدق، متناسين لبرهة النضال الاجتماعي والاتهامات الاجتماعية، قولوا لأنفسكم، أمام أعماق دواخلكم، أمام الحقيقة العليا، ما هو الحقيقي بالنسبة إليكم؟ تحول كل شيء لديكم منذ زمن بعيد شبحًا وسرابًا، لعبة عابرة ومخادعة في الأهواء والمصالح الإنسانية. إن الغطاء الاجتماعي المخادع للوجود حل لديكم محل الوجود ذاته. أنتم، ومنذ زمن بعيد، ليست لديكم أسس أنطولوجية وجودية للحياة. ولم تقدكم سوسيولوجيتكم إلى الخير، بل دمرت أرواحكم. كان الناس الذين عاشوا في حقب أكثر عضوية وواقعية، يعرفون أشكالًا أكثر عمقًا من التواصل والاجتماع. أنتم عاملون اجتماعيون بسبب الضرورة الملحة والفراغ الروحي. صاخبة وعالية الضجيج اجتماعيتكم، لكن ليس فيها واقعية عميقة، وليست على علاقة بأسرار الحياة، وأسرار الإنسان والعالم والله. حان الوقت منذ زمن، ومنذ زمن بعيد، للتخفيف من حركتكم على السطح ومباشرة الحركة في العمق، حان الوقت منذ زمن بعيد للتوقف والتفكير في عمق الروح، حيث يجب أن تتكشف حقًا كل لانهائية العالم ولانهائية الله. أنتم بحاجة إلى تخطي تقوقع إدراككم الاجتماعي، وضرورة الشعور بالمجتمع جزءًا لا يتجزأ من النظام الإلهي للعالم ومرحلة من مراحله. آلاف الخيوط تجمع المجتمع البشري التائه على نقطة صغيرة من كيان العالم اللامحدود، مع حياة الفضاء الهائل، مع حياة العالم الإلهي. تتم عملية تناضح (endosmos et exosmose) أبدي غامض بين الحياة الاجتماعية والحياة الكونية. كنتم تودون ترتيب أموركم اجتماعيًا على الأرض، متغافلين عن الكون، مُعرِضين عن النظام الإلهي للعالم. كنتم تبنون طوباوية وراء الأخرى للترتيب النهائي للمجتمع، للرفاه الاجتماعي، من دون أن ترغبوا في معرفة تدفقات الطاقات الكونية التي تطيح كل ما تشيدون، طوباوياتكم كلها وجناتكم الاجتماعية كلها على الأرض. أنتم كنتم تودون الاختباء في اجتماعيتكم الأرضية والعقلانية من العالم ومن الله، من القوى الغامضة المظلمة والمضيئة، من اللانهائية الرهيبة ومن الأبدية الجاذبة. كنتم تودون الاختباء في الاجتماعية من الخوف من الموت والفناء وصنعتم أشباحًا للحياة القصيرة الأجل. أنتم تخادعون أنفسكم بأنكم

موجودون في الحياة الحقيقية. لكنكم أنتم تتحركون في مملكة الموت. كل هنيهة من الآتي تلتهم الهنيهة السابقة لديكم، وسوف تلتهمها الهنيهة التالية. ولا تتأكد الحياة الحقيقية في أي نقطة من حركتكم الخارجية الصاخبة. لأن كل حياة حقيقية هي تواصل مع الخلود، هي انتصار على الموت والفناء. أدرك المصريون القدماء الذين شيدوا أهراماتهم باسم الخلود، سر الحياة أفضل مما أدركتم أنتم، «تقدميو» عصرنا. إن مشيدي الأهرامات القدماء هؤلاء هم أفضل من كذب «المادية الاقتصادية» وتجريداتكم السوسيولوجية كلها المستعبِدة والخانقة التي اخترعتموها أنتم. إن تشييد الأهرامات الجنونية هذه، كان، في الحقيقة، أقل طوباوية بالنسبة إلى الحياة الأبدية، من بناء مجتمعاتكم كلها المثالية للحياة الموقتة والفانية. إن تخيلكم الاجتماعي وطوباويتكم الاجتماعية هما ثمرة انفصال وعيكم السوسيولوجي عن الوعي الكوني. إن طوباويتكم الاجتماعية هي العقلانية القصوى، وتنتهي بالاختلال العقلي، وهو شكل الاختلال الأسوأ والأقبح. مجنون هو حلمكم بإقامة مجتمع مثالي كامل في عالم معذب غير كامل. مجنونة هي وشريرة رغبتكم في إقامة مجتمع كامل سعيد في عالم غارق بالشر، في عالم لم تتحول الفوضى فيه بعد حالًا كونية. لا يمكن أن يكون كاملًا وسعيدًا حقًا سوى الكون كله، في ظل الحال الكونية للمسكونة بأسرها فحسب، يغدو ممكنًا المجتمع الكامل. وهذا يعني أن السعادة والكمال ممكنان في ملكوت الله فحسب. يحمل المجتمع البشري جميع خطايا الكون الواحد واختلاله، كما يحمل وشم عبودية العالم وضرورته. يجب تحرير العالم كله والمخلوقات كلها والتكفير عنها، من أجل أن يتحرر المجتمع البشري ويتم التكفير عنه. أنتم مجانين في عقلانيتكم، في محدوديتكم الرشيدة، أنتم تحبسون أنفسكم في تعسفكم الذاتي، في سيكولوجيتكم (psychologisme) الاجتماعية، المناقضة كليًا للأنطولوجية (ontologisme) الاجتماعية، وتشيدون طوباوياتكم التافهة وجنانكم الغامضة، إلى أن تطيحكم الخطوة الواثقة للضرورة الكونية وتُجبركم على التفكير أكثر عمقًا بأسرار الحياة. وإذا لم تلتفتوا بإرادتكم إلى اتساع الحياة الكونية، فسوف تُجبركم الضرورة على الالتفات إليها قسرًا. لأن الضرورة هي، حقًا، نعمة عظيمة للذين ليسوا أحرار الروح.

***

إن إدراككم السوسيولوجي للعالم كان دائمًا في حالة طلاق مع الواقع التاريخي الفعلي. لهذا، كان دائمًا عقلانيًا (rationaliste) وطوباويًا. عزلتم أنتم مجتمعكم ليس عن الفضاء الكوني فحسب، بل عن الفضاء التاريخي أيضًا. أنتم، وعلى نحو مجرد، أخضعتم الإنسان في نظرياتكم للبيئة الطبيعية والاجتماعية، أنكرتم حريته الروحية، وحولتموه إلى ردة فعل سلبية على الدورة الطبيعية والاجتماعية. لكنكم أنتم اعترفتم أن في وسع الإنسان، وعلى نحو تعسفي، أن يقطع مع الماضي، أن يبدأ التاريخ وفقًا لمخططاته العقلية. أنتم كنتم تحبون الحديث عن «القفزة من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية» التي يقوم بها عبد البيئة الاجتماعية، ردة الفعل على الضرورة الطبيعية هذه. ولأنكم لم تعترفوا بالإنسان حر الروح، قمتم بانتزاعه من الواقع التاريخي المحدد الذي تقف وراءه الروح الحية للشعوب. كل شيء صار لديكم مجردًا، ضرورتكم عقلانية ومجردة، حريتكم عقلانية ومجردة، اختفى الإنسان الحي والتاريخ الحي في المجردات. إن الواقع التاريخي حي، حقًا، هو حقيقة محددة، حقيقة متميزة، مختلفة عن جميع مراحل الوجود الأخرى، يحيا وفق قانونه، وهو يعرف خيره وشره، ولا يقارن بالمعايير العقلانية للخير والشر. أنتم أنكرتم هذا الواقع التاريخي، ولم تروا فيه الحياة العضوية الداخلية واستعضتم عنه بالمجردات السوسيولوجية. إن تطبيق التصنيفات السوسيولوجية المجردة على الواقع التاريخي المحدد، كان يقتله وينتزع منه الروح،

ويجعل التفكير البدهي الحي بالفضاء التاريخي مستحيلًا. أفسدتم بتجريداتكم السوسيولوجية الواقع التاريخي بوصفه مرتبةً في التسلسل الهرمي للكون الكلي، وحولتموه إلى أبسط العناصر التي تكتشفها العلوم الأخرى السابقة على سوسيولوجيتكم. أنتم تبسيطيون تخلطون الأمور بعضها ببعض. لذا، يفر الواقع منكم، يحول بينكم وبين بلوغه، لذلك لا يبقى في أيديكم سوى نُتف مجردة من الواقع، سوى شظايا الوجود. أنتم تقومون، منذ زمن بعيد، بتدمير الوجود بوصفه كلانية (intégrité) ملموسة، كتسلسل تراتبي منسجم. أنتم تقومون بهذا التدمير العقلاني المحموم في علومكم أيضًا، وفي سياستكم. أنتم تحبون تلاوة المواعظ أمام الواقع التاريخي والماضي التاريخي. أنتم ترغبون في أن تحملوا تقويماتكم الأخلاقية الفردية المحدودة إلى الحياة التاريخية ما فوق الفردية. وأنتم تقفون موقفًا حاقدًا من تاريخ شعبكم والبشرية جمعاء، أنتم لا ترون في الماضي سوى الشر والعنف. ليس بمقدوركم أنتم أن تدركوا أن لأعمال العنف نفسها التي حصلت في التاريخ حقيقتها الخاصة، هي انكسار العناية الإلهية في الظلمة. كان تولستوي منكم، حين أنكر التاريخ كله، كشرٍ مطلق، حين قام بتدمير غير مسبوق للتاريخ باسم نزعته الأخلاقية الفردية، لكنه كان أكثر تماسكًا وراديكاليةً منكم. كان يطبق نزعته الأخلاقية (le moralisme) الفردية المتماسكة على المجتمع ككل. أما أنتم فترفضون التاريخ وتشتمونه باسم النزعة الأخلاقية الفردية، وباسم المجتمع الذي تبنون بأشكال عنف غير مسبوقة، وبعبودية للإنسان لا مثيل لها. عليكم أن تعترفوا بالطبيعة الأصيلة للواقع التاريخي، وتروا فيه قانونه للخير الذي لا يُقارن، عقلانيًا، بقانون الخير للواقع الفردي. لا يمكنك أن ترى في الواقع التاريخي، فحسب، تحقق أقدار الإنسان الفرد، الذرة والجمهور التي توحد (الأقدار)، ميكانيكيًا، هذه الذرات الفردية وهذه التجمعات البشرية الطوعية، بل يجب أن ترى فيه تحقق أقدار الأمة والبشرية والعالم، كحقيقة، كمجتمعات محددة. المجتمعات هي أجسام عضوية حقيقية. بالنسبة إليكم توجد ذرات وجماهير لا غير. كان بودكم لو تمررون التاريخ كله عبر حق الاقتراع العام، وأنتم تدركون مسبقًا أن الجماهير المُقترِعَة لا تعترف بتاريخها. لم يكن التاريخُ ليحصل بغالبية الأصوات، بل لم يكن ليبدأ. كان العالم سيبقى في الظلمة الأولى والعذرية، مساويًا العدم. ولم تكن الذرات والجماهير لتُقدِم على التضحيات التي يُشترى بها التاريخ. لا يمكن تطبيق الاقتراع العام وغالبية الأصوات على التاريخ، لا تمكن قراءة المواعظ على التاريخ ومطالبته بتحقيق المساواة بين الذرات.

***

أنتم، العقلانيون الطوباويون الذين يتملكهم جنون العقلانية، لم تتعلموا دروس التاريخ، ولم تفقهوا مغزى التجارب التي أُنزلت عليكم. سنحت لكم الفرصة لمعرفة الكثير وفهمه بعد تجربة الثورة الفرنسية. ردة الفعل الدينية ضد الثورة صقلت كثيرًا معارف الروحيين الإبداعيين والطليعيين. اعتبرتم هؤلاء الناس «رجعيين». إلا أنهم، وفي الكثير من الجوانب، أغنوا عِلمَ القرن التاسع عشر ذاك الذي تضطرون أنتم إلى اعتباره علمكم أيضًا. ردة الفعل الدينية ضد الثورة كانت أيضًا ردة فعل ضد عقلانية القرن الثامن عشر كلها. في الرد الخلاق هذا تم اكتساب الإحساس بالتاريخ وتكشفت الأسس اللاعقلانية للمجتمع. بعد تجربة الثورة التي يتملكها جنون العقلانية، أصبح من الواضح أن المجتمع لم يكن قط، ولا يمكن أن يكون، مستندًا إلى أسس محض عقلانية مفهومة كليًا للعقل البشري الصغير، أسس يقومها تعسف هذا العقل. إن أسس المجتمع البشري مدرجة في النظام الإلهي للعالم. ثمة أساس غامض للمجتمع البشري، غامض كما أساس الطبيعة العضوية كلها، الذي لا يمكن فصل عالم الاجتماع البشري عنه. تكشف للوعي الأكثر عمقًا وثوريةً الإنجاز

الغامض للتاريخ والترابط بين الأزمنة، وحَد من التعسف البشري، تعسف العقل البشري في بناء المجتمع. كان جوزيف دو ماستر ينطلق من أساس ديني وهو يناضل دينيًا ضد روح الثورة، ضد روح التنوير العقلاني للقرن الثامن عشر. لكن، في خضم هذا النضال تَكَشفَ في وعيه قانون الحياة الاجتماعية، الأساس الموضوعي للمجتمع. وتم التثبت من الطبيعة العضوية للمجتمع والدولة، لا الطبيعة الوهمية المصطنعة. إن فكر جوزيف دو ماستر «الرجعي» ومن يقربه روحيًا، أفضى، في آثاره اللاحقة، إلى الطبيعية السوسيولوجية (naturalisme sociologique). ويمكن أن تكون، حتى الداروينية في السوسيولوجيا، مرتبطة بهذه الردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر. حتى أوغست كونت اعترف مباشرة بعلاقته بجوزيف دو ماستر. ويُشير ألفريد إسبيناس[12] (Alfred Espinas)، محقًا، بأن الفضل في اكتشاف حقيقة أن المجتمع هو وليد الطبيعة، وليس الاستبداد البشري، يعود إلى جوزيف دو ماستر والمدرسة اللاهوتية في مطلع القرن التاسع عشر، بالذات، وهو على استعداد للاعتراف بممثلي هذه المدرسة مؤسسي السوسيولوجيا الاجتماعية. فقد تم الكشف حينذاك، وإن كان بشكل جزئي ومحدود، عن علاقة المجتمع البشري بمجمل الطبيعة. إن هذا الأساس الموضوعي للمجتمع وهذا القانون الطبيعي فيه هما، بالنسبة إلى الوعي الديني، تعبير عن الطبيعة الآثمة لعالم البشر. هذا العالم، القائم بالجوار، ينبغي أن يخضع لقانون، وإلا سوف تجرف فوضى الشر كل نظام للعالم، وتدمر كل انسجام في الكون. إن للكشف عن هذا القانون لنظام الطبيعة والمجتمع حقيقته الأخلاقية الكاشفة للخطيئة البِكر. لا يجوز اغتصاب الطبيعة. ينبغي التكفير عن خطاياها. هكذا، فالقانون الموضوعي للحياة الاجتماعية يتكشف من جانبين: الجانب الديني والجانب الطبيعي.

أنتم لم تعترفوا بالعلم فحسب، بل عمدتم إلى تأليهه وتحويله إلى طوباوية عقلانية. لكنكم لم تكونوا وديعين قط أمام المعرفة الموضوعية، ولم تضعوا حدودًا لشبق آمالكم الملحاح وهوسها بالمعرفة. كنتم وضعيين (positivistes) وماديين متطرفين، لكن شغف المعرفة غريب عليكم. لم تكونوا على تعطشٍ للمعرفة قط. ومعرفتكم كانت ذاتية وليست موضوعية. وكانت أداة للتدمير. لم يكن العلم يلهمكم ولا المعرفة، بل «التنوير» السلبي، وهو ليس إلا عدمية وشبه تنوير. استنتجتم من القانون الموضوعي للطبيعة والمجتمع أن كل شيء مباح، وأنكم تستطيعون إعادة بناء الحياة باستبدادكم. حان الوقت منذ زمن طويل لوضعكم في حالة خضوع للعلم الجدي والمعرفة التي لا تعرف المصلحة. كان علمكم دومًا مُرتَزِقًا، لذا لم يكن علمًا حقيقيًا. ابتدعتم فكرة وجود علم «برجوازي» وعلم «بروليتاري»، وقتلتم بذلك أي إمكان للمعرفة لديكم، ودمرتم فكرة العلم ذاتها. إن هوس الماركسية الذاتي الطبقي أغرق جذوة العلم الموضوعي فيها، ووُضعت تحت رحمة المصالح والأهواء الإنسانية. إن انحناءكم أمام العلم، ومعرفة أسس المجتمع الموضوعية كانا سيُخفضان من حقدكم وغضبكم، وسيفضيان إلى تطهير أرواحكم المريضة. وكنتم ستكفون عن أن تَرَوا في كل مكان النيات السيئة للحكومات والطبقات المسيطرة، وتغوصوا عميقًا في أسباب شرور الحياة البشرية ومصائبها. لكن، من أجل ذلك عليكم أن تنحنوا ليس أمام العلم فحسب، بل أمام الدين أيضًا، عليكم أن تحتكموا إلى مصدر النور الأعلى. لا يمكن الدولة والمجتمع أن يستندا إلا إلى أسس دينية وروحية. الدولة والمجتمع يتشظيان ويتفككان حين تُقوض مصادر التواصل البشري والحكم هذه. ولن ترتقوا أنتم إلى فهم هذه الحقيقة البدهية، إلا حين تنفجر الكارثة وحين تصبحون، أنتم أنفسكم، مهددين بالقتل.

***

أنتم ومن على شاكلتكم بوعيهم وإحساسهم بالحياة، نادرًا، ونادرًا جدًا ما تفكرون في المصادر الأولى للحياة، في تلك المصادر الأولى للحياة الكونية التي تحدد الحياة الاجتماعية أيضًا. أنتم لا تبحثون عن معنى الحياة. أنتم تبحثون عن خيرات الحياة فحسب. إن توجهكم الروحي هذا يحول بينكم وبين معرفة أسرار الحياة الكونية والحياة الاجتماعية. لا يقع في مجال نظركم سوى جزء محدود من الطبيعة والمجتمع، يخضع للعقلنة في فكركم البائس. أقول، في فكركم، لأن في أعمالكم تعصف دائمًا أهواء لاعقلانية، ويندفع ظلام أبدي من مصدر لا قعر له وغير مفهوم من جانبكم. حقًا، ثمة مصدر لانهائي ولا قعر له في حياتنا وحياة الكون. ونوركم العقلاني عاجز عن إضاءة اللانهاية المظلمة التي تلفنا. تحضننا لانهائيتان: العليا والسفلى، المضيئة والمظلمة، الجيدة والسيئة. وليس في وسع عقولكم الصغيرة بلوغ أي من هذه اللانهائيات. لم يُعطَ وعيكم المحدود اللانهاية الإلهية ولا اللانهاية المظلمة الفوضوية. لا يتمسك وعيكم إلا بالمجال المتوسط المحدود الذي يخضع للعقلنة. على هذه المسارات، ليس من سبيل لأي معرفة معمقة وأي وعي معمق للمجتمع. إن عالم الاجتماع البشري هو عالم كامل صغير، تنعكس فيه تلك الأسس وتنشط تلك الطاقات التي يتوافر عليها العالم الكبير. في العالم الاجتماعي يتصارع الفضاء والفوضى، كما في العالم العظيم وفي الكون كله. إن معرفة المجتمع ينبغي أن تساعد الأساس الكوني في الانتصار على الأساس الفوضوي. في المعرفة الحقيقية، ثمة ضوء وجودي أنطولوجي ينتصر على الظلمة الفوضوية، ثمة أساس كوني. غير أنه ليس في وسع عقلانيتكم المحدودة أن تتخطى الظلمة الفوضوية فحسب، بل ليس في وسعها أن ترى هذه الظلمة وتتعرف إليها. لذا، أنتم تحت سلطتها.

كُشفت لقدماء الصوفيين الألمان الحقيقة عن المصدر المظلم للوجود، عن الهوة التي في أساسه. ويقول الأعظم بينهم جاكوب بوهمه[13] (Jakob Böhme) بالـ (Ungrund'e) (هكذا وردت اللفظة بالألمانية في النص الروسي - المترجم)، أي الأساس، الهوة التي هي أعمق من الله. مايستر إيكهارت[14] (Meister Eckhart) كان يقول بالربوبية والألوهية التي هي أعمق من الله. النور الإلهي يُشِع في الظلمة التي من غير قعر. هذه الهوة المظلمة لا يمكن أن تُسمى حتى وجودًا، هي موجودة تحت كل وجود، ولا تنطبق عليها أي تصنيفات أو تعريفات. إن النور الذي يُشع في الأزل، هو في الأصل، العملية الثيوغونية (Théogonie)[15] لميلاد الله. لكن، ليس من الصحيح أن تُفهم العملية الثيوغونية على غرار ما يُفهم التطور (l'évolution) الذي يحصل في هذا العالم، فهي لا تُخضع الأزل للوقت مع قانونه للفناء، مع التهامه اللحظة التي تسبق باللحظة التي تلي. إنها الكشف عن النور في عمق الأزل ذاته. وعقولنا الصغيرة نحن تَوَاجَه هنا بالتناقضات المستعصية وغير المحددة. إن ما يحصل في الأزل ينعكس في الزمن أيضًا، في عملية الزمن الكوني. في العملية الكونية (cosmogonique) والأنثروبولوجية (anthropogonique) يُضيء النور وتنتصر الظلمة الفوضوية. تتدفق الموجات الظلامية من الهاوية، ويجب أن تنتصر الفوضى المستعرة في العالم وفي الإنسان، كي لا يُسحق أنموذج الإنسان وأنموذج الكون ويموتا، وكي يتواصل فعل النصر الإلهي على الظلمة، وخلق الله للوجود الكوني. إن ولادة النور من الظلمة، والانتقال من الفوضى إلى الكون هو نشوء لامساواة الوجود في مساواة العدم. وفي المجتمع البشري، لا توجد بداية غامضة، فحسب، بل بداية مظلمة أيضًا، وتعصف الفوضى في الجماعة البشرية، وبجهد عظيم ينشأ الفضاء الاجتماعي ويبقى. أمواج جديدة وجديدة من الظلمة في التاريخ تسمى غزو البرابرة

الداخليين والخارجيين، تتطلب قوة جديدة من النور الخلاق. وعرفت كل من مصر القديمة وروما القديمة وطأة البربرية هذه. وتشير البداية البربرية الخزرية إلى الهوة المستترة تحت المجتمع الهادئ والمحافظ. كانت ضغوط البربرية مفيدة في أزمنة الذين كانوا شديدي السكينة من المكَبِّلين والمكبَّلين. الإنسان يعيش دائمًا فوق هوة، وينبغي لأي نمط من المحافظة (conservatisme) ألا يُخفي هذه الحقيقة. تنطوي زحمة الحشود دائمًا على هوة مظلمة. والثورات هي دائمًا هذا الدفق من الظلمة الفوضوية على غرار غزو البرابرة. الثورات والبرابرة ضروريون لهذا العالم البالي. ولا يجوز إنكار أهمية هذه الموجات التاريخية. لكن أهميتها ليست أبدًا كما تفترضون أنتم، أيدولوجيو البربرية والثورات.

***

الحياة الكونية تراتبية، كما هي تراتبية أيضًا الحياة الاجتماعية، لأنها تنطوي على تناغم مع الكون وعلى صلة عضوية به. هذا هو السر غير المفهوم ممن هم على شاكلتكم. إن كل تدمير للتراتبية الكونية يفتت الوجود ويدمر الواقع الجماعي والواقع الفردي (الدول، الأمم وسواها. كما المجتمعات الفعلية والأفراد على حد سواء)، ويكبل الذرات في جماعات ميكانيكية آلية ويقيدها. كان يحصل في المجتمع البشري منذ القدم صراع البدايات الكونية، أي البدايات التراتبية والبدايات الفوضوية، أي التفتيتية والميكانيكية. البداية التراتبية، وكما كل شيء في هذا العالم، قد يصيبها التشوه، وقد لا تؤدي رسالتها المشرقة وتولد أفظع الانتهاكات. وقد تصبح البداية التراتبية خمولًا وجامدة، تضع العقبات أمام كل حراك خلاق. هكذا، ومنذ قديم الزمن، لم تكن سلطة القيصر والكاهن التراتبية تقود الشعوب وتخرج بها إلى النور فحسب، بل كانت تعرقل الحراك الخلاق كذلك. وكثيرًا جدًا ما كانت تراتبية المَلَكية والكهنوت تقف موقف العداء من كل نبوة جديدة. وفي كل مرة كانت تتراكم فيها خطايا البدايات التراتبية، ولا يؤدي حَمَلَةُ النور واجب بقائه مضيئًا، كانت تندفع أمواج فوضوية مظلمة من أسفل وتهدد باجتياح الفضاء الاجتماعي، وتدمير كل تناغم كوني في الحياة الاجتماعية. على تراتبية المَلَكية والكهنوت أن تمنح الروح النبوية الحرية ورحابة الأفق، وإلا سوف تتحول تمسكًا بحرفية قانون محنطة وتتلقى العقاب الذي تستحق. لكن، ينبغي أن نعزل المبدأ عينه، الفكرة عينها، عن الحال الفعلية للخطيئة. إن انبعاث الضوء في هذا العالم ينبغي أن يحصل بالتدرج. ثمة فارق أزلي بين النخبوي «الباطني» (ésotérique) والعامي «العلني» (exotérique)، فهو يحفظ إمكان الحياة الروحية الأسمى من أجل الجزء المختار من الإنسانية، من أجل الأرستقراطية الأصيلة. فلا يمكن أن يُتاح لكل دهماء الكتلة البشرية الشاسعة بلوغ المجتمع الراقي على الفور. إن إخراج الكتلة البشرية من مملكة الظلمة وأسر الفوضى يتم تدريجًا، من خلال عملية التعليم. إن العقبات التراتبية في وجه دفق الظلمة الفوضوية والغلبة الفورية للكتلة الكمية، تُنقِذ مصادر النور وتحفظ المصابيح وتحمي الروح المضيئة من تهشيم الفوضى الروحية والمادية لها. إن الروح التي تدفع نحو الوعي الأعلى، كانت تخوض الصراع في جميع أنحاء العالم القديم ضد هذه الموجات من الفوضى الروحية والمادية في الحياة الشعبية. عرفت جميع الأديان العظيمة الفرق بين النخبوي والعامي، وأقامت بنيانًا تراتبيًا، ليس موجهًا إلى الداخل الحميم، بل إلى العالم الخارجي. وحمَت بذلك النوعية من تهشيم الكمية لها، وخرجت بالكمية نفسها إلى النور. كان في أديان الشرق القديم جانب غامض حميم، ترك تأثيرًا حاسمًا في المنجزات الأرفع للثقافة الإغريقية، وكان ينطوي على إلهامات أصيلة كانت سابقة على المسيحية. لكن ديانة مصر الشعبية لم تعرف هذه الإلهامات السامية؛ إذ كانت لا تزال غارقة في ظلام الوثنية. الأمر عينه كان في

اليونان أيضًا. فقد كانت أمواج الإلهامات العفوية الفوضوية لأرواح الطبيعة المظلمة وشياطينها تحيط باليونان من جميع الجهات، وتهدد بإغراق الروح الناهضة. لم يكن في وسع الوثنية أن تحرر الشعوب القديمة من سلطة عبادة العفاريت الرهيبة، ومن شياطين الطبيعية الفوضوية التي كانت تنهش هذه الشعوب. إن كل بنيان تراتبي كان محاولةً لحماية الحياة الروحية من سلطة هذه الطبيعة الفوضوية، وخلق بدايات تكوينية وضعت حدودًا للدفق العفوي التلقائي. الإنجازات الرفيعة لحياة اليونان الروحية ينبغي عدم البحث عنها في ديانة ديونيسوس (باخوس)، في هذه الصوفية الشعبية الواقعة تحت رحمة العواصف الفوضوية المظلمة. إنما ينبغي البحث عنها في الأورفية(16) (orphisme)، في ألغاز إلوسيس(17) (Mystères d'Éleusis)، عند فيثاغورس وهيراقليطس وأفلاطون. خلال العربدات (les orgies) الديونيسية كانت الشياطين تنهش الشعب الذي كان يبحث عن الخلاص والانعتاق من الوجود البائس المحدود بالتواصل مع دورة الطبيعة العفوية. إن الغلبة النهائية والحاسمة للديونيسية كان من شأنها أن تعني موت اليونان. وكان على بداية الأنموذج الأبولوني (Apollon) أن تضع حدًا للكوارث الديونيسية هذه، كي تتمكن السيماء البشرية من الخروج من الظلمة. البداية الديونيسية، هي بداية ديمقراطية. البداية الأبولونية، هي بداية أرستقراطية. الديونيسية تُقدم أساسًا عفويًا، شعبيًا. إن فوز العفوية الشعبية اللامشروط واللامحدود، أي سيادة الديمقراطية، يتحول إلى عربدة ديونيسية تجتاح السيماء البشرية، وتُغرق روح الإنسان في فوضى الطبيعة. الديونيسية معادية لكل تراتبية ولكل نخبوية. الديونيسية تنتصر في زمن الثورات، وفي الحركات الشعبية الجماهيرية. هذا الانتصار يعرض أعظم القيم الروحية للخطر دائمًا، ويتيح تحطيم أعظم الحقائق الروحية. إن البداية الأرستقراطية، وبداية النسق التراتبي (الأشكال والحدود) الذي يحدد الاختلافات والأبعاد، تنقذان الحياة الروحية الأسمى، وتحمي مصادر النور والشخصية الإنسانية من التدمير. إن وجود الشخصية يفترض الاختلافات والأبعاد، الأشكال والحدود. الديونيسية الثورية تقضي على جميع الاختلافات والأبعاد، على جميع الأشكال والحدود، لهذا هي عميقة العداء للشخصية، ولا تعترف بالسيماء ولا تتعرف إليها. حين كانت المسيحية تخوض الصراع ضد عبادة الجن، كانت تحافظ على سيماء الإنسان الذي هو على صورة الله ومثاله، وتساعده في الوقوف على قدميه. في جميع الثورات تعود عبادة الجن من جديد، بشكل علماني، لتتملك الإنسان وتدمره. البداية الشخصية مرتبطة بالبداية التراتبية، وهي تتفتح في الكون وتموت في الفوضى. البداية الشخصية هي بداية أرستقراطية عمليًا، تفترض الاختلاف والحدود. الشخصية لا تُطيق الخلط الفوضوي والمسح المبتذل لجميع الحدود والاختلافات. البداية الشخصية هي بداية نوعية، فهي نوعية لا تتكرر، ولا تسمح بالالتباسات الكمية. الحب المسيحي لا غير يؤدي إلى الاتحاد، من دون أن يدمر الشخصية، ويؤكد ملامح كل فرد. أما أنتم جميعًا، من هم تحت رحمة العواصف الديونيسية الذين تنهشهم شياطين الطبيعة الفوضوية، أنتم لا تعرفون الشخصية ولا تعرفون الحرية. ثوراتكم تحمل معها عبودية الإنسان، وتُغرقه في ظلمة بداية الكون. تغرق أرواحكم في جسد الروح الجماعية، وتفقد إنجازاتها الرفيعة. البداية الروحية أرستقراطية وليست ديمقراطية. الفوضى الجسدية الروحية هي ديمقراطية. إن ظهور البداية الأرستقراطية في العالم كان صراع النور مع الظلمة، وميلاد الشخصية وتحرر الروح. كانت ديونيسيتكم الثورية دائمًا، وسوف تكون انتصارًا آنيًا للكمية يخلط حدود الأوجه والصور، ويوقظ المبتذل القبيح والرتيب من الظلمة. لهذا بالذات، يملك مبدأ التطور العضوي بالتدرج، عبر النور الذي ينسكب من الأعلى إلى الأسفل، يملك قيمة أخلاقية ودينية، وهو يحافظ على الشخصية والحرية والحياة الروحية.

***

كثر بينكم يحبون التحدث عن الحرية والتحرر. لكن، مَن يتحرر عندكم؟ وعن حرية مَن تتحدثون؟ وهل للحرية من موضوع لديكم؟ إن تحرير العصف الفوضوي ليس تحريرًا للإنسان، فهو لا يمكن أن يكون موضوعًا للتحرير، إنه مصدر للاستعباد. فالإنسان هو أسير العصف الفوضوي قبل أي شيء آخر. تشد الهاوية المظلمة أنموذج الإنسان، تشد وجهه إلى الأسفل، وتمنعه من أن ينتصب بطول قامته. إن تحرير الإنسان وشخصيته هو التحرير من أسر العصف الفوضوي، وليس تحرير العصف الفوضوي في الإنسان والشعب. لهذا، فإن جميع الناس غير السطحيين فهموا أن التحرر الحقيقي يفترض لحظة زهد وتنسك، لحظة تنظيم وضبط ذاتي. إن تفلت الأهواء العبثية العفوية يستعبد المرء، يجعله عبدًا. حين يكون المرء تحت رحمة فوضاه الخاصة، فهو عبد، وتتوزع الأهواء شخصيته وتنهكها الآثام. أنتم، «محررو» الإنسان والشعب الذين تنزعون عن العاصفة القيود كلها، حان الوقت منذ زمن بعيد كي تفكروا بعمق أكثر بمسألة الشخصية. لماذا الشخصية ليست موجودة في ثوراتكم؟ لماذا تُركت تحت رحمة العواصف العبثية؟ ولماذا تَغرق صورة الإنسان في العواصف التي تكيلون المديح لها؟ أنتم لم تتمكنوا يومًا، ليس من معالجة مسألة العلاقة بين الشخصية والمجتمع فحسب، بل لم تتمكنوا من طرحها أيضًا. أضعتم الواقع، فالشخصية ليست واقعية بالنسبة إليكم، والمجتمع ليس واقعيًا، كل شيء أصبح مبعثرًا مفككًا بالنسبة إليكم منذ زمن بعيد. إن رؤيتكم «الثورية» للعالم هي اسمانية متطرفة في الفلسفة الاجتماعية، هي ذرية (atomisme) متطرفة. إن جَماعيتكم ليست إلا الوجه الآخر لهذه الاسمانية والذرية. أضعتم الوقائع الحقيقية وتودون أن تُحِلوا مكانها حقيقة جديدة مصطنعة وهمية. إن نظرتكم إلى العالم وموقفكم منه ينفيان كل واقعية أنطولوجية. إن أسلافكم هم السفسطائيون. رفضتم أسس الفلسفة الاجتماعية الأنطولوجية التي وضعها أفلاطون. أفلاطون شديد الأرستقراطية بالنسبة إليكم، ورأيتم فيه مصدر «الرجعية» العالمية. كانت اشتراكية أفلاطون اشتراكية أرستقراطية، تستند إلى الاعتراف بالحقائق الأنطولوجية. كان أفلاطون يعترف بواقعية الكُلي الأنطولوجية، بواقعية الخير الأسمى والحقيقة. أما أنتم فتنطلقون من تفتيت كل كُلي، تبدأون من رفض الخير الأسمى والحقيقة. إن حقيقتكم هي حقيقة اعتباطية ذاتية، حقيقة طبقية ولِدَت من المصالح والأهواء. أنتم تبدأون عملكم بعد أن تكون جميع الحقائق وجميع الكليات والعموميات قد تفككت وتفتتت. أنتم، حقًا، ترغبون في إقامة بنيانكم ليس من شيء وليس على شيء. وتحدث عن ذلك صراحة الأكثر راديكالية وشجاعة بينكم، ماكس شتيرنر[(18)] (Max Stirner)، وإن كان لا يتمتع بما يكفي من الشهرة لديكم. لكن، حتى شتيرنر، لم يكن متماسكًا وراديكاليًا حتى النهاية. اعترف بـ «الأنا» (The Ego) من دون أن يكون له أي حق بذلك وأي سند. لأن «أناه» هذه محرومةٌ من أي واقعية، «أنا» مسلوبة معدومةٌ متروكة لمصيرها في هذا العالم. هذه «الأنا» مجردة من واقعية «أنا»، من واقعية الشخصية. لأن الشخصية هي حقيقة أنطولوجية، تدخل في تراتبية الحقائق الأنطولوجية. الشخصية تفترض حقيقة الشخصيات الأخرى وحقيقة ما هو أسمى منها وما هو أعمق منها. ليس ثمة من شخصية، إذا لم يكن هناك ما هو أسمى منها. في الاسمانية الفردية (l'individualisme nominaliste) تتحلل الشخصية وتتفكك. كما تتفتت في هذه الفردية الاسمانية الشخصية الإنسانية والأمة والدولة والكنيسة والكون والله. إذا لم تكن هناك أي قيمة حقيقية، فليس هناك من قيمة حقيقية للشخصية أيضًا، فمصيرها هو مصير جميع الحقائق في العالم، وتسقط مع هذه الحقائق. إذا لم يكن الله

موجودًا، فليست موجودة الشخصية الإنسانية أيضًا. الشخصية مرتبطة بالشمولية، بالكونية (universalisme)، وليس بالفردية.

إن موت الشخصية الإنسانية النهائي لا بد من أن يقع في جماعيتكم (collectif) البشرية، حيث ستلقى جميع الحقائق حتفها في عش النمل المقبل خاصتكم، في فم هذا التنين المرعب. سوف أتحدث عن هذا غير مرة. إن جماعيتكم هي حقيقة كاذبة، عليها أن تقوم مكان موت جميع الحقائق الأصيلة، حقيقة الشخصية، وحقيقة الأمة، وحقيقة الدولة، وحقيقة الكنيسة، وحقيقة الإنسانية، وحقيقة الكون، وحقيقة الله. إن كل حقيقة هي، حقًا، شخصية وتمتلك روحًا حية، ومن ضمنها الإنسان والأمة والإنسانية والكون والكنيسة والله. إن أي شخصية في تراتبية الشخصيات لا تفنى، كما لا تُهلِك أي شخصية، بل تكملها وتُغنيها. جميع الحقائق تنضوي في وحدة ملموسة. أما جماعيتكم التي لا شخصية لها، فهي مجردة من الروح، منسلخة عن الأساس الأنطولوجي، تحمل معها الموت لكل وجود ذاتي. لذا، فانتصارها كان سيكون انتصار روح العدم، انتصار اللاشيء. ليس في الجماعية الثورية أي شيء إنساني، كما أنه ليس فيها أي شيء خارق، بل فيها شيء ما لا إنساني وكافر، هي إبادة للإنسان والله. إن مصير الإنسان والله لا ينفصلان مدى الدهر. والشيطان نفسه عاجز عن تغيير وحدة المصير هذه التي يقع في القلب منها صلب الله كإنسان.

***

أنتم تنكرون الشخصية وتقتلونها، أنتم جميعكم بوق الثورة المادية، اشتراكيين وفوضويين، راديكاليين وديمقراطيين من الأطياف المختلفة، جميع المساواتيين ومن يخلطون بين الناس، دعاة ديانة المساواة. أنتم كنتم تودون لو تحولون الناس ذرات والمجتمع البشري ميكانيزم ذرات، جماعة ذرات بلا ملامح. لكن الإنسان هو، حقًا، ليس ذرة، بل هو فرد، هو شخصية، هو كائن متمايز. لكل إنسان قَدَره الفردي الذي لا يتكرر في الحياة الدنيا، وفي الحياة الماورائية والأبدية. لكل امرئ قَدَره الخاص بتجاربه ومحنه، قَدَرٌ لا تحدده المصادفات أو أسباب خارجية تافهة. فالدمعة التي كانت من نصيب الطفل المعذب، والتي يتحدث عنها إيفان كارامازوف، ليس محض مصادفة وبلا معنى. فالانتفاضة ضد دمعة الطفل، ضد الآلام التي تُشرى بها العملية الكونية والتاريخية، هي رفضٌ لمعنى الحياة الأسمى، هي مناصبة العداء للتدبير الإلهي للعالم. لا يتقبل الملحد دموع الطفل وآلام الحياة كلها، يقف ضد الله باسم حياة الإنسان السعيدة على الأرض. لكنه هو على استعداد منذ اللحظة للتسبب في ما لا يحصى من الآلام، وذرف ما لا يحصى من الدموع من أجل الإسراع في بلوغ الحياة الإنسانية السعيدة والخالية من الآلام. ذلك هو تناقض جميع الثوريين الأخلاقي. أنتم، الثوريون المثقفون الروس، كنتم تتحدثون كثيرًا عن دمعة الطفل، عن معاناة الشعب التي لا تحتمل، كان هذا موضوعكم المفضل. كانت تأخذكم عاطفة كاذبة، وتروّجون لِجَنّة لا ألم فيها وتعدون بها. وحين دقت ساعة تسلطكم أظهرتم وحشيةً غير مسبوقة، حيث حولتم بلادكم بحرًا من الدموع وتسببتم لشعبكم في ما لا يحصى من الآلام. العاطفية غالبًا ما تنتهي بالوحشية. لا يَقي من الوحشية سوى النظرة الأشد قساوة إلى الحياة. إن بلوغ المعنى الأسمى لجميع دموع الحياة وآلامها وتقبلها يطهر الإنسان. لكل إنسان حس ديني وبصيرة بشرية، يدرك أن قدر الإنسان يلفه الغموض، ولا يمكن الحسم بأمره في حدود تلك القطعة الصغيرة من الحياة الأبدية العظيمة، التي نسميها حياة الإنسان الدنيوية الواقعية بين المهد واللحد. قدر الإنسان تغمره الأبدية، وفي الأبدية ينبغي البحث

عن سر معناه. في حدود هذه الحياة القصيرة الأجل، يبدو كل شيء عشوائيًا غير ذي معنى وليس عادلًا. في الأبدية يكتسب كل شيء معنًى ويكون مبررًا. لكن أنتم الذين تنتفضون ضد الترتيب الإلهي للعالم وتثورون ضد الأبدية، أنتم لا ترون وجه الإنسان ولا تشعرون به، أنتم لا تشعرون ولا ترون سوى أجزاء ونتف من الشخصية، سوى وضعها العابر، سوى الموقت من المعاناة والرضا. إن رعايتكم الإنسانية والعاطفية للإنسان، ورغبتكم المحمومة في تحريره من المعاناة، هي الكفر عينه بالله والإنسان، هي إلحادكم. وهذا يقود دائمًا إلى تدمير الشخصية باسم تحرير الإنسان من المعاناة. إن تقبل معنى المعاناة ومعنى القدر الذي يبدو من جانب غير عادل وغير مبرر، هو تأكيد للشخصية، هو إيمان بالله والإنسان. للناس أقدار مختلفة مليئة بالآلام والدموع، لأن الإنسان كائن على تمايز وفردية عميقة. ينبغي أن نأخذ الإنسان الملموس، وليس المجرد، نأخذه مع كل تاريخه الملموس والميتافيزيقي الذي لا يتكرر، في كل علاقاته العضوية الكونية. حينئذٍ فحسب يمكننا أن نفهم شيئًا ما في قدره. أنتم تأخذون الإنسان كذرة، وتتصورون جميع الناس متساوين يستحقون قدرًا متساويًا. هكذا، أنتم تودون تحرير الإنسان من الظلم والمعاناة، لكنكم أنتم، على هذا النحو تقتلون الإنسان. ليس الإنسان من يقف أمامكم، بل ذرة مجردة. أنتم تفتتون الوجود كله إلى الذرات المجردة هذه. بالنسبة إلى الإنسان الملموس الذي لا يتكرر بفرديته، العلاقة مع الأسلاف والوطن والتاريخ، لها أهميتها. وليست عَرَضية علاقة الإنسان بهذه الفئة أو الطبقة أو تلك. الإنسان المجرد وغير المتمايز يؤخذ من خارج التاريخ، من خارج الماضي، من خارج الوطن، من خارج الآباء والأجداد. لكن هذا لم يعد إنسانًا، لم يعد شخصية، بل ذرة، إنه تجريد التجريد. إن رغبتكم في مساواة الناس في معاناتهم واحتساب من يعاني أكثر ومن أقل، معاناة مَن منهم عادلة، ومعاناة مَن غير عادلة، هي رغبة كافرة لا معنى لها. ينبغي ألا تكونوا قضاة الأقدار البشرية والأقدار الإلهية. لم تُعطَوا سوى حب ذوي القربى الناشط تخففون به معاناتهم وتدخلون الفرح إلى حياتهم. لكن قضية حب الناس هذه ومساعدتهم، لا يمكن أن تمتلك أي شيء مشترك مع التقويم العقلاني لمصائر البشر، مع مقارنة هذه المصائر بعضها ببعض وفرض المساواة بينها. إن ديانتكم الثورية في المساواة هي الإلحاد وإنكار المعنى السامي للحياة الكونية. وهي لا تقود إلى خلق الحياة الأفضل والأسمى، بل إلى تدمير جميع ثروات الوجود وتسفيهها.

أنا أعرف أن كل ما أحدثكم به سوف تسمونه «رجعيًا»، وسوف ترون في أفكاري تبريرًا للشر الاجتماعي. لكنني توقفت منذ زمن بعيد عن الاهتمام بتعريفاتكم. وصوت جميع كلماتكم هو كالضجيج المقرف بالنسبة إلي. لهذا، لن يوقفني صراخكم كله وإداناتكم كلها. إن عدم المساواة في المصير الفردي الذي لا يتكرر للشخصية الإنسانية في الأبدية، أمر مبرر دينيًا. لكن هذا لا يعني، بالتأكيد، أنه ينبغي عدم التخفيف عن الإنسان في حياته الدنيوية وتحسينها. بل، على العكس؛ إذ إن هذا التخفيف والتحسين هما تنفيذ لوصية المحبة. لكن هذا يعني أنه ينبغي عدم الانتفاض ضد الأسسس الأولى للترتيب الإلهي للعالم وتدميرها، ومواجهة المعنى الإلهي للحياة باقتراح معنى اعتباطي محدود لها. اللامساواة هي أساس كل بناء وتناغم كوني، هي تبرير الوجود عينه للشخصية الإنسانية ومصدر كل حركة إبداعية في العالم. كل ميلاد للنور في الظلمة هو ظهور لعدم المساواة. كل حركة إبداعية هي ظهور لعدم المساواة، هي تَرفُعٌ، هي عزل للنوعية عن كتلة اللانوعية. إن ولادة الله نفسها هي لامساواة أزلية. من اللامساواة ولد العالم وولد الكون. من اللامساواة ولد الإنسان أيضًا. اللامساواة المطلقة كان من شأنها أن تترك الوجود في حال من طي

الكتمان واللامبالاة، أي العدم. إن المطالبة بالمساواة المطلقة هي المطالبة بالعودة إلى الوضع الأولي الفوضوي والمظلم ذي المستوى الواحد وغير المتمايز، أي المطالبة بالعدم. المطالبة الثورية بالعودة إلى المساواة في العدم، ولدت من عدم الرغبة في تحمل التضحيات والمعاناة التي تمر عبرها الطريق إلى الحياة السامية. تلك هي الرجعية الأفظع، إنكار معنى عملية الخلق الكونية كلها. إن الهوس بالثورة هو هوس رجعي. إن المطالبة بالمساواة القسرية، الصادرة عن الفئات الدنيا للدهماء الفوضوية الجاهلة، هي مسعى لتهديم البنيان الكوني التراتبي الذي تَشَكلَ من ولادة النور الخلاقة في الظلمة، مسعى لتهديم الشخصية الإنسانية عينها، كمستوى تراتبي، كمولود في الظلمة. هكذا، يتم التطاول على المقام الملوكي للإنسان في البنيان الكوني. لأن هذا المقام يُكتسب بعملية فرز ولامساواة فظيعة. المطالبة بالمساواة تُعمم على المستويات الدنيا غير البشرية من الحياة الكونية. في حمى المساواتية، تزداد دائمًا في الإنسان نفسه البدايات الدنيا اللاإنسانية (لكنها البدايات التي غدت أرستقراطية في الحقيقة)، تزداد قوى العصف البدائية، أرواح الطبيعة البدائية. في جميع الحركات الشيوعية للجماهير، في وسعنا أن نتلمس دومًا شيئًا ما غير بشري، نهوض قوى عصفٍ ما طبيعية وضيعة تعرقل تمظهر صورة الإنسان في الجماهير نفسها، حان الوقت أخيرًا لإدخال ضوءٍ فاصل في ظلمة التباساتكم. إن الهوس بالمساواة هو الغيرة من الوجود الآخر، هو العجز عن تحسين الوجود الشخصي من دون التلفت صوب الجار. أما اللامساواة فتسمح بترسيخ الوجود في جميع جوانبه، بغض النظر عن الآخر. أنتم، المساواتيون في العدم، تحبون استخدام المسيحية أيضًا من أجل غاياتكم، أنتم لستم حتى ضد الاستشهاد بالإنجيل الذي لا تؤمنون به ولا تعترفون. وليس في وسعكم أن تجدوا في المسيحية شيئًا سوى الأصوات الخارجية وتوليفات كلمات غير مفهومة بالنسبة إليكم. أنتم ليس لكم من نفاذ إلى الأسرار المسيحية. المسيحية تعترف بالقيمة المطلقة لكل نفس بشرية وتكافؤ جميع النفوس البشرية أمام الله. لكن، ينبغي عدم التوصل من هنا إلى أي استنتاج ملائم للمعادلات والالتباسات الميكانيكية الخارجية. المسيحية لم تنتج انتفاضات وثورات حتى ضد العبودية في مرحلة معينة من التطور العالمي، هي اعترفت فحسب بأن نفس الإنسان الموجود في وضع اجتماعي عبودي تمتلك قيمة مطلقة مساوية أمام الله لقيمة نفس السيد. العبد والسيد في وسعهما أن يكونا شقيقين في المسيح، وكان في وسع العبد أن يتبوأ في كنيسة المسيح مرتبة أعلى من السيد. إن المساواة المسيحية للأرواح أمام الله تنتمي إلى المملكة المباركة للنفس، وغير قابلة للترجمة إلى المستوى الاجتماعي المادي. للنفس الإنسانية قيمة مطلقة بالنسبة إلى الوعي المسيحي، لكن حياة الإنسان الدنيوية العملية لا تمتلك قيمة مطلقة. إن للقيمة والمقدس والحقيقة الروحية من الأهمية ما يفوق أهمية حياة الناس العملية وخيرهم ورضاهم وحياتهم نفسها. المسيحية لا تخشى العذابات على الأرض، بل هي تتقبلها وتعترف بأهميتها في تقرير مصير الإنسان. إن إدراك العذابات والدموع يطهر الروح بالنسبة إلى المسيحية. هذا الإدراك لا يقول بإعادة التذكرة إلى الله، كما يطالب الملحد إيفان كارامازوف، باسم معاناة البشر، وبسبب العجز عن إدراك شرور الحياة. ليس لكم من عمل مع المسيحية. أنتم مرتدون عن المسيحية.

***

نهضتم بصخب للدفاع عن أهداف واضحة للحياة الإنسانية ضد أهداف غامضة، للدفاع عن الإنسان ضد الله. ثرتم ضد الضحايا التي يتطلبها كل مبهم وعظيم. أنتم تقومون بالثورات والانتفاضات باسم المفهوم والعقلاني، أنتم تنكرون أعظم القيم والمقدسات باسم طوباويات

برجوازية صغيرة، باسم ما هو واضح، باسم رفاه دنيوي ضئيل للفرد وللجميع. وضعتم الرفاه البشري للفرد وللجميع في مواجهة القيم ما فوق البشرية. واصطدمت نظرتان بعضهما ببعض لا تتصالحان إلى العالم، إحساسان لا يتهادنان بالحياة. نحن، أصحاب النظرة الدينية إلى العالم والإحساس الديني بالحياة الذين يتقبلون، دينيًا، النظام الإلهي، والذين ينحنون أمام المعنى الديني للحياة، نحن نتقبل تضحيات الحياة البشرية الدنيوية القصيرة والقريبة والمفهومة، والتضحيات بالخيرات الدنيوية البشرية باسم الغايات العظمى المبهمة للحياة البشرية والكونية. نحن لا نثور ضد التاريخ والثقافة التي كلفت ثمنًا غاليًا من دماء أضاحي الأجيال التي لا تحصى من أسلافنا. نحن نرفض، دينيًا، الفكرة نفسها، كفكرة وضيعة وغادرة، فكرة خلق السعادة والرفاه على الأرض التي دُفنت فيها جميع أجيال أسلافنا الذين عانوا وقدموا التضحيات، الأرض التي هي مقبرة عظماء الراحلين ومعالم الماضي العظيمة. إنها لكافرة ووضيعة فكرتكم نفسها بتحرير أجيال المستقبل من التضحيات والآلام على حساب أجيال الماضي. من وجهة النظر الأعمق وغير المادية وغير الوضعية، ليس من المفهوم حتى لماذا يجب أن تكون الأجيال المقبلة على أهمية أكبر بالنسبة إلينا، وأن تعني لنا أكثر من الأجيال السالفة. ثمة أمر ما قبيح ووضيع في هذا الانتصار للموقت على الأزلي. أنتم مأخوذون بالحياة السعيدة الآتية، بشكل حصري، أنتم في قبضة روح الموت، لا روح الحياة. كم كان عميقًا نيكولاي فيودوروف[19] (Nikolai Fyodorov) حين وضع أمام الأبناء الضالين مسألة قيامة جميع الأسلاف الموتى. إنها مسألة أكثر راديكالية وأكثر عظمة وجدارة من محكمتكم العقلانية والأخلاقية للتاريخ، من قتلكم الماضي باسم رفاهية المستقبل. في اليوم الذي كانت ستتغلب نهائيًا وجهة النظر القائلة برفاه الفرد والكل، وكانت ستنتصر وجهة النظر القائلة بقيمة ما فوق الفردية وما فوق البشرية وقداستهما، سوف يكون من المستحيل أن يوجد في العالم بعدئذٍ ما هو عظيم، وما هو جبار، فعلًا، ورائع. وكان من شأن الحياة البشرية أن تنحدر إلى الدرك الأسفل، وأن تصبح بدائية ومبسطة وشبه حيوانية.

كل قيمة ليست سوى التعبير الثقافي عن الإلهي في الواقع التاريخي. والإلهي يتطلب تضحيات وآلام. إن السعي إلى الإلهي في الإنسان لا يسمح له بالاستكانة والهدوء، بل يجعل أي رفاه على الأرض مستحيلًا، ويشده إلى البعيد الغامض، إلى العظيم. إن وجهة النظر القائلة برفاه الفرد والكل تركز على إسقاط الإلهي، وهي، في الحقيقة، معادية الدين. إن التعطش إلى الإلهي في الروح البشرية يفعل كما النار التي تلتهم كل شيء، ويمكن قوة هذه النار أن تخلق انطباعًا بأنها شيطانية. كثرٌ منا، نحن الأخلاقيين، يرون القوة الشيطانية في كل قدر تاريخي، في نشوء الدول والثقافات، وفي أمجادها وعظمتها. هذه المسألة، وبعبقرية فذة، تلمسَها كونستانتين ليونتييف[20] (Konstantin Leontiev) حين قال: «كان من شأنه أن يكون معيبًا وفظيعًا، لو أن موسى صعد جبل سيناء، والهلينيين شيدوا أكروبولاتهم، والرومان خاضوا حروبهم الفينيقية، والإسكندر العبقري الوسيم، بخوذة ما يزيّنها الريش، عَبَرَ نهر غرانيق وخاض القتال عند آربللا، والرسل بشروا، والشهداء تألموا، والشعراء أنشدوا، والرسامين رسموا والفرسان تألقوا في المباريات، فحسب من أجل أن يُرضي البرجوازي الفرنسي والألماني أو الروسي في ثوبه القبيح المضحك نفسه، «فرديًا» أو «جماعيًا»، فوق ركام هذا الماضي العظيم كله». أنتم أصبحتم مع الرضا «الفردي» و«الجماعي» عن الذات، ومع الجنة الاجتماعية الباهتة ضد موسى والإسكندر العبقري الوسيم، ضد الأكروبولات والحروب الفينيقية، ضد الرسل والشهداء، ضد الفرسان والشعراء والرسامين. العظمة السالفة قامت على الشهداء والآلام. أما أنتم فما عدتم ترغبون في تضحيات وآلام أكثر باسم

بُعدٍ غامضٍ، غير مفهوم لكل على حدة وللجمهور ككل. أنتم تودون أن تطرحوا العظمة السالفة على التصويت العام، وتقدموها إلى محكمة خير البشر المفهوم من الجميع في الحياة الدنيا القصيرة. لكنكم أنتم لا تعرفون أيضًا حب القريب الذي من لحم ودم وكائن ملموس. الإنسان ليس من ذوي القربى، بالنسبة إليكم، بل هو تجريد. حب القريب لا تعرفه إلا المسيحية وتربطه بحب الله.

حاولتم تأسيس سوسيولوجيتكم على تلك الفرضية التي تقول إن المجتمع يجب أن يكون متجانسًا، مبسطًا غير متمايز، من أجل أن تكون الشخصية متطورة، متمايزة ومتنوعة. أنتم أردتم ربط ازدهار الشخصية، شخصية الفرد والكل، بذبول المجتمع والدولة والأمة، بتحولهم إلى الحال التي يسميها كونستانتين ليونتييف «الالتباس التبسيطي». كنتم دائمًا تشمئزون من الازدهار المعقد للثقافة، من مجد الدول وعظمتها، من القدر التاريخي العظيم للأمم. رأيتم أنتم في هذا الازدهار المعقد، في هذا المجد وهذه العظمة، تهديدًا للشخصية، تهديدًا لخيرها ومصلحتها. أنتم، حقًا، كنتم دومًا تعتنون ليس بالشخصية، بقدر ما تعتنون بمساواة الشخصيات. أنتم كنتم تتلفتون دومًا إلى جار كل شخصية وتتنبهون كي لا يكون على رفعة أكبر، ولا يزدهر أكثر من الآخر. كانت دائمًا تعنيكم الشخصية الرتيبة، أي شخصية من هذه الشخصيات، تعنيكم مساواة الشخصيات. لكن مساواتكم تقيم في مملكة عدمٍ وسيطة، في الخواء، فهي ليست موجودة في أي شخصية حية ملموسة. باسم مساواة الشخصيات، أنتم على استعدادٍ لإبادة أي شخصية، وتقليم إمكان أي ازدهار لها. إن كل اندفاعة خلاقة في الشخصية هي، في الحقيقة، اندفاعة إلى اللامساواة، انتهاك للمساواة، هي فعل ارتقاء. كان نيكولاي ميخايلوفسكي[21] (Nikolai Mikhaïlovski)، مع نظريته حول الصراع من أجل الفردية، المُعَبر عن ذلك المذهب السوسيولوجي الذي يقول إن المجتمع المتعادل والمبسط، هو المجتمع الأنسب لازدهار كل شخصية. والأمر عينه كان يقوله ليف تولستوي، إلا أن مذهبه لم يكن سوسيولوجيًا، بل أخلاقيًا - دينيًا. إن فردية تولستوي الأخلاقية كانت تتطلب إنهاء التاريخ العالمي، وإلغاء جميع الدول والثقافات، من أجل نقل مركز ثقل الحياة، نهائيًا، إلى الشخصية البشرية لكل فرد وللجميع. كان تولستوي وميخايلوفسكي يرفضان، على نحو راديكالي، التقسيم الاجتماعي للعمل كبداية معادية للشخصية. والاشتراكية تتطلب تبسيط المجتمع وخلطه، وتسوية الوسط الاجتماعي، وتنتظر من ذلك الخير لشخصية الفرد والكل. كان كونستانتين ليونتييف النقيض الكلي لميخايلوفسكي، مفكرًا أكثر عمقًا وأصالةً من جميع معلميكم وأيديولوجييكم. كان يربط الازدهار المعقد للشخصية بالازدهار المعقد للمجتمع، بالنظام المعقد للدولة، وبالقدر التاريخي العظيم للأمم. إن الخلط التبسيطي للمجتمع الذي يحمل في طياته انتصار التقدم الليبرالي المساواتي، انتصار عصر الديمقراطية، يرتبط بذبول الشخصيات الإبداعية الوضاءة وتجريدها من معالمها وإخمادها. كان عصر النهضة عصر الازدهار المعقد للمجتمع، عصر الفروقات الهائلة في بنيان المجتمع، لكنه كان أيضًا عصر الازدهار المعقد للشخصيات، عصر تفتح العبقريات. كان القديسون تعبيرًا مشرقًا واستثنائيًا للبداية الذاتية، لكن التطور الأكبر للقداسة كان في أزمنة اللامساواة العظيمة. في زمن المساواة والخلط التبسيطي، في زمن انتصار الديمقراطية ليس من قداسة وعبقرية، ترتبط بهما الانتصارات العظمى للبداية الذاتية. الوحدة في التنوع هي معيار الجمال الكامل للثقافات. يمكن مذهب كونستانتين ليونتييف الرومانسي أن يكتسب تأكيدًا سوسيولوجيًا علميًا بالكامل. وعلى عكس ميخايلوفسكي يجد جورج زيمل[22] (Georg Simmel) أسسًا موضوعية لتلك الحقيقة التي تقول إن تمايز الشخصية ليس متلائمًا عكسيًا، بل طرديًا مع تمايز المجتمع. إن تطور الشخصية لا

تناسبه حال البيئة الاجتماعية المتساوية والمتجانسة، بل حالها المتمايزة والمعقدة. لم يكن من شأن الشخصية أن ترتقي قَط من دون التقسيم الاجتماعي للعمل، ولم يكن من شأنها أن تنفصل عن الشيوعية البدائية للظلمة العامة. إن الفردية والشخصية الإنسانية ليست معطاة منذ البداية في العالم الطبيعي والتاريخي، بل هي ترقد في وضع الممكن المحتمل في الظلمة الفوضوية، في المساواة المتوحشة، ولا تتحرر وتنهض وتتطور إلا من طريق التاريخ المأساوي، من طريق التضحيات والصراع، عبر اللامساواة العظمى والتفرقة، عبر الدولة والثقافة مع بنيانهما التراتبي والديسيبلين القسري. إن بشر القرن العشرين الذين على هذا القدر من المعرفة والتجارب، ليس من اللائق أن نبني لهم نظريات مثالية عن العيش الكريم الطبيعي، عن النظام الطبيعي الذي تنتصر فيه البداية الفردية والذاتية، وعن تدمير هذا العيش الكريم وهذا النصر الطبيعي للفردية باللامساواة وبالإكراه وديسيبلين الدول والثقافات. في كل مرة، حين يحصل إسقاط النظام التراتبي، حين يرغبون في تحرير الشخصية من كل ديسيبلين ودولة وثقافة، تقوم فوضى وحشية تقضي على الشخصية وتقتل صورة الإنسان. ترتبط حرية الشخصية دومًا بديسيبلين ثقافة معقدة تراكم خلال آلاف السنين، يحول دون الفوضى في الكون. كل عالم كوني هو عالم متباين يستند إلى اللامساواة والفروقات. تترسخ الشخصية وتتطور في العالم الكوني، في التناغم الكوني للحياة الاجتماعية. تذبل الشخصية وتموت في عالم الفوضى، في الحشود الفاقدة أي ديسيبلين تراتبي.

***

أنتم لا تعرفون الشخصية، وأنتم أغرقتموها بالحشود. أنتم فقدتم الإحساس بالاختلافات والفروقات. ويعود هذا، قبل كل شيء، إلى أنكم توقفتم عن الإحساس بِشَر الطبيعة الإنسانية الراديكالي وإدراكه. أحرز الشر الغلبة عليكم، وأجبركم على إنكاره. بعضكم لا يزال على استعداد للاعتراف، بشكل مبهم، بالله، لكن لا يستطيع أحد منكم رؤية الشر. وأصبح هذا الإنكار الراديكالي للشر الراديكالي يسمى النزعة الإنسانية. كنتم تأملون بتحرير الإنسان من طريق إنكار الشر. وبحجة أن الطبيعة البشرية بريئة، إنما أفسدتها الأوهام الدينية وعنف الدولة واللامساواة الاجتماعية واستعبدتها، أقمتم أنتم نظريتكم حول التقدم. أنتم كنتم ترون في ماضي البشرية الكثير من الشر، لكن هذا لم يكن شرًا راديكاليًا يكمن في العمق الميتافيزقي، بل كان دائمًا شرًا اجتماعيًا موجودًا على سطح البيئة الاجتماعية. وفي المستقبل، أنتم لا ترون سوى الخير فحسب. إن فلسفتكم الاجتماعية هي فلسفة تفاؤلية. النزعة الإنسانية هي دومًا تفاؤلية. لكن، هل يوجد أساس لمثل هذا التفاؤل، وهل هو مبرر، إذا ما نظرنا إلى عمق الحياة؟ أعتقد أن التفاؤل الاجتماعي هو سطحي دائمًا. إن تفاؤلكم الإنساني تنبغي مواجهته بتشاؤم أكثر عمقًا وقساوةً وصحة. إن تفاؤلكم الاجتماعي وكونكم من الحالمين يشيران إلى غياب أي زهد فيكم ضروري من أجل أي تحرر، يشيران إلى فسق أرواحكم. الزهد والتوقف عن التخيل الاجتماعي المضر، هما أمران ضروريان للإبراء الروحي. إن النظريات الوردية عن التقدم والمجتمع المستقبلي الكامل، عادةً ما تفضي في الواقع إلى الوحشية والحط من مستوى الإنسان. كان للنزعة الإنسانية أهميتها في تاريخ الثقافة البشرية، وكان من الضروري المرور عبرها. لكن السنوات الأخيرة للنزعة الإنسانية، كقيمة مجردة، تفتك بالإنسان، إنها انتحارية. وأدرك ذلك نيتشه بعمق شديد، غدا التعلق بالنزعة الإنسانية بعده غير ممكن.

إن الأسس الروحية لنظرتكم الاجتماعية - الثورية إلى العالم وموقفكم منه، وضيعة وقبيحة، ومظلم مصدرها السري نفسه. إن نفسية الإهانة، نفسية ربيبي الله لا أبنائه، نفسية العبيد، هي التي تقع في أساس نظرتكم إلى العالم وموقفكم منه. إن أبناء الله هم أحرار في أرواحهم، ويعجزون عن امتلاك مثل هذا الإحساس بالحياة. إن أبناء الله الأحرار الذين يدركون أصلهم الرفيع، لا يستطيعون الشعور بعبودية الإهانة، لا يستطيعون أن يشعروا بأنفسهم بروليتاريين روحيين يقومون بالثورة، لأن ليس لديهم ما يفقدونه أو ما يحافظون عليه. نعم، لا توجد بروليتاريا اجتماعية فحسب، بل توجد فئة روحية من البروليتاريا أيضًا، نوع روحي خاص. هذا النوع الروحي من البروليتاريا يقوم بثورات خارجية منفصلة عن عمق الحياة، عن العالم بأسره. الإهانة، الغضب، الحسد، تلك هي الطبيعة الروحية، تلك هي النفسية السرية للنوع الروحي من البروليتاريا. وعلى مثل هذا الأساس، لا تمكن إقامة مجتمع بشري جميل وحر. أبناء الله الأحرار لا يشعرون بالإهانة، بل بالذنب. إن إدراك الذنب أمر يليق بالإنسان ذي الكرامة الرفيعة، ودليل على أبوّة الله له. والبروليتاريون بوضعهم الاجتماعي في وسعهم أن يمتلكوا الوعي الرفيع بأبوة الله، في وسعهم أن يكتشفوا في أنفسهم حرية الروح. إن نبل الروح البشرية لا يتعلق بالوضع الاجتماعي الخارجي. لكن، حين تسمم الإهانة ويسمم الحسد والثأر قلب الإنسان، تكف الروح عن أن تكون حرة، وتقع في العبودية، ولا تعي أبوة الله لها. لهذا، فإن محرري الإنسان الحقيقيين ينبغي أن يدعوه إلى وعي الذنب، لا الإهانة، يجب أن يوقظوا فيه وعي حرية أبناء الله، لا عبودية أبناء التراب، أبناء الضرورة. لذلك، لا يستطيع الإنسان الحر في داخله اعتناق النظرة البروليتارية - الثورية إلى العالم.

(12) سوسيولوجي فرنسي (1844 - 1922)، تلميذ أوغست كونت وهربرت سبنسر، عُرف بتأثيره الشديد في فلسفة فريدريك نيتشه. (المترجم)

(13) صوفي مسيحي ألماني (1575 - 1624) مؤسس اللاهوت الصوفي الغربي (sophiologie). كان إسكافيًا وليس على معرفة باللاتينية، لغة العلماء. أُعجب فريدريك إنغلز بالديالكتيك الذي كانت تتضمنه فلسفته. (المترجم)

(14) لاهوتي وصوفي ألماني قروسطي شهير عاش بين عامي 1260 و1328 تقريبًا. كان يرى أن الله موجود في كل شيء بالوجود. (المترجم)

(15) البحث عن مصدر الآلهة. (المترجم)

(16) مذهب صوفي في اليونان القديمة وتراقيا، يرتبط باسم الشاعر والمغني الميثي أورفيوس. ظهر حوالى القرن السادس قبل الميلاد، حيث تُنسب أناشيد أورفيوس الأولى. (المترجم)

(17) طقوس دينية إغريقية كانت تقام سنويًا في مدينة إلوسيس على شرف الإله باخوس والإلهة ديميترا وبرسيفون، ولم يكن يشارك فيها سوى المطلعين على هذه الأسرار فحسب، ولا يملكون حق إفشائها. (المترجم)

(18) فيلسوف ألماني (1806 - 1856)، تنبأ بالعدمية (le nihilisme) والوجودية (l'existentialisme) ومابعد الحداثة (le postmodernisme) والفوضوية (l'anarchisme)، خصوصًا الفوضوية الفردية (l'anarchisme individualiste)، قبل ظهورها بوقت طويل. مؤلفه الأساس **الأوحد وملكيته** (*The Ego and His Own*). (المترجم)

(19) مفكر ديني روسي وفيلسوف مستقبلي (1829 - 1903) (futurologue). أحد مؤسسي «الكونية الروسية» (cosmisme russe). و«الكونية»، بشكل عام، هي سلسلة من التيارات الدينية - الفلسفية، الفنية والعلوم التطبيقية تقوم على تصوير الكون أنه عالم منظم، وتصوير الإنسان أنه «مواطن العالم». (المترجم)

(20) ديبلوماسي روسي، مفكر ديني محافظ، فيلسوف وكاتب وناقد أدبي وصحافي (1831 - 1891). (المترجم)

(21) صحافي وسوسيولوجي روسي، ناقد أدبي ومترجم (1842 - 1904)، منظر الشعبوية الروسية. (المترجم)

(22) فيلسوف ألماني وسوسيولوجي (1858 - 1918)، أحد أبرز ممثلي «فلسفة الحياة». (المترجم)

الرسالة الثالثة

في الدولة

كم هي ضعيفة وعاجزة جميع نظرياتكم العقلانوية عن الدولة! في القرن الثامن عشر، كنتم تودون تفسير طبيعة الدولة، عقلانيًا، بنظرية العقد الاجتماعي. أما في القرن التاسع عشر فجربتم تفسيرها بصراع الطبقات والعوامل الاقتصادية. لكن جميع تفسيراتكم، القديم منها والجديد، تصطدم بترسب ما غير قابل للتفنيد العقلاني، تصطدم بسر السلطة الغامض. ثمة في الدولة أساس غامض، وكان ينبغي الاعتراف بهذا الأساس الغامض، ومن وجهة نظر إيجابية، كحقيقة نهائية غير قابلة للتفسير. بداية السلطة هي بداية غير عقلانية تمامًا. ثمة سحر في كل سلطة، سحر مقدس أو شيطاني. لم يخضع أحد لأي سلطة في العالم وفق أسس عقلانية رشيدة. فالسلطة لم تكن، بل لا يمكن أن تكون أبدًا، منظمة لمصالح البشر، منظمة لسيطرة مصالح ما، أو ما من شأنه أن تترتب عنه مصالح. السلطة هي دومًا تغلغل بدايةً ما غامضة في العلاقات الإنسانية تأتي من الله أو من الشيطان. الدولة هي واقع من نوع خاص غير قابل للتفكيك إلى عناصر محض بشرية وإلى مصالح محض بشرية. إن وجود الدولة هو حقيقة من النوع الباطني الغامض. الدولة لا تُشتق من أي مصالح وحسابات بشرية، ويستحيل فرض الاعتراف بالدولة والخضوع لها بأي حجة عقلانية. لا يمكن الاعتراف بالدولة، وليس من معنى لإخضاع الذات لها على أساس النظرة الاسمانية والذرية إلى العالم التي يتمسك بها القسم الأكبر من الوضعيين والماديين. إن حقيقة وجود الدولة ذاته تؤكد الواقعية الوجودية الأنطولوجية، وتشير إلى وجود وقائع من نوع مختلف عن تلك التي ترونها وتعترفون بها أنتم، التجريبيون الاسمانيون (empiristes nominalistes) من الأطياف المختلفة. أنتم تعتقدون أن منظمة الدولة هي منظمة عقلانية رشيدة. إن الخضوع لسلطة الدولة هو، حقًا، ضرب من الجنون، وجميع الأيديولوجات الثورية ينشأ باسم الثورة العقلانية ضد هذه السلطة. الثورة تريد دومًا القضاء على سحر السلطة المقدس. لكنها هي نفسها تقع فورًا تحت سلطة سحر آخر. ثمة سحر سلطة غير قابل للتدمير، ينتقل فحسب من حال إلى أخرى. وللسلطة الثورية الجديدة سحر أيضًا تقترضه من سحر السلطة القديمة، وتقوم بتخدير الجماهير، الوسيلة القديمة الأبدية. ولا يستطيع أي دافع عقلاني رشيد أن يجبر الجماهير على الخضوع للدولة وتَحَمّل التضحيات في سبيلها. فهذا الأمر لا يمكن أن تبرره أي مصلحة. إن إذعان الجماهير لسلطة الدولة هو دائمًا ضرب من الجنون، هو حال من التنويم المغناطيسي، هو خوف الشعب أمام الوقائع التي تتخطى حياة الناس الواقعية. إن عنصر سلطة الدولة الموضوعي الأنطولوجي موجودٌ ويعمل في جميع الأشكال، مهما كانت هذه الأشكال سيئة، ولأي ضرب من ضروب التحلل تعرضت. وهو يعمل في السلطة السوفياتية أيضًا. ينبغي عدم خلط طبيعة السلطة بأي شكل من أشكالها ومطابقتها معه. الدولة لا يمكن أن يحسم أمرها جيل بشري معين. الدولة تحفظ الصلة الواقعية للأزمنة في حياة الشعوب، لهذا لا يمكنها أن تبقى على تلك العلاقة بالوقت التي يريدونها لها أولئك الذين يمدونها بتدفقها الموقت. لا يمكن أي جيل بشري أن يبني الدولة أو يدمرها، فهي ليست ملكًا للناس الذين يعيشون في مرحلة ما من التاريخ. للدولة، بهذا المعنى، طبيعة فوق زمنية وفوق تجريبية.

أنتم تريدون إذابة الدولة في المجتمع، تريدون مطابقتها مع المجتمع، بذلك يتم ترشيدها كلها. لكن الدولة، في الحقيقة، لا يمكن تقليصها كلها إلى حدود المجتمع، واشتقاقها من المجتمع؛ إذ يبقى فيها دومًا ترسب لاعقلاني، لم يدخلها من المجتمع ولا يُختصر بتعاون القوى الاجتماعية أو تصادمها. هذا الترسب الذي لا يُختزل بالمجتمع، ترتبط به خصوصية أو (specificum)[(23)] الدولة. هذه الخصوصية لا ترتبط بأي شكل من أشكال الدولة، فهي موجودة في كل شكل، إذا لم يكن قد تم إفراغ الدولة أو تدميرها، وهي تبقى بعد الثورات والنظريات الثورية عن الدولة. إن مذاهبكم

الاجتماعية حول الدولة تتوصل إلى بناء زائف للسلطة. هذه المذاهب لا ترى في السلطة واجبًا وعبئًا، بل هي حق وطموح. وهي تدفع إلى طريق النضال الشرس من أجل السلطة. هذه المذاهب تدمر بذلك السند الأخلاقي للسلطة وتنكر عليها المعنى الأخلاقي. في ظل بنية كهذه، ينبغي أن تكون السلطة نتيجة مصالح وخادمتها. وتبحث هذه المذاهب عن طرائق من أجل الدفاع عن المصالح، ومن أجل توفير السلطة الملائمة لها. ويحصل تفتت السلطة على الطرائق هذه، ويضيع كل أساس أنطولوجي لها. الدولة لا يمكن أن تُشتق أيضًا من تعاون الشخصيات بوصفها الحقائق الواقعية الوحيدة. الدولة هي حقيقة من نوع خاص (sui generis)[24]، هي حقيقة من نوع مختلف عن الشخصية. حقيقة الدولة وحقيقة الشخصية في حال تعاون، وتؤثر الواحدة منهما في الأخرى وتحتاج إليها، لكن يمكنهما أن تصطدما، ويمكن أن تولد من صدامهما صراعات مأساوية. يمكن الدولة أن تتخطى الحدود التي خَصها بها الله، وتدوس على حقائق من نوع آخر. وتبدأ حينئذٍ عملية مؤلمة في حياة الدولة وتصبح مهددة باضطرابات كبيرة. لكن، يمكن حتى شخصيات وفئات اجتماعية ومجتمعات بأكملها أن تتخطى حدودها وتتطاول على حقيقة الدولة. وعندئذٍ تحدث عمليات مؤلمة أيضًا في حياة المجتمع والدولة. وغالبًا ما تكون العمليات المؤلمة من هذا النوع مرتبط بعضها ببعض. في الحركات الثورية والثورات، تخرج الشخصيات والثورات والفئات الاجتماعية عن حدودها وتخالف البنيان التراتبي والانسجام.

***

لسلطة الدولة أساس ديني أولي ومصدر ديني. وأخفقتم أنتم في دحض هذه الحقيقة القديمة بنظرياتكم العقلانوية. الحقيقة تمثل واقعًا إيجابيًا. للسلطة أساس أنطولوجي، وهي ترقى لأن تكون المصدر الأولي لكل ما له حقيقة أنطولوجية. أنطولوجيا السلطة تأتي من الله. وأبلغ بولس الرسول العالم المسيحي بأسره بهذا الأمر، حين قال: «كل سلطة هي من عند الله»، وأن «القائد لا يحمل السيف عبثًا». وليس من قبيل المصادفة أنكم جميعًا تناصبون بولس الرسول العداء، أنتم الذين ترغبون في تبرير الفوضوية بالمسيحية. بولس الرسول هو العقبة الأكبر في طريقكم. إنه هو الذي لم يسمح بتحويل المسيحية طائفة يهودية ثورية أبوكاليبتية، إنه هو الذي أدخل المسيحية في التاريخ الكوني. أنتم، المسيحيون الفوضويون، المسيحيون الطائفيون، تريدون إخراج المسيحية من التاريخ الكوني مجددًا. إنكم ترغبون في تعطيل عمل التاريخ الكوني. إنه لكَذبٌ القول إن المسيحية فوضوية، وإن المسيحية تنكر الدولة.

المسيح نفسه عَلمنا أن نعطي ما لقيصر لقيصر. لكنه حرم إعطاء ما لقيصر لله. واعترف المسيح بمجال مملكة القيصر المميز، واعترف بأهمية هذا المجال لمملكة الله. أما أنتم، المسيحيون الفوضويون، فتريدون إفقار مملكة الله، تريدون إلغاء المجال الكبير المميز منها نهائيًا، أنتم تريدون بقصوويتكم (maximalisme) تقليصه، حجمًا، إلى الحد الأدنى. إن قصوويتكم هي، في الحقيقة، تبسيطية (minimalisme)، ولا ترى ولا تريد أن تعرف تنوع الوجود وثراءه، فهي تعاني فقرًا يهوديًا. الفوضوية المسيحية تنظر إلى المسيحية كطائفة صغيرة تناهض أقدار البشرية الكونية التاريخية. لذلك، فالوعي المسيحي الفوضوي هو وعي غير مسؤول. بولس الرسول جعل الوعي المسيحي وعيًا مسؤولًا.

أنتم الذين ترغبون في ضم المسيحية إلى الفوضوية، أنتم الذين ترفضون الدولة باسم حقيقة المسيح، أنتم الذين كتمتم في دواخلكم الشعور الأصيل بالخطيئة، أنتم الذين غاب عن بالكم أن

طبيعة الإنسان غارقة في الشر. إن تفاؤلكم الوردي لا يقبل المساومة مع ديانة الجلجلة. الدولة تقاوم الفوضى الخاطئة، وتمنع التحلل النهائي لهذا العالم الخاطئ بإخضاعه للقانون. وأحسن فلاديمير سالافيوف، حين قال إن الدولة وُجدت لا لجعل الحياة الدنيا جنة، بل للحؤول دون تحولها نهائيًا جحيمًا. ليس في وسع البشرية الخاطئة أن تعيش خارج الدولة، خارج الأسس الأنطولوجية للسلطة. فهي يجب أن تخضع للقانون، يجب أن تنفذ القانون. إن إلغاء قانون الدولة هو، بالنسبة إلى البشرية المولودة من رحم الخطيئة، بمنزلة العودة إلى حال التوحش. الدولة هي القوة الأنطولوجية الموحدة والمُدبِرة والمنظِمة التي تنكسر في الظلمة والخطيئة، كما الشعاع في الماء. إن الطبيعة العنفية القسرية للدولة هي بذاتها ليست شرًا، إلا أنها مرتبطة بالشر، هي نتيجة للشر وردة فعل على الشر. إن الإكراه والعنف قد يكونان خيرًا يعمل في طبيعة شريرة ومظلمة. لكن هذا لا يعني، بالطبع، أن كل إكراه دولتي وعنف أمر حسن، فكل منهما يمكن أن يكون شرًا وظلامًا. في ضوء الوعي المسيحي ينبغي أن يتم التعرف إلى الأسس المتقشفة للدولة. ثمة قسوة في طبيعة الدولة. الوعي الدولتي يرى قوة الشر وضعف الخير الطبيعي في الإنسان. ليس فيه تفاؤل ناعم، بل فيه تشاؤم قاس. ليس في فكرة الدولة حلم بالجنة والنعيم على الأرض. الحلم الذي على هذا النحو يتم ربطه دومًا بإنكار الدولة. الدولة أقل تَطلُبًا، وأكثر بدائيةً وبساطة. ثمة تقشف وخشونة في فكرة الدولة. إن الإنكار الحالم للدولة باسم طوبى الجنة والنعيم على الأرض، هو فجور في الحياة الاجتماعية، هو غياب الديسيبلين الذاتي المتقشف وضبط النفس. إن تخيلكم الفوضوي الاجتماعي هو أخلاقي بقدر ما هو مُدان في آن، كما الميل إلى التخيل الجنسي الذي يتصور دائمًا المعانقات الغرامية. كونوا أكثر تشددًا ووعيًا. وهذا أكثر جاذبية من الناحية الجمالية. إن التخيل الاجتماعي غير المحدود معادٍ للجمالية، فيه فسقٌ معادٍ للجمالية. الحاجة القاسية تضرب بشدة هذا التخيل وتشده إلى الواقع. ثمة بداية تربوية في هذه الحاجة، ثمة تقييد للتعسف الذاتي. إن التشاؤم الديني السليم عليه أن يعترف بقسوة الدولة، بإنصاف القانون بالنسبة إلى الطبيعة البشرية الشريرة والمتوحشة، بطبيعة آدم الدنيئة. ضبط النفس وتشذيبها حقيقة موجودة في الدولة، كما توجد فيها برودة وأناقة أرستقراطية لها جمالها الخاص. إن أحلام اللادولة وطوباوياتها لا تعرف شكلًا ولا حدودًا ولا مسافات، وثمة شعور بنقص الأرستقراطية الروحية فيها.

***

أنتم جميعًا الذين تدينون بالميتافيزيقا الديمقراطية، تقفون ضد الطبيعة التراتبية للسلطة. لكن السلطة لا يمكن ألا تكون تراتبية، وإطاحة كل تراتبية هي إطاحة كل سلطة، أي العودة إلى الفوضى الأولية. البداية التراتبية استمرت موجودة في جميع الديمقراطيات حتى الآن. الديمقراطية المتماسكة التي تطيح كل تراتبية لم توجد قط، ولا يمكنها أن توجد. إن الديمقراطية المتماسكة على هذه الشاكلة هي الفوضى بعينها. وهي ممكنة كحال انتقالية قصيرة، تتشكل بعدها السلطة عبر التمايز واللامساواة، عبر إحياء البداية التراتبية، وإن كان ذلك بأشكال جديدة. بعد الثورة الفرنسية، وبعد جميع الثورات التي تلتها، بقيت أوروبا تراتبية. تحاول أوروبا الجمع بين البداية التراتبية والبداية الديمقراطية. وتحصل هذه العملية في ظل صراع متواصل، وهو يعني حالًا لاعضوية إلى الحد الأقصى لجميع الدول والشعوب الأوروبية. لكن الشعوب المتحضرة لا يسعها أن تسمح بسقوط وجودها في فوضى مدمرة، لذا تتمسك بالبداية التراتبية الأبدية التجدد والانبعاث. كل دولة

تقوم على التفاوت والتمايز في بناء المجتمع، على التفتيت والتمييز في قوة العصف الشعبية في الجماهير. وتاريخ الجمهورية الاشتراكية السوفياتية يثبت ذلك على نحو رائع. ليس من دولة وليس من سلطة، بوجود قوى عصف وجماهير غير متمايزة متداخلة على نحو فوضوي. كل شيء يغرق ويختفي في قوى العصف والحشود هذه، ويستعصي كل شيء على التوجيه وكل هدف على التحقق. السلطة التي توجه الأهداف وتحققها لم تولد إلا في اليوم الذي ظهرت فيه اللامساواة، ووقع الفرز والتمايز، وبرزت عناصر النوعية. ولدت سلطة الدولة في العنف، لكنه كان عنفًا خيرًا، جعل أهداف حركة العالم في ظلمة عاجزة عن أي تمييز. أول العنفيين الذي أقام السلطة في الفوضى، وأقام فروقات، ووضع أهدافًا، كان فاعل خير للبشرية، ونزلت نعمة الله عليه. أنتم تقودون عملية ضد العنفي الأول هذا وضد قومه، أنتم ترون فيه مصدر الشر الذي ترغبون في تخليص العالم منه. وهنا خطأكم. إن منشأ السلطة هو منشأ ملكي، لا جمهوري، فهي ظهرت من تبجيل البطل. أنتم تفكرون على نحو خاطئ بطبيعة الإنسان وطبيعة العالم، أنتم الذين لا تؤمنون بأي شيء سام، أنتم، الوضعيون والماديون والعقلانيون، تقعون في التفاؤل الناعم وفي المثالية الحالمة حين يتطرق الحديث إلى الطبيعية البدائية للإنسان والمجتمع البشري. أنتم لا ترون الشر، لا ترونه في عمق الطبيعة البشرية، أنتم تسهون عن تلك الوحشية الفوضوية التي يتحدث عنها العلم الإيجابي، والذي تعترفون به أنتم أيضًا، لذلك أنتم تربطون الشر بظهور الدولة وبالفروقات الاجتماعية أو اللامساواة التي تشكلت فيها جميع الثقافات. أحد معلميكم، جان جاك روسو، اخترع نظرية العقد الاجتماعي السخيفة. كان يقع في أساس هذه النظرية تصور تفاؤلي حالم عن براءة الإنسان الطبيعي وطيبته، وهو افتراض يقول تمامًا بعكس ما يعلمه الدين والعلم. وتضمنت هذه النظرية عرض جميع الوحدات العضوية، والمجتمع البشري كان مفتتًا إلى ذرات، وتم ربط إعادة بنائه وإعادة بناء الدولة بجمع ميكانيكي للذرات. وليس المجتمع والدولة، فحسب، فقدا في هذه النظرية كلانيتهما العضوية، بل توقف الإنسان أيضًا عن أن يكون شخصيةً فردية عضويةً لا تتكرر دائمًا في خصوصيتها وقدرها، وتحول ذرة. إذًا، بدايةً، تُصور الدولة على أنها متعلقة بتعسف الإنسان، ومن ثم يُصور الإنسان على أنه متعلق بتعسف الدولة. وهنا يكمن التناقض المُدمر. إن المطابقة بين الدولة والمجتمع التي تؤكدها نظرية العقد الاجتماعي وسيادة الشعب، تُفضي إلى الاستبداد الكلي. إن الدولة هي، في الحقيقة، أقل استبدادًا من المجتمع الذي يُوهم نفسه بأنه دولة. يتم نفي المصادر الدينية للدولة التي لا علاقة لها بإرادة الإنسان وتعسف الإنسان، لكن لهذا بالذات تترسخ سلطة الدولة - المجتمع غير المحدودة على الإنسان. مذهب روسو هو بمنزلة تدمير ذاتي للإنسان، وهو أشد مرارة من الأَسر، أسر الإنسان لدى الناس وليس لدى البدايات السامية. الدولة، كونها بداية موضوعية، لا تؤكد أن الإنسان يعود إليها كليًّا، بل هي تطلب جزءًا منه فحسب. أما المجتمع البشري الذي أنشأه الناس اعتباطًا، لا يعرف حدودًا لمطالبه، بل هو على استعداد لأن يأخذ الإنسان كله. الدولة تنقذ الإنسان من الجماعية التي تلتهم الشخصية. وتقوم في هذا الأمر واحدة من مهمات الدولة. يكتفي الإنسان بالبدايات الموضوعية التي تقف فوقه، وهو يحمي نفسه بذلك. إن نظرية العقد الاجتماعي ليست ساقطة فحسب دينيًا وعلميًا، بل هي مروعة، من حيث عواقبها الاستبدادية. معلمكم الآخر كارل ماركس كان يعترف بالحاجة الموضوعية، ويحب الرجوع إلى القانون الصارم. لكن، لم يكن هذا شغفه. شغف الموضوعية، شغف الحاجة الطبيعية والقانون لمِ يكن من شأنه أن يستحوذ عليكم. لذلك، اتبعتموه أنتم، لأنه نادى بذاتية طبقية

غير محدودة، لأنه ألّه إرادة البروليتاريا. الجانب الموضوعي من نظرية ماركس المتعلق بالقانون والحاجة، لم تتمكنوا يومًا من تقبله حتى النهاية ونسيتم أمره. لكن، استحوذت عليكم نظرية أن الدولة هي منظمة سيطرة طبقية. في هذه النظرية السطحية البائسة أُعجبتم بالتعسف الإنساني الذاتي الذي يمكن بواسطته إسقاط سيطرة طبقية واستبدالها بأخرى. إن الدولة والمجتمع بالنسبة إلى مثل هذا الوعي يتشكلان ليس من ذرات مجردة، بل من طبقات مجردة. لكن، في كلتا الحالين حماستكم معادية كل ما هو أنطولوجي في حياة المجتمع، لكل ما ينبع من عمق كبير.

قد نجد في الفلسفة الاجتماعية، وفي النظريات عن الدولة السليمة المناهضة للتعسف الثوري والتحلل الذاتي لكل الحقائق الموضوعية، طبيعية (naturalisme) سوسيولوجيةً أيضًا. ثمة ضيق أفق في الطبيعية السوسيولوجية؛ إذ إنها لا ترى الأسس الأنطولوجية الروحية الأخيرة في حياة المجتمعات والدول. لكنها تحتوي على حقيقة جزئية ما ضد لاحقيقة الذاتية السوسيولوجية (subjectivisme sociologique) التي تسود جميع الأيديولوجيات الثورية. وليس مصادفةً أن يتم الاعتراف بـ «رجعي» القرن التاسع عشر العظيم جوزيف دو ماستر[25] واحدًا من ملهمي سوسيولوجيا القرن التاسع عشر الطبيعية. فقد قدم تفسيرًا دينيًا للنظرية حول المجتمع التي كانت مواتية للغاية لتأكيد القانون الموضوعي الطبيعي للعمليات الاجتماعية، والذي وجد تبريره العلمي كذلك. إن الحماسة للقانون الموضوعي وللحاجة في وسعها تعقيم الجو الثوري المنفعل، لكنها تنحني أمام الوقائع الثابتة والعنيدة، الأمر الذي يبين ضرورته القصوى بالنسبة إلى الدولة. فالدولة هي حقيقة موضوعية طبيعية وتاريخية، لا يمكن أن تنشأ أو تُدمر بإرادة البشر. وأولئك الذين لا يريدون ولا يستطيعون تقبل هذه الحقيقة دينيًا، عليهم أن يتقبلوها طبيعيًا، بحكم قوة القانون العلمي. الضرورة الموضوعية والقانون الحديد يضربان بشدة أولئك الذين لا يتقبلون الحقائق التاريخية طوعًا وعلى نحو واعٍ. التمرد يُعاقَبُ بقانون الضرورة. وإذا كانت جميع الثورات قد انتهت بثورات مضادة شديدة القسوة والبشاعة أحيانًا، فإن ذلك كان بمنزلة ردات فعل ضرورية للحقائق التاريخية، ردات فعل الطبيعة ذاتها التي لا تقبل في أعماقها أن تكون مغتصبة، ولم تكن إرادة الناس الشريرة ومجموعات الناس فحسب. ذلك هو الجانب المهم، من الناحية الأنطولوجية، من «ردات الفعل» على الثورات الذي لن يبلغه أبدًا وعيكم «المتنور»، وليس جانبها السطحي الذي كان فيه دائمًا كثير من السوء البشري.

ينبغي عدم إنكار صراع الأعراق والإنجازات التي تحققت في تشكل الدولة. فقد تم عبر هذه السبل «الطبيعية» تنظيم سلطة الدولة في المراحل الأولى من تطور المجتمع. في خضم الحروب والصراعات المريرة، تشكل عرق الحكام، وتم انتقاء الأفضل وتعززت أرستقراطية السلطة. للعرق أهمية بالغة في حياة المجتمعات البشرية وفي العملية التاريخية. فلم يكن من شأن عالم البشر أن يخرج من الفوضى المظلمة غير المتمايزة، لو لم يتشكل عرق من هم الأقوى والأفضل، العرق الملكي. كان التمايز وعمليات الانتقاء النوعي تحصل في صدر التاريخ عبر صراع الشعوب والأعراق المسلح، عبر الفتوحات وانتصار الأقوياء على الضعفاء. هذه الوسائل «الطبيعية» في تشكل الدول وتنظيمها لا تتعارض، ولو قليلًا، مع الأسس الدينية والروحانية للدولة. يوجد في طبيعية لودفيغ غومبلوفيتش[26] (Ludwig Gumplowicz) السوسيولوجية جزء لا شك فيه من الحقيقة يمكن فصله كليًا عن فلسفة غومبلوفيتش نفسه الوضعية. قامت الدول على أساس عدم المساواة العرقية، وعلى غلبة عرق مَن هم الأقوى والأفضل. للتاريخ الأولي للبشرية وغلبة القوة

الطبيعية حقيقتهما الخاصة. وإذا كنا ننتفض، مُحقين، ضد هيمنة القوة الطبيعية على الحق، فهذا الأمر لا يعني بعد أنه يعبر عن الحقيقة النهائية. هذه المقولة المثالية ينبغي أن ترتكز على مصادر وأسس واقعية معينة. فالكلام الإنسانوي الكبير عن العلاقة بين الحق والقوة لا يعالج المشكلة. وعلى مستوى أكبر من العمق ينبغي الاعتراف بالقوة مصدرًا للحق، إنما القوة التي تمتلك أساسًا أنطولوجيًا. أما القوة الطبيعية، فعند مستويات محددة من تطور البشرية، يمكن أن تكون التعبير عن القوة الأنطولوجية، أي إنه يمكن أن تتحقق عبرها حقيقة معينة. من دون القوة التي تبرز من باطن الطبيعة، لم يكن للحقيقة أن تبدأ وتتغلب في العالم. عبر القوة، قوة الطبيعة والعرق، ينبغي إدخال النور في الظلمة. من خلال الحق الضعيف كان من غير الممكن بناء علاقة بهذه الظلمة، كانت مستحيلة العلاقة الإنسانية بها. وكان من شأن أمواج الفوضى والظلمة والوحشية أن تغمر الحضارة الإنسانية، لو لم يكن في القوة المنتصرة انتقاء للنوعيات الأرفع والبدايات الأكثر تألقًا. جميع الدول ولدت وسط ضروب من العنف الدموي. والحاكم الأول كان العنفي الأعظم. كم هي مثيرة للشفقة جميع أهازيجكم ضد ضروب العنف هذه، وجميع انتفاضاتكم ضد هؤلاء العنفيين الملوكيين. إن ضروب العنف هذه كانت، حقًا، خيرةً وصالحة إنجيليًا، ومن دونها لم يكن من شأننا أن ننهض من الظلمة والفوضى إلى سمو الفضاء الإنساني. من دون ضروب العنف المقدسة هذه، كان من شأن الجنس البشري أن يغرق في الفوضى المتوحشة عند نقطة بداية تاريخه. عليكم أنتم أن تخضعوا للنظام الإلهي للعالم، وأن تتقبلوا الحقيقة الداخلية للقوى الحاكمة في التاريخ، أو سوف تسحقكم القوى الطبيعية التي تتخذ شكل القانون الخارجي والضرورة بالنسبة إلى الثائرين.

***

إن الأكثر تعقلًا من بينكم مستعدون للاعتراف بأهمية الدولة. لكن اعترافكم بالدولة يتسم بمصلحية فائقة، لذلك كنتم تودون لو تختصرونها إلى حد أدنى خدمي معين. فالدولة ليست وسيلة لتنظيم دورات المياه. الدولة قيمة معينة، وتتوخى بلوغ أهداف رفيعة محددة في المصير التاريخي للشعوب والبشرية جمعاء. الدولة مرتبطة ليس بالصغير فحسب، بل بالكبير أيضًا. الدولة بطبيعتها تسعى إلى الإكراه والتمدد. قوة الدولة هي قيمة بذاتها. ليس لقوة الدولة هدف نفعي، وهي لا توجد من أجل رفاه الناس الصغير، بل من أجل تحقيق رسالة أرفع. لا تطيق الدولة صبرًا على قص جانحيها، فهي مشدودة إلى المدى التاريخي. ثمة قدر محتوم يلاحق كل دولة كبيرة لشد القوة إليها، لرفع أهميتها في التاريخ. الدولة الكبيرة لا يسعها أن توافق، طوعًا، على وجود صغير محدود، ولم تقبل بذلك مرة واحدة في التاريخ. الإمبريالية هي قدر كل دولة كبيرة، وهي حلمها بالعظمة والتوسع العالمي. الإمبريالية ليست سياسة واقعية فحسب للدول الكبيرة التي تطمح إلى دور عالمي تاريخي، بل هي رومانسيتها. الإمبريالية هي اكتمال كل دولة كبرى وازدهارها، هي غايتها. في الحلم الإمبريالي ثمة ما هو شيطاني مفترس. إن الدول الكبيرة للشعوب التاريخية العظيمة خاضعة لديالكتيك إمبريالي محتوم، تبلغ العظمة ثم تموت، ترتفع إلى الذروة ثم تسقط. في ذروة إنجازات الإمبريالية يتم اختراق حدود الدولة، وتتخطى الدولة أطرها وتدخل في وحدة عالمية، يصبح من غير الممكن إطلاق تسمية الدولة الواحدة عليها، وهي تختلف عن جميع الدول الأخرى. الإمبراطورية تسعى دومًا إلى لأن تكون إمبراطورية عالمية. ومن غير الممكن، نظريًا، وجود سوى إمبراطورية واحدة، إمبراطورية عالمية وحيدة. الإمبراطورية تتقبل بصعوبة وجود إمبراطوريات أخرى بالقرب منها. الفكرة السليمة للإمبراطورية هي فكرة الاتحاد العالمي. أما من حيث الواقع، فإن هذه الفكرة لا تتحقق على النحو الأنموذجي، بل تتعرض للاختلال والتبدد. الفكرة

الإمبريالية متعارضة مع كل صغير في وجود الدولة، مع كل محدودية، مع كل ضيق وتسمرٍ في قطعة صغيرة من الأرض. أنتم الذين ترفعون صرخات الشارع ضد الإمبريالية و«برجزتها» التي تفضحها، أنتم صغار حقيقيون وتنتفضون، باسم مثل عليا صغيرة، ضد مهمات تاريخية عظيمة ليست مفهومة لكم. أنتم تريدون للدولة والمجتمع أن يعيشا بأهداف مفهومة، مُدركة عقلانيًا، أهداف صغيرة، قريبة، محدودة، أنتم تنتفضون ضد كل مدى تاريخي غامض وغير عقلاني بعيد المنال بالنسبة إلى غالبية الناس. فهو، بالنسبة إلى هذه الغالبية، بعيد المنال، فمن غير المفهوم لها لماذا كان الإسكندر المقدوني، وبتضحيات هائلة، بحاجة إلى إقامة مَلَكية عظيمة توحد الشرق والغرب، لماذا كانت الإمبراطورية الرومانية حاجة، لماذا كان أفضل الناس في القرون الوسطى يعيشون فكرة مَلَكية مسكونية، إمبراطورية مقدسة، لماذا قام نابليون بحملاته المجنونة إلى البعيد الذي قضى عليه، لماذا اندلعت في أيامنا حرب عالمية رهيبة تصادمت فيها الطموحات الإمبريالية للهيمنة. هذا كله جنون وهراء وجريمة أمام محكمة الوعي العقلاني البرجوازي الصغير الذي لا يعرف سوى مصلحة البشر وأجيال البشر. أنتم، وبسبب الجهل والخوف أمام كل بعيدٍ وغامض، تقومون بانتفاضاتكم الصغيرة ضد القوى التاريخية العظمى والمهمات التاريخية الكبرى. أنتم تمسّكتم بالسمة «البرجوازية» للإمبريالية المعاصرة. لكنكم نسيتم أن أسلوب الإمبريالية المعاصرة «برجوازي»، لأن كل ما في الحياة المعاصرة هو «برجوازي»، وكل شيء يحمل وشم النظرة الاقتصادية (économisme). كأن اشتراكيتكم هي أقل «برجوازيةً»، وكأن ثوراتكم هي أقل «برجوازيةً». أليس برجوازيًا أسلوب نفوسكم، أليست «برجوازية» أهدافكم كلها؟ أنتم نسيتم في صخب أيامنا المنابع القديمة للإمبريالية، نسيتم وجود الإمبريالية «المقدسة» التي لا تشبه بأسلوبها أبدًا الإمبريالية التجارية - الصناعية المعاصرة.

الإمبريالية قديمة قِدَم العالم، وهي لم تنشأ في عصرنا البرجوازي - الرأسمالي. الإمبريالية هي إحدى البدايات الأزلية في العالم. في مصر القديمة وأشور وبابل وفارس كانت قد أصبحت موجودة الإرادة الإمبريالية لتشكيل إمبراطورية كونية والخروج خارج حدود الدولة البرجوازية الصغيرة. في تكوين الممالك الشرقية القديمة التي كانت تصبو دائمًا إلى الاتحاد الكوني، كانت تنشط عوامل، في ما يبدو، أنها عوامل طبيعية واقتصادية. في الشرق القديم، كان يدور صراع ممالك طبيعي، وتحل، على نحو طبيعي، مملكة مكان الأخرى، كان يرتقي الأقوياء ويموت الضعفاء. لكن في هذه البيئة الطبيعية، عبر هذه القوى الطبيعية، كانت تتحقق أهداف معينة غامضة بعيدة للتاريخ، كان يتحقق معنى التاريخ. لم يكن للإمبريالية القديمة أساس طبيعي فحسب، بل كان لها أيضًا أساس مقدس تم تكريسه دينيًا. كان مُلكُ الإسكندر المقدوني الكوني هو الإنجاز الأعظم للإمبريالية القديمة. وحصل الإسكندر الكبير على التقديس الديني لسلطته من الكهنة المصريين في مصر. إن جميع التكوينات الإمبريالية العظيمة السابقة، والإمبريالية الفارسية على نحو مباشر، أفضت إلى مُلك الإسكندر الكوني. وحصل خلال هذا المُلك صِدام غير مسبوق بين العالمين: الشرق والغرب، تواصلا في ما بينهما واتحدا. خرج العالمان من حال انغلاقهما وتشكل أفق غير مسبوق ببعده واتساعه. كانت الحقبة الهلّينية توحيدًا روحيًا للبشرية وإغناءً لها على أساس الصراع الإمبريالي والإنجازات الإمبريالية. عادة لا يتحقق في التاريخ الأمر الذي تم تحديده هدفًا مباشرًا. المَلَكية الكونية التي كان يصبو إليها الإسكندر الكبير، تبين أنها كانت هشة جدًا وقصيرة. لكن نتائج أعمال الإسكندر الكبير كانت أزلية ولا تحصى من حيث أهميتها، حيث قامت وحدة البشرية. المرحلة الإمبريالية التالية، وهي الإمبراطورية الرومانية، كانت الإنجاز الأعظم في تاريخ الإمبراطوريات؛

إذ تم خلالها بلوغ العالمية الحقيقية. لكن أولئك الرومان الذين أقاموا الإمبراطورية الرومانية، حتى إنهم لم يشتبهوا بأنهم يخدمون هدفًا أكثر بعدًا وغموضًا من إنشاء دولة كونية عظيمة، وبأنهم يقيمون أساسًا طبيعيًا في البشرية الواحدة **للكنيسة المسيحية المسكونية**، وبأن قضيتهم سوف تبقى حتى بعد أن تكون الدولة العظيمة التي أقاموا، قد دُمرت. وهذا ما يحصل دومًا في التاريخ. الأهداف الواقعية القريبة ليست سوى الوسيلة الموقتة للأهداف التاريخية البعيدة والغامضة. الإمبريالية الإنكليزية تبعت أهدافًا تجارية - بحرية وصناعية أنانية جدًّا. لكنها خدمت قضية الوحدة الكونية للبشرية، وخروج الثقافة الأوروبية خارج حدودها على اتساع العالم. إن تنافس الإرادات «البرجوازية» الإمبريالية المعاصرة على العظمة العالمية كان لها معنًى رفيع غامض معين. لكنكم أنتم، صغار الديمقراطية والاشتراكية، المسحوقون بالوعي العقلاني، ليس في وسعكم فهم هذا المعنى. حان الوقت للتوقف عن قراءة المواعظ الأخلاقية البسيطة على التاريخ، ونقل معايير الأخلاق الفردانية إلى الواقع التاريخي. أخلاقيًا كان الفرس واليونانيون متساوين في كونهم محقين أو غير محقين، حين كانوا يتصارعون في سبيل قوتهم وهيمنتهم، وأخلاقيًا أيضًا كان الألمان والإنكليز متساوين في كونهم محقين أو غير محقين حين كانوا يتصارعون في سبيل قوتهم وهيمنتهم. صراع الإرادات الإمبريالية في التاريخ ليس صراع الخير والشر، بل هو مباراة حرة بين الشعوب والدول التي ليس بينها منبوذون كليًا من الله ومختارون حصريًا من الله. وليس الإمبريالي الإنكليزي جون كرامب[27] (John Adam Cramb) على خطأ كبير حين يقول: «لو قُدر للحدث الفظيع، الحرب مع ألمانيا، أن يقع يومًا ما فسوف تشهد الأرض صدامًا أكثر ما يذكر بوصف الحروب الإغريقية العظيمة ... وفي وسعنا نحن أن نتصور إله قبيلة الجرمان القديم الجبار الذي يسكن تحت الغيم، ينظر إلى الأرض بهدوء، إلى صدام أبنائه الأحباء، الإنكليز والألمان الذين يشتبكون في صراع قاتل، الإله الذي يبتسم للبطولة في هذا الصراع، بطولة أبناء أودين[28] (Odin) إله الحرب». إله كرامب (Cramb) هو إله وثني، لكن الإله المسيحي يمنح شعوبه الحرية أيضًا في إبراز قوتها الروحية والمادية. لا يمكن أي قوة منتصرة أن تكون مادية لا غير، بل هي تمتلك دومًا أساسًا روحيًا، مصدرًا روحيًا. الانتقاء الطبيعي للقوى المادية - الروحية ضروري في العملية التاريخية. إن من شأن غلبة الضعف أن يؤدي إلى خفض مستوى البشرية. أنتم ألقيتم بمسألة الإمبريالية على السطح. يجب النظر إليها بعمق شديد. حينئذٍ فحسب تتكشف لنا الطبيعة المزدوجة لكل دولة كبيرة وقوية ومتنامية: فمن جهة، الدولة تريد أن تكون دولة قومية مستقلة في مصاف الدول الأخرى التي لها حدودها وأشكالها الخاصة، ومن ناحية أخرى، تصبو إلى تخطي حدود الدولة المميزة وأن تصبح دولة عالمية. الدولة القومية هي دولة برجوازية صغيرة، قد تكون أكثر هدوءًا ورضا. الدولة الإمبريالية هي تحت رحمة قدر تاريخي غامض يحمل لها الوعد بالعظمة والموت، وهي تدخل في تراجيديا تاريخية لا خروج لها منها. لكن الشعب العظيم تشده الآفاق البعيدة ويأسره المجد أكثر من الهدوء البرجوازي الصغير والرضا. لكن يجدر القول إن الإمبريالية تخلق على دروب مصيرها التاريخي التراجيدي رضًا برجوازيًا صغيرًا أيضًا، تستخدمه لغاياتها الخاصة. الإمبريالية ليست سوى درب الشعوب والدول ومصيرها. فهي تحمل في ذاتها بذور الموت. وتأتي بديلًا منها الشيوعية الإمبريالية الكونية. إن فكرة الوحدة الكونية القسرية والسيطرة هي بذاتها فكرة وهمية زائفة.

***

لوجود الدولة في العالم معنًى ديني وتبرير. ولسلطة الدولة مصدر إلهي أنطولوجي. إن إنكار مصدر السلطة الأنطولوجي هو في أيامنا هذه تدمير للحقائق العضوية وإخلال بالنظام الكوني. لكن الدولة لا تمتلك طبيعة بريئة وطاهرة، فقد تبرز فيها بداية شريرة وحتى شيطانية، ويمكنها أن تنقلب لتخدم أهدافًا مناقضة لمهمتها. في وسع كل بداية أن تتحول إلى نقيضها وتسقط. ليس للدولة مصدر طبيعي فحسب، إنما لها مصدر إلهي أيضًا. وهو عمل البداية الإلهية في بيئة طبيعية عكرة، هو تحول البداية المطلقة إلى نسبية. لكن من غير المقبول تأليه الدولة، ومن غير المقبول تحولها إلى مطلق، من غير المقبول تقديم فروض الطاعة الإلهية إليها. الإمبريالية المطلقة هي كذب معادٍ للمسيح. الدولة ينبغي ألا تكون بدايةً استبدادية، غير محدودة، غير خاضعة لأي رفيع سام، ما فوق الدولة. هذه الحقيقة السامية كانت لا تزال مقفلة بالنسبة إلى الوعي الوثني. العالم القديم قبل المسيحي لم يعرف للدولة حدودًا. لم يكن قادرًا على التمييز. كان الإلهي بالنسبة إليه يغرق في الطبيعي والحاجة الطبيعية ولم يقتصر على الحقيقة الإلهية. كانت الدولة حاجة طبيعية، تحدها الفوضى المتوحشة. لم تكن مسألة رسم حدود الدولة لتُطرح على وعي العالم القديم. كانت شعوب العالم القديم جميعها تصبو لإقامة سلطة قوية، من شأنها أن تسيطر على العواصف الفوضوية وتفضي إلى خارج حال التوحش. هذه السلطة كانت مقدسة من الوعي الديني لشعوب العالم القديم. في مَلكيات الشرق العظيمة، كانت السلطة الحاكمة تُمنح أهمية إلهية، وتُقدم إليها مراتب التكريم الإلهية. وكانت مصر القديمة مهد هذا التقديس الديني للسلطة الحاكمة. كان الملوك هناك يتحدرون من الآلهة مباشرة. وكان لفرز العرق الملكي هذا من باقي العرق البشري حكمته الخاصة. لم تكن الطبيعة البشرية قد تحررت كفايةً من القوى العشوائية للطبيعة الدنيا وارتفعت إلى أعلى، من أجل أن توضع حقوقها في مواجهة الدولة وتتمكن من الحد من سلطتها. عبر استبداد الشرق كان الإنسان يخرج بصعوبة وبطء من الحال الطبيعية - الفوضوية، من الحال العفوية - البهيمية. لم تكن الدولة، بالنسبة إلى البشر في العالم القديم، مجالًا محددًا واضح المعالم، بل كانت كل شيء. كان الناس في العالم القديم يقدرون عاليًا الدولة التي كانت تحميهم بقوتها من العواصف الطبيعية، لدرجة أنه حتى في اليونان الأكثر بشريةً، اليونان الأكثر إنسانيةً، لم يتمكنوا من رسم حدود للدولة. هذه الحدود لم يعرفها حتى أفلاطون الإلهي نفسه.

كان التقديس الديني للسلطة الحاكمة في الشرق وتأليهها، يحمل في طياته بذرةً نبتت منها لاحقًا في روما، في بيئة روحية مختلفة، في عمر مختلف للبشرية، عبادة القياصرة والإقرار بالقيصر إنسانًا - إلهًا. وحينذاك اصطدمت عبادة قياصرة روما التي كانت تتضمن تقديم آيات التبجيل الإلهي إليهم، بالنور المسيحي الذي أضاء العالم. وحين استشهد المسيحي الأول لأنه لم يرغب في تقديم آيات التبجيل الإلهي إلى القيصر، كان باستشهاده هذا يضع حدًّا، وإلى الأبد، لطموحات سلطة الدولة، ويواجهها بالطبيعة غير المحدودة للروح الإنسانية كحدٍّ (limite) روحي. وعلى دماء الشهداء قامت كنيسة المسيح وتشكلت مملكة روحية جديدة نقيض مملكة القيصر الوثنية ومطامحه غير المحدودة. انتهى استبداد الدولة الروحي. وافتتح مصدر روحي جديد للحقيقة، مستقلًا عن الدولة. وتكشفت للوعي المسيحي فحسب، وأول مرة، حدود سلطة الدولة، وأول مرة أصبح من الممكن بالنسبة إليه فحسب التمييز بين المملكتين وفصلهما. وبدأت بكلمات المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» حقبة جديدة في تاريخ الدولة في العالم. «مملكة الملوك» و«مملكة الله» تتمايزان في ما بينهما وتدخلان في علاقات متبادلة شديدة التعقيد وتفيض مأساوية. العلاقات الدراماتيكية بين «مملكة القيصر» و«مملكة الله» والصدام بينهما لم يتوقف حتى اليوم، وسوف

يستمر إلى نهاية الزمان، ولا يفعل غير أن يدخل أطوارًا جديدة فحسب. ورفض الوعي المسيحي كل استبداد لسلطة الدولة، سواء كان استبداد القيصر أم استبداد الشعب. ووضع حدودًا لأي سلطة بشرية، سواء كانت سلطة فرد أم مجموعة أم سلطة الكل. هذه الحقيقة المسيحية ترتفع فوق أشكال سلطة الدولة كلها، وهذا لا يعني أبدًا تفضيل شكل على آخر. سلطة القيصر في العالم المسيحي مقيدة بكنيسة المسيح وبالطبيعة غير المحدودة للروح البشرية التي لا تتكشف سوى عبر المسيح. إن مصدر تقييد سلطة الدولة هو مصدر ديني روحي محض. هذا التقييد في أساسه الأولي ليس تقييد الدولة من المجتمع والمجموعات الاجتماعية التي تطالب بهذه الضمانات الدستورية أو تلك، بل هو، بالدرجة الأولى، تقييد الدولة من الكنيسة والروح الإنسانية. تَضَمنَ الوحي المسيحي «إعلان حقوق» للروح الإنسانية خاص جدًا تبناه الرب يسوع. في العالم المسيحي لم يعد في وسع الدولة المطالبة بالإنسان كله؛ إذ إن سلطتها لا تمتد إلى دخيلة الإنسان، إلى حياته الروحية. دخيلة الإنسان تعود إلى الكنيسة، وليس إلى الدولة. ليس للدولة عمل سوى مع الغلاف الخارجي للإنسان، ولا تنظم سوى العلاقات الخارجية للناس. وغالبًا ما تتخطى الدولة في العالم المسيحي حدودها، وتخترق ما هو ليس مجالها، وتغتصب النفس البشرية. لكن هذا أصبح خطيئة الدولة، انحرافها عن السبيل القويم. من الناحية الروحية، حدود الدولة وُضعت إلى أبد الآبدين وتم الإقرار بحقوق النفس البشرية. ويصح هذا أيضًا بالنسبة إلى الممالك الاستبدادية التي لا يقيدها المجتمع والمجموعات البشرية، بل تقيدها الكنيسة وحقوق النفس البشرية. وبما أن الأوتقراطية تجاوزت الشكل القومي - التاريخي للمَلَكية، المقدسة دينيًا، لكن ليس المؤلهة، نزعت هذه الأوتقراطية نحو تأليه القيصر، وخانت بذلك حقيقة المسيح وسارت على درب عبادة الإنسان - الإله. هذا الانحراف كان دائمًا أقوى في الشرق، في بيزنطية وروسيا، مما كان في الغرب. في الغرب، في الكاثولكية، تم الإقرار بحزم بحدود سلطة الدولة، سلطة القيصر، ورَسْمها. عبادة القيصر عادت من روما إلى موطنها في الشرق. في الغرب، كانت حقوق الإنسان تلمس بقوة أكبر. أنتم جميعًا، المرتدون عن المسيحية الذين نسوا موطنهم الروحي، تطالبون بتحرير الإنسان والحد من سلطة الدولة عليه، من دون أن تدروا من أين يأتي هذا الحد وهذا التحرير. أنتم فقدتم معارف آبائكم الدينية ورحتم تعبّرون عن الحقيقة المسيحية على نحو علماني عاجز ومشوّه. إن كل تقييد لمطامح الدولة وكل تعزيز لحقوق الإنسان ينبع من الكنيسة المسيحية والوحي المسيحي بأن الإنسان هو ابن الله. ونسي ذلك أبناء زمننا. لذلك، حين أرادوا خلال الثورات تحرير الإنسان وتأكيد حقوقه، أقاموا سلطة استبدادية - أوتقراطية أشد رعبًا للمجتمع والشعب. حرروا الفوضى القديمة، وعند ذلك عادت الحقيقة القديمة إلى الدولة إلى الحياة من جديد.

***

لكن تأكيد صوفية (mysticism) الدولة والطابع الديني للسلطة لا يعني لزامًا مفهوم ثيوقراطية الدولة والسلطة. الثيوقراطية هي، بالدرجة الأولى، بداية يهودية قديمة. الثيوقراطية المسيحية هي غربية - بابوية، والشرقية هي قيصرية، وكانت تعني غلبة بدايات العهد القديم داخل المسيحية. الحقيقة الكبرى لم تكن في الفكرة الثيوقراطية البابوية، ولا في الفكرة الثيوقراطية القيصرية، بل في مقولة دانتي الثنائية، وهو الذي لم يكن المُعبّر عن روح القرون الوسطى فحسب، بل بشير الأزمنة الحديثة أيضًا. المعنى المقدس للإمبريالية لا يعني لزامًا مفهومها الثيوقراطي. في الإمبريالية ثمة إجهاد للإرادة الإنسانية، لإرادة الشعوب، وفي هذا الإجهاد التاريخي للإنسان والشعب ثمة قدر كبير من الحرية. لا يمكن أن تكون مهمة بناء إمبراطورية عظيمة مجرد تطبيق بسيط للقانون

الديني والوصايا الدينية، كما كان سيرغب التبرير الثيوقراطي لفكرة الإمبريالية. الإرادة الإمبريالية تتخطى دائمًا حدود القانون. أبطال الفكرة الإمبريالية، الإسكندر الكبير، يوليوس قيصر، بطرس الأكبر، نابوليون وبسمارك، هم أشخاص ذوو إرادة شيطانية. الإمبريالية الثيوقراطية مفهوم شديد النعومة يطمس أعمق تناقضات النفس البشرية وأكثرها مأساوية. وهي نقيض «مملكة القيصر» و«مملكة الله» ولا يمكن إخضاعها والتغلب عليها ضمن حدود الحياة الواقعية على الأرض. ليس في وسع الدولة والكنيسة أن تكونا موحدتين ولا منفصلتين، بل هما في حال تعاون تناقضي؛ إذ يعاون كل منهما الآخر، ويواجهه. المسيحية تبرر الدولة وتقدسها، غير أنه بالمعنى الصارم لكلمة «الدولة المسيحية» يستحيل أن تقوم بذلك. في طبيعة الدولة سوف تبقى دومًا عناصر، إن لم تكن معادية للمسيحية، فهي عناصر وثنية ليست مسيحية. لا يمكن الدولة أن تكون صالحة مسيحيًا حتى النهاية. الدولة ليست وحي الحب والتسامح وأخوّة البشر بالروح. الدولة ظاهرة من النوع الطبيعي وليس المصلحي. وتشعر بالزيف والبهتان في هياكل الدولة المسيحية كلها. في مملكة الله مملكة النعيم ما فوق الطبيعية، ولم تعد فيها الدولة القسرية. لكن سوف يكون من الخطأ أن نرى في الدولة الحد الأدنى الضروري، الشر الضروري، الشر الأقل للبشرية الخاطئة، والذي سوف يُلغى حين ترتقي البشرية إلى مستوى أرفع. هكذا، يفكر كثرٌ منكم الذين يتعاطفون مع الفوضوية المسيحية. كلا، لن يتيسر لكم حشر الدولة في زاوية مظلمة. للدولة مهمات إيجابية، وهي تصبو إلى أقصى الممكن.

الفكرة الإمبريالية تقلق الدولة دائمًا. «دولة القيصر» هي مجال مميز ضروري لثروة دنيا الله وقوتها؛ إذ تتحقق فيه مهمات خلاقة لا تتحقق بطرائق أخرى. مملكة القيصر هي مستوى ضخم في تراتبية الوجود. وهي لا تصبح مملكة الشر إلا حين تطالب بطقوس التبجيل الإلهية لذاتها، حين يؤلهونها، حين يُحِلونها مكان مملكة الله، حين تعتدي على عمق النفس الإنسانية وعلى طبيعتها اللامتناهية. من هنا، يكتسب التمييز والتفريق أهميتهما بين المملكتين اللتين جعلهما المسيح قدرًا أزليًا. للدولة أساس ديني، وتحلل هذا الأساس الديني يعرضها لخطر التفكك. الأصل الملازم للدولة هو الأصل الروحي لا المادي. أما دنيوية الدولة ففيها حقيقتها النسبية الخاصة. الدولة تخرج من العقوبات الدينية الضبابية المجردة القديمة. وهي تمر عبر تقسيم مخزونها العضوي. لكن، بما أنها تفقد أساسها الروحي الديني الداخلي، تتعرض لعمليات تحلل وتعاني اضطرابات عظيمة. ينبغي لنا أن نقر بصراحة وجرأة بأن وجود الدولة في العالم أمام محكمة الوعي الديني المسيحي هو أمر ضد القانون (Antinomianism)[29]، وهذه antinomism لا يمكن تخطيها بأي تركيبة مسيحية - ثيوقراطية ومسيحية - فوضوية أنيقة. أراد الله الدولة لتحقيق أقداره المحتومة. وليس بمقدوركم تغيير مشيئة الله وتقويمها. لا يبقى لنا سوى أن نتخلص نهائيًا من التناقضات الدينية للدولة. إن موقف أي مسيحي من الدولة يخلق له صراعات مأساوية. صراعات يستحيل تجنبها، بل يجب تقبلها حتى النهاية. الحقيقة المسيحية التي تقول إن النفس البشرية أثمن من مملكة العالم بأسرها، ليست رفضًا للدولة ولا تدميرًا لها. لستم على صواب أنتم جميعًا، أعداء الدولة، الراغبون في استخدام الحقيقة المسيحية لأغراضكم الخاصة. أنتم ترغبون أحيانًا في استخدام المسيحية لأهداف نفعية. وفي هذه الحالات لا تدخل جعبتكم ذرة واحدة من الحقيقة المسيحية، بل هي كلها تفر منكم. لا يبقى لديكم سوى القشور، سوى التركيبات الخارجية والكلمات الفاقدة معناها. كم يسيء إلى الإنجيل أولئك الذين لا يؤمنون به. ثمة في ذلك شيء ما قبيح داخليًا. وتبلغ هذه القباحة مقاييس خيالية لدى تولستوي. أنتم تودون كثيرًا لو تعدلون المسيحية وتجعلونها على النسق الإنسانوي، لكن

ذلك لن يتيسر لكم. إن جميع اعتراضاتكم «المسيحية» ضد الدولة هي، في الجوهر، اعتراضات إنسانوية. إن فوضويتكم كلها التي تلجأون إلى الحجج المسيحية أيضًا لتبريرها، قائمة على الإنسانوية الوضعية، والمسيحية بالنسبة إليكم ليست سوى القشرة.

العلاقة بين الدولة والإنسانية علاقة معقدة جدًّا. في الدولة لا تعمل البداية الإلهية فحسب، التي نشأت منها والمُكَرسَة لها، بل تعمل أيضًا البداية الإنسانوية البشرية المحض. هذه البداية الإنسانوية كانت دائمًا تعمل في السلطة السائدة. فقد كانت موجودة في الإسكندر الكبير، وبلغت تعبيرها الأقصى في نابليون. الحيوية البشرية المحض عرفتها أيضًا السلطة القيصرية الروسية والبيروقراطية، وقد تكون هي الحيوية التاريخية الوحيدة في روسيا. تستند الدول والإمبراطوريات في أساسها إلى الإنسانية الأرستقراطية. لكن ثمة أمرًا آخر يُضعف الإنسانية الديمقراطية التي تؤدي إلى تحلل الدول والإمبراطوريات وتحطمها، والمعادية أيضًا لكل قوة تاريخية ولكل عظمة تاريخية. وهي ترغب في تجنب التضحية بالشخصيات والحيوات البشرية، لأن ليس في وسعها تبرير هذه التضحيات في حدود الحياة الواقعية على الأرض، وهي لا تعترف بالحياة الأخرى. إن إنسانيتكم الديمقراطية والمعادية للدين تفيض رفضًا وجدانيًا ناعمًا لقسوة الدولة وشدتها وبرودتها، لأنكم أنتم لا تؤمنون بالحياة التي تسمو فوق الجزء المقتطع الواقعي من الحياة البشرية. الإنسانية الديمقراطية تظهر عقابًا على الطرائق الملتوية للإنسانية الأرستقراطية. أنتم، وبكل بنائكم الروحي، ليس في وسعكم الإقرار بأن القيمة العابرة إلى الخلود مرتبطة بالدولة. إنسانيتكم لا تُجيز الدولة إلا كوسيلة نفعية من أجل المصلحة وراحة الناس الدنيوية. أنتم تحولون الدولة إلى منظمة مصالح وتودون لو تختصرونها في مؤسسة تجارية اقتصادية، لو تحولونها مكتبًا تجاريًّا - صناعيًّا. وأنتم تفككون الدولة بوصفها قيمةً وواقعًا مستقلًا. لا يمكن الدولة أن تبررها المصالح. وهي تضع حدودًا لمصالح كل جيل على قيد الحياة وتُخضعها للماضي العظيم وللمستقبل العظيم. ولا يؤثر في الدولة من هم على قيد الحياة فحسب، بل الأسلاف الذين ماتوا أيضًا والأحفاد الذين لم يولدوا. جميع مذاهبكم الليبرالية والديمقراطية والاشتراكية تمر بالقرب من طبيعة الدولة. مذاهبكم لا تلتقط جوهر الدولة، لكنها تطلق طاقات تُفكك هذا الجوهر. مصير الدولة وديالكتيكها هو أنه حين يوجد في الملكية المطلقة تأكيد إنسانوي للذات، يُدخل تغييرًا على الرسالة الدينية للسلطة، حين يقول لويس الرابع عشر: الدولة أنا (L'état c'est moi) يرد الشعب الثائر بتأكيد إنسانوي آخر للذات وديمقراطية أنا.

جميع الطوباويات التي تقول بالدولة الإلهية المثالية على الأرض تقوم على أساس الخلط بين مخططات مختلفة، خلط هذا العالم بعالم آخر. جميعها محاولات لوضع فضاء رباعي الأبعاد في فضاء ثلاثي الأبعاد. وعلى هذا الأساس عينه تقوم جميع الطوباويات التي تنفي الدولة، الطوباويات التي تقول بحال اللادولة المثالي على الأرض. الدولة هي طريق قربانية بشرية صعبة إلى فضاء ثلاثي لا رباعي الأبعاد، إلى عالم طبيعي يغرق في الشر. الدولة لا يمكن أن تقوم على أساس الحب فحسب. مملكة الحب هي مملكة النعيم، مملكة الله، وليست مملكة قيصر. الكنيسة تقوم على الحب، وليس على الدولة. المملكة هي مقياس آخر للوجود، غير مقياس الدولة. هاتان المملكتان تتعايشان، تتواصلان، تتعاونان، لكنهما لا تندمجان، لا تتطابقان ولا تقصي إحداهما الأخرى، لا تحل الواحدة مكان الأخرى. جميع محاولات فرض الحب المسيحي على الدولة، بمنزلة أساس وحيد، تؤدي إلى الطغيان. الحب المسيحي يمكن أن يكون لونًا مجانيًا للحياة الاجتماعية والتواصل الاجتماعي، إنما ليس أساسًا قسريًا لها. لذا، للحق هذه الأهمية الهائلة في التواصل الإنساني، فهو

الحماية والضمانة للحد الأدنى من حرية الإنسان، وهو يحمي الإنسان من أن تتوقف حياته كليًا على الخصائص الأخلاقية، على حب الإنسان الآخر أو كرهه. حرية الإنسان واستقلاله يتطلبان أن يكون في أساس الدولة ليس الحب فحسب، بل القانون والإكراه كذلك. تلك هي الحقيقة العليا. الوحدانية (le monisme) في الحياة الاجتماعية، الهيمنة الحصرية لبداية واحدة تقود دومًا إلى الطغيان، إلى القضاء على تنوع الحياة وغناها. إن الجمع بين بدايات متعددة يتفاعل بعضها مع بعض ويخضع داخليًا لمركز روحي، يعطي حرية وتنوعًا أكبر. جميع الطوباويات تشكو من الوحدانية الاجتماعية المتطرفة، لذلك تفضي إلى الطغيان. وقد يكون الطغيان الأفظع هو ذلك الطغيان المأخوذ بالإنكار الكلي للدولة باسم هذه البداية أو تلك، طبقية أو فردية، دوَلية أو شعبية. القدر الأكبر من الحرية يتوافر حين يشعر الإنسان ويقر بالدولة متأصلةً فيه وليس خارجه متعالية عليه، كما جميع الحقائق والوحدات فوق الذاتية.

(23) كما وردت في النص الروسي. (المترجم)

(24) هكذا وردت في النص الروسي. (المترجم)

(25) انظر ملاحظات المترجم في الرسالة الأولى.

(26) سوسيولوجي واقتصادي ومحامٍ بولوني من أصل يهودي، ممثل الداروينية الاجتماعية (1838 - 1909). (المترجم)

(27) مؤرخ اسكتلندي، وطني شديد الحماسة. كان ينشر أعمالًا علمية شعبية باسمه وباسم مستعار «R. A. Revermont» (1862 - 1913)). (المترجم)

(28) كبير الآلهة في الميثولوجيا الجرمانية الاسكندنافية، وهو إله متعدد الاختصاصات: الحكمة والحرب والموت والنصر وسواها. (المترجم)

(29) مذهب لاهوتي يقول إن الغفران في المسيح الذي حصلنا عليه يلغي ضرورة وجود أي قانون للمحاسبة، وبالتالي في وسع المسيحي أن يقوم بالأفعال التي يحرّمها الإنجيل. والكلمة تتكون من مصطلحين يونانيين يعنيان حرفيًّا «ضد القانون». (المترجم)

الرسالة الرابعة

في الأمة

إن الناس الذين على نمطكم المعادي لي، لم يفكروا إلا قليلًا في الأمة وفي القضية القومية. أنتم على استعداد للاعتراف بالدولة لاعتبارات مصلحية. لكنكم كنتم عاجزين عن النفاذ إلى السر الدفين للوجود القومي. إنكم، وللحقيقة، تعترفون بحقوق القوميات المُضطهَدَة ومستعدون لأن تصبحوا متعصبين قوميين متطرفين بالنسبة إلى هذه القوميات. كثرٌ منكم يرفعون على راياتهم حق تقرير المصير للقوميات. لكن هذا يؤكد أن ليس في وسعكم مقاربة سر الوجود القومي إلا ظاهريًا فحسب، ولا وصول لكم إلى داخله. كنتم على استعداد للإقرار بالوجود القومي والحقوق القومية لليهود أو البولونيين، التشيك أو الإيرلنديين، أما الوجود القومي للروس وحقوقهم القومية فما وَسِعَكم الاعتراف بها قط. وهذا لأنه كانت تعنيكم مسألة الاضطهاد ولم تكن تعنيكم مطلقًا مسألة القوميات. أنتم أعلنتم حق القوميات في حرية تقرير المصير من دون أن تهتموا بالقوميات نفسها على وجه الإطلاق، ومن دون أن تؤمنوا حتى بوجود هذا النوع من الحقائق. أنتم بحاجة إلى «حرية تقرير المصير» هذه بوصفها وسيلة نضال من أجل مثلكم العليا الاقتصادية والاجتماعية، من أجل المساواة المجردة والحرية، لا من أجل وجود قومي ملموس أو ازدهار قومي. ثمة سر غير عقلاني في الوجود القومي مخفي في الأرض عميقًا، يتعذر عليكم بلوغه، في الحقيقة. أنتم لن تنفذوا إلى هناك أبدًا، وسوف تبقون على السطح أبدًا. أنتم حساسون جدًا تجاه المسألة اليهودية، وأنتم تناضلون من أجل حقوق اليهود. لكن، هل تشعرون أنتم بـ «اليهودي»، هل تشعرون أنتم بروح الشعب اليهودي، هل نَفَذتم أنتم يومًا إلى هذه الأسرار، إلى أقدار اليهودية هذه التي ترتقي إلى الينابيع القديمة للبشرية؟ كلا، إن نضالكم من أجل اليهود لا يريد أن يتعرف إلى اليهود، لا يقر بوجود «ما هو يهودي»، إنه نضال أممي من أجل المساواة، نضال من أجل إنسان مجرد، من أجل جعل الإنسان مجردًا. أنتم لا تعرفون إنسانًا محددًا من لحم ودم، من عشيرة وقبيلة، إنسانًا قوميًّا. إن نضالكم من أجل تحرير القوميات المضطهدة ومساواتها هو نضال أممي، نضال هندسي (géométrique)، نضال يشتت الإنسان القومي ويبعده من صورته النابضة، عن الأبوة والأمومة.

إن «مضطهدي» القوميات يقرون بها أحيانًا أكثر من «محرريها». فهم يضطهدون إنسانًا قوميًا حيًا ابن قبيلة وعشيرة، من لحم ودم، و«يحررون» إنسانًا هندسيًا مجردًا. أنا لا أريد «اضطهاد» اليهودي واليهودية، لكنني لا أريد، في المقابل، أن «أحرر» إنسانًا مجردًا، كما التجريد عينه، فاقدًا يهوديته كلها. إنني أشعر عميقًا باليهودي واليهودية، بكل خصوصية المصير اليهودي وفرادته وصموده. مشاعري هذه تتحول تعاطفًا، لكنني لا أؤمن بالحل المساواتي والتمييعي للمسألة اليهودية. إن سر كل وجود قومي جدير بالتعاطف. وينبغي النفاذ إلى هذا السر، حتى حين يتعلق الأمر بأمة على عداوة معنا. كان الشعب الألماني عدونا وكان علينا القتال ضده. لكن ما هو فريد ومميز والأكثر حميمية في النفس الألمانية، والمتفرد في التعبير دائمًا عن السيماء الألمانية، يستحق التَعرف المُتفَهِم له في لحظة القتال أيضًا. لا يلمس المرء في نضالكم الأممي من أجل تحرير القوميات ومساواتها تفهمًا للسيماء القومية، وهو يفتقد حب الشخصية القومية. وكان كونستانتين ليونتييف محقًا حين قال إن سياستكم القومية ليست سوى أداة للتدمير العالمي، ولم يرَ فيها سوى غلبة الديمقراطية والكوسموبوليتية. إن مبدأكم «حق تقرير المصير للقوميات» الذي على هذا القدر من التفاهة في الثورة الروسية، هو تجريد مناهض للتاريخ، ابتدعه أولئك الذين يرفضون تلك الحقيقة الفريدة التي تسمى القومية. القومية لا يمكن انتزاعها من التاريخ الملموس، وحقها لا يمكن النظر فيه على نحو مجرد. لكل قومية، في مراحل وجودها المختلفة، حقوق مختلفة. وجميع القوميات التاريخية تمتلك حقوقًا مختلفة. هذه الحقوق لا يمكن أن يُساوي بعضها بعضًا. ثمة تراتبية

قوميات معقدة. ومن العبث والسخف جعل حقوق تقرير المصير للقومية الروسية والقومية الأرمنية والقومية الجورجية أو التترية، على قدم المساواة في ما بينها. ومن العبث والسخف التمسك بمعيارٍ مجردٍ واحدٍ لمقاربة القومية الألمانية والقومية الإسبانية في لحظة معينة من التاريخ العالمي. تحلّ في حياة الأمم فترات ازدهار وفترات ذبول، فترات استنفار قواها إلى أقصاها وفترات ضعف. وحقوقها في تقرير المصير مختلفة في هذه الحالات. إن مسألة حقوق القوميات في تقرير المصير ليست مسألة حقوقية مجردة، بل هي، بالدرجة الأولى، مسألة بيولوجية، مسألة صوفية - بيولوجية (mystico-biologique). وهي تقوم على أساس غير عقلاني للحياة لا يخضع لأي عَقلنة حقوقية وأخلاقية. لدى جميع القوميات التاريخية حقوق يختلف بعضها عن بعض وغير متساوية، ولا يمكن أن تكون لديها المطالب عينها. ثمة حقيقة كبرى تكمن في التفاوت التاريخي للقوميات، وفي تفاوت أوزانها، وفي الهيمنة التاريخية لهذه القوميات أو تلك، ثمة إنفاذ لقانون أخلاقي للواقع التاريخي، لا يشبه أبدًا قانون الواقع الفردي.

***

الأمة هي مقولة تاريخية بامتياز، مقولة **تاريخية** - ملموسة، وليست سوسيولوجية - مجردة. هي وليدة واقع تاريخي مميز كليًا، وسرها عصي على أولئك المحرومين من الإحساس بالواقع التاريخي، المقيمين بكليتهم في المقولات السوسيولوجية المجردة. أنتم، ذوو النظرة السوسيولوجية المجردة، ليس في وسعكم فهم سر الوجود القومي، لأنكم تفككون الأمة إلى عناصر سوسيولوجية مجردة. بعد تحليلكم لا يبقى من الأمة شيء. إن الأمة عصية، حقًا، على أي تعريف عقلاني. وليس لأي سمة عقلانية ملموسة أن تحيط بوجودها. وكلما حاولنا تطبيق تعريفات عقلانية سيكولوجية أو سوسيولوجية على الأمة، ابتعد وجودها غائرًا في عمق لاعقلاني غامض. وجود الأمة لا يُعرف ولا يُستنَفَذ لا بالعرق ولا باللغة ولا بالدين ولا بالأرض ولا بسيادة الدولة، وإن كانت جميع السمات هذه جوهرية، إلى هذا الحد أو ذاك، بالنسبة إلى الوجود القومي. إن أكثر من هم على صواب، هم أولئك الذين يعرفون الأمة بأنها وحدة المصير التاريخي. إن وعي هذه الوحدة بالذات هو الوعي القومي بعينه. لكن وحدة المصير التاريخي هي السر اللاعقلاني بعينه. هذه المرحلة فريدة ولا تتكرر في الوعي القومي، حيث يكون غارقًا في أعماق الحياة، في أعماق الواقع التاريخي. يشعر الشعب اليهودي بوحدة المصير التاريخي الغامضة هذه، مع العلم أنه فقد تقريبًا سمات الوجود القومي كلها من اللغة إلى الأرض إلى الدولة، وتراجع عن ديانته القديمة. الإقرار بوحدة المصير التاريخي الغامضة هذه لا تقدر عليه سوى عناصر الدم المختلط الآتية من امتزاج الأعراق المعقد. ليس من دم صاف وأعراق صافية في الأسس البيولوجية للقومية التاريخية. إن تشكل القومية التاريخية هو بذاته نتيجة تفاعل الأعراق واختلاطها. العرق بذاته هو عامل طبيعي - بيولوجي، حيواني، وليس تاريخيًا. لكن هذا العامل لا ينشط فحسب، في التشكيلات التاريخية، بل يؤدي دورًا مُحددًا وغامضًا فيها. ثمة في العرق عمق غامض في الحقيقة، له أنطولوجيته وميتافيزيقيته الخاصة به. من المنابع البيولوجية للحياة تدخل الأعراق البشرية الواقع التاريخي، وتنشط فيه كونها أعراق تاريخيّة أكثر تعقيدًا. ويحتل فيه كل عرق من الأعراق الأبيض والأصفر، الآري والسامي، السلافي والجرماني موقعه المختلف. بين العرق الحيواني والقومية التاريخية توجد سلسلة كاملة من المستويات التراتبية الوسيطة المتشابكة في ما بينها. القومية هي ذلك المستوى التراتبي المعقد الذي يتركز فيه المستوى التراتبي بكل حدته. ويتحول فيها الواقع الطبيعي واقعًا تاريخيًا. جاء تشكل القومية اليهودية التاريخية نتيجة تلاقح الأعراق واختلاط الدم، وتقاطع فيها العنصر السامي

مع العناصر اللاسامية. ويرى تشمبرلين (Chamberlain) أن سبب الجوانب السلبية في القومية اليهودية يكمن في أن جمع العربي - السامي النقي مع السوري كان اختلاط دمٍ شريرٍ للغاية. لكن، مهما كان تفسير المنشأ العرقي لليهودية، فإن المصير التاريخي الغامض الواحد للشعب اليهودي بدأ بعد تشكل القومية اليهودية. يؤدي الدم دورًا هائلًا في هذا المصير. لكن القومية اليهودية أصبحت تمثل مستوى تراتبيًا مختلفًا عن العرق السامي الذي تتحقق فيه مصائر تاريخية مختلفة. إن المصير التاريخي للشعب اليهودي بالذات يستعصي على التفسير العقلاني، ويمنحنا شعورًا استثنائيًا بالتاريخ والواقع التاريخي. إن تشكل القوميات التاريخية ليس تشابكًا للظاهرات ذات الطابع البيولوجي مع الظاهرات ذات الطابع السوسيولوجي، إنما هو تشكل للواقع التاريخي، للفرداوية التاريخية من الفوضى العرقية الطبيعية. إن تشكل القومية التاريخية هو صراع مع الظلمة الفوضوية الأولية. هو عملية ظهور رحيمة للتمايز والتفاوت في الواقع التاريخي، حيث كل شيء ملموس. وإذا كانت فلسفة التاريخ العنصرية وحيدة الجانب خاطئة وأنثروبولوجية بالمطلق (تشمبرلين وغوبن، وسواهما)، إلا أنها، مع ذلك، توجد فيها حقيقة معينة، ليست موجودة إطلاقًا في فلسفة التاريخ السوسيولوجية التجريدية التي لا تعرف سر الدم وكل ما يفضي إلى العوامل الاجتماعية العقلانية. إن التمايزات والفروقات، التي تشكل من خلالها الفضاء التاريخي، ليس في وسع أي عوامل سوسيولوجية أن تمسحها وتقضي عليها. ولا يمكن صوت الدم وغريزة العرق أن يتم تدميرها في المصير التاريخي للقوميات. في الدم، تكمن أفكار الأعراق والأمم والطاقة على تحقيق مهمتها. الأمم هي تشكلات تاريخية، إلا أنها مقيمة في عمق الطبيعة، في عمق الوجود. ثمة في باطن الحياة الكونية قدرات كامنة للأقدار القومية، ثمة طاقة تشد إلى تحقيق هذه الأقدار. التاريخ مدسوس في الطبيعة. الواقع التاريخي هو مستوى تراتبي هائل في الحياة الكونية. وينطوي على طاقة كونية تتركز وتتيح للعالم أقداره. إن العرق، كونه بداية كونية، ينشط على نحو مركز في القومية، كما في البداية التاريخية. في الواقع التاريخي، يتم تَشَكُّل الفضاء، وهو الصراع الأعظم وغَلَبَة البدايات الكونية على البدايات الفوضوية. القومية التاريخية هي إنجاز أزلي للوجود الكوني. وتدميرها هو تدمير الكون والعودة إلى الفوضى.

ليست الأمة ظاهرة تجريبية إمبريقية (empirique) لهذا المقطع أو ذاك من الزمن التاريخي. الأمة هي جسد صوفي غامض، هي شخصية صوفية روحانية، هي جوهر العملية التاريخية وليس ظاهرها. الأمة ليست الجيل الذي على قيد الحياة، وليست مجموع الأجيال كلها. الأمة ليست مصطلحًا، هي جوهر أصيل أزلي الحياة في العملية التاريخية، تحيا وتقيم فيها جميع الأجيال السابقة، ليس أقل من الأجيال الراهنة. للأمة نواة أنطولوجية. الوجود القومي يتغلب على الزمن. الأمة تقاوم افتراس الماضي من الحاضر والمستقبل. الأمة تصبو دومًا إلى الخلود، إلى الانتصار على الموت، ولا يسعها أن تسمح بغلبة المستقبل الحاسمة على الماضي. لهذا السبب، ينطوي الوجود القومي والوعي القومي على أساس ديني، على عمق ديني. الدين هو إقامة الصلات وعلاقات القربى، هو تجاوز الوجود الآخر الهجين، وهذه الصلات يكتسبها الإنسان في الوطن بالدرجة الأولى. وكل محاولة لفصل القومية عن هذا العمق الديني، ترمي بها إلى السطح وتعرضها لخطر التفتت. إن الوعي القومي الحقيقي هو وعي عميق، ويرسخ ليس القوة القاتلة الفتاكة للعملية التاريخية، بل قوته التي تحافظ على كل ما هو حي وقابل للقيامة. الوعي القومي محافظ، ليس لأنه معاد للإبداع، بل لأنه يحمي الحياة الحقيقية، الحياة كلها، مما هو قاتل ومميت في المقبل الآتي، وهو يعترف بأجدادنا وآبائنا وأسلافنا أحياءً، بقدر ما نحن أنفسنا أحياءً، وبقدر ما

أحفادنا الآتون أحياء. إن حياة الأمة، حياة القومية هي علاقة لا تنفصم مع الأسلاف واحترام وصاياهم. ثمة دومًا ما هو تقليدي في القومية. وبما أن ثوريتكم تمزق الرابط بين الأزمنة، وتدمر ذاكرة الماضي والأسلاف، فهي مناهضة بشدة للقومي. الأممية هي ديانة المستقبل الذي لا يعرف حدودًا في تطلعاته، وليس ديانة الأزل، وهي تحمل لكل حي أخبار الموت والفناء، وليس أخبار الحياة والقيامة. الأممية الثورية هي الدين المنهجي للموت، هي إنكار الخلود. هذا الدين لا يعترف بشواهد القبور. وهو مناقض كليًا لروح القيامة العظيمة التي دفعت القدماء إلى بناء قبورهم والأنصاب على قبورهم. إنه دين الزمن المقبل الذي يفترس كل شيء، ولا يُعنى بالصلة مع الأسلاف، بقبور الأسلاف، بخلودهم وبالحياة المشتركة معهم. الوعي القومي هو نقيض عميق لهذه الروح. إن الوعي القومي للشعوب الأوروبية المعاصرة الذي ينفصل عن جذوره الدينية، هو وعي سطحي ومتناقض. الأممية المعاصرة للشعوب الأوروبية زائفة في جذورها. لكن الشعوب الأوروبية المعاصرة، وعبر شعور قومي منتقص وغير عميق، تسعى، وعلى طريقتها، إلى الحياة الأبدية. الحياة في القومية تناهض الموت الذي تهدد به الإمبريالية جميع الشعوب. كل أمة تسعى بغريزتها السليمة الخاصة إلى أقصى القوة والازدهار، إلى إظهار نفسها في التاريخ. الأممية تناصب العداء أيضًا هذا الجانب الإبداعي في القومية، تمامًا كما تناصب الجانب الإحيائي الحارس فيها كذلك. تود الأممية لو تتمكن من وقف نمو قدرة الشعوب، وتود لو تُزيل ألوانها. كانت تريد لو تَحرف حركة الحياة في الشعوب عن مسارها، لو تحرفها إلى فضاءات ثانوية، إلى تجريدات الزمن المقبل الرهيبة. كانت تريد لو تقضي على إرادة الأمم في الوجود، إرادة الارتقاء في التاريخ. إنها تأسر الألباب، أخلاقيًا، بالتخلي الزاهد عن الأنانية القومية. لكن وراء هذا التخلي الذي يدفع إلى طريق الفناء، يكمن ترسيخ بشري للذات، أنانية طبقية وذاتية، تَعطشٌ إلى الرفاهية، رفضٌ للتضحيات التي يتطلبها المصير التاريخي وحركة الشعوب التاريخية نحو السماء. تدمر الأممية الثورية ماضي الأمم ولا ترغب في السماح لها بالمضي إلى مستقبلها. إنها تدفع بها إلى مستقبل آخر مرعب بفراغه وبتجريده. إن الأنانية القومية الأكثر بساطة وغريزية فيها من حقيقة الحياة أكثر مما في أمميتكم.

***

أنتم، الأمميون من مختلف الأطياف قمتم بأقبح عملية استبدال؛ إذ استبدلتم وجود البشرية كلها، وجود بشرية واحدة ملموسة، بعدمٍ أطلقتم عليه تسمية الأممية. أنتم خلطتم بين المسكونية والأممية بصورة ميؤوس منها. أنتم غررتم بكثرٍ واجتذبتم القلوب نحوكم بلبوس الخير. بدأ الخلط والاستبدال والاحتيال قبل ذلك، قبل ولادة الأممية الاشتراكية، بدأ في النزعة السلمية الإنسانوية، في الكوسموبوليتية الليبرالية، في الماسونية. استُبدِلت هناك الإنسانية الملموسة بالإنسانية العامة المجردة. في الوحدة الملموسة الإيجابية للبشرية تدخل جميع مراتب وجود الإنسان بكليته، لا يُستبدل شيء ولا يُبدد، كل شيء يبلغ ذروة القوة والوضوح. لكنكم أنتم لا تعرفون وحدةً ملموسة. إنها في الكنيسة المسكونية، بالدرجة الأولى، حيث وحدة البشرية تُفهم دينيًا. بالنسبة إليكم فكرة أن البشرية هي حقيقة ملموسة غريبة عليكم كليًّا، كما أي شخصية في التراتبية الكونية. في وحدتكم السلبية المجردة لوجود البشرية تُلغَى جميع المستويات التراتبية لوجود البشرية ويتم التنكر لها. في الوحدة الملموسة لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الأمم والبشرية، بل تترسخ جميع الأمم في البشرية الموحدة، وتبلغ القوة والازدهار. في الوحدة المجردة للبشرية، يُلغى وجود الأمم، فليس من

بشرية في الأمم وعبر الأمم، وليس من أمم في البشرية وعبر البشرية. البشرية هي تجرد عن جميع مستويات الوجود الفردي المجرد. الأمة والبشرية في الكون هما عضوان لا ينفصلان يفترض كل منهما الآخر في التراتبية الكونية الواحدة. الأمة والبشرية ينفي أحدهما الآخر، وفي نهاية المطاف لا وجود للأمة ولا للبشرية، لأن لا وجود لأي حقيقة ملموسة، لأي فردية، ثمة تجريد وحسب. ليس من وجود لإنسان ملموس، بل إنسان مجرد أو طبقة، ليس من وجود لبشرية ملموسة، بل بشرية مجردة فحسب، تجريد عن كل ما هو عضوي حي وفردي. ليست الأممية نقيض القومية فحسب، بل هي نقيض الكونية أيضًا والوحدة الإيجابية، تنشط في الأممية روح العدم التي تدمر الواقع باسم الأشباح.

لا أعرف ما هو أشد إثارةً للاشمئزاز وزيفًا من محاولات بعضكم إيجاد أسس وتبريرات مسيحية للأممية. بعض السذج والضعفاء من المسيحيين ينطلي عليه الأمر. لكن المسيحية لا يمكنها أن تكون إلا معاديةً للأممية، فهي معادية لروح العدم، الروح التي تدمر الحقائق الملموسة باسم التجريدات. المسيحية ترسخ دعائم وحدة إيجابية ملموسة تنطوي على جميع ثروات الوجود. إلا أنه لا يسعها أن تنطوي على ما هو مشترك مع الوحدانية المجردة التي يختفي فيها الله والعالم، يغرق الإنسان والأمة والإنسانية. روح كل إنسان، روح الشعب، روح البشرية هي الموجودة، بالدرجة الأولى، بالنسبة إلى المسيحية. وهي لا تعرف ما ليس له روح. وهل لأمميتكم وبشريتكم الأممية من روح؟ لا يمكن التجريد أن يمتلك روحًا. وأمميتكم لا تؤكد بشرية واحدة، بل بروليتاريا واحدة. أنتم تخلقون أعظم انشقاق في البشرية عرفه تاريخ العالم. إنكم تنكرون في الإنسان صورة الله ومثاله، وترسخون فيه صورة الوضع الاقتصادي ومثاله. لا يوجد إنسان وإنسانية بالنسبة إليكم، بالنسبة إليكم لا يوجد سوى مقولات اقتصادية، سوى ما هو مادي متوافر لدى الإنسان، أو غير متوافر. إن كل مقارنة بين أمميتكم والمسيحية هي هرطقة. إنكم أنتم، أنتم الأمميون، تنكرون بأن البشرية هي قوم الله، أنتم ألد أعداء وحدة البشر. أنتم تقطعون في الجنس البشري صلة المستقبل الروحية بالماضي والعلاقة الروحية للطبقة المفضلة لديكم، البروليتاريا، مع الجزء المنبوذ الآخر من البشرية. لذلك، أنتم قتلة البشرية والإنسان. المسيحية تدعو إلى الأخوّة بين الشعوب، كما إلى الأخوّة بين الناس. لكن الأخوّة بين الشعوب تفترض وجود الناس، وجود الشخصيات الإنسانية. الحب الحقيقي هو دومًا تأكيد لسيماء الحبيب ولفرادته التي لا تتكرر. فحب الروسي للفرنسي، للإنكليزي أو الألماني لا يمكن أن يكون حبًا لإنسان مجردٍ، لإنسان بشكل عام، بل لا يمكن أن يكون إلا حبًا للإنسان الفرنسي أو الإنكليزي أو الألماني، حبًا للفرنسي أو الإنكليزي أو الألماني فيه، حبًا للصورة الفردية. أنتم لا تعرفون الحب، ولا تعرفون الأخوة. لا يوجد شيء بالنسبة إليكم، سوى المقولات الاقتصادية والسوسيولوجية التي تحمل للبشرية شقاقًا عظيمًا. إن الحب لقومية ما، والعلاقة الأخوية معها يفترضان تأكيد الوجود الأزلي لهذه القومية، ويحولان دون اختفائها في البشرية المجردة. أأنتم من يبشر بالأخوّة بين الشعوب؟ الأممية هي رسم كاريكاتوري قبيح، هي تحلل روح المسيحية المسكونية، هي شبيهها المزيف، كما هو عدو المسيح شبيه مزيف للمسيح، رسم كاريكاتوري.

***

ثمة كلمتان في اللغة الفرنسية تشيران إلى مفهومين مختلفين جوهريًا: nation وpeuple (الأمة والشعب). ليست في الروسية كلمات جيدة مرادفة للكلمتين. فمعارضة كلمة nation (أمة) بكلمة народ) narod، شعب بالروسية) تبدو سيئة لأنه تتم معارضة كلمة أجنبية بكلمة روسية. لكن المصطلحات القائمة لدينا تلزمنا، مع ذلك، باللجوء إلى هذه المعارضة. تحمل كلمة «شعب» وشمًا قدريًا، وشم الوعي الشعبوي[30] (الوعي النارودي) الذي يصعب على الروس التخلص منه. أنتم جميعكم، النارودیون الروس، محبو الشعب والمفتنون بالشعب، عن وعي أو من دون وعي، يصعب عليكم كثيرًا تقبل الوعي القومي، أنتم تخلطون بينه وبين الوعي «النارودي». شعبكم أنتم ليس هو الأمة. أنتم تطبقون على الشعب مقولة الكمية والمقولة الاجتماعية الطبقية. لكن هاتين المقولتين لا تطبقان على الأمة. شعبكم أنتم هو، بالدرجة الأولى، كمية واقعية إمبريقية، مجموع كبير من بتروف (Petrov) وإيفانوف (Ivanov). شعبكم ليس كلًا بيولوجيًا عظيمًا يتسع لجميع الطبقات وجميع الأجيال، هو ليس إلا حشدًا من العامة، من الفلاحين والعمال، من الطبقات الكادحة جسديًا. كثر جدًا تم استثناؤهم من شعبكم هذا، من الإنتلجنسيا إلى النبلاء إلى البيروقراطية إلى التجار والصناعيين. أنتم تطالبون بخدمة الشعب، كما لو أنه شيء غريب عن كل فرد، غير منتم للطبقات الكادحة جسديًا، كما لو أنه المعبود والبداية العليا للحياة. كنتُ محرومًا الحق بأن أشعر نفسي بأنني الشعب، وأن أشعر بأنني في الشعب، وأن أشعر بأن الشعب في. النارودية لم تكن عمقي. النارودية لم تكن فيَّ ولم تكن فوقي. علي أن أخدم الشعب، علي أن أرى فيه معيار الحق والحقيقة، علي أن أنحني أمام الشعب وأتنكر، باسم الشعب، لأعظم القيم. كانت هذه البنية الاجتماعية - الطبقية والكمية لمفهوم الشعب هي الأساس الذي قامت عليه المقاربة الروسية التقليدية في وضع الإنتلجنسيا بمعارضة الشعب. مزق الوعي النارودي الوحدة العضوية للحياة القومية وخلق تناقضات لا يمكن تخطيها. كان المثقفون - النارودیون يرغبون في تخطي الهوة بين الإنتلجنسيا والشعب، فذهبوا إلى الشعب وتبرأوا من كل شيء باسم الشعب، لكن وعيهم النارودي كرس الهوة بين الشعب والإنتلجنسيا، لأنه كان يدفع إلى النضال الاجتماعي - الطبقي والتباين. هذه الهاوية لا تزول إلا على أساس الوعي القومي القائم على عمق أشد. أنتم بقيتم عند السطح الاجتماعي من الحياة، ولم تبلغوا قط تلك الوحدة الروحية القومية التي يزول فيها التعارض بين الفلاح والنبيل، بين الإنتلجنسيا والشعب. لا تجوز معارضة الأمة بالإنتلجنسيا أو النبلاء. ما هو قومي هو عمقي الخاص وعمق كل فرد، هو طبقة أعمق من قشرتنا الاجتماعية الخارجية التي نعثر فيها على الروسي والفرنسي والإنكليزي والألماني، وهو الذي يربط الحاضر بالماضي البعيد، ويوحد النبيل والفلاح، الصناعي والعامل.

الأمة ليست هذه الطبقة أو تلك، وليست كمية واقعية إمبريقية من البشر الذين هم على قيد الحياة حاليًا. الأمة هي جسم عضوي باطني، نُدرك في أعماقنا سر حياته، حين نتوقف عن أن نعيش حياة سطحية، حياة المصالح الظاهرية، حين نتحرر من السلطة الاستثنائية للقشور التي تفرق البشر. قد يكون الفلاح شعبًا - أمةً، أقل مما هو النبيل أو المثقف، إذا كانت حياته قد انتزعت من العمق وأُلقي بها على السطح، في حين أن حياة النبيل أو المثقف يمكن أن تكون قد اكتسبت على هذا العمق وتغرف قوة إبداعية من الينابيع العميقة. إن كل ديمقراطياتكم الثورية، وكل سوفياتاتكم للنواب من العمال والفلاحين، ليس لها أي علاقة بالشعب كأمة، كجسم عضوي باطني. كان النبيل بوشكين أو المثقف دوستويفسكي شعبيًا أكثر بألف مرة. تبلغ الأمة التعبير المثالي الأرفع عنها في العبقرية.

العبقرية هي دائمًا شعبية، دائمًا قومية، يُسمع الصوت فيها دائمًا من أعماق الحياة القومية، من جذورها. تعبر روح الأمة عن نفسها دومًا عبر الانتقاء النوعي للشخصيات، عبر الشخصيات المميزة. لا يمكن أي ديمقراطية عقلانية مع آلية الكميات فيها أن تكون المعبر الروحي عن الأمة. وإرادة الأمة لا يُعبر عنها حسابيًا، في الكميات، فهي ليست إرادة الغالبية. في إرادة الأمة لا يتكلم الأحياء فحسب، بل الأموات أيضًا، يتكلم الماضي العظيم والمستقبل الذي لا يزال غامضًا. تدخل في الأمة ليس الأجيال البشرية فحسب، بل تدخل فيها أيضًا أحجار الكنائس والقصور والدور الريفية وشواهد القبور والمخطوطات القديمة والكتب. ولِتَلمس إرادة الأمة يجب سماع هذه الأحجار وقراءة الصفحات التالفة. لكن بضجيجكم الثوري - الديمقراطي تريدون خنق أصوات من مات من الأجيال، تريدون قتل الشعور بالماضي. ينبغي الحؤول بينكم وبين الواحد العضوي الكلي الذي ينتصر على سلطة الوقت المدمرة. لهذا، ليس في وسعكم معرفة إرادة الأمة، ولا يسعكم التعبير عنها. أنتم تضعون الأمة في معارضة الشعب الذي تريدون تحويله ديمقراطية ثورية. لكن الأمة ليست الديمقراطية ولا يُعبَر عنها بالديمقراطية. إن سبل التعبير عنها هي أشد غموضًا. والجيل الذي يقطع كل صلة بالماضي القومي، لن يعبر قط عن روح الأمة وإرادة الأمة. لأن في روح الأمة وفي إرادة الأمة ثمة قوة بعث وإحياء وليس قوة فتك وقتل. آن الأوان، أجل، آن الأوان لأن نتوجه ليس «إلى الشعب»، بل «إلى الأمة»، أي أن ننتقل من السطح إلى العمق، من الكمية إلى النوعية. إن البداية القومية في الحياة الاجتماعية هي بداية نوعية، وليس كمية. إن ما هو قومي يكمن في الأعماق القديمة للطبيعة، وتتكشف في التاريخ تلك القوى الكامنة في الوجود القومي. إن ما هو قومي يكمن على عمق أشد بما لا يقاس من ديمقراطيتكم، ومن «شعب» كم، ومن جميع كمياتكم الراهنة وحشودكم. الأمة هي روح، هي مخطط إلهي، يمكن الشعب الواقعي الإمبريقي أن يحققه أو يدمره. الشعب الواقعي الإمبريقي يجب أن يخضع للأمة ولمهماتها في العالم. ثمة في الأمة نواة حدسية وجودية ليست موجودة في تلك الظاهرة الواقعية الإمبريقية التي تسمونها «الشعب». ينبغي أن تكونوا روسًا لا نارودبين. روسيا ينبغي أن تكون لكم أكثر قداسةً بما لا يقاس من الشعب، من البشر قاطنيها في هذا الزمن أو ذاك، في هذا الجزء منها أو ذاك.

***

الدولة ليست سمة محددة للأمة. لكن كل أمة تصبو لأن تُشَكل دولتها، وأن تعززها وترفع من قدرتها. تلك غريزة سليمة لدى الأمة. وجود الدولة هو وجود طبيعي للأمة. إن فقدان الأمة دولتها واستقلالها وسيادتها، هو شقاء عظيم، هو مرض عضال يُقعِدُ روح الأمة. كان الشعب اليهودي، ومنذ القدم، يقع دومًا تحت النير الأجنبي، وحُرِم في ما بعد من دولته كليًا وعاش شريدًا في العالم، الأمر الذي حطم روح الشعب اليهودي وأقعدها. وتراكمت لديه مشاعر سلبية ضد جميع الشعوب التي يعيش في دولها، وهو يميل إلى الردة الدينية والأممية التي ليست سوى الوجه الآخر لتعصبه القومي المريض. غير أن الإرادة بإقامة دولته الخاصة لم تمت لدى الشعب اليهودي، ويتجدد الحلم العميق بها في الطوبى الصهيونية. إن العلاقة بين وجود الأمة ووجود الدولة هي علاقة زائفة. كل أمة تصبو إلى إقامة دولة والتحصن فيها. عبر الدولة تكشف الأمة عن الطاقات كلها الكامنة فيها. ومن جانب آخر، يجب أن تمتلك الدولة أساسًا قوميًا، نواة قومية، مع العلم أن التكوين القَبَلي للدولة قد يكون شديد التعقيد والتنوع. الدولة الروسية كانت دولة روسية، كانت تمتلك في أساسها نواة روسية وتنشر العقيدة الروسية في العالم. الدولة التي لا تمتلك نواة قومية وعقيدة قومية لا يمكنها

أن تمتلك حياة إبداعية. إن دولة مثل النمسا - المجر كانت تشكل استثناءً، ولم يكن وجودها يتحدد بطاقتها الداخلية، بل بتشابك ظروف تاريخية خارجية محددة. إن الدول السلالية الصرف، هي ظاهرة مرضية في الواقع التاريخي. البداية السلالية لا يمكن أن تكون مكتفية ذاتيًا. فهي ينبغي أن تخضع للبداية القومية. لكن الدولة بطبيعتها تصبو إلى الخروج بعيدًا من أطر الدولة القومية المغلقة. ولا تبقى دولًا قومية صافية سوى دول الأمم الصغرى. الأمم الكبرى التي تدرك رسالتها في العالم، تسعى إلى تشكيل دولة إمبريالية، تخرج بعيدًا من حدود الوجود القومي. إن إرادة الأمم الكبرى تنحو إلى الاتحاد الإمبريالي الذي تتحقق فيه رسالتها القومية. ثمة ديالكتيك للوجود القومي يزيل حدود القوميات ويسعى إلى الانتقال بالدولة القومية إلى دولة إمبريالية. الإمبراطورية البريطانية العظمى هي نهاية إنكلترا، كدولة قومية، هي خروج القومية الإنكليزية إلى الأفق العالمي. والمسألة القومية هي مختلفة كليًا بالنسبة إلى الأمم الصغيرة والضعيفة، وبالنسبة إلى الأمم الكبيرة والقوية. بالنسبة إلى الأمم الصغيرة والضعيفة المسألة القومية هي مسألة تحرر واستقلال، مسألة تشكيل الدولة أو الحفاظ عليها. أما بالنسبة إلى الأمم الكبيرة والقوية، فإن المسألة القومية هي مسألة القوة العالمية والرسالة العالمية، مسألة تشكيل الدولة الإمبريالية وتوسيعها. الحركات القومية في القرن التاسع عشر التي يتعاطف معها الديمقراطيون والثوريون، كانت نضالًا من أجل استقلال الأمم الصغيرة والضعيفة وتوحيد الأمم المجزأة. وكان يتحقق في هذا الأمر الميل التاريخي نحو النزعة إلى الفردية (individualisation) التي لا شك في أنها جزء من الحقيقة التاريخية. لكن، إلى جانب ذلك كان يحصل صراع من أجل وحدات إمبريالية كبرى، من أجل أجسام تاريخية عظيمة، كانت تتحقق فيه نزعة تاريخية نحو العالمية (universalisation)، التي تشكل الجزء الآخر من الحقيقة التاريخية. أنتم لم تتمكنوا قط من فهم حقيقة هذه الإرادة الشيطانية للأمم العظمى ومعناها، هذه الرغبة الجامحة في تحقيق رسائلها العالمية. كانت المسألة القومية بالنسبة إليكم دومًا هي مسألة برجوازية صغيرة حصريًا. كنتم تنكرون دومًا وجود مسألة قومية للروس، لروسيا نفسها، مسألة قومية روسية. أنتم أغرقتم المسألة القومية الروسية في المسألة الأرمنية، الجورجية، البولونية، الفنلندية، اليهودية وكثير غيرها. السياسة الخاطئة للسلطة القديمة التي لم تكن تفهم أن السياسة الإمبريالية للشعب العظيم لا يسعها أن تكون إلا سياسة عطاء ومساعدة للقوميات الصغيرة، الأمر الذي سهل لكم، من الناحية الأخلاقية، وساعدكم في عملكم التدميري. الوعي القومي في مراحل تاريخية معينة من عظمة الأمم يتحول إلى وعي إمبريالي. لكن الوعي القومي يتخطى جميع الحدود ويبلغ الذرى في الوعي الرسالي. الرسالية (messianisme) هي وعي جنوني للشعب، وهي، بطبيعتها، نقيض القومية والإمبريالية. القومية والإمبريالية تقيمان في الحال الطبيعية. الرسالية تخرج من الحال الطبيعية، وهي باطنية روحانية. في الرسالية ثمة تضحية ليست موجودة في القومية والإمبريالية. الرسالية تطالب الشعب بالتضحية في خدمة العالم، في خدمة خلاص العالم.

كل وعي رسالي مصدره وعي الشعب اليهودي الرسالي. الروح الرسالية كانت غريبة على الشعوب الآرية. وهي لم تتكشف إلا في اليهودية، في الانتظار اليهودي المضطرب للمسيح، في الإدراك اليهودي لذاته بأنه شعب الله المختار. الوعي اليهودي لم يكن وعيًا قوميًا متعصبًا، وكان إمبرياليًا بدرجة أقل أيضًا. كان وعيًا رساليًا. ظهر يسوع المسيح في الشعب اليهودي، لكنه ظهر لكل شعوب العالم، لكل العالم. بعد ظهور المسيح أصبحت الرسالية اليهودية مستحيلة في العالم المسيحي. لم يعد ممكنًا أن يكون شعب الله المختار الذي سوف يظهر المسيح فيه. لكن في وسعه أن يكون، وهو صاحب الوعي استثنائي التوتر، شعبَ رسالته الدينية والروحية في العالم. إن هذا

الشعور في الشعب بالرسالية والفرادة، على غرار ما يشعر به الإنسان - الفرد، هو شعور غير عقلاني كليًا، ويمكن أن يكون جنوني المطامح. إن القيام بالمهمة الرسالية هو مأثرة حرة للروح، تقود إلى ما وراء حدود، ليس الطبيعة فحسب، بل والتاريخ أيضًا. المهمة الرسالية غير قابلة التحقق في حدود التاريخ. المهمة الرسالية هي دائمًا في العالم المسيحي مشدودة إلى النهاية، ودائمًا أبوكاليبتية تتجاوز أبعادها التاريخ. البيئة التاريخية الإيجابية ليس في الوسع تهيئتها إلا في القومية والإمبريالية. أما الرسالية فهي تألق البرق، هي الجنون في المسيح. الرسالية لا تخضع لأي عقلنة. من السهل على الوعي الرسالي في المسيحية أن يميل نحو الرسالية اليهودية القديمة. هذا الميل موجود في الرسالية البولونية، وفي الرسالية الروسية. أولئك الذين اعتبروا الشعب الروسي شعبًا أنطاكيًا أخذوا كثيرًا من الروح اليهودية القديمة. يمكن كلًا من الوجود القومي والوجود الإمبريالي أن يحترق بالنار الرسالية. تبعت الرسالية البولونية الدولة البولونية في موتها، أما الرسالية الروسية فسبقت موت الدولة الروسية. إن وجود كل أمة يمتلك أساسًا دينيًا. والوعي الرسالي هو ذروته الدينية. تتشابك العناصر القومية والدينية في ما بينها ويلتصق بعضها ببعض على نحو غامض في بعض النقاط. فالأرثوذكسية هي في أساس القومية الروسية، وبها كان شعبنا قويًا. وعلى ذرى وعينا كان يُشِع نور الرسالية الدينية. العقيدة الروسية يستحيل فصلها عن العقيدة الدينية. لكن هذا التشابك بين العناصر الدينية والقومية هو الذي خلق العلاقة المعقدة بين القومية والكنيسة في روسيا. تعرضت الكنيسة لتأميم شديد جدًا، في ظل وهن الوعي المسيحي المسكوني. انتقلت الرسالية الروسية من كونها مسيحية لتصبح يهودية قديمة. علينا، بالدرجة الأولى، أن ننشط الأسس الدينية لوعينا القومي. انفصلت الرسالية الروسية عن أسسها الدينية وظهرت في حلة رسالية ثورية جديدة. وأثخنت هذه الرسالية الثورية روسيا جروحًا رهيبة. فقد تكشفت الطبيعة الروسية عن وجود بداية تدمير ذاتي فيها.

إذا كنتم ترغبون في ملامسة أسرار الوجود القومي، فما عليكم إلا أن تفكروا بعمق أكبر في المسألة اليهودية. وإذا كانت قوة اليهودية في التاريخ، القوة العصية على الإفناء، الغامضة والفريدة بأصالتها، لا تمنحكم الشعور القومي، فأنتم ميؤوس منكم. اخترعتم وسائل مختلفة لحل المسألة اليهودية من أجل إطفاء هذه المسألة بكل حدتها. أنتم لن تتمكنوا يومًا من التغلب على «اليهودية»، فهي أقوى من جميع تعاليمكم وجميع التباساتكم وتبسيطاتكم. اليهودية وجدت العالم من أجل أن تثبت لجميع الشعوب وجود السر القومي والسر الديني. وللحقيقة، ينظر أصدقاء السامية والمعادون لها بخفة وسطحية فائقة إلى اليهودية. هذه المسألة ينبغي أخذها بعمق أكبر. تتلمس في هذه المسألة قدر الله في التاريخ. لليهودية رسالتها في التاريخ العالمي، وتتخطى هذه الرسالة حدود الرسائل القومية. فهي تقول بوجود ما هو أوسع حجمًا من الوجود القومي. ثمة في التاريخ تشكلات ووحدات أكبر حجمًا من التشكلات والوحدات القومية، ثمة أرواح الأعراق ومهمات الأعراق. هناك العالم اللاتيني الذي جاء إلى البشرية بروح مميزة وثقافة مميزة، وهناك العالم الألماني والعالم السلافي. ثمة تبدل في تاريخ السيادة الروحية لهذه الأعراق وهذه المهمات. لكن ثمة عالم السامية والعالم المنغولي. العرق الآري الذي يصعب تحديده بالبحوث الأنثروبولوجية والإتنوغرافية، له عقيدته في العالم ورسالته الروحية. تلقح العالم الآري بلقاح سامي وحصّن بذلك نفسه. لكنه لا يسعه أن يسمح بغلبة الروح السامية، وهو يحرر المسيحية نفسها من الهيمنة التامة

للسامية. وغرور الألمان الذي لا يطاق، يقوم في هذا بالذات، في أنهم يعتبرون أنفسهم الآريين الأنقياء الوحيدين الذين يحملون الروح الآرية ويعبرون عنها. لدى الألمان وعيهم الرسالي الخاص، لكن هذه الرسالية ليست دينية بقدر ما هي عرقية وروحية - ثقافية. ليس في الرسالية الألمانية ما هو أبوكاليبتي. فإذا كان ما يغوي الروس هو أن الكنيسة الحقيقية الوحيدة هي الكنيسة الروسية، وأن المسيح الحقيقي هو المسيح الروسي فإن ما يغوي الألمان هو أن الثقافة الحقيقية هي الثقافة الألمانية. لكن الرسالية الثقافية هذه تنطوي على تناقض داخلي، لأن للرسالية طابعًا دينيًا وليس ثقافيًا. والثقافة لا تكون إلا قومية لا رسالية. الرسالية تتحرق دائمًا للقفز خارج حدود الثقافة. والرسالية الثقافية الألمانية هي ادعاء زائف، بقدر ما هي عليه الرسالية الثورية الروسية من زيف.

***

قد يكون هناك نوعان من القومية، نوعان من فهم القومية. القومية قد تكون تمجيدًا للسمات العفوية الطبيعية للشعب، رضا الشعب عن ذاته. وقد تكون في الانبهار بهذه السمات وصد أي نقد أو نقد ذاتي. تلك هي القومية التلقائية الطبيعية التي قد تكون في أشكال تمظهرها الدنيا القومية المتوحشة. هذا النوع من القومية قد ينتقل أيضًا إلى إنكار العقيدة القومية ويرى في ضعف الشعور القومي والوعي القومي ميزة قومية. وليس من النادر أن يكون الأمميون الروس قوميين من هذا النوع. وهم على استعداد للاعتراف بالإنكار الذاتي والتدمير الذاتي. لروسيا ميزة قومية روسية. كانت الإنتلجنسيا الثورية الروسية محرومة من أي حس ووعي قومي. لكن، كانت فيها الخصائص الروسية المميزة. فقد كانوا يدمرون روسيا، لكنهم كانوا يدمرونها على الطريقة الروسية. كانت النهلستية الروسية ظاهرة قومية روسية. لكنها دمرت وجودنا القومي. هذا النوع من القومية التلقائية الطبيعية كانت تنتمي إليه أيضًا التيارات ذات السلافية الأشد يمينية التي كانت تؤكد العقيدة القومية. كانت هذه التيارات تمجد الخصائص القومية، بغض النظر عما إذا كانت تساعد في معالجة المهمات القومية أو تعرقلها، وما إذا كانت ترفع من قدرتنا وقيمتنا في العالم. لكن ثمة نوع آخر من القومية، القومية الخلاقة. الوجود القومي بالنسبة إلى هذا النوع من الوعي القومي، هو مهمة إبداعية. هذا النوع من الوعي القومي لا يسمح فحسب، بل يطالب بالنقد الذاتي، يدعو إلى النقد الذاتي وإعادة التعلم باسم الوجود القومي. النوع الثاني من الوعي القومي هو الأرفع. لكن ليس في وسعه أن يكون منسلخًا عن الأسس والجذور القومية، عن الأنطولوجيا القومية. فهي تحمل النور إلى الأعماق المظلمة في الحياة القومية. إن الفهم العضوي الكلي للقضية القومية يستند إلى أساس باطني غير عقلاني. إن الفهم الميكانيكي للقضية القومية يفضي إلى النظريات الفدرالية المختلفة، إلى الأوتونوميا (autonomie) الشخصية وغير ذلك... ويُظهر مصير روسيا العاثر إلى ماذا تفضي علاقتكم غير العضوية بالقضية القومية، وتخرصاتكم الميكانيكية، وطوباوياتكم العقلانية في هذا المجال. إن إنكار الوجود القومي العضوي باسم الذهنيات المجردة، باسم العدالة المجردة والمساواة والوحدة وما إلى ذلك هو دائمًا سَعي لقتل الكائن الحي. وأنتم جميعًا، الأمميون، المساواتيون، التبسيطيون، تخلطون الأمور بعضها ببعض، أنتم جميعًا قتلة، أياديكم ملطخة بالدم. أنتم قتلتم وطننا، الكائن الحي الذي يحمل اسم روسيا. أنتم كنتم قتلة في كل زمان وفي كل مكان.

(30) نشأت في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة اجتماعية - سياسية تناضل من أجل الديمقراطية الفلاحية وانتقال روسيا إلى الاشتراكية عبر مجتمع الفلاحين. واكتسبت اسمها «Narodism» من كلمة «narod» (الشعب). لذلك، ليس دقيقًا القول «الوعي الشعبوي»، بل هو الوعي النارودي، وهو ما سوف نعتمده لاحقًا في هذا النص. (المترجم)

الرسالة الخامسة

في النزعة المُحافِظة[31]

أود أن أتكلم الآن عن المُحَافَظَة ليس بوصفها اتجاهًا سياسيًا وحزبًا سياسيًا، بل بوصفها إحدى بدايات المجتمع البشري الدينية والأنطولوجية. قضية المُحَافَظَة ليست معروفة من قِبَلِكم بعمقها الروحي. فهي بالنسبة إليكم شعار من شعارات النضال السياسي لا أكثر. هذا المعنى للنزعة المحافِظة (Conservatisme) موجود، وبلوره مؤيدوها ومعارضوها على حد سواء. قد تكون الأحزاب السياسية المحافِظة على سفالة شديدة، وقد تشوّه البداية المحافِظة. لكن ذلك ينبغي ألا يخفي حقيقة أنه من دون القوى المحافِظة، يتعذر الوجود الطبيعي والسليم للمجتمع وتطوره. المُحَافَظَة تُبقي على الصلة بين العصور قائمة، وتحول دون الانقطاع فيها، وتوحدُ المستقبل مع الماضي. الثورية سطحية، منفصلة عن الأسس الأنطولوجية، عن نواة الحياة. ووشم السطحية هذا تحمله جميع الأيديولوجيات الثورية. للمحَافَظة عمق روحي، وهي مشدودة نحو الينابيع القديمة للحياة، تربط نفسها بالجذور. إنها تؤمن بوجود الأزل وبالعمق الذي لا يفنى. إن جميع العباقرة العظام والمبدعين كانوا يقيمون على هذا العمق المحافظ. ولم يكن في وسعهم البقاء عند السطحية الثورية.

يتعذر ظهور شخصيات إبداعية عظيمة من دون البيئة المحافِظة. هل لديكم عبقريات إبداعية كثيرة وسط أيديولوجيي الثورية المتطرفة؟ أفضل الناس لم يكونوا معكم. كانوا هم جميعهم يستمدون الطاقة الإبداعية من عمق الحياة. وإذا كانت المُحَافَظَة الظاهرية والسياسية غريبة عنهم، فإن بداية المُحَافَظَة العميقة والروحية متوافرة دومًا لديهم. العمق المحافِظ هذا موجود لدى أعظم شخصيات القرن التاسع عشر، لدى غوته، لدى شيلنغ وهيغل، لدى شوبنهاور وفاغنر، كارلايل وروسكين (Carlyle et Ruskin)، لدى جوزيف دو ماستر، لدى فيليه دو ليل آدام وهويسمان (Villiers de l'Isle Adam et Huysmans)، لدى بوشكين ودوستويفسكي، لدى كونستانتين ليونتييف وفلاديمير سالافيوف. العمق المحافظ متوافر لدى الذين يتعطشون للحياة الجديدة السامية، ولا يؤمنون بالطرائق الثورية لبلوغها.

السيطرة الكلية للبدايات الثورية تقضي على الماضي، وتدمر ليس ما هو فانٍ فيه وحسب، بل ما هو أزلي القيمة. الروح الثورية تريد بناء الحياة المقبلة على المقابر، ناسيةً شواهد القبور، وتريد الإقامة على عظام الآباء والأجداد، وهي لا ترغب في قيامة الأموات والحياة الميتة وتنكر هذه القيامة. الروح الثورية تود وضع الحياة البشرية تحت سيطرة الزمن المدمرة. فهي تلقي بكل ما مضى في هاوية المسقبل المفترسة. هذه الروح تمجد المستقبل، أي تدفق الوقت، وليس لها من سند في الخلود. لكن، وللحقيقة، ليس للماضي من حق أقل مما للمستقبل. فالماضي ليس أقل وجودًا من المستقبل، والأجيال التي مضت ليست أقل وجودًا من الأجيال المقبلة. وليس من الخلود في ما قد كان أقل مما في الآتي. نحن نتحسس الشعور بالأبدية على نحو أكثر حدة حين نتوجه إلى الماضي. أين تكمن جاذبية سر الأطلال بالنسبة إلينا؟ إنها تكمن في انتصار الخلود على الزمن. لا شيء يمنح الشعور بالخلود كما الأطلال. إن جدران القصور والقلاع والمعابد القديمة المتداعية والمكسوة بالطحالب تبدو لنا تَجلي عالم آخر ينسل من الأبدية. إن ما هو وجودي حقيقي في العالم الآخر يقاومه التدفق المدمر للوقت. يجرف هذا التدفق المدمر كل ما هو شديد الآنية، كل ما أُقيم في سبيل الرفاه الدنيوي، ويبقى جمال الأبدية الخالد. هنا يكمن سر جمال آثار الماضي وذاكرة الماضي وسحره. لكن ليست الأطلال وحدها تمنحنا شعور انتصار الخلود على الوقت، بل المعابد القديمة الباقية، والبيوت القديمة، والملابس العتيقة، والبورتريهات القديمة، والكتب القديمة،

والمذكرات القديمة. يحمل هذا كله أثر صراع الأبدية الرائع مع الوقت. ليس في وسع أي معبد حديث تم تشييده من زمن قريب، وإن كان نسخة مطابقة كليًا لأسلوب عمارة المعابد القديمة، أن يمنح ذلك الشعور الحميم الدفيء الذي يمنحه المعبد القديم، والذي يتولد فينا لأن الوقت حاول ترك بصماته القاتلة، وتراجع. وننظر نحن إلى الأمر على أنه جمال الخلود، وليس تدمير الوقت وتحطيمه، بل صراع الأبدية ضد هذا التدمير والتحطيم، إنه مقاومة العالم الآخر في سياق هذا العالم. إن كل ما هو جديد آني صنع وشُيد منذ فترة قريبة، لا يعرف بعد هذا الصراع العظيم للخلود مع الفناء، صراع أزلية العالم الآخر مع تدفق زمن هذا العالم، وهو لا يحمل بعد أثر التواصل مع الوجود الأعلى، ولذا ليس فيه بعد صورة الجمال تلك. يجب أن نتأمل بعمق أشد في سحر الماضي هذا، في فتنته الغامضة. هذا السحر الغريب الجذاب موجود في القصور القديمة وفي الحدائق العامة القديمة، في الذكريات العائلية وفي جميع الأغراض المادية التي تتكلم على العلاقات الإنسانية القديمة، موجود في الكتب القديمة وفي أكثر بورتريهات الأسلاف تواضعًا، كما في جميع المخلفات المادية للثقافات القديمة. لا شيء جديد راهن أو آتٍ في وسعه أن يمنح مثل هذا الشعور الحاد، لأنه لم يحصل فيه الصراع العظيم لعالم الخلود مع عالم الوقت. إن الجمال الأخاذ للماضي، ليس جمال ما قد كان آنيًا وجديدًا، إنه جمال ما هو موجود، ما هو كائن بعد صراع بطولي مع سلطة الوقت المدمرة. أنا أدرك أن ليس كل ما كان في الماضي هو على هذا القدر من الجمال، وأدرك أن كان فيه كثير من القبح والبشاعة. لكن سر جمال الماضي لا يكمن أبدًا في كوننا نمجد الماضي، ونتصوره على غير حقيقة ما كان في واقع الأمر. جمال الماضي ليس أبدًا ذلك الحاضر الذي كان موجودًا في الواقع قبل ثلاثمئة أو خمسمئة سنة مضت. الجمال هو جمال ذلك الحاضر الموجود الآن، بعد تغير هذا الماضي بفعل صراع الخلود مع الوقت. إن جمال المعبد القديم، كما التقاليد العائلية، هو جمال المعبد الذي تغير والحياة العائلية التي تغيرت. إن صورة الجمال لم تعد صورة ذلك المعبد الذي شُيد قبل ألف عام، ولم تعد صورة تلك الحياة العائلية التي كانت على الأرض قبل مئتي عام، بكل خطايا البشر وعيوبهم وبشاعاتهم. نحن نعرف من الجمال أكثر مما كان يعرف أسلافنا. في هذه الأعماق ينبغي البحث عن أسس المُحَافَظَة. إن المُحَافَظَة الحقيقية هي صراع الأبدية مع الوقت، مقاومة الخلودِ الفناءَ. وهي تنطوي على قوة لا تحافظ فحسب، بل قوة تُغير أيضًا. أنتم لا تفكرون في هذا، حين تحكمون على المُحَافَظَة وفق معاييركم.

***

إن موقفكم الثوري من الماضي مناقض كليًا لديانة القيامة. الروح الثورية لا تتفق مع ديانة المسيح لأنها لا تريد القيامة، بل الموت لكل ما مضى وسَلَف، ولأنها موجهة إلى الأجيال المقبلة على نحو حصري، ولا تفكر في الأسلاف الذين رحلوا، كما لا ترغب في المحافظة على وصاياهم. إن دين الثورة هو دين الموت لأنها مأخوذة كليًا بالحياة الدنيا المعاصرة والمقبلة. أما دين المسيح فهو دين الحياة لأنه موجه ليس إلى الأحياء فحسب، بل إلى الأموات أيضًا، ليس إلى الحياة فحسب، بل إلى الموت أيضًا. من ينصرف عن وجه الموت ويهرب منه إلى حياة ظهرت من جديد، فهو، في الحقيقة، في قبضة الموت القاتلة ولا يعرف من الحياة إلا نتفًا. إن حقيقة أن الثورة تدفن موتاها في توابيت حمر، وتستبدل الجناز الديني بالأغاني الثورية، ولا تضع الصلبان على القبور، يعني أنها لا تريد انبعاث الحياة وقيامة الأموات، وأن كل من يتوفى هو، بالنسبة إليها،

ليس سوى أداة ووسيلة لترسيخ الحياة الحاضرة والمقبلة. إن دين الثورة يتقبل صاغرًا ذلك القانون الطبيعي السيئ الذي بفعله يلتهم المستقبلُ الماضي، وتُزيح اللحظة التالية اللحظة السابقة، وهو ينحني أمام هذا الفقر للحياة الطبيعية وخمولها، أمام هذه الفتنة والكراهية القاتلة. إن دين الموت هذا لا يتصالح بكل طيبة خاطر مع موت الأجيال السابقة من الآباء والأجداد فحسب، بل هو يرغب في قتل ذكراهم نفسها، والحؤول دون استمرار حياتهم في ذاكرتنا وطقوسنا، ودون المحافظة على تقاليدهم ووصاياهم. أنتم، أصحاب الوعي الثوري، يا من تنكرون كل حقيقة في المُحَافَظَة، لا ترغبون في الاستماع إلى دواخلكم، حيث كان من شأنكم أن تسمعوا فيه ليس أصواتكم وأصوات جيلكم فحسب، بل وأصوات الأجيال الراحلة، أصوات الشعب بأسره وبكل تاريخه. أنتم لا ترغبون في معرفة إرادة الشعب كله في تاريخه، أنتم تريدون معرفة إرادتكم فحسب. أنتم تستغلون، على نحو خسيس ودنيء، حقيقة أن آباءنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا ينامون في القبور بالأرض ولا يستطيعون إسماع أصواتهم. أنتم لا تفعلون شيئًا لينهضوا من قبورهم، أنتم تستغلون غيابهم من أجل ترتيب أموركم، من أجل استخدام تركتهم، من دون الالتفات إلى إرادتهم. إن انعدام ثقة عميق بالخلود وعدم الرغبة فيه هما في أساس شعوركم الثوري بالحياة. إن مملكتكم تقوم في أساسها على انتصار الموت. إن المُحَافَظَة، كبداية أبدية، تطالب بأن يُنصَتَ في تقرير مصائر المجتمعات والدول والشعوب، ليس إلى أصوات الأحياء فحسب، بل إلى أصوات الأموات أيضًا، وأن يُعتَرَفَ بالوجود الحقيقي ليس للحاضر فحسب، بل للماضي أيضًا، وبألا تنقطع الصلة بأمواتنا. إن مذهب نيكولاي فيودوروف في إحياء الأسلاف الأموات هو نقيض مباشر للثورية، وتبرير ديني لحقيقة المُحَافَظَة. إن حقيقة المُحَافَظَة ليست بداية مُحبِطة لإبداع المستقبل، بل هي بداية باعِثَةٌ للماضي في خلوده. ينطوي مذهب فيودوروف عن البعث على الكثير من التخيل الطوباوي. لكن حافزه الأساس استثنائي العمق. ومقارنةً براديكالية فيودوروف، يبدو كل شيء شديد الاعتدال والسطحية.

إن الإنكار الثوري لصلة المستقبل بالماضي، لصلة الأجيال، هو بمعناه الديني إنكار لسر صلة الأب بالابن العريقة، إنكار لسر المسيح كابن الله. تترسخ في الثورة البُنوة دون الأبوّة، فليس لابن البشر من أب. أبناء الثورة هم (parvenus) «كما وردت في النص الروسي»، صائدو فرص. الثورة هي، بطبيعتها الروحية، فصل بين أقنومي الأبوّة والبنوّة. إنها تدمر أسرار وحدة الثالوث المقدس في العالم، في التاريخ وفي المجتمع. إن للثالوث المقدس فِعلًا، والحق يقال، ليس في السماء فحسب، بل وعلى الأرض أيضًا. والبشرية في وسعها أن تكون في وحدة الثالوث أو تخرج منه وتناصبه العداء. تتكرس في المسيحية الصلة العريقة للأب بالابن، فالابن يولد من الأب. لكن انتهاك هذه الصلة قد يأتي من الطرفين، وقد يكون له مصدران متناقضان. حين تنفي المُحَافَظَة خلق حياة جديدة، وحين تعرقل حركة الحياة وتصبح قوة عادة وخمول فحسب، فهي أيضًا تمزق أقنوم الأبوّة والبنوّة، وتؤكد الأب من دون الابن، الأب الذي لا يُنجب. فالآباء الذين يقفون ضد حياة الأبناء الخلاقة، لا المُدِمرة، هم أيضًا يدمرون وحدة الثالوث المقدس، تمامًا كما الأبناء الذين يمزقون، ثوريًا، كل صلة مع الآباء الذين يدمرون الماضي. إنهم يصبحون قتلة الروح. لذا، فإن البداية المُحَافِظَة لا يمكن أن تكون بدايةً وحيدة مجردة، بل يجب أن يتم ربطها بالبداية الخلاقة، بالحركة الدينامية. إن حقيقة المُحَافَظَة ليست في عرقلة الحركة الإبداعية، بل في المحافظة على الخالد والأبدي في الماضي وإحيائه. لكن الماضي ينطوي على الكثير مما هو فانٍ، خاطئ، شريرٍ، مظلمٍ، وهو محكوم بالفناء. إن المحافظة على كل قشور الماضي، على كل قَشه، على كل ما ليس

وجوديًا فيه، هي مُحَافَظَة قبيحة، شريرة وسلبية. فهي تهيئ للثورة وتصبح مسؤولة عنها. إن عمليات التعفن والتحلل في الماضي لا يحق لها البقاء.

إن طبيعة البداية المُحَافِظة يُسيء فهمها ليس أعداؤها فحسب، بل وبعض أنصارها أيضًا. ثمة نوع من المحافظين هو أكثر مَن عَمِل على تشويه المُحَافَظَة. إن الطاقة التغيرية هي التي يجب أن تكون معنية ببقاء المُحَافَظَة الحقيقية. وإذا لم تكن تنطوي إلا على استمرار العادة والخمول، فهي شر، لا خير. إن التقليد التاريخي والتراث هما على أهمية عظيمة. لكن التقليد والتراث ينطويان، ليس على بداية مُحَافِظة فحسب، بل على بداية خلاقة وطاقة إيجابية أيضًا. التقليد والتراث هما في طور الخلق أبدًا، مع المحافظة على الاستمرارية. في الحياة الكنسية كل شيء يقوم على **التراث** المقدس، لكن التراث لا يعني المحافَظَة الخاملة. ثمة تراث من الإبداع الديني، ثمة تراث إبداعي، مُحَافَظَة إبداعية. والوفاء للتراث يعني مواصلة عمل الآباء والجدود الإبداعي، لا وقفه. في الماضي، كانت هناك حركة إبداعية في حياة الكنيسة، كانت هناك مبادرة ونشاط إنساني وليد. والوفاء لتراث هذا الماضي يعني مواصلة الحركة الإبداعية، مواصلة المبادرة والنشاط الإنساني الوليد. الرواد والمبدعون هم الرسل والشهداء ومعلمو الكنيسة والقديسون. ونحن لسنا أوفياء لتراثهم، إذا كنا لا نشعر في أنفسنا بطاقة دينية إبداعية جنينية. والأمر عينه يمكن تعميمه على الحياة العامة والثقافية كلها. المُحَافَظَة التي لا تفهم السر الإبداعي للماضي وصلته الخلاقة بالمستقبل، هي مُحَافَظَة زائفة خاملة. لذلك، فإن الثورية المدمرة للماضي هي الوجه الآخر لمثل هذه المُحَافَظَة. إن الثورية هي عقاب يتربص بالمُحَافَظَة الزائفة التي خانت التراث الخلاق. تهيمن الوضاعة في الثورية وروح الوصولية. أما المُحَافَظَة الحق فتنطوي على نبل المنشأ العريق. للقِدَمِ التاريخي قيمة دينية، أخلاقية وجمالية. النبل المُقَدسُ القِدَمِ يضطر الجميع إلى الاعتراف به في أفضل لحظات الحياة، حين يتحررون من هموم الحياة اليومية. لكن قيمة هذا القديم ونبله، هذا القديم العريق، المئوي السنين وألفيها، هي قيمة تغيير لروح الأبدية ونبله، لا جمود وركود وتحجر. في كل ماضٍ وعريق نحترم، دينيًا وأخلاقيًا وجماليًا، الحياة لا الموت، الحياة الكبرى لا اللحظات الآنية العابرة التي لم يُفرز فيها الوجود من العدم، حُبيبات الخلود ما زالت مختلطة بكمية كبيرة من العدم.

إن حقيقة المُحَافَظَة هي حقيقة التاريخية (l'historicisme)، حقيقة الشعور بالواقعية التاريخية الذي ضمر كليًا في الثورية والراديكالية. إن إنكار الاستمرارية التاريخية، هو إنكار للواقع التاريخي وتدميره، وإحجام عن معرفة العضوية التاريخية الحية. إن إنكار الاستمرارية التاريخية وتدميرها هما التطاول نفسه على الوجود الحقيقي، مثل إنكار استمرارية الشخصية أيضًا وتدميرها، الأَنا البشرية الفردية. إن الواقع التاريخي هو فرد من نوع خاص، في حياته فترة عضوية، كما درجات تراتبية. وتدمير الهيكل التراتبي للفضاء التاريخي هو تدمير للتاريخ لا صنعٌ له. تتشكل في الفضاء التاريخي وتترسخ نوعيات غير قابلة في أساسها الأنطولوجي للتحلل والتدمير. إن تراتبية هذه النوعيات التي تبلورت في التاريخ، ينبغي ألا تعرقل تشكل نوعيات جديدة، وينبغي ألا تؤخر الحركة الإبداعية. لكن ليس في وسع أي حركة إبداعية، وأي تشكل لنوعيات جديدة أن يدمر ويُزيل القيم والنوعيات التاريخية التي سبق أن تبلورت. إن تطور الحياة وتكاثر القيم يحصلان من خلال البداية المُحَافِظَة التي تهيئ الحياة القديمة للخلود، ويحصلان من خلال البداية الإبداعية أيضًا التي تخلق الحياة الجديدة من أجل ذلك الخلود عينه. إن فصل الأبوة عن البنوة الذي تقوم به المُحَافَظَة

الزائفة والثورية الزائفة، هو فعل إضعاف للحياة، هو روح الموت بالنسبة إلى ما مضى أو بالنسبة إلى ما هو آت.

***

هو آثم وزائف وقبيح إيمانكم الاستثنائي بالمستقبل. هذه النزعة المستقبلية (futurisme) هي خطيئتكم الجذرية. فهي تمزق الوجود التاريخي والكوني الواحد وتفككه. النظرة المستقبلية تلك التي ظهرت بالارتباط مع التيارات الجديدة في الفن، تحمل نوعية الراديكالية، وهي تبلغ الذروة في نفيها الثوري للماضي وتأليه المستقبل، وتخرج من هنا بالاستنتاجات الجريئة الأخيرة. أما أنتم، الثوريون الاجتماعيون من الأطياف المختلفة، أنتم، المترددون الثابتون على سطحيتكم، لا يسعكم جعل الإحساس المستقبلي بالحياة أكثر عمقًا. وليست مستقبليتكم هذه متطرفة وراديكالية إلا على الصعيد الاجتماعي فحسب. إلا أن تفكيركم كله وكل إحساسكم بالحياة، شديد القدم، شديد الخمول، ووعيكم يختنق بمقولات العالم الماضي. إن تأليهكم الماضي ينتسب إلى الماضي السيئ، ومن هناك استعارته. إن الروح الجديدة لن ترتكب إثم هذا التأليه، فهي سوف تكون متحررة من الوقت. كم هو بائس الوهم بأن تتصور المستقبل مُلونًا بلونٍ زاهٍ مشع، والماضي بلون داكن متشائم! كم هو مثير للشفقة الوهم بأن ترى في المستقبل واقعيةً، أكثر مما في الماضي! كأن واقعية الوجود ونوعية الوجود مرتبطتان بالمرور السريع للوقت! يا لها من عبودية في مثل هذا الموقف من الحياة! إن البحث عن وقائع الوجود الحقيقية ونوعياته ينبغي أن يتم على عمق أكبر، في الحقيقة. إن الموقف الحقيقي والجامع من الحياة ينبغي أن يؤكد الأبدي، الأبدي في الماضي والأبدي في المستقبل كحياة واحدة مستمرة، ينبغي أن يبحث عن الأنطولوجي الحقيقي. إن الموقف الأنطولوجي، لا المتخيل من الحياة ينبغي أن يكشف عن الحركة الإبداعية في عمق الوجود، عن الحركة الأنطولوجية للواقع المطلق نفسه، وليست حركتكم السطحية التي تفتت الوجود إلى لحظات وهمية من الحركة. للبداية المُحِافِظة قيمة دينية، مثل تأكيد أقنوم الأبوة ذي القيمة الأزلية والوجود في الماضي، ومثل الإرادة في إحياء الماضي بالحياة الأبدية. وهي لا تتعارض أبدًا مع البداية الخلاقة المشدودة إلى الأبدية أيضًا في المستقبل الذي يؤكد أقنوم البنوّة. إن تظهير المُستَقبَلية الراديكالية لم يكن منه من مفرٍ، بل وينبغي حتى الترحيب بالأمر؛ إذ يُفتَضَحُ نهائيًا زيف الموقف الثوري من الماضي والمستقبل، وتتكشف هوة العدم التي لا يراها أشباه الثوار السطحيين.

***

ليس للكنيسة وحدها تراث مقدس، بل وللثقافة أيضًا تراثها المقدس. الثقافة مستحيلة من دون التراث والتقاليد والاستمرارية. والثقافة (la culture) جاءت من العبادة (le culte). وفي العبادة دائمًا صلة مقدسة بين الأحياء والأموات، بين الحاضر والماضي، ثمة دائمًا تبجيل للأسلاف وطاقة ساعية إلى قيامتهم. وورثت الثقافة عن العبادة هذا التبجيل لشواهد القبور والنصب، وهذا الحرص على الصلة المقدسة بين الأزمنة. والثقافة تصبو، على طريقتها، إلى تأكيد الخلود. في الثقافة دومًا بداية مُحَافِظَة، تحتفظ بما قد كان وتُكمله، الذي من دونه ليست الثقافة ذات معنى. الوعي الثوري معاد للثقافة. وهو انطلق من العداء للثقافة، وكان في مطلع نشأته سَقْطٌ من العبادة، من العلاقة التي أقامتها العبادة. وهو منذ البداية كان هرطقة، كان وقوفًا ضد جماليات العبادة. أنتم جميعًا، أصحاب الروح الثورية، جميعكم تناهضون الثقافة. أنتم لا يمكن تصديقكم، حين تقولون إنكم مع الثقافة، حين تؤسسون «ثقافة البروليتاريا» وسواها من القباحات. أنتم في حاجة إلى أدوات ثقافة كثيرة من

أجل غاياتكم النفعية. روح الثقافة كريهة بالنسبة إليكم، روح العبادة فيها التي تحفظ الشعلة في قنديلها الذي لا ينطفئ، وتحرص على تواصل الأزمنة في الأبدية، وتتوجه إلى الأموات كما إلى الأحياء. أنتم كنتم تودون لو تأخذون الروح من الثقافة ولا تبقون منها سوى على الغلاف، سوى على القشرة. أنتم تريدون الحضارات لا الثقافات. في المُحَافَظَة الحقيقية يقدمون آيات الاحترام إلى أفعال الأسلاف الذين أطلقوا الثقافة وطوروها. أنتم ترفضون هذا الاحترام، وتزعجكم عظمة الأسلاف. أنتم تودون لو تنعمون بالاستقرار والحرية، من دون الماضي، من دون الأسلاف ومن دون التواصل. كشفت انتفاضتكم الثورية عجزكم الإبداعي، كشفت ضعفكم وتفاهتكم. وإلا لماذا كان على القوي الذي يشعر بقدرة خلاقة في داخله، أن ينتفض ضد المبدعين الأموات ويُسيء إلى القبور؟ الثقافة تفترض بدايةً مُحافِظَة، بداية تحافظ على الماضي وتبعث الأموات، وهذه البداية لا يمكن أن تكون مخيفة ومُخجِلةً لأكثر الإبداع جرأة. البداية الإبداعية والبداية المُحَافِظة لا يمكن أن تكونا على طرفي نقيض. المعابد الجديدة ليس من الضروري أن تهدم المعابد القديمة. المستقبل يتوافق مع الماضي، عندما تنتصر روح الخلود. إن المعارضة الثورية أو الرجعية للبداية المُحَافِظة والخلاقة هي فعل انتصار لروح العدم. إن الثقافة تفترض، هي الأخرى كذلك، البداية المُحَافِظة، كما البداية الخلاقة، وتفترض المحَافَظة والمُبادَرَة. والثقافة تموت حين تتغلب واحدة من هاتين المبادرتين وتُزيح الأخرى. إن ازدهار الثقافة يتطلب أيضًا علاقة احترام لقبور الآباء، وجرأة خلاقة تبتدع غير المسبوق.

أنموذج روما هو الأنموذج الخالد للثقافة. فالبنية المعقدة لروما، وتراتب حقب ثقافية كثيرة فيها حفظت آثار التاريخ العالمي، يعلماننا إدراك هذه الطبيعة المحافِظة - الخلاقة الأزلية للثقافة والتواصل العظيم بين الأزمنة، هذا الاستمرار للماضي وانعكاسه في الحاضر والمستقبل. تحولت نصب الإبداع الإنساني ونصب التاريخ في روما ظاهرة طبيعية. تمنح أطلال روما شعورًا عظيمًا ومثيرًا بالخلود. هذا الشعور الجميل يفيض في داخلك بشدة، خصوصًا حين تنظر إلى محلة كومبانيا (Campania)، وإلى طريق أبيا (Appian Way)، وإلى القبور القديمة. هناك مملكة الموتى، هناك لم تعد البلاد تُنجب، لكن الماضي أورث الأبدية ودخل في حياة الكون التي لا تموت. ومن المُسلم به أن التاريخ الإنساني هو جزء لا يتجزأ من الحياة الكونية. سترون أنتم في روما هياكل كثيرة ذات بنية معقدة، تجمع بين حقب ثقافية ودينية عدة. تم تشييد معبد المسيحيين الأوائل على أطلال المعبد الوثني القديم، وعلى أطلال هذا الأخير تم تشييد معبد المسيحيين المتأخرين. هكذا هو على سبيل المثل، معبد القديسة ماريا (St. Maria) في كوسمدان (Cosmedin)، وكذلك معبد القديس كليمنت (St. Clemento) الأكثر شهرة. هذا يمنح شعورًا استثنائيًا بواقعية التاريخ المقيمة أبدًا، التي لا يمكن القضاء عليها. إن بنية الثقافة الرومانية هي، على غرار البنية الجيولوجية للأرض، ظاهرة من الطراز الكوني. روما تجعل الإحساس بالحياة التاريخية على درجة مذهلة من العمق. القبور فيها هي مملكة الحياة لا الموت، وسراديب الموتى (catacombes) تتحدث عن الأسس الأبدية لثقافتنا وتاريخنا، وعن إمكان انتقالهما إلى الخلود. هذا كله صعب ومؤلم بالنسبة إلى التصور الأولي عن روما المتشاركة والمتجاورة مع روما القديمة، مع روما المسيحيين الأوائل، روما عصر النهضة، روما باروكو[32] (barocco)، الأمر الذي يؤكد التواصل الأبدي بين العصور في الثقافة والتاريخ، والتداخل والتماهي بين البدايات المُحافِظَة والخَلاقة. إن الإنكار الثوري لكل مُحَافظَة هو بربرية. والعصف الثوري هو عصف بربري. إن الروح الثورية هي ردة فعل العصف البربري على الثقافة والتراث الثقافي. لكن الثقافة قد تُصاب بالجمود وجفاف الإبداع

الذي يجعل ردة الفعل هذه حتمية. إن الثقافة الأوروبية بأسرها، التي هي ثقافة لاتينية بالدرجة الأولى، تقوم على تراث العصور القديمة، وعلى التواصل العضوي معها، لذا فهي تحوي في داخلها البداية المُحافِظة. أنتم لا تشعرون بهذا الأمر لأنكم لا تكترثون لأمر الثقافة، ولأن مثلكم الأعلى الاجتماعي ليس مثلًا أعلى ثقافيًا. إن من ينفي وجود البداية المُحافِظة كليًا، هو أولئك الذين ينفون أصالة الواقع التاريخي. إن الإقرار بالحقيقة ذاتها لوجود هذا الواقع يفترض الإقرار بالبداية المُحافِظة، أي الإبقاء على وحدتها واستمراريتها. أنتم تودون استبدال الواقع التاريخي الملموس بواقع سوسيولوجي مجرد، لذلك تصورون البداية المُحافِظة على أنها عقبة في طريق تجريدكم.

***

البداية المُحافِظة لا تسمح في الحياة الاجتماعية بإطاحة الفضاء الاجتماعي الذي شكله عمل التاريخ المنظم والخلاق. هذه البداية تكبح ضغط الظلمة الفوضوية من الأسفل. لذلك، فإن مغزى المُحافَظة ليس في عرقلتها الحركة إلى الأمام والأعلى، بل في عرقلة الحركة إلى الخلف والأسفل، عرقلة الحركة نحو الظلمة الفوضوية، والعودة إلى الوضع السابق على تشكل الدولة والثقافة. معنى المُحافَظة هو في العقبات التي تضعها في وجه الظواهر البهيمية - الفوضوية في المجتمعات البشرية. هذه الطبيعة تتحرك دومًا في الإنسان، وهي مرتبطة بالخطيئة. وأنتم، أيديولوجيو الثورية الذين تنكرون أي حق للمُحافَظة، أنتم أنفسكم تسيطر عليكم الأوهام وتقودون سواكم إلى الأوهام، حين ترددون الكلمات العامة بأن الثورية هي دائمًا حركة إلى الأمام، بينما المُحافَظة هي حركة إلى الوراء. غالبًا ما كانت الحركة الثورية إلى الأمام في التاريخ حركة وهميةً متخيلة. فهي، في الحقيقة، كانت حركة إلى الوراء، أي اجتياح الظلمة الفوضوية التي تشد إلى الأسفل، الفضاء الاجتماعي الذي تَشَكلَ عبر عملية التاريخ الخلاقة. لذلك، فإن صراع البدايات المحافِظة والبدايات الثورية قد يكون صراع بدايات كونية وفوضوية. لكن المُحافَظَة تتحول بدايةً سلبية ومعرقِلة الحركة إلى الأمام وإلى الأعلى، إذا قررت أنها البداية الكونية الوحيدة للحياة الإنسانية، وتصبح معادية البداية الخلاقة. إن كبح الظلمة الفوضوية من تحت، من أجل حماية الفضاء الاجتماعي الذي تشكل على أيدي أجيال عدة، هو بحد ذاته فعل غير كافٍ. إن الظلمة الفوضوية التي تمتلك مصدرًا لا قرار له، ينبغي ليس عدم كبحها فحسب، والحؤول دون تغلغلها داخل الفضاء الاجتماعي، بل ينبغي أيضًا أن تُضاء وتُحور على نحو مُبدع. على البداية المُحافِظة والبداية الخلاقة أن تخدما قضيةً كونية واحدة، القضية العظيمة في الصراع مع الفوضى العالمية والخطيئة اللتين تضعان المجتمعات البشرية تحت رحمة هذه الفوضى. وإذا كانت الظلمة الفوضوية غير محددة الشكل، هي بذاتها ليست بعدُ شرًا، إنما نبع حياة لا قرار له فحسب، فهي سوف تغدو شرًا حين يحاولون تفويضها وتسليط الضوء عليها، حين يجعلونها البداية المرشِدة للحياة الإنسانية. تحصل الفوضى في الأيديولوجيات الثورية على تفويض عقلاني.

إن حياة الأفراد والمجتمعات الإنسانية والبشرية التاريخية بأسرها تتلقى دائمًا مصادر حديثة للتجدد من القوى غير المستَغَلة، التي لا تزال مظلمة، فوضوية وبربرية. هذه القوى تجدد الدم البشري الذي تجمد وشاخ. فتنضم إلى الفضاء التاريخي أعراق وطبقات بشرية جديدة. إنها عملية حتمية ومباركة. الظلمة ينبغي أن تنضم إلى مملكة النور، إنما من أجل أن تُشع نورًا، وتمد مصادر الضوء بقوى جديدة، وليس من إجل إسقاط جميع المصابيح وتوسيع مملكة العتمة. إن انضمام قوى

جديدة إلى الفضاء والنور التاريخيين هو عملية عضوية، لا ميكانيكية. وكما كل عملية عضوية أخرى، تفترض هذه العملية بدايات تراتبية، تفترض نظامَ حياة تراتبيًا. إن إطاحة البداية التراتبية الكاملة من شأنها أن تُزيل جميع المصابيح، وتطفئ النور الذي تم بلوغه بكل هذا التعب والألم. المصابيح تجب حمايتها حتى تنضم الظلمة إلى مملكة النور، لا أن تطيح مملكة النور. ثمة في الفضاء أساس فوضوي لانهائي العمق يتفجر منه نبع القوى الجديدة. لكن، على الكون أن يحافظ على نظامه التراتبي، على مصدر النور المركزي فيه، كي لا تطيحه نهائيًا القوى الفوضوية، كي يقوم بالإلهي المرسوم له، كي يسطع النور في الظلمة وتلتحق الفوضى بالكون. الوعي الثوري لا يفهم هذه العلاقات العميقة بين الفوضى والكون والمخفية تحت جميع الانقلابات والتغيرات الاجتماعية. إن الوعي الثوري النقي المجرد يربط، وعلى نحو غير طبيعي ومخيف، بين الفوضوي والعقلاني، وهو ينحني للفوضى والعقلانية معًا. هو عكس الكوني والصوفي - العضوي. الوعي الثوري لا يريد أن يُعير الطبيعة العضوية للإنسان والمجتمع الإنساني اعتبارًا مع ما لهما من فيزيولوجيا وسيكولوجيا تتمتعان بدرجة عالية من التماسك. وهو لا يريد أن يعرف أن لهاتين الفيزيولوجيا والسيكولوجيا أساسًا «صوفيًا» عميقًا. وهذه سمة العقلانية المفرطة، الأمر الذي يفضي إلى الاغتصاب العقلاني للطبيعة التي تثأر لنفسها. على التطور الاجتماعي والتغيرات الاجتماعية أن تعير الطبيعة العضوية وقوانينها الراسخة اعتبارًا. لكن هذا الاغتصاب العقلاني للطبيعة العضوية للإنسان والمجتمع يتم عبر قوى فوضوية خارجة على الإيقاع الكوني أو أنها لم تدخله. إن هذا الجمع بين الفوضى والعقلانية هو من مفارقات الفلسفة الاجتماعية التي تشير إلى تناقضات الوجود الإنساني. فليس في نمو الشجرة ولونها فوضى ولاعقلانية. هكذا، هي أيضًا طبيعة المجتمع البشري القائم في أعماق الحياة الكونية. لكن الفوضوية والعقلانية في حياة المجتمعات البشرية هما نتيجة الحرية الإنسانية الشريرة، تلك الحرية الاعتباطية التي هي علامة على العبودية الإنسانية. إن قوانين الطبيعة التي تلجم الفوضى في الكون، تنقض على المجتمع البشري الذي طرق درب العنف الفوضوي والعقلاني، وتعيد الإنسان إلى سجن فيزيولوجيته وسيكولوجيته البالية، بواسطة الثورة التي لم تُهزم ولم يتم التغلب عليها. لا يمكن الفوضى أن تحرر الإنسان، لأنها هي نفسها مصدر عبودية الإنسان. الثورة عاجزة عن تغيير الطبيعة الإنسانية، وهي تُبقي عليها رثة عضويًا، خاضعة للفيزيولوجيا والسيكولوجيا القديمتين اللتين لم يتم تخطيهما، لكنها (الثورة) تتنطح لأن تخلق، على نحو ميكانيكي، من هذه الطبيعة الإنسانية القديمة مجتمعًا جديدًا كليًا وحياة جديدة. وهذا بالذات ما يجعل الثورات مخادِعة وهمية لا تمتلك جذورًا. إن عجز الفوضى الثورية هذا في تغيير الطبيعة الإنسانية، وفي تخطي قوانين فيزيولوجيتها وسيكولوجيتها، وهذا الابتعاد من العمق الصوفي للحياة العضوية، هو ما يبرر حقيقة المُحَافَظَة وحقوقها. فلو كانت للثورية قوة تغيير حقيقي وجوهري للطبيعة البشرية وتبديل ملامحها وخلق حياة جديدة أفضل، لكان من شأن ذلك أن يكون مبررًا لها. لكن بما أن الثورية تدّعي كاذبة بأنها قادرة على القيام بهذا الأمر، وبما أن إنجازاتها وهمية، فإن ردة فعل المُحَافَظَة عليها هي ردة فعل ضرورية للطبيعة المغتصَبَة، لكن ثابتة الملامح.

***

البداية المُحَافِظَة ليست بداية مُغتصِبة ولا يجدر بها أن تكون مُغتصِبة. هي بداية حُرة - عضوية. وهي تنطوي على ردة فعل سليمة ضد العنف بحق الطبيعة العضوية، ضد محاولة اغتيال الحياة التي تود أن تكون دائمة. البداية المُحَافِظَة هي بذاتها ليست مناقضة للتقدم، وهي لا تطلب إلا أن يكون التقدم عضويًا، وألا يدمر المستقبلُ الماضي، بل أن يواصل تطويره. تاعِسٌ هو مصير البلاد التي ليس فيها مُحَافَظَة سليمة مفطور عليها الشعب نفسه، ليس فيها وفاءٌ للأسلاف وتواصلٌ معهم! تَاعِسٌ هو قدر الشعب الذي لا يحب تاريخه ويريد أن يبدأه من جديد! كم هو تاعسٌ قدر بلادنا وشعبنا! إذا كانت المُحَافَظَة ليست موجودة إلا لدى السلطة المعزولة عن الشعب والمناهِضة للشعب، وليست موجودة في الشعب نفسه، فإن كل تقدم للشعب يصبح تقدمًا مؤلمًا. إن المُحَافَظَة، كتواصل مع الخلود، ينبغي أن تنطوي ليس على القوة فحسب، بل على الحقيقة أيضًا، الآسرة القلب الشعبي والمقيمة في حياته الروحية. المُحَافَظَة الشائنة والمُنَفرة هي عاجزة، تستطيع أن تغتصِبَ، لكنها لا تستطيع أن تشد إليها أو أن تقود خلفها. وتعيسة هي البلاد التي أصبحت فيها كل مُحَافَظَة شائنة وعنفية! حين ترتبط المُحَافَظَة في الوعي الشعبي بالعقبة في وجه التطور وبالعداوة للإبداع، فهذا يعني أنه يحصل الإعداد للثورة في البلد. والمسؤول عن ذلك هو تلك القوى المُحافِظة التي سمحت بإذلال نفسها وتحجرها، وتلك القوى الثورية التي انتفضت على البدايات الأبدية، وعلى المقدسات والقيم الخالدة. إن الطاقة المُحَافِظَة ينبغي أن تكون متأصلة في الشعب أيضًا، على غرار الطاقة الخلاقة، وهي لا يمكن أن تكون طاقة خارجية، كليًا، بالنسبة إليه. الثورة تعني التجاوز الأشد تطرفًا لكل ما هو إلهي وذو قيمة روحية. في نهاية المطاف، إن كل تيارٍ محافِظٍ سليم يستحيل دونه الحفاظ على الفضاء الاجتماعي، يجد سندًا في المشاعر الشعبية التي تمتد لآلاف السنين، والتي يستحيل تدميرها في يوم، في دقيقة أو في سنة. إن الانقلابات الروحية في حياة الشعب لا تقوم بالطرائق التي تقوم بها الثورات. إن الانقلاب الأعظم في حياة البشرية، أي ظهور المسيحية في العالم، لم يكن ثورة بالمعنى الذي تقصدونه أنتم لهذه الكلمة. إن الحرية الأكبر بالنسبة إلى الإنسان يمنحها التوليف بين البداية المُحافِظة والبداية الخلاقة، أي التطور المتناسق للفضاء الاجتماعي. إن كل ما هو جديد من الوحي والإلهام في العالم الروحي يبرز على مستوى آخر، بعيد المنال بالنسبة إليكم. وتودون، مع ذلك، أن تَبقوا في ذاكرة الأجيال المقبلة، ترغبون في أن تعمروا طويلًا في الحياة التاريخية. وأنتم تؤكدون بذلك حقيقة معينة في البداية المُحافِظة. وإذا ما كنتم ترغبون في أن يبقى ذكركم قائمًا، وأن تستمروا في الحياة، فما عليكم سوى أن تحافظوا على ذكرى أسلافكم الموتى، وعليكم إحياؤهم من أجل الحياة الأبدية. «أكرم أباك وأمك، والخير لك يكون، وخالد أنت على الأرض». في العمق الديني تقيم بداية محافِظة. وهناك تُقيم بداية خلاقة كذلك.

(31) النزعة المحافِظة (Le conservatisme) سوف نشير إليها في النص ليس بالنزعة المُحافِظة، بل اختصارًا بكلمة مُحَافَظَة. (المترجم)

(32) barocco، كلمة إيطالية تعني، في ما تعنيه، غريب الأطوار، غير التقليدي. وهي السمة التي تُطلق على الحضارة الأوروبية في عصر النهضة المتأخر، بين القرنين السابع عشر والثامن عشر. نمط باروكو (Style baroque) ظهر بين القرنين السادس عشر والسابع عشر في المدن الإيطالية الرئيسة. وتعتبر حقبة باروكو بداية انتصار «الحضارة الغربية» في العالم. ويعتبر مناهضًا كل ما هو كلاسيكي وعقلاني. (المترجم)

الرسالة السادسة

في الأرستقراطية

كان حب الفكرة الأرستقراطية قدرَ القلائل في عصركم الديمقراطي. وينظرون إلى الميول الأرستقراطية، إما على أنها تعبير عن الغرائز الطبقية، وإما على أنها جمالية (esthétisme) لا قيمة حياتية لها. لكن للأرستقراطية، في الحقيقة، أسس أكثر عمقًا وأكثر ارتباطًا بالحياة. هذه الأسس يلفها الغموض في الوقت الراهن وأخذوا ينسون أمرها. لكن من يهتم بجوهر الحياة، وليس بقشورها، عليه أن يعترف بأن ليس الأرستقراطية، بل هي الديمقراطية التي لا تمتلك أسسًا أنطولوجية، والديمقراطية لا تمتلك في ذاتها ما هو اسماني وطبيعتها ظاهراتية (phénoménalisme) محض. الفكرة الأرستقراطية تفترض السيطرة الفعلية لمن هم الأفضل، أما الديمقراطية فتفترض سيطرة الجميع الشكلية. إن الأرستقراطية، كإدارة مَن هم الأفضل وسيطرتهم، كمطلب في الاصطفاء النوعي، تبقى إلى أبد الآبدين المبدأ الأسمى في الحياة الاجتماعية، الطوبى الوحيدة الجديرة بالإنسان. إن جميع صيحاتكم الديمقراطية التي تملأون بها الساحات والبازارات، لن تنتزع من القلب الإنساني النبيل الأحلام بسيطرة المميزين ومَن هم الأفضل وإدارتهم، لن تطمس هذا النداء النابع من الأعماق بأن يبرز المميزون ومَن هم الأفضل، بأن تتمتع الأرستقراطية بجميع حقوقها الأبدية.

يجدر بنا أن نذكر زَمَنَنا الوضيع بكلمات توماس كارلايل (Thomas Carlyle) من كتابه الرائع **الأبطال والبطولي في التاريخ**. إن جميع العمليات الاجتماعية التي في وسعكم ملاحظتها في البشرية، تُفضي إلى غاية واحدة (تبلغها هذه العمليات أم لا، ذلك سؤال آخر)، بالتحديد: «اكتشاف (able man) (كما ورد في النص الروسي للكاتب) الشخص القادر الذي يخصنا وإلباسه لبوس القدرة: العظمة، التكريم، أو ما ترغبون فيه، شرط أن يمتلك القدرة الفعلية على قيادة الناس بما يتفق مع قدرته. خطب انتخابية، اقتراحات برلمانية، قوانين إصلاح، ثورات فرنسية، وكل ما يُفضي إلى الغاية التي أشرت إليها، وإلا سوف يكون الأمر عبثًا مطلقًا. جِدوا الشخص الأكفأ في البلد المعني، ارفعوه إلى أعلى ما وسعكم من عُلو، داوموا على تبجيله، وسوف تحصلون على حكومة مثالية، وبلا صندوق الاقتراع والخطب البرلمانية والتصويت والمؤسسة الدستورية، ولا يعود في وسع أي آلية أن تحسن وضع مثل هذه البلاد ولو بمقدار بوصة واحدة». كما يجدر بنا كذلك أن نذكر زمننا بأفلاطون. في طوبى أفلاطون الأرستقراطية ثمة ما هو خالد، على الرغم من أن غِلاف الطوبى كان زمنيًا. إن أكثر مبادئه أرستقراطيةً يستحيل القفز فوقه. استقطب القرون الوسطى وسوف يشد إليه الأزمنة الآتية. وطالما بقيت الحياة تنبض في الروح الإنسانية، وطالما لم تتمكن الكمية من سحق الأنموذج النوعي للإنسان نهائيًا، سوف يبقى الإنسان يصبو إلى مملكة مَن هم الأفضل، إلى الأرستقراطية الحقيقية. وماذا في وسعكم أن تضعوا في وجه هذا الحلم الإنساني الرفيع، في وجه هذه الطوبى الجديرة بالإنسان؟ الديمقراطية، الاشتراكية، الفوضوية. وسوف أعمد إلى تشريح جميع أحلامكم وطوباوياتكم هذه. إن المبدأ الأرستقراطي هو مبدأ أنطولوجي، عضوي ونوعي. وجميع مبادئكم الديمقراطية والاشتراكية والفوضوية، هي مبادئ شكلية، آلية وكمية، إنها جميعها غير مُبالية وغير مكترثِة لحقائق الوجود ونوعياته، بمضمون الإنسان.

لا يجوز، في الحقيقة، حتى وضع الديمقراطية في مواجهة الأرستقراطية. فهما مفهومان من قياس غير متناسب، ومن نوعية مختلفة. في وسع الديمقراطية التمثيلية أن تضع نصب عينيها اختيار مَن هم الأفضل وإقامة مملكة الأرستقراطية الحق. وقد تُفهم الديمقراطية على أنها توفير الشروط الملائمة للاصطفاء النوعي، واختيار الأرستقراطية. لهذا، قد يكون الهدف هو البحث عن

الأرستقراطية الحقيقية لا المجردة، أي استئصال تلك الأرستقراطية التي ليست هي مملكة مَن هم الأفضل، والكشف عن الطرائق المؤدية إلى الأرستقراطية الحق. إن كل ما صورتم من ديمقراطيات يُسيء خدمة هذه الأهداف وينساها باسم المصالح الآنية. من السهل أن تتحول الديمقراطية أداة شكلية لتنظيم المصالح. البحث عمن هم الأفضل يُستبدل بالبحث عمَن يناسب المصالح أكثر، عن الذين يخدمونها أكثر. ليس للديمقراطية نفسها من محتوى داخلي أنطولوجي، لذا في وسعها خدمة الأهداف الأشد تناقضًا. وهذا، في الحقيقة، ما يميزها من الأرستقراطية التي هي المثل الأعلى للنُبلِ والتأدب والنوعية. لا يغرنكم المظهر ولا تستسلموا كثيرًا للأوهام البائسة. مذ خُلِق العالم والأقلية، وليست الأكثرية، هي التي كانت، وما زالت، وسوف تبقى تحكم. وهذا يصح بالنسبة إلى جميع أشكال الحكم وأنواعه، سواء بالنسبة إلى الملكية أم إلى الديمقراطية، أم بالنسبة إلى العهود الرجعية والحقب الثورية. وليس من مهرب من حكم الأقلية. ومحاولاتكم الديمقراطية لخلق مملكة الأكثرية هي، في الحقيقة، خداع بائس للذات. والمسألة هي فحسب في ما إذا كانت الأقلية تحكم أفضل أو أسوأ. أقلية تحل مكان أقلية. هذا كل ما في الأمر. الأسوأ يطيح الأفضل، أو الأفضل يطيح الأسوأ. أما حكم الجماهير المباشر فلا يمكنه أن يكون، إلا في لحظة الطوفان الجماهيري العفوي خلال الثورات والانتفاضات. لكن، سرعان ما يحدث الفرز وتتشكل الأقلية الجديدة التي تقبض على مقاليد السلطة. في العهود الثورية تحكم، عادة، مجموعة من الديماغوجيين البارعين في استغلال غرائز الجماهير. الحكومات الثورية التي تحسب نفسها شعبية وديمقراطية، هي دائمًا أقلية متسلطة. ومن النادر، والنادر جدًا أن تكون هذه الأقلية صفوة مَن هم الأفضل. والبيروقراطية الثورية هي، عادةً، ما تكون على مستوى أدنى من تلك البيروقراطية القديمة التي تطيحها الثورة. أما الجماهير الثورية فهي دائمًا ليست سوى البيئة التي يتحقق فيها تسلط الأقلية هذا.

غلبة الديمقراطية هي دائمًا غلبة وهمية وعابرة، لا تدوم أكثر من هنيهة. هكذا، أيضًا هي غلبة الاشتراكية؛ إذ كانت ستكون وهمية لو كان من شأنها أن تكون ممكنة. تحرروا من سلطة الكلمات والأقنعة الظاهرية، أنعموا النظر في جوهر الحياة عينه. فالسؤال، في الحقيقة والواقع، يدور حول ما إذا كانت تنتصر الأرستقراطية أو حكم الدهماء (l'ochlocratie) «الأوشلقراطية». وليس هناك، في الحقيقة، سوى نوعين من السلطة: الأرستقراطية أو حكم الدهماء، حكم مَن هم الأفضل وحكم مَن هم الأسوأ. لكن دائمًا وأبدًا قلة هي التي تسيطر، ذلك هو قانون الطبيعة الثابت. إن سيطرة الجميع لا تعني، عمليًا، أي شيء سوى الفوضى المظلمة غير المبالية التي تخلط الأمور بعضها ببعض. وكل تَحكم بهذه الفوضى يفترض التمييز بين هذه العناصر أو تلك، بين الأرستقراطية أو الأوليغارشية. ثمة ميل ثابت لتَشكل طبقة النبلاء. ويبقى النبلاء إلى أبد الآبدين رمز كل ما هو نوعي، يبقون العرق المصطفى المتميز. سبق للبرجوازية أن تشبهَت بطبقة النبلاء، وسوف تتشبه بها البروليتاريا أيضًا. جميع صيادي الفرص يرغبون في أن يكونوا نبلاء. في الاشتراكية ترغب البروليتاريا في أن تكون طبقة النبلاء الجديدة، الطبقة الأرستقراطية. ويبدو أن لا بد من أن تكون في العالم أقلية صاحبة امتيازات. إن تدمير التراتبية التاريخية والأرستقراطية التاريخية لا يعني القضاء على كل تراتبية وكل أرستقراطية، بل تتشكل تراتبية جديدة وأرستقراطية جديدة. إن كل تشكيلة حياتية هي تشكيلة تراتبية وتمتلك أرستقراطيتها، وليست غير تراتبية سوى كَومَة القمامة، وفيها فحسب لا يبرز أي نوعية أرستقراطية. وإذا ما دُمرت التراتبية الحق وقُضي على

الأرستقراطية الحق، تبرز عندئذٍ تراتبيات زائفة وتتشكل أرستقراطية زائفة. وفي وسع مجموعة من النصابين والقتلة من نفايات المجتمع أن تشكل أرستقراطية جديدة زائفة وتمثل البداية التراتبية في بناء المجتمع. ذلك هو قانون كل ما هو حي، وكل ما يمتلك وظائف حياتية. ولا يسع سوى كَومَة من الرمل أن تكون من غير تراتبية ومن غير أرستقراطية. إن إنكاركم العقلاني للبداية التراتبية - الأرستقراطية يترتب عنه العقاب الملائم. وبدلًا من التراتبية الأرستقراطية تتشكل تراتبية الدهماء. وتخلق سيطرةُ الدهماء أقليتها المنتقاة، وتصطفي مَن هم الأفضل والأقوى في الفظاظة، الأوائل بين الأوغاد، أمراء مملكة الجلافة وملوكها. من الناحية الدينية، فإن إطاحة تراتبية المسيح تخلق تراتبيةً معادية للمسيح. أنتم لا يسعكم العيش ولو ليومٍ واحدٍ من دون الأرستقراطية الزائفة، من دون الأرستقراطية المعكوسة. جميع العوام يرغبون في الانتماء إلى الأرستقراطية.

إن روح العامة هي روح حسد الأرستقراطية وكراهيتها. ويمكن الرجل الأبسط من الشعب ألا يكون من العامة بهذا المعنى للكلمة. وحينئذٍ قد يكون في الموجيك سمات من الأرستقراطية الحقيقية التي لا تَحسِد أبدًا، وقد تكون لسلالته الخاصة سمات تراتبية معطاة من الله.

***

الأرستقراطية هي سلالة لها أساسها الأنطولوجي، وسماتها الخاصة الأصيلة غير المستعارة. الأرستقراطية خلقها الله، ومن الله حصلت على خصائصها. إطاحة الأرستقراطية التاريخية تفضي إلى نشوء أرستقراطية أخرى. البرجوازية، ممثلة الرأسمال، تطمح إلى أن تكون أرستقراطية، وكذلك البروليتاريا، ممثلة العمل. والمطامح الأرستقراطية للبروليتاريا تتخطى مطامح جميع الطبقات الأخرى، لأن البروليتاريا، وفق مذهب أيديولوجييها، عليها أن تعي ذاتها بأنها الطبقة المختارة، طبقة الرسالة، بأنها الوحيدة الإنسانية الحق وأنها العرق الأرفع. لكن كل رغبة في الانتقال إلى الطبقة الأرستقراطية، في الارتقاء من وضع أدنى إلى الطبقة الأرستقراطية، هو، في الحقيقة، ليس من الأرستقراطية في شيء. فالأرستقراطية المتاحة هي الأرستقراطية الطبيعية فحسب، الأرستقراطية بالفطرة، الأرستقراطية التي من عند الله. المَهمة الحق للأرستقراطية ليست في الارتقاء إلى وضع أرفع مرتبة لم يتم بلوغه، بقدر ما هي النزول إلى وضع أدنى مرتبة. الأرستقراطية، الداخلية والخارجية، هي أرستقراطية بالفطرة، وليست مكتسبة. سمة الأرستقراطية هي السخاء لا الجشع. في وسع الأرستقراطية الحق أن تخدم الآخرين، أن تخدم الإنسان والعالم، لأنها ليست مشغولة بتمجيد النفس، لأنها في الأصل تقف عاليًا بما فيه الكفاية. إنها على استعداد للتضحية. وهنا تكمن القيمة الخالدة للبداية الأرستقراطية. المجتمع البشري يجب أن يضم أشخاصًا لا يعوزهم تمجيد النفس، متحررين من السمات الخسيسة المرتبطة بتمجيد الذات. حقوق الأرستقراطية هي حقوق بالفطرة، وليست مكتسبة. يجب أن يتوافر في العالم أشخاص لديهم حقوق طبيعية، أنموذج إنساني متحرر من جو النضال من أجل اكتساب الحقوق. أولئك المنخرطون في النضال والعمل الذين يكتسبون حقوقهم ويرفعون من وضعهم الحياتي، ليسوا متحررين من مشاعر مريرة كثيرة وإهانات، بل ومن الشر في أحيان كثيرة، إنهم مسحوقون بماضيهم الوضيع. وأنا لا أتحدث، بالطبع، عن الأشخاص الاستثنائيين الذين لم يُكتب القانون لهم، بل عن المستوى المتوسط من الناس.

ليست ممكنة ومبررة سوى الأرستقراطية التي أنعم الله بها، الأرستقراطية بالمنشأ الروحي والرسالة والأرستقراطية بنبل المنشأ والتواصل مع الماضي. إن ما يبدو لكم مزعجًا وغير عادلٍ في وضع الأرستقراطي هو عينه ما يبرر وجوده في العالم وامتيازه في الأصل وفي المولد، وليس في الجدارة الشخصية. الأرستقراطي لا يمكن أن يكون بالجدارة، ولا بالعمل الشخصي ولا بالتقدم الشخصي. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في العالم. تنتمي العبقرية والموهبة إلى الأرستقراطية الروحية، لأن العبقرية والموهبة هما هبة، ولا تُكتسبان بالعمل. العبقرية والموهبة تكتسبان بالولادة، بالمنشأ الروحي والوراثة الروحية. للأرستقراطية الروحية الطبيعة عينها التي للأرستقراطية الاجتماعية والأرستقراطية التاريخية، وهي دائمًا عرق مميز حصل على امتيازاته مجانًا. ومثل هذا العرق المميز روحيًا وفيزيائيًا يجب أن يوجد في العالم من أجل أن تكون بارزة سمات النبل الروحي. النبل هو الأساس الروحي لكل أرستقراطية. النبل لا يُكتسب وليس مكافأة عمل، إنه هبة القدر، ميزة السلالة. النبل هو نوع من النعمة الروحية. النبل نقيض كل إهانة وكل حسد. النبل هو إدراك المرء انتماءَه إلى التراتبية الحق، مكانَه الأصيل والفطري فيها. الأرستقراطي النبيل يعرف أن ثمة مواقع تراتبية أعلى. لكن الأمر لا يثير فيه أي شعور بالمرارة، ولا يذله، ولا يهز إحساسه بالكرامة. إن إحساس المرء بكرامته هو أيضًا أساس روحي للأرستقراطية. هذه الكرامة ليست مكتسبة، بل هي فطرية. إنها كرامة أبناء الآباء النبلاء. الأرستقراطية هي البنوّة، فهي تفترض الصلة بالآباء. الذين لا أصل لهم، ولا يعرفون أبوتهم لا يسعهم أن يكونوا أرستقراطيين. وأرستقراطية الإنسان، بوصفها المستوى التراتبي الأعلى للوجود، هي أرستقراطية البنوة الإلهية، أرستقراطية أبناء الله الذين ولدوا أرستقراطيين. لهذا، المسيحية هي دين أرستقراطي، دين أبناء الله الأحرار، دين النعمة الإلهية التي وهِبَت لنا. إن العقيدة عن النعمة هي عقيدة أرستقراطية. ليست أرستقراطية كل سيكولوجيا الإهانة، كل سيكولوجيا التطلب. إنها سيكولوجيا الدهماء. أرستقراطية هي سيكولوجيا الخطيئة، خطيئة أبناء الله الأحرار. الأرستقراطي يشعر بنفسه خاطئًا، أكثر مما يشعر بنفسه مهانًا. هذه السيكولوجيا الأرستقراطية متغلغلة في المسيحية. الوعي المسيحي لأبناء الله، وليس عبيد العالم، أبناء الحرية، وليس أبناء الحاجَة، هو الوعي الأرستقراطي. أولئك الذين يشعرون بأنهم ربيبو الله لا أبناؤه، وبأن القدر قد أهانهم، يفقدون السمات الأرستقراطية النبيلة. الأرستقراطي النبيل ينبغي أن يشعر بأن كل ما يرفع من شأنه هو من عند الله، وكل ما يحط من شأنه هو نتيجة خطيئته. هذا تمامًا عكس السيكولوجيا السوقية الوضيعة التي تعتبر أن ما تكتسبه هو ما يرفع من شأنها، وكل ما يحط من شأنها هو الإهانة وخطيئة الآخرين. إن أنموذج الأرستقراطي هو تمامًا عكس أنموذج العبد وأنموذج الانتهازي(33) (parvenu) إنهما جنسان روحانيان مختلفان. إن نمط النفس الأرستقراطية قد يكون لدى العامل البسيط، في حين أن النبيل قد يكون نذلًا.

أنتم كنتم تودون لو تخفضون من نوعية الجنس البشري، كنتم ترغبون في أن تنتزعوا السمات الأرستقراطية من الأنموذج البشري. أنتم يقززكم النبل الأرستقراطي. أنتم تقيمون مملكتكم على السيكولوجيا السوقية، على سيكولوجية الإهانة والحسد والحقد. أنتم تأخذون أسوأ ما لدى العمال والفلاحين، وما لدى البوهيميا الثقافية، وتودون أن تصنعوا الحياة المقبلة من هذا الذي هو أسوأ. أنتم تثيرون الغرائز الثأرية في الطبيعة الإنسانية. من الشر يولد خيركم، ومن العتمة يشتعل ضوؤكم. يقول ماركس الذي يخصكم، إن المجتمع الجديد يجب أن يولد في الشر ومن الشر، واعتَبرَ أن ثورة أقبح المشاعر البشرية وأحلكها هي السبيل إليه. وقد وضع أنموذج البروليتاريا

الروحي في وجه الأنموذج الروحي للأرستقراطي. البروليتاري هو ذاك الذي لا يريد معرفة أصله ولا يحترم أسلافه، ولا يوجد بالنسبة إليه عرق ولا وطن. الوعي البروليتاري يرفع الإهانة والحسد والثأر إلى مرتبة فعل الخير للإنسان الجديد المقبل. وهو يرى التحرر في تلك الانتفاضة والثورة التي هي عينها تمثل العبودية الأشد رعبًا للروح وحبسها بالأشياء الخارجية، بالعالم المادي. البروليتاري مرمي على سطح الأمور. أما الأرستقراطي فينبغي أن يحيا على عمق أكبر، أن يشعر بصلات وجذور أكثر عمقًا. الوعي البروليتاري يمزق الصلة بين الأزمنة ويدمر الكون. الوعي البروليتاري والسيكولوجيا البروليتارية ليس بالضرورة أن يكونا لدى العامل، لدى الإنسان الذي يقف عند الدرجات السفلى من السُلم الاجتماعي. ففي وسع العبد أن يشعر في داخله ببنوّته بالنسبة إلى الله والوطن، للأب والأم، في وسعه أن يعيش عميقًا صلته بالكل القومي والكوني العظيم، بمكانه في التراتبية. عرفت عمالًا بسيطين كانوا أكثر أرستقراطية من نبلاء كثرٍ. لكن، أنتم لا تريدون أن يكون العامل على مثل هذه الحال النبيلة، أنتم تريدون تحويله إلى بروليتاري حقيقي ودهماء بالقناعة. أنتم تضعون شغب العبد وانتفاضة الدهماء في أساس مملكتكم المعادية كل ما هو أرستقراطي. في الشغب والانتفاضة ثمة ما هو ذليل وخَنوع. إن الإنسان الشريف الذي يشعر برفعة كرامته ويحتفظ في داخله بالصورة الأسمى للإنسان، أرستقراطي الروح أو أرستقراطي الدم، سوف يجد، إن لم يكن قد سقط أو تشوه، سبلًا أخرى للدفاع عن الحقيقة والحق، وفضح الباطل والكذب. **الحياة الجديدة الأفضل يمكن أن تولد من الأرستقراطية الداخلية، من الروح التي تطهرت من أي شائبة. لكنها** لن تولد أبدًا من العبودية الثائرة، من الإنكار الذليل لكل قيمة ومقدس. إن أنموذجكم للبروليتاري هو تجسيد لإنكار الخلود، وتأكيد العدم والموقت. أما أنموذج الأرستقراطي الحق فهو مشدود نحو الخلود.

ثمة في الأرستقراطية ظلامة إلهية، ثمة تعسف ونزوة إلهية، لا تستقيم الحياة الكونية والجمال الكوني من دونها. إن المطالبة البروليتارية المبتذلة بالعدالة المساواتية ومكافأة كل فرد بحسب كمية عمله هو تَعدٍّ على ازدهار الحياة وعلى الوفرة الإلهية. وإذا ما تعمقنا في الأمر أكثر فهي تعدٍّ على النعمة الإلهية، إنها مطالبة بعقلنة هذا السر. لكن الوفرة الإلهية غير العادلة قد تُخفي المَعنى الأسمى للحياة الكونية وتألقها.

قد تسقط الأرستقراطية في التاريخ وتتدهور. وهي عادة ما تسقط وتتدهور. وهي من السهل جدًا أن تتصحر وتتحجر، وتكون شديدة الانغلاق تجاه الحركات الإبداعية للحياة. فهي لديها ميل إلى تشكيل عصبة (caste). وتبدأ وضع نفسها بمواجهة الشعب. وهي تُغير من دورها، وبدلًا من الخدمة تطلب لنفسها الامتيازات. لكن الأرستقراطية ليست حقوقًا، الأرستقراطية واجب. الأرستقراطية فاعل خير، تَهِبُ ولا تأخذ. الأرستقراطي هو ذاك الذي أُعطي أكثر، ذاك الذي يسعه أن يَهب مما يفيض لديه. الصراع من أجل السلطة ومن أجل المصالح، هو بطبيعته ليس أرستقراطيًا. السلطة الأرستقراطية هي سلطة مَن هم الأفضل والأنبل، من هم الأقوى بعطاءاتهم، وهي ليست حقوقًا بل واجب، ليست مطلبًا بل خدمة. حقوق مَن هم الأفضل هي حقوق فطرية. إن صراع مَن هم الأفضل وعملهم ينصَبان على تنفيذ الواجبات والخدمة. الأرستقراطية بفكرتها، هي تضحية. لكن في وسعها تغيير فكرتها. وتتمسك بشدة حينئذٍ بامتيازاتها الخارجية وتسقط. لكن، ينبغي أن نتذكر دومًا أن الجماهير تخرج من الظلمة وتأتي إلى الثقافة عبر عطاء الأرستقراطية وقيامها بمهمتها. الأرستقراطية هي الأولى التي خرجت من الظلمة وحصلت على بركة الله. وعلى

الأرستقراطية في مراحل معينة من التطور التاريخي أن تتخلى عن بعض حقوقها من أجل أن تستمر في أداء دور خلاق في التاريخ. وإذا كان لا يزال هناك من أرستقراطية حق في روسيا، فعليها أن تضحي وتتخلى عن الصراع من أجل مصالحها المميزة المُنتهَكَة. الأرستقراطية ليست شريحة أو طبقة، الأرستقراطية هي بداية روحية معينة، عصية بطبيعتها على الاستئصال، وتعمل في العالم بأشكال وتشكلات مختلفة.

***

بعضكم مستعد للاعتراف بأرستقراطية روحية، وإن لم يكن عن كثير طيب خاطر. لكنكم أنتم تتصورون العلاقة بين الأرستقراطية الروحية والأرستقراطية التاريخية تصورًا مبسطًا للغاية. أنتم تعتقدون أن الأرستقراطية التاريخية ليست سوى شر الماضي فحسب، وأن ليس لها الحق بالوجود، وليس لها أي علاقة بالأرستقراطية الروحية. لكن الأمر، هو في الحقيقة، أعقد مما تصورون بكثير، أنتم التبسيطيون. لا أحد، بالطبع، يخلط الأرستقراطية الروحية بالأرستقراطية التاريخية ويساوي بينهما. وقد يكون ممثلو الأرستقراطية التاريخية عند مستوى منخفض جدًا من الناحية الروحية، وقد لا يكون أرفع ممثلي الأرستقراطية الروحية من سليلي الفئات الأرستقراطية، وهم في العادة ليسوا كذلك. هذا أمر بدهي مسلم به، لكنه لا يجوز إنكار أهمية الدم والعامل الوراثي والاصطفاء العرقي الاجتماعي في إنتاج الأنموذج الروحي المتوسط. أنتم أغرقتم في اعتيادكم أن تأخذوا الإنسان مجردًا، كأنه العدد الحسابي واحد، أنتم تسلخون الإنسان عن أسلافه، عن العادات والتقاليد الموروثة، عن تربيته، عن مئات السنين وآلاف السنين التي تعيش في دمه وفي خلايا كيانه العضوي، عن جميع صلات الإنسان العضوية. لكن إنسانكم الحسابي المجرد هو وَهمٌ وليس حقيقة، هو مجرد من كل مضمون. أنتم تعتبرون الإنسان هو ما يملك من شبه بالإنسان الآخر، من يدين اثنتين ورِجلين وعينين وأنف واحد ...إلخ. لكن، لهذا بالذات يغيب الإنسان عن بالكم، لأنه هو، بالدرجة الأولى، في ما ليس يشبه أي آخر. تتشابك في الفردية الإنسانية دوائر كثيرة وتشكل طبيعة الإنسان. الإنسانُ عضويٌ ينتمي بدمه إلى نَسَبه، وإلى قوميته، وإلى طبقته، وإلى أسرته. وفي فرديته التي لا تتكرر، والتي تنتمي إليه وحده فحسب، ينعكس، على نحو خاص، كل حذقِه ومهاراته العرقية والقومية والطبقية وإرثه العائلي، وتقاليده، وعاداته. تتبلور الشخصية الإنسانية على هذه التربة العضوية أو تلك، وعليها أن تمتلك بيئة مُغلقة فائقة الذاتية، يتم فيها الاصطفاء النوعي. إن أحد الأخطاء الكبرى الشائعة لكل سوسيولوجيا مجردة وكل إتيكا (éthique) مجردة، هو عدم الاعتراف بأهمية الاصطفاء العرقي الذي يشكل السلالة، ويخلق النمط الروحي وكذلك الفيزيائي. للعرق أهمية فائقة في النمط الإنساني. في وسع الإنسان أن يخترق محدودية العرق وينطلق إلى اللانهائي، لكنه عليه أن يمتلك سلالة فردية. النبيل الذي تخطى محدودية طبقة النبلاء وتحرر من جميع المصالح والأحكام الطبقية المسبقة، يبقى نبيلًا بالعرق وبالنمط الروحي، والانتصار عينه على طبقة النبلاء قد يكون تعبيرًا عن النبل بذاته.

الثقافة ليست قضية إنسان واحد أو جيل واحد. الثقافة في دمنا. والثقافة هي قضية العِرق والاصطفاء العرقي. إن الوعي «التنويري» و«الثوري» هو وعي سطحي محدود، ترك بصمة مشوهة على العلم ذاته، وإن كان قد صنع رايته من العلم هذا. وطمس أهمية العرق بالنسبة إلى الوعي العلمي. لكن العلم الموضوعي المجرد من المصلحة عليه أن يعترف أنه يوجد في العالم نبلاء، ليس كطبقة اجتماعية بمصالحها المحددة، بل كنمط نوعي روحي وجسدي، كثقافة ألفية

السنين للروح والجسد. إن وجود «العظم الأبيض» ليس موروثًا فئويًا فحسب، بل هو أيضًا حقيقة أنثروبولوجية راسخة لا تُدحض. طبقة النبلاء، بهذا المعنى، لا يمكن القضاء عليها. فليس في وسع أي ثورة اجتماعية القضاء على امتيازات العرق النوعية. قد تموت فئة النبلاء كطبقة اجتماعية، وقد تُنتزع جميع امتيازاتها، وقد تُنتزع منها كل مِلكية. أنا لا أؤمن بمستقبل طبقة النبلاء كفئة، ولا أريد لنفسي، كنبيل، امتيازات النبلاء. إلا أنها تبقى كعرق، كنمط روحي، كشكل بلاستيك، وإبعاد فئة النبلاء، كطبقة، يمكنه أن يرفع من قيمتها الجمالية (esthétique). وهذا ما حصل، إلى حد كبير، في فرنسا بعد الثورة. إن فئة النبلاء هي عرق في وسعه أن يستمر ويعمل في ظل أي نظام اجتماعي. ولا بد للعالم والثقافة العالمية من الحرص على هذا العرق النفسي مع سماته الأرستقراطية التي تبلورت. ومن شأن زواله الكلي أن يشير إلى تراجع الجنس البشري، وإلى الغلبة المطلقة للانتهازيين وصائدي الفرص، واندثار النبل العريق في البشر. إن انتقاء السمات النبيلة في الشخصية يستمر على مدى آلاف السنين. وليس في وسع أي ثورة أن تبدد النتائج النفسية لهذه العملية المديدة. إطاحة النظام الإقطاعي في الغرب لم تكن تدميرًا كاملًا لتلك السمات النفسية التي بلورتها الفروسية الإقطاعية. وأخذت الطبقات الأخرى تقلد هذه السمات. كانت تتبلور في الفروسية معالم الشخصية ويتم شحذ طباعها. إن الإحساس بالشرف لدى الإنسان المعاصر، وفي العالم البرجوازي المعاصر، يعود إلى تراث الفروسية. طورت الفروسية النمط الأرفع للإنسان. كان في الفروسية غلاف موقت زائل، لم يبق منه أثر. كان هناك ما هو كثير مظلم يرتبط بهذا الغلاف، لكن الفروسية تنطوي على بداية خالدة لا تموت. والفروسية هي بداية روحية أيضًا، وليست مقولة اجتماعية - تاريخية فحسب. والموت النهائي للروح الفروسية هو انحطاط النمط البشري. إن كرامة الإنسان الأرفع تبلورت وتشكلت في الفروسية والنبل، ومنهما انتشرت في الحلقات الأوسع من العالم، إنها ذات منشأ أرستقراطي. يحصل انتقاء سمات الطبيعة النبيلة ببطء، وهو يفترض التواصل الوراثي والتقاليد العائلية، إنه عملية عضوية. كما أن تشكل البيئة الثقافية الرفيعة والتقاليد الثقافية العالية، هو الآخر عملية عضوية. في الثقافة الحقيقية العميقة والمرهفة يشعر المرء دومًا بالعرق وصلة القربى مع التقاليد الثقافية. إن ثقافة المعاصرين هي دائمًا ثقافة سطحية وفظة من دون الماضي ومن دون التواصل العضوي. ومَن هو على ثقافة منذ أجيال عدة له أسلوب وحصن ثقافي مختلف كليًا عن ذاك الذي يتواصل مع الثقافة أول مرة.

للأسف، لم يكن من فروسية في التاريخ الروسي. وهذا ما يفسر عدم النضوج الكافي في الشخصية لدينا، وعدم كفاية شدة المراس في الطبع عندنا. واستمرت شديدة الحضور في روسيا سلطة التعاون الأولي. كثرٌ من المفكرين الروس والعلماء والكتاب كانوا يفتخرون بأنه لم تكن في روسيا أرستقراطية حقيقية، وبأن بلادنا هي ديمقراطية طبيعية وليست أرستقراطية. جميلة أخلاقيًا هي ديمقراطيتنا البيتية وبساطتنا اللتان تميزان طبقة النبلاء الروس الحاليين، لكن ضعفنا كان في غياب الأرستقراطية أيضًا، وليس قوتنا أبدًا. وكان هذا الأمر يشير إلى ارتباط شديد بالعفوية الشعبية الظلامية والعجز عن فرز بداية نوعية قائدة من كمية هائلة. ومنذ عهد بطرس كانت البيروقراطية تؤدي دور الأرستقراطية عندنا، وكان في البيروقراطية بعض سمات الاصطفاء الأرستقراطي. لكن البيروقراطية لا يمكن، مع ذلك، الإقرار بها، وبنمطها الروحي، أرستقراطية حق. فقد تحقق الانتصار عندنا للبيروقراطية المطلقة من فوق وللنارودية (الشعبية) من تحت. التقدم الخلاق الذي كان من شأنه أن تؤدي فيه العناصر المنتقاة نوعيًا دورًا قياديًا، كان مستحيلًا عندنا، ونحن ندفع ثمن ذلك غاليًا الآن. ومع ذلك لن يكون من العدالة بشيء أن ننكر الأهمية البالغة

لطبقة النبلاء في روسيا. كانت فئة النبلاء طبقتنا الثقافية الطليعية. طبقة النبلاء هي التي أنتجت الأدب الروسي العظيم. قصور النبلاء وعائلات النبلاء كانت بيئتنا الثقافية الأولى. جمال الحياة الروسية القديمة، هو هبة النبلاء. أسلوب الحياة الروسية النبيل هو أسلوب النبلاء، بالدرجة الأولى. الإحساس بالشرف تطور، أكثر ما تطور، في عهدة النبلاء الروس، بالدرجة الأولى. كان الحرس الروسي مدرسة للشرف حينذاك. إن الغزو المتعدد الوجوه للحياة الروسية وغلبته الراجحة أفقرا النمط الروحي للإنسان أكثر مما أغنياه. فقدت حياتنا كل نمط وأسلوب. ولعل عصرنا الأفضل والأكثر قوة وجمالًا، الذي يستحق اسم عصر نهضتنا، هو مطلع القرن التاسع عشر، عصر بوشكين وليرمنتوف وكوكبة كاملة من شعراء الحركة الصوفية، عصر الديكابريين (الديسمبريين) وبيتر تشاداييف[34] (Peter Chaadaev) والولادة الأولى للنزعة السلافية (slavophilisme)، عصر النمط الإمبراطوري، أي عصر الدور القيادي للنبلاء، الإنتلجنسيا النبيلة، الطبقة المثقفة النبيلة. كنا لم نزل حينذاك غير نهلستيين. وحلت مكان ثقافة النبلاء التي لم يكن قد اشتد عودها بعد، النهلستية والنمط النهلستي العدمي. لكن كل ما كان على قيمة مميزة في الثقافة الروسية كان مرتبطًا بطبقة النبلاء. وليس أبطال تولستوي فحسب، بل وأبطال دوستويفسكي أيضًا لا وجود لهم خارج العلاقة بطبقة النبلاء. تذكروا ما قال دوستويفسكي في **المراهق** في طبقة النبلاء وأهميتها. إن جميع الكتاب الروس الكبار قد نهلوا من البيئة الثقافية النبيلة. في لهيب الحرائق التي تضرمها الثورة لا تحترق القصور المشيدة على النسق الإمبراطوري فحسب، بل يحترق بوشكين كذلك وتولستوي، تشاداييف وخامياكوف[35] (Aleksey Khomyakov)، يحترق كل الإبداع الروسي وتحترق جميع التقاليد الروسية. إن القضاء على طبقة النبلاء الروس هو قضاء على التقاليد الثقافية، هو تمزيق لتواصل الأزمنة في حياتنا الروحية. إن كراهيتكم لطبقة النبلاء هي كراهية وصولية، هي شعور بائس يحط من مستوى الإنسان، وهي ليست موجهة فحسب ضد امتيازات النبلاء التي لم يعد لها وجود منذ زمن بعيد، والتي من الجنون إحياؤها، بل هي موجهة ضد السمات النفسية التي لا يمكن القضاء عليها وهي أزلية. لكن ينبغي الإقرار بأن طبقة النبلاء قد سقطت عندنا أخلاقيًا وروحيًا قبل أن تُسقطها الثورة.

ليس للفروسية والنبل أن يختفيا من العالم، بل عليهما أن يضما الدوائر الشعبية الواسعة إلى مملكة النبل والشرف والإنسان الأكثر رفعةً. إن جعل المجتمع أكثر أرستقراطية وليس أكثر ديمقراطية هو الأمر الذي يمتلك مبررًا روحيًا داخليًا. البدايات الجنينية للأرستقراطية ونبل الأصل متوافرة في كل طبقة، وليس من طبقات تقتصر على المنبوذين. ليس لعملية التحرر في الحياة الإنسانية سوى معنى واحد فحسب، هو الكشف عن السبل الأوسع لإيجاد النفوس الأرستقراطية وغلبتها. تحصل في التاريخ عملية مؤلمة من البحث المتجدد عن الأرستقراطية الحق. وليس من الأرستقراطية في شيء الموقف السيئ المتجاهل الشعبَ البسيط، بل هو دليل على فظاظة وانتهازية. والتبجح الأرستقراطي هو ظاهرة قبيحة. فالأرستقراطية كانت ستعطي الشعب البسيط من فيضها، وتخدمه بنورها وثرواتها المادية والروحية. وهذا الأمر يتوقف عليه الإقرار التاريخي بالأرستقراطية. كان روسكين[36] (Ruskin) يحلم بتلك الاشتراكية التي تقيمها الأرستقراطية الموروثة. كان مؤيدًا متحمسًا للنظام التراتبي في المجتمع بقيادة الأرستقراطية، والإصلاحات الاجتماعية الحازمة لمصلحة الطبقات المحرومة. وكان يتبع في ذلك حقيقة أفلاطون. وحري بكم أنتم أيضًا أن تتبعوا أفلاطون وروسكين. الكتلة المتوسطة من الأرستقراطية التاريخية والنبلاء، من السهل أن تخون رسالتها وتسقط في التأكيد الذاتي الأناني وتتدهور روحيًا. أولئك الذين يحرصون

حرصًا شديدًا على امتيازاتهم الأرستقراطية ويضعونها في مواجهة الآخرين، هم الأقل أرستقراطيةَ بنمطهم الروحي. تنتشر الفظاظة على نحو واسع في الأوساط الأرستقراطية وأوساط النبلاء. حين تذهب الطبقات العليا في السلم التراتبي بعيدًا في خيانتها رسالتَها وفي الفساد الروحي وسطها، حينئذٍ تنضج الثورة، كعقاب عادل على خطايا الأقوياء وعليّة القوم. ولن ينقذ مستقبل الثقافة الرفيعة التي تقوم دومًا على البداية التراتبية، سوى تضحيات الأرستقراطية التاريخية واستعدادها للتخلي عن عمليات الترميم الطبقي، وكذلك الاستعداد للتخلي عن الامتيازات والقيام بدورها وتحقيق رسالتها.

***

ليست الأرستقراطية التاريخية هي الوحيدة التي يشتمل عليها العالم، والتي يتبلور فيها المستوى المتوسط من طريق الاصطفاء العرقي والتواصل الوراثي، بل يشتمل العالم أيضًا على الأرستقراطية الروحية، كبداية أزلية غير مرتبطة بتبدل المجموعات الاجتماعية والحقب التاريخية. قد تشتمل الأرستقراطية التاريخية على السمات العقلية والبدنية للأرستقراطية، لكنها لا تشتمل بعد على الأرستقراطية الروحية. الأرستقراطية الروحية تتحقق في العالم بوصفها نعمة فردية، وهي ليست على صلة إلزامية تفضيلية بأي فئة اجتماعية. إن ظاهرة الأرستقراطية الروحية، هي عبقرية تتطلب بيئة روحية ملائمة في حياة الشعوب، لكنها ليست مرتبطة بالاصطفاء الطبيعي وتبلور المستوى الثقافي المتوسط. فالعبقرية لا تورث، كما لا تورث القدسية. العظماء يولدون في لحظات تختارها الآلهة. لكنهم يخرجون من أي بيئة كانت، من الأرستقراطية الرفيعة، كما من وسط الفلاحين أو صغار البرجوازيين. وللعلاقة بين الأرستقراطية الروحية والأرستقراطية الاجتماعية - التاريخية مستوياتها. ففي حين ليس للظاهرات الأكثر رفعة ونبلًا من الأرستقراطية الروحية أي صلة بالأرستقراطية الاجتماعية - التاريخية والاصطفاء الطبيعي والصلة الوراثية، نجد أن لمستوياتها المتوسطة بعض الصلة، لأنها أكثر ارتباطًا بالتقاليد الشديدة الفردية، وبالاصطفاء الذي يبلور البيئة الثقافية. ليس للعبقرية من قانون مكتوب، لكن سبق أن كُتِبَ للموهبة.

أرستقراطيتان اثنتان دائمًا في العالم وتنشطان: الأرستقراطية العلنية العامة والأرستقراطية الباطنية الخاصة. الأرستقراطية العلنية العامة تتشكل وتعمل على الصعيد الخارجي التاريخي. وتتوافر في ظاهرات الأرستقراطية العلنية معالم قانون ملموسة وأساس طبيعي - بيولوجي. أما الأرستقراطية الباطنية فتتشكل وتعمل على الصعيد الداخلي الخفي. ولا يمكن أن نتلمس في ظاهرات الأرستقراطية الباطنية مثل هذا القانون ونكتشف مثل هذا الأساس الطبيعي - البيولوجي، بل هي تنتمي إلى مملكة التسامح والروح، لا إلى مملكة الطبيعة التي يدخل فيها المستوى التاريخي. تشكل الأرستقراطية الباطنية في التاريخ ما يذكر بالنظام الغامض الذي يولد فيه كل ما هو عظيم إبداعيًا. أما في المستوى العلني من التاريخ فتقع هذه الحياة الإبداعية كلها للروح على نحو محورٍ ليتلاءم مع المستوى البشري المتوسط، مع الثقافة ومتطلباتها ومهماتها. هذا الفارق يظهر جليًا في حياة الكنيسة. وتمثل مملكة القديسين والكهنة النساك الأرستقراطية الدينية الباطنية. وتتحقق فيها الإنجازات الحقيقية الأرفع في الحياة الكنسية. لكن، إلى جانب ذلك في الكنيسة أيضًا الأرستقراطية العلنية التي تمثل التراتبية الكنسية التاريخية الشرعية. وهي ضرورية من أجل الحياة

التاريخية للكنيسة، من أجل التربية الدينية للشعوب وقادتها. وهي تشتمل على الاصطفاء وصلة الوراثة الضروريتين لتنقية البيئة الكنسية. للأرستقراطية الكنسية التاريخية رسالة إيجابية كبرى، لكنها ليست هي الأخيرة والأكثر عمقًا في الحياة الدينية. فالإنجازات الروحية لحياة القديسين الحميمة تنتقل، في شكل خارجي محور، إلى الحياة التاريخية الكنسية مع مستوياتها التراتبية الخارجية. العلاقة عينها بين العلنية والباطنية موجودة في الحياة الروحية كلها للبشرية وفي الثقافة ككل. ثمة أرستقراطية وتراتبية في الثقافة العلنية المتوسطة التي تتضمن الاصطفاء والصلة الوراثية أيضًا. وهي تتطلب الأهلية، الأهلية في التعليم والتربية بالدرجة الأولى، أهلية العقل والقدرة. وهي تحيا وتتطور في التقاليد الثقافية والتراث. وحين تقولون بنفي الأهلية العقلية والتعليمية، فإنكم تطيحون النوعية باسم الكمية، وتشَرعون الدرب للعتمة، وتدفعون الشعوب إلى الوراء. أنتم قادة التراجع إلى الوراء. الأهلية النوعية للتربية والتعليم، للعقل والقدرة، ضرورية من أجل العمل الثقافي، من أجل العمل الاجتماعي وعمل الدولة. هذه الأهلية تخلق تراتبيتها الخاصة، وأرستقراطيتها الخاصة. لكنها أرستقراطية تعمل في مملكة الوسط من والوجود الثقافي ووجود الدولة. خلف الأرستقراطية العلنية، وعلى عمق أشد، تقع الأرستقراطية الباطنية، الأرستقراطية الروحية الأرفع التي يبدأ فيها كل إبداع، كل اكتشاف ووَحي، والتي يتخطى فيها الإنسان حدود هذا العالم. الأرستقراطية الروحية العليا هي مملكة القداسة والعبقرية والفروسية، مملكة العظماء والنبلاء، مملكة العرق الإنساني الأرفع.

***

تتفتح البداية الشخصية وتتبلور وتتطور في الأرستقراطية، بالدرجة الأولى. إنه الخروج الأول للشخصية في التاريخ من الطبيعة الجماعية المظلمة. وهي الإطلالة الأولى للشخصية في التاريخ من الطبيعة الجماعية المظلمة. وعبر سبل معقدة ومريرة يتم البحث عن الظروف الملائمة لتفتح أرستقراطية الشخصيات المميزة، وللاصطفاء النوعي للشخصيات. وتقوم بعد أرستقراطية المستوى الأول أرستقراطية المستويات اللاحقة؛ إذ تتبلور وتتحدد الأرستقراطية الفلاحية، التجارية، الأدبية، الفنية، أرستقراطية الأساتذة الجامعيين، وهكذا دواليك. ولو لم تجرِ عملية الفرز والاصطفاء هذه للأرستقراطية وتشكلها، لكانت الطبيعة الفوضوية البرجوازية الصغيرة المتشكلة حديثًا قد شَدت إلى أسفل، ولما أتاحت خلق أي قيمة. وتُطرح أمام كل حقبة تاريخية مهمة معقدة بتحديد أرستقراطيتها لمختلف المستويات وتعزيزها. وليس من السهل تقرير أي نظام سياسي واجتماعي ملائم لتحديد مثل هذه الأرستقراطية وتعزيزها. أنتم جميعًا المساواتيون، تتسلحون بنظريات وحدوية مختلفة تحسبًا لكل طارئ. لكن جميع نظرياتكم لا تساوي سوى القليل؛ إذ إن تعقيد الحياة يطيحها دائمًا. وغلبة بداية ما من البدايات ليست كافيةً لجعل الأرستقراطية الحق ممكنة، بل توليف معقد من بدايات عدة. ويمكن البداية الديمقراطية أن تؤدي دورًا مفيدًا في هذا الأمر العظيم إذا كانت محددة وخاضعة لبدايات أرفع. الأرستقراطية والديمقراطية هما بداياتان متناقضتان داخليًا، متعاديتان ميتافيزيقيًا ينفي بعضهما بعضًا. لكن تصادم هاتين البدايتين في الواقع الاجتماعي يسفر عن نتائج معقدة، وانتصار البداية الأرستقراطية يمكنه أن يساعد البداية الديمقراطية حين لا تكون لها مطالب مصلحة ذاتية. وتطرح مسألة تحديد الأرستقراطية القيادية وانتقائها أمام المجتمع الملكي والمجتمع الديمقراطي على السواء. المَلَكيةُ الصافية هي تجريد، أما

في الواقع الملموس فالمَلَكية تحقق ذاتها من خلال الأرستقراطية. وقيمة المَلَكية هي، بالدرجة الأولى، في قدرتها على اختيار الأرستقراطية القيادية وتعزيزها. والمَلَكية تسقط حين تنتقي الأسوأ من حولها.

تحمل الديمقراطية، في الميتافيزيقا والأخلاقيات والجماليات الخاصة بها، خطرًا عظيمًا بالنسبة إلى البداية الأرستقراطية للبشرية والحياة الكونية وبالنسبة إلى البداية النوعية النبيلة. الميتافيزيقا والأخلاقيات والجماليات كميات تبغي لو تَسحق كل نوعية وتدمرها وكل ما هو ذاتي وما هو مَجمَعي (سينودوسي) رفيع. إن مملكة الميتافيزيقا الديمقراطية، والأخلاقيات الديمقراطية، والجماليات الديمقراطية، هي مملكة مَن هم الأسوأ، وليس مملكة مَن هم الأفضل. تطيح مملكة الديمقراطية نهائيًا المثلَ الأعلى لشرف السلالة ونبلها، وتدمر الأسس البيولوجية والروحية للأرستقراطية. إن انتصار الميتافيزيقا الديمقراطية يمثل الخطر الأعظم على التقدم الإنساني وعلى إعلاء الشأن النوعي للجنس البشري. أنتم تودون لو تخلقون تلك الظروف التي من شأنها أن تجعل من المستحيل استمرار وجود الأرستقراطية في العالم، وفرز من هم الأحسن واصطفائهم. إنه لخداع عظيم من جانبكم، حين تقولون إنكم تريدون تحرير الطبيعة البشرية. أنتم تريدون استعباد الطبيعة البشرية، تريدون وضع الحدود لها والعوائق. أنتم تنكرون الأسس البيولوجية للأرستقراطية، والأسس العرقية، وأسسها النبيلة، والأسس الروحية. أنتم تحكمون الإنسان بالعيش الباهت الفاقد النوعية. صحيح، أنتم تودون لو ترفعون جمهور البشرية الهائل إلى مستوى أعلى، أنتم تريدون أن تجبروه على هذا المستوى الأرفع. لكنكم لا ترغبون في القيام بذلك لأنكم تقيمون وتحبون «المستوى الأرفع»، بل لأنكم تريدون المعادلة، ولا تطيقون التمايز والرقي. إن الرقي البشري نفسه لم يكن يعنيكم في يوم من الأيام. وأنتم تنسون أن الرقي يتم بلوغه بالنضال والاصطفاء الحرين. ليس الارتقاء، بل إسقاط من هم في الأعلى هو ما يثير اهتمامكم أكثر. إن سر التاريخ غير متاح لكم، مغلق على وعيكم إلى الأبد. إن سر التاريخ هو سر أرستقراطي. وهو يتحقق في الأقلية. والأقلية تحمل في ذاتها الطابع العالمي. الطابع العالمي هو طابع أرستقراطي. طابع الأكثرية هو طابع ديمقراطي، إقليمي، خصوصي. يعرف التاريخ زعامة الأقلية، زعامة الأرستقراطية. والثورة ضد هذه الزعامة هي افتئات على سر التاريخ. لن تتمكنوا من القضاء على التمايز الأنطولوجي بين الأرواح، لن تتمكنوا من محو الفارق بين الأذكياء والأغبياء، بين الموهوبين وغير الموهوبين، بين الشرفاء والسفهاء، بين الجميلين والقبيحين، بين أهل الفضيلة ومن تعوزهم الفضيلة.

(33) يصر المؤلف خلال النص كله على استخدام كلمة parvenu للتعبير عن كل ما يمت بصلة إلى الانتهازية والوصولية وركوب الموجة. (المترجم)

(34) فيلسوف روسي (1794 - 1856)، عَرف نفسه بأنه «فيلسوف مسيحي»، أعلنته السلطات مجنونًا بسبب انتقاده واقعَ الحياة الروسية. (المترجم)

(35) شاعر روسي، فنان، لاهوتي، فيلسوف، مؤسس النزعة السلافية (slavophilisme)، عضو مراسل في أكاديمية العلوم في سان بطرسبرغ (1804 - 1860). (المترجم)

(36) هو John Ruskin، كاتب إنكليزي، فنان، ناقد أدبي وشاعر. كان له تأثير كبير في تطور نظرية الفنون وعلم الجمال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1819 - 1900). (المترجم)

الرسالة السابعة

في الليبرالية

فقدت كلمة الليبرالية منذ زمن بعيد كل سحر لها، مع العلم أنها تأتي من كلمة الحرية الرائعة. ولا يمكن أسر الجماهير بالحرية. الجماهير لا تثق في الحرية ولا تعرف كيف تربطها بمصالحها الحيوية. وفي الحرية من الأرستقراطية أكثر مما فيها من الديمقراطية. إنها قيمة أغلى ثمنًا بالنسبة إلى الأقلية البشرية، مما هي بالنسبة إلى الأكثرية الإنسانية، وتتوجه إلى الشخصية، بالدرجة الأولى، إلى الفرد. الليبرالية لم تحرز الغلبة يومًا في الثورات. وليس في الثورات الاجتماعية فحسب، بل في الثورات السياسية لم تحرز الغلبة أيضًا، لأن الجماهير هي التي كانت تنهض. ولدى الجمهور دائمًا حافز العدالة لا الحرية. وحتى الثورات الكبرى كانت تحركها دومًا بداية العدالة لا الحرية. الروح الليبرالية ليست، في الحقيقة، روحًا ثورية. الليبرالية هي مزاج الشرائح المثقفة في المجتمع ونظرتها إلى العالم. ولا تنطوي على طبيعة عاصفة ونيران تُشعل القلب، بل تنطوي على الاعتدال والشكلية المفرطة. إن حقيقة الليبرالية هي حقيقة شكلية. فهي لا تقول شيئًا عن مضمون الحياة، سلبًا ولا إيجابًا، بل تريد لو توفر للشخصية مضمونًا ما للحياة. لا تمتلك الفكرة الليبرالية القدرة على التحول إلى ما يشبه الدِين، ولا تشد إليها مشاعر من النوع الديني. وهنا يكمن ضعف الفكرة الليبرالية. لكن، هنا يكمن أيضًا جانبها الحسن. الأفكار الديمقراطية، أو الاشتراكية، أو الفوضوية تسعى إلى منح حياة الإنسان مضمونًا. وهي تتحول بسهولة إلى دِين كاذب، وتستدعي تجاهها موقفًا ذا طبيعة دينية. لكن، هنا بالذات يكمن زيف هذه الأفكار، لأن ليس فيها أي مضمون روحي أو ما يستدعي موقف تعاطف ديني. إن ربط المشاعر الدينية بموضوعات غير جديرة هو زيف كبير وإغواء. وينبغي الاعتراف بأن الليبرالية لا تحض على ذلك. الفكرة الديمقراطية هي أكثر شكلية من فكرة الليبرالية، لكنها تمتلك القدرة على تصوير نفسها كمضمون للحياة البشرية، كنمط خاص للحياة البشرية. لذلك، يكمن فيها إغواء خَطِر. أما الفكرة الاشتراكية فإنها تتميز بمطامحها غير المحدودة. وهي تتنطح لتعيين أهداف الحياة البشرية، في حين تنتسب هي إلى وسائل الحياة، إلى أدواتها المادية. أنتم رفعتم الوسائط النسبية إلى مرتبة التأليه وجعلتموها مطلقة، وربطتم بها مشاعر تقرب من الدينية، وبهتت أهداف الحياة بالنسبة إليكم. إن دِينكم الاجتماعي هو دِين وسائط لا دِين أهداف. في الحقيقة، إن كل شيء في ظاهر المجتمع هو من الوسائط. أما الأهداف فهي على عمق أكبر، وهي روحية وليست اجتماعية. واجتماع الناس الروحي عينه، اجتماعيتهم الداخلية عينها لا يمكن تعريفها بمعايير المجتمع الخارجية. لأن أهداف الحياة ومضمونها تؤخذ من العمق الروحي وتتجذر في الحقيقة الإلهية. أما البيئة الاجتماعية فتمثل جملة معقدة من الوسائط لتحقيق هذه الأهداف وهذا المضمون. لهذا، يتبين أن جميع الأفكار الاجتماعية راسخة متجذرة في الشكلية ولا يمكن الوصول من خلالها أبدًا إلى المضمون الحقيقي والأهداف الحقيقية، لا يمكن أبدًا العثور فيها على نواة أنطولوجية.

هل في الليبرالية مِثل هذه النواة الأنطولوجية؟ ثمة قليل من الأنطولوجيا في الناس الشديدي الإيمان بالفكرة الليبرالية، الذين يعتنقون العقيدة الليبرالية، وفي الأحزاب والحركات الليبرالية. هؤلاء هم، في أغلب الأحيان، أشخاص سطحيون وحركات سطحية. لكن في مصادر الفكرة الليبرالية علاقة بالنواة الأنطولوجية للحياة أكثر مما في الفكرة الديمقراطية والاشتراكية. لأن الحرية وحقوق الإنسان والشخصية والنفس الإنسانية لها، في الحقيقة، صلة أكبر بالأسس الروحية للحياة، أكثر مما لحق الاقتراع العام أو تأميم أدوات الإنتاج. فالحرية وحقوق الإنسان لا يمكن التصرف بها باسم الغايات النفعية، وهي متجذرة في عمق الروح الإنسانية. وبما أن الليبرالية

توطدها، فهي مرتبطة بطبيعة الشخصية التي تمتلك أساسًا أنطولوجيًا. الليبرالية لا يمكن تبريرها وضعيًا (positiviste)، بل لا يمكن تبريرها إلا ميتافيزيقيًا. وفق التبريرات الوضعية للإنسان، يمكن حرمانه من أكثر حقوقه قدسيةً إذا لزم الأمر. أحسن شيشرون فهم الطبيعة الميتافيزيقية لليبرالية وتبريرها بشكل متطرف ووحيد الجانب. ليس من أساس للإقرار بالحرية والحقوق الملازمة للشخصية الإنسانية، إذا لم تكن تتمتع هذه الشخصية بطبيعة روحية أزلية، وإذا لم تكن سوى ردة فعل للبيئة الاجتماعية. كان روسو متماسكًا في الإقرار باستقلالية المجتمع، وكان مجبرًا على إنكار جميع حقوق الإنسان الأصيلة وحريته. كما أنكر ماركس أيضًا هذه الحرية وهذه الحقوق. الليبراليون ليسوا وضعيين إلا في عدم اتساق وعيهم وسطحيته، حيث يكونون على استعداد للإقرار بحرية الإنسان وحقوقه الأصيلة. المصدر الروحي للحرية وحقوق الإنسان هو حرية المعتقد الديني وحقوقه. وفي هذه النقطة تتلامس الحقيقة الشكلية لليبرالية مع النواة الأنطولوجية للحياة البشرية. إن حقوق الإنسان والمواطن تستند في أساسها الروحي إلى حرية المعتقد التي نادت بها الثورة الدينية الإنكليزية. وتصبح هذه الحقيقة أكثر شيوعًا يومًا بعد يوم. لكن، حين نتعمق أكثر نجد أن الحرية وحقوق الإنسان الأصيلة تستند إلى كنيسة المسيح التي تعترف بالطبيعة اللانهائية للنفس الإنسانية وتحميها من التجاوزات غير المحدودة للدولة الخارجية والمجتمع. هذه الحقيقة الخالدة للكنيسة المسكونية لم تحصل في الإصلاح[37] سوى على تعبير أحادي الجانب تمخضت عنه الظروف التاريخية المعقدة. إن التجاوزات في حق الكاثوليكية في تجلياتها الإنسانية، والإنسانية جدًا (المضَخمة جدًا) ينبغي ألا تحجب حقيقة أنها أصبحت تنطوي على الاعتراف بالحقوق اللانهائية للنفس الإنسانية. إن كل ما هو روحي حصل عليه الإصلاح من الكنيسة، إنما على نحو خاطئ.

أما أن الحرية الحق للشخصية الإنسانية هي ذات منشأ مسيحي، فهذا واضح من كون العالم القديم لم يعرف الحرية الفردية، بل عرف الحرية العامة فحسب. وسبق لبنيامين كونستان[38] (Benjamin Constant) أن شدد على الاختلاف بين الفهم القديم والفهم الجديد للحرية السياسية. إنه الاختلاف بين الوعي الوثني والوعي المسيحي. على أساس الوعي الديني الوثني، كان يمكن فهم الحرية كما تم فهمها في الديمقراطية الإغريقية، لكن لم يكن من الممكن فهمها كما تكشفت للوعي الديني المسيحي الذي سبق أن عرف الطبيعة الروحية غير المحدودة للشخصية الإنسانية. إن مذهب روسو هو ارتداد إلى الوعي الوثني. فهو لا يعرف الحرية الفردية، ولا يعرف طبيعة الإنسان الروحية المستقلة عن المجتمع، ولا حقوقها الملازمة لها. فهو ينكر حرية المعتقد، ويستعبد ضمير المجتمع البشري، والشعب صاحب السيادة. إن وعيه للحرية السياسية هو وعي ما قبل المسيحية. وأنتم جميعًا الذين تتبعون روسو، أنتم جميعًا الذين تتبعون ماركس، أنتم جميعًا تستبدلون الحرية الحقيقية للشخصية بالحرية الاجتماعية الوهمية، أنتم جميعًا وثنيون، أنتم جميعًا مرتدون عن المسيحية. بالنسبة إليكم ليس من وجود للإنسان في حقيقته الروحية الداخلية، بل هو موجود في قشوره الاجتماعية فحسب. باسم إلهكم الجديد، الشعب صاحب السيادة، أنتم تحرمون الإنسان من جميع حقوقه. للإنسان صلة أنطولوجية عميقة مع حقائق واقعية مثل الكنيسة، مثل القومية، ومثل الدولة. لكن ما هو الأنطولوجي الموجود في حق الاقتراع العام، في تأميم الصناعة، في صناعتكم كلها، وفي كل جماعيتكم؟ لماذا على الإنسان أن يتخلى عن حقوقه، وأن يحد من طبيعته باسم مثل هذه التخيلات والأوهام؟

***

عرفت الليبرالية المثالية وَمضات من الوعي الأفضل للطبيعة الإنسانية والاهتمام الأكثر بها. لكن «التنوير» السطحي كان يُخفي هذه الوَمضات. لأن «التنوير» لا يُنَور الوعي عميقًا أبدًا. نوره ليس نورَ شمسٍ، بل هو نور مصباح اصطناعي يُضعف الحاجة عينها إلى النور الحقيقي. ومن الأفضل المرور عبر ظلمة تامة، عبر ليل الوعي، من أجل الشعور بالتعطش إلى التواصل مع مملكة النور الحقيقي. الأيديولوجيا الليبرالية الواسعة الانتشار ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا التنوير السطحي، وغرقت فيها شذرات الحقيقة الأكثر رفعة. تجرجر الليبرالية وجودًا ينعدم فيه جميع الأسس الأنطولوجية، وهي تعيش على فتات حقيقة غامضة ونتفها. وتوقف الجميع عن اعتبارها تعبيرًا مستقلًا عن النفس. فرغت الليبرالية من المعنى والروح إلى درجة أنه ما زال من الممكن الإقرار بعناصر ليبرالية، لكن غدا من غير الممكن أن يعتبر المرء نفسه ليبراليًا بقناعته، أو بخياره النظري النهائي. توقفت الليبرالية عن أن تكون بداية مستقلة، وأصبحت تسويةً ما، أصبحت شبيهةً بالديمقراطية أو المُحَافَظة. فهي تطرح بمواجهة العقيدة الديمقراطية أو الاشتراكية تكتيكًا مختلفًا، مصالح مختلفة، لكنها أصبحت عاجزةً عن طرح عقيدة مختلفة، أو فكرة مختلفة. وأخذ يتحول إلى الليبرالية بكَثرة مَن هم على إيمان ضعيف، أو أولئك الذين لا يريدون إزعاج أنفسهم كثيرًا بالأفكار. وكثيرًا ما أصبح الليبراليون أنفسهم يتنازلون أمام الأفكار الأكثر راديكالية وتطرفًا، وينحنون أمام أنموذج الثوري ويعتبرون أنفسهم غير جديرين بالتواصل مع العقيدة الثورية والعمل الثوري. أصبح الليبرالي رديفًا للمعتدل، لرجل التسويات، أو للانتهازي. لكن، هل يمكن اعتباره معتدلًا وانتهازيًا ذاك الذي يحمل فكرة مختلفة عما لدى الاشتراكي - الثوري الذي يحمل عقيدته الخاصة، ذاك الوفي لعقيدته حتى النهاية؟ الليبراليون يتراجعون، أخلاقيًا عادةً، أمام الثوريين ويعجزون عن مواجهتهم بحقيقة أخلاقية أخرى أكثر رفعة. بماذا يمكن تفسير تأكل الليبرالية هذا وهزالها؟ لماذا خَبَت فيها ومضات حقيقة أرفع من تلك التي تقدمها الديمقراطية والاشتراكية؟

«تَعَرّفوا إلى الحقيقة، والحقيقة تجعلكم أحرارًا». «حيث روح الرب، هناك الحرية». ذاك هو العمق الذي ينبغي أن ترتكز عليه البداية التحررية. والحق، أن المسيحية تريد أن تحرر الإنسان من العبودية، من عبودية الخطيئة والطبيعة الوضيعة، من عبودية قوى العصف في هذا العالم، وفيها كان ينبغي البحث عن أسس «الليبرالية» الحق. التحرير الحقيقي للإنسان يفترض تحريره، ليس من العبودية الخارجية فحسب، بل من العبودية الداخلية أيضًا، من عبوديته لنفسه ولأهوائه ووضاعته. أنتم، المنوِرون - المحرِرون، لم تفكروا في هذا الأمر. أنتم تتركون الإنسان في عبودية داخلية وتعلنون حقوقه، أي حقوق الطبيعة الوضيعة الدنيئة. كان هناك عيب داخلي في أساس ليبراليتكم. لهذا السبب، ما كان له إلا أن يسقط. خانت ليبراليتكم خيانةً قاتلة أساسها الروحي الوحيد الممكن. أعلنتم حقوق الإنسان وانتزعتموه من إعلان حقوق الله. في هذا الأمر بالذات كانت تكمن خطيئتكم الأساسية التي عوقبتم عليها. إن شرعة الله (théonomie) هي أعلى مرتبة من الاستقلالية الذاتية. وفهمت المدرسة الكاثوليكية الفرنسية في مطلع القرن التاسع عشر، وعلى رأسها جوزيف دو ماستر، هذا الأمر فهمًا عميقًا. وطالبت هذه المدرسة بإعلان حقوق الله المنسية، طالبت بهذا الإعلان المقدس إلى حد نسيان حقوق الإنسان التي لا جدال فيها. ولأنكم سَهَوتم عن حقوق الله، فقد سَهَوتم أيضًا عن أن إعلان حقوق الإنسان ينبغي أن يرتبط بالإعلان عن واجبات الإنسان. إن السبيل الذي أفضى إلى الفصل بين حقوق الإنسان وواجباته لم يوصلكم إلى الخير. وأصاب ليبراليتكم التشوّه في هذا السبيل. إن المطالبة بالحقوق من دون إدراك الواجبات دَفَعت إلى صراع المصالح الإنسانية مع الأهواء، إلى التنافس بين مطالب يلغي بعضها بعضًا. تفترض حقوق

الإنسان واجب احترام هذه الحقوق. إن أهم ما في الأمر في تحقيق حقوق الإنسان ليس المطالب الحقوقية الذاتية، بل احترام حقوق الآخر، احترام صورة الإنسان في كل فرد، أي واجب الإنسان تجاه الإنسان، والإنسان تجاه الله. واجبات الإنسان أكثر عمقًا من حقوقه، وهي تؤسس لحقوق الإنسان. الحق يولد من الواجب. وإذا كان الجميع شديدي التمسك بالحقوق وضعيفي التمسك بالواجبات، فلن يبقى من يحترم الحقوق وينفذها. إن حقوق الإنسان وواجباته تكمن في طبيعته التي تشبه الله. وإذا كان الإنسان ليس سوى شَبَه البيئة الطبيعية والاجتماعية، ليس سوى ردة فعل على الظروف الخارجية، ليس سوى ابن الحَاجَةِ، فليس لديه إذًا حقوق مقدسة ولا واجبات مقدسة، لديه فحسب مصالح ومتطلبات. حقوق الإنسان تفترض حقوق الله، وهي، بالدرجة الأولى، حقوق الله بالإنسان، الحقوق الإلهية بالإنسان، وهي كونه شبيهًا بالله وكونه ابن الله. الإنسان يتمتع بحقوق لا حصر لها فحسب لأنه روح لانهائية، لأن عمقه يدخل في الواقع الإلهي. الشخصية الإنسانية لا تكتفي بذاتها، إنها تفترض وجود الله والقيم الإلهية. هل ممكن يا ترى إعلانٌ لحقوق مقدسة للإنسان، بوصفه حيوانًا متقدمًا منظمًا، بوصفه «كمشة» تراب دبت فيها الحياة للحظة؟ حقوق الإنسان ينبغي أن تمتلك أساسًا أنطولوجيًا، وهي تفترض وجود الروح الإنسانية في الخلود، وتفترض الوجود الإلهي الذي هو أسمى بالمطلق من هذه الروح. إن ليبراليتكم المنورة وراديكاليتكم تسهوان عن هذا الأمر. لهذا، كان عليها أن تتأكل، ولم يكن في وسعها تحقيق أي حق لأي إنسان. الليبرالية المجردة، النظرية التي تطمح إلى أن تستند إلى فراغها الذاتي، هي كذب لا يُحتمل، وينبغي أن تنهض ضدها الحركات التي تبحث عن مضمون حقيقي للحياة الاجتماعية.

***

الأيديولوجيا الليبرالية ولدت في بيئة القرن الثامن عشر الفكرية التي كانت تميل إلى إثبات الانسجام الطبيعي. تؤمِن هذه الأيديولوجيا بالانسجام الطبيعي بين الحرية والمساواة وبالقرابة الداخلية لهاتين البدايتين. وخلطت الثورة الفرنسية خلطًا كليًا بين المساواة والحرية. ومَر القرن التاسع عشر كله وهو يحطم الأوهام بالانسجام الطبيعي ويكشف التناقضات والاختلافات غير المقبولة. وتبين أن المساواة تحمل في طياتها خطر الاستبداد الأشد رعبًا. كما تبين أيضًا أن الحرية لا تشكل أي ضمانة ضد العبودية الاقتصادية. إن بدايتي الحرية والمساواة لا تصنعان أي مجتمع كامل، ولا تضمنان حقوق الإنسان. ليس من انسجام بين الحرية والمساواة، بل تناقض لا يمكن تجاوزه. وكل تاريخ القرن التاسع عشر السياسي والاجتماعي هو دراما صراع الحرية والمساواة هذا. وما الحلم بتوليف منسجم بين الحرية والمساواة سوى طوبى عقلانية غير قابلة للتحقق. ولن تكون هناك من هدنة أبدًا بين المطامح الفردية ومطامح المجتمع، بين الإرادة في الحرية والإرادة في المساواة. الليبرالية المجردة هي الأخرى عاجزة عن حل هذه المسألة، مثلها مثل الاشتراكية المجردة. إنه تربيع الدائرة، كما يقال. هذه المسألة غير قابلة للحل على المستوى الإيجابي والعقلاني. سوف يكون هناك صدام دائم بين السعي المحموم إلى الحرية والسعي المحموم إلى المساواة. وسوف يبقى دومًا التعطش إلى المساواة هو الخطر الأشد رعبًا بالنسبة إلى الحرية الإنسانية. فالإرادة في المساواة سوف تقف دومًا ضد حقوق الإنسان وضد حقوق الله. أنتم جميعًا، الوضعيون - الليبراليون والوضعيون - الاشتراكيون، لا تدركون جيدًا كل مأساوية هذه المسألة. الحرية والمساواة لا تتفقان. **فالحرية هي، بالدرجة الأولى، الحق باللامساواة.** والمساواة هي، بالدرجة الأولى، اعتداء على الحرية، هي الحد من الحرية. إن حرية الكائن الحي، لا العدد الرياضي، تتحقق في التمايز النوعي، في الرِفعَة، في الحق بزيادة قيمة حياته الخاصة وحجمها.

الحرية ترتبط بمضمون الحياة النوعي. أما المساواة فهي موجهة ضد كل تمايز نوعي وضد كل مضمون نوعي للحياة، ضد كل حق في الصعود. أحد أعظم مفكري القرن التاسع عشر السياسيين وأدقهم ألكسيس دو توكفيل(39) (Alexis de Tocqueville) كان أول من أدرك بوضوح صراع الحرية التراجيدي مع المساواة واستشعر الأخطار العظيمة التي تحملها المساواة. «أعتقد، يقول هذا المفكر النبيل، أن من أسهل الأمور إقامة حكومة سُلطة مطلقة واستبدادية لدى الشعب الذي تكون أحواله الاجتماعية متساوية، وأفترض لو أن مثل هذه الحكومة قامت لدى مثل هذا الشعب، لم تكن لتضطهد الناس فحسب، بل كان من شأنها أن تنتزع من كل منهم كثيرًا من خصائص الإنسان الأصيلة. لذلك، أعتقد أن الخشية من الاستبداد أكثر ما تكون في الأزمنة الديمقراطية». هذا الخوف النبيل أمام المساواتية، أمام الانزلاق الأوروبي نحو الحال الصينية، كان كذلك لدى جون ستيوارت مل (John Stuart Mill). كان يقلقه أيضًا مصير الشخصية الإنسانية في المجتمع الديمقراطي الذي تستحوذ عليه روح المساواة. كانت أوهام القرن الثامن عشر، أوهام الثورة الفرنسية، قد تحطمت. الحرية تطلق إرادة متوثبة بالمساواة وتنطوي على بذور إنكار الذات والتنسك وتدمير الذات. الليبرالية تولد الديمقراطية (la démocratie) وتتحول بسرعة متفلتة إلى الديمقراطوية (democratism). ذلك هو المسار المتتابع للتطور. لكن الديمقراطية تقضي على أسس الليبرالية عينها، والمساواة تلتهم الحرية. وسبق أن كُشف هذا الأمر في سياق الثورة الفرنسية حيث قضى عام 1793 على إعلان حقوق الإنسان والمواطن للعام 1789. إنها عملية قاتلة. فالتناقض بين الحرية والمساواة، بين حقوق الشخصية وحقوق المجتمع عصي على الحل ولا يمكن تجاوزه في الإطار الطبيعي والعقلاني، بل يمكن تجاوزه ومعالجته في إطار الحياة الكنسية. يزول التناقض بين الشخصية والمجتمع في التواصل الديني، في المجتمع الكنسي، لأن الحرية في هذا المجتمع هي الأخوة، فالحرية في المسيح هي الأخوة في المسيح. الشمولية المسكونية الروحية كفيلة بمعالجة تربيع الدائرة هذا. فليس فيها تمايز بين الحق والواجب، ليس فيها من تناقضات. لكن المجتمع الكنسي ليس فيه مساواة ميكانيكية، بل فيه مساواة فحسب. والحرية فيه ليست في تناقض مع الآخر ومع القريب. يقوم التواصل الديني على المحبة والتسامح اللذين لا تعرفهما الليبرالية ولا الديمقراطية. لهذا، تعثر فيه على حلها التناقضات الأساسية في الحياة الإنسانية وصراعاتها الأشد ضراوة.

يُفضي تطور الليبرالية الداخلي إلى المساواة الديمقراطية التي تدخل في تناقض حتمي مع الحرية. لكن، ومن جانب آخر، تتعرض الليبرالية لخطر التحلل والضمور. ليس في الفكرة الليبرالية، بحد ذاتها، أي شيء «برجوازي». كما أنه ليس من شيء «برجوازي» في الحرية أيضًا. إنني أستخدم، مشمئزًا، ألفاظكم المحببة، المبتذلة والسطحية، والفارغة من أي مضمون أنطولوجي. لا أعتقد أنكم تعرفون ما هي «البرجوازية»، وأنكم تملكون الحق في التحدث عنها. لكنكم أنتم، بكُليتكم، تقيمون فيها. غير أنه لا يجوز إلا أن نعترف بأن سيطرة الليبرالية المجردة في الحياة الاقتصادية قد أسفرت عن نتائج سلبية وسيئة. وإذا كان لمدرسة مانشستر(40) من تبرير نسبي في لحظة تاريخية معينة، فإن سيطرتها اللاحقة غير المحدودة، كان من شأنها أن تثير الشكوك حول الفكرة الليبرالية وتدمرها. إن الفردية الاقتصادية التي لا يحدها شيء، والتي تضع الحياة الاقتصادية بأسرها تحت رحمة الصراع الأناني والمنافسة، والتي لا تعترف بأي مبدأ تنظيمي، تبدو كأن ليس لها أي صلة إلزامية بالنواة الروحية لليبرالية، أي بتأكيد حقوق الإنسان. أصبح إفلاس ما يسمى الليبرالية الاقتصادية معروفًا منذ زمن بعيد. ونشأت حول فكرة الليبرالية

بيئة مشبعة بالشكوك غير الحميدة. وبشكل عام، فإن الأفكار، بل ليست الأفكار بقدر ما هي الكلمات التي تعبر عنها، معرضة للتَلَف. المصالح الإنسانية قادرة على تشويه أسمى الكلمات المرتبطة بالحياة الدينية وتلويثها. وكلمة «ليبرالية» تنتمي إلى فئة الكلمات الفاسدة جدًا. لكن، هل بقي كثير من الكلمات غير الفاسدة، هل بقي كثير من كلماتنا التي تحمل طاقة مضيئة فاعلة؟ فساد الليبرالية بدأ من خلط الأهداف بالوسائل، من استبدال أهداف الحياة الروحية بالوسائل المادية. إن حرية الإنسان وحقوقه هي هدف روحي رفيع. وكل نظام سياسي واقتصادي ليس في وسعه أن يكون سوى وسيلة نسبية وموقتة لتحقيق هذا الهدف. وحين ترى الليبرالية في حرية الإنسان وحقوقه الأصيلة هدفها الأعلى، فهي تؤكد، ليس الحقيقة الكاملة، بل حقيقة راسخة لا شك فيها. لكن، حين تبدأ منح الوسائل السياسية والاقتصادية الموقتة والنسبية قيمة مطلقة تقريبًا، وحين تبدأ اعتبار البحث عن أشكال جديدة للتنظيم الاجتماعي خرقًا غير جائز لنظريتها المجردة، فهذا يعني أنها أخذت تتشوه وتتحلل. ونشأت على هذا الأساس علاقات شديدة التعقيد والغموض بين الليبرالية والاشتراكية، التي لا يمكن التعبير عنها في معادلة مجردة.

أنتم تحبون وضع الليبرالية والاشتراكية في مواجهة إحداهما الأخرى كبدايتين غير متوافقتين ومتخاصمتين أبدًا. وهذا أمر صحيح نسبيًا، كما هو الأمر بالنسبة إلى سائر المعادلات المجردة. تشكلت كل من الأيديولوجيا الليبرالية والأيديولوجيا الاشتراكية حول مهمات حياتية مختلفة، ويمتلك الحافز على كل منهما مصادر مختلفة. فالإرادة بالحرية ولدت الأيديولوجيا الليبرالية. أما الأيديولوجيا الاشتراكية فولدتها الإرادة بتوفير الخبز اليومي وتأمين المتطلبات الحياتية البسيطة. وإذا كان الليبراليون هم أولئك الذين تتوافر لهم متطلبات الحياة الأساسية، ومن يرغب منهم يسعه التصرف بحياته بحرية، فإن الاشتراكيين هم أولئك الذين ما زال عليهم توفير متطلبات الحياة الأكثر إلحاحًا. هذه العلاقة معكوسة في الأفق الاجتماعي. كأننا، من حيث المبدأ، نفكر في ليبرالية اشتراكية وفي اشتراكية ليبرالية. ليس لليبرالية من علاقة فكرية مُلزِمة مع المانشسترية، مع الفردية الاقتصادية، بل هي علاقة عَرَضية - واقعية. تتفق الليبرالية تمامًا مع الإصلاحية الاجتماعية، حيث يسعها أن تسمح بوسائل وطرائق متجددة باستمرار، من أجل توفير حرية الإنسان وحقوقه. الإعلان الليبرالي للحقوق يحمل طابعًا شكليًا ويحتمل أي مضمون اجتماعي إذا كان لا يمس بحقوق الإنسان المعترف بها أصيلة. الاشتراكية الإصلاحية المعروفة تتوافق مع الأسس المثالية لليبرالية أكثر مما تتوافق مع الأشكال المتطرفة للديمقراطية التي ليس من طابع اجتماعي لها. من جانب آخر، الاشتراكية الليبرالية ممكنة. الاشتراكية من النمط الإصلاحي يمكنها أن تقوم على أسس المبادئ الليبرالية، ويمكنها أن تطرح إصلاحًا اجتماعيًا للمجتمع في إطار إعلان حقوق الإنسان والمواطن. تستوعب الليبرالية في داخلها عناصر اشتراكية. أما الاشتراكية فتصبح أكثر ليبرالية، وتأخذ أكثر في الحسبان ليس الإنسان الاقتصادي فحسب، بل والإنسان أيضًا، صاحب الحقوق التي لا تُنازع في حياة فردية كاملة، حقوق نفسٍ غير خاضعة (الحقوق) لقيود نفعية. لكن الاشتراكية الليبرالية الإصلاحية هي ليست، بالطبع، اشتراكية حقيقية. وأهم ما في الأمر هو الإقرار بأن الليبرالية والاشتراكية هما بدايتان نسبيتان وموقتتان. العقيدة الليبرالية والعقيدة الاشتراكية، هما عقيدتان زائفتان.

***

البداية الليبرالية هي واحدة من بدايات الحياة البشرية، لكن لا يمكنها أن تترسخ كبداية وحيدة ومسيطرة من غير منازع. وإذا ما أُخِذَت بذاتها، يتبين أنها منعزلة عن الأساس الأنطولوجي. يجب على الليبرالية أن تترافق مع مُحَافَظَة (conservatism) أكثر عمقًا وغير ظاهرية، ومع الإصلاح الاجتماعي كذلك. الليبرالية، دينيًا، هي بروتستانتية. في الحرية الليبرالية نسبة من الحقيقة التي توجد أيضًا في الحرية الدينية البروتستانتية. لكن البروتستانتية تنسلخ عن الأسس الأنطولوجية للكنيسة، وهي تؤكد بداية الحرية الدينية بصورة مجردة، لا تمتلئ بها الحياة الدينية. الليبرالية تنسلخ عن الأسس الأنطولوجية للمجتمع، وهي تؤكد بداية الحرية السياسية بصورة مجردة، لا تمتلئ بها الحياة الإنسانية. وكما أن الحرية الدينية وحرية المعتقد الديني ينبغي أن تعاد إلى أسسها الأنطولوجية، إلى كامل الحياة الكنسية، ينبغي أن تعاد حرية الإنسان وحقوقه إلى أسسها الأنطولوجية، إلى كامل حياة الإنسان الروحية. الليبرالية الفلسفية، كنمط فكري مجرد، تميل إلى إنكار المجاميع والكليات على غرار واقع الدولة الأنطولوجي والأمة والكنيسة، وإلى الإقرار بالمجتمع تعاونًا بين الشخصيات ليس إلا.

الأيديولوجيا البحت - ليبرالية تحول كل شيء إلى الشخصية كواقع حقيقي وحيد. لكن هذه الاسمانية تدمر، في نهاية المطاف، واقعية الشخصية عينها. لأن واقعية الشخصية تتطلب سواها من الحقائق الواقعية الأخرى. وقد سبق أن تحدثنا غير مرة عن ذلك. الليبرالية العقلانية تنفي وجود التراتبية الأنطولوجية. لكنها تنفي بذلك الشخصية أيضًا كعضو تراتبية الحقائق الواقعية. الليبرالية تتدهور إلى بداية شكلية إذا لم تتواصل مع بدايات أكثر عمقًا وأكثر أنطولوجيةً. الليبرالية الفردية تعزل الفرد عن سائر التشكلات التاريخية العضوية. هذا النوع من الفردية (individualisme) يُفرِغ الفرد، وينتزع منه كل مضمونه فوق الفردي الذي اكتسبه من التاريخ، من الانتماء العضوي للفرد إلى سلالته ووطنه، إلى الدولة والكنيسة، إلى البشرية والكون. السوسيولوجيا الليبرالية لا تفهم طبيعة المجتمع. فلسفة التاريخ الليبرالية لا تفهم طبيعة التاريخ.

***

الليبرالية، كحالة مزاجية متكاملة ونظرة إلى العالم، معادية للتاريخ بقدر ما الاشتراكية معادية للتاريخ كذلك. والقضاء الصارم ينتظرها من هذا الجانب أيضًا. إن جميع المحاولات الأكثر عمقًا لتبرير الليبرالية ترتكز على فكرة القانون الطبيعي. والقانون الطبيعي حاولوا تبريره مثاليًا، لكن النظرية حول الحق الطبيعي مرتبطة بالاعتقاد «بالحال الطبيعية». القانون الطبيعي يتعارض مع الحق التاريخي، كما تتعارض الحال الطبيعية مع الحال التاريخية، مع الواقع التاريخي. جميع النظريات حول الحق الطبيعي تعرضت منذ زمن بعيد للنقد الصارم. ولم يبقَ منها حجر على حجرٍ. إن الولادة الجديدة للحق الطبيعي ومحاولات منحه أساسًا معياريًا بمساعدة فلسفة كانط (Kant) لا تصل إلى العمق النهائي، إلى الأسس الأنطولوجية. لا يمكن حقوق الإنسان المشروعة والمقدسة أن تُسمى حقوقه «الطبيعية»، حقوق «الحال الطبيعية». وعبثًا تلجأون أنتم إلى تأليه الطبيعة الإنسانية، عبثًا تريدون الاستناد إليها في السعي إلى حياة أفضل. إن الإنسان «التاريخي» يبقى، مع ذلك، أفضل من الإنسان «الطبيعي»، وتحرير الإنسان «الطبيعي» لا يولد سوى الشر. الحال «التاريخية» هي أرفع من الحال «الطبيعية»، والحق «التاريخي» هو أرفع من الحق «الطبيعي». الحقوق الأصيلة والمقدسة يمتلكها الإنسان ليس بوصفه كائنًا «طبيعيًا»، بل بوصفه كائنًا روحيًا، طبيعةً أنعم الله عليها بأبوّته والقيامة. وهذا يعني أن التبرير العميق لحقوق الإنسان

ينبغي البحث عنه ليس في «الطبيعي»، بل في كنيسة المسيح. إن حق النفس الإنسانية اللانهائي ليس حقًا «طبيعيًا»، بل هو حق العالم المسيحي «التاريخي». إن النفس الإنسانية التي كشفتها المسيحية، ليست «حالًا طبيعية» للإنسان، لأن في «الحال الطبيعية» كانت مغلقة ومسحوقة عميقًا. ومن هذا العمق، وفي الحقبة التاريخية المسيحية، تفتحت النفس الإنسانية، ولم يسبق هذا التفتح سوى الغيبيات القديمة وفلسفة أفلاطون. وجذوة حقيقة الليبرالية مستقاة من هذا المصدر الرفيع. أما فلسفتكم في «الحال الطبيعية» و«الحق الطبيعي» فهي فلسفة سطحية. وفلسفة «الحال التاريخية» و«الحق التاريخي» هي فلسفة على عمق أكثر. والاعتقاد بكمال «الحال الطبيعية» انهار منذ زمن بعيد، وهو لا يصمد لنقد الوعي العلمي، ولا لنقد الوعي الديني. الإنسان «بطبعه» ليس صالحًا وليس بريئًا. و«طبعه» هذا كله غارق في الشر. في الحال «الطبيعية»، في الحياة «الطبيعية» يسود العداء والصراع المرير. المسار «التاريخي» هو حال للوجود أرفع من المسار «الطبيعي». النزعة الإنسانية خلطت، على نحو مزيف، بين الإنسان «الطبيعي» والإنسان الروح الذي أنعم الله عليه بأبوّته والقيامة، وأفضت في حدودها إلى إنكار الإنسان. أنتم، ناس القرن العشرين، كان عليكم أن تتخلصوا من مخلفات القرن الثامن عشر، من أفكار القرن ما قبل الماضي اللجوج. لا وجود لأي حال «طبيعية»، لا وجود لأي قانون «طبيعي»، لا وجود لأي تناغم «طبيعي» ولا يمكنه أن يكون. كان للقرن العشرين أن يحيلكم على «التاريخي»، على عمق الواقع التاريخي. وبما أن الليبرالية تضع نفسها في مواجهة «التاريخي»، وتبرر نفسها في «الطبيعي»، فإنها تتحول فراغًا مجردًا. «التاريخي» ملموس، أما «الطبيعي» فهو مجرد. إن خطيئة الحال «الطبيعية» وشرها ينتصران في «التاريخي»، في الكليات التاريخية العضوية. إن الأرفع من الحال «التاريخي» والحق «التاريخي» هو الحال «الدينية» والحق «الديني».

أصبح الاعتقاد بالمثل الأعلى الليبرالي مستحيلًا؛ إذ تغير كل شيء وازداد صعوبة منذ ذلك الحين الذي كان فيه هذا الاعتقاد لا يزال طَريًا. ومن الواضح جدًا أن هذا الاعتقاد أُسس على نظرية زائفة حول الطبيعة الإنسانية وعدم الرغبة في معرفة جوانبها غير العقلانية. نحن لا نؤمن كثيرًا بالدستور، ولم يعد في وسعنا أن نصدق أن البرلمانية هي العلاج للعلل جميعًا. يمكن الإقرار بحتمية البرلمانية والتمسك بأحكام الدستور وفائدتهما النسبية أحيانًا، لكن أصبح من غير الممكن أن نصدق أنه يمكن بناء مجتمع مثالي عبر هذه السبل، وبأنه يمكن الإبراء من الشر والآلام. ما من أحد يقيم بعد على مثل هذا الاعتقاد. ويثير المنظرون المتأخرون للدستورية الليبرالية والبرلمانية انطباعًا بائسًا. وتعيش البرلمانية في الغرب أزمة جدية. ويسود شعور بأن جميع الأشكال السياسية استنزفت. وما دامت الليبرالية شديدة الإيمان بالشكل السياسي، فهي ليست في المواقع الأمامية من الوعي المعاصر. كما أن الاشتراكية كذلك ليست في المواقع الأمامية من الوعي المعاصر لأنها شديدة الإيمان في التنظيم الاقتصادي. جميع هذه المعتقدات هي من مخلفات العقلانية القديمة. العقلانية قامت على أساس تضييق التجربة البشرية وتجاهل تلك الطبيعة البشرية اللاعقلانية التي تجعل عقلنة المجتمع الكاملة مستحيلة. لم يعد في وسع ناس القرن الجديد أن يؤمنوا بقدرة الأشكال السياسية والاجتماعية على الإنقاذ، وهم يدركون نسبيتها كلها. إن جميع البدايات السياسية هي بدايات نسبية، ولا يسع أيًا منها الادعاء بأهمية استثنائية، كما لا يسع أيًا منها أن تكون وسيلة إنقاذ وحيدة. الإيمان بالدستور هو إيمان مثير للشفقة. يمكن وضع الدساتير وفقًا لمتطلبات الظرف التاريخي، لكن ليس من معنى للإيمان بها. فالإيمان يجب أن يكون بموضوعات أكثر جدارة. فليس

من الجدير بالمرء أن يجعل من دولة القانون مثلًا أعلى له. ثمة في الأمر هذا ضيق أفق معين. إن دولة القانون هي أمر نسبي. وإذا كان في الليبرالية من بداية أزلية، فليس علينا أن نبحث عنها في هذه الأشكال السياسية أو تلك، وليس في هذا التنظيم أو ذاك للتمثيل والسلطة، بل في حقوق الإنسان، في حريات الإنسان. فحقوق الإنسان وحرياته هي أعمق بما لا يقاس من حق الانتخاب العام والنظام البرلماني وغير ذلك مثلًا؛ إذ إنها تنطوي على أساس مقدس. لكن، لهذا بالذات فإن حقوق الإنسان وحرياته تتطلب تبريرًا أكثر عمقًا من ذاك الذي تقدمه الليبرالية، تتطلب تبريرات ميتافيزيقية ودينية. الحقيقة الجزئية لليبرالية هي حرية المعتقد الديني، أما أساسها فهو في المسيح وكنيسته، في حرية الكنيسة حيال تطاولات «العالم»، لأن الطبيعة اللانهائية للروح الإنسانية لا تتفتح إلا في كنيسة المسيح فحسب. إن تطاول الدولة العلمانية والمجتمع العلماني على الشخصية الإنسانية كان من شأنه أن يكون غير محدود خارج المسيحية. إن حرية النفس الإنسانية تم الفوز بها بدماء الشهداء المسيحيين. وعليكم أن تتذكروا هذا الأمر، أنتم الذين تتوهمون أنفسكم محَرِرين. لكنكم أنتم كنتم تودون لو تحررون الإنسان من كنيسة المسيح أيضًا، وهي مملكة الحرية، وتضعون الإنسان بذلك تحت رحمة الحاجة الطبيعية كليًا.

من النادر أن نصادف شخصًا محض ليبرالي، يعبر عن البداية الليبرالية المجردة. تكون الليبرالية، عادة، معقدة جدًا وتترافق مع غيرها من البدايات المختلفة. ومن غير الممكن المكوث في النقاء الليبرالي وخوائه، أو أن تكون الليبرالية على تعقيد أكبر من خلال البدايات المُحافِظة، وتكون عندها أكثر عمقًا وأقسى عودًا، أو أن تكون على تعقيد أكبر من خلال البدايات الغامضة الديمقراطية والاشتراكية والفوضوية، وتخلق عندها نمطًا راديكاليًا مبتذلًا وهشًا. أنتم، الراديكاليون، السليلة البشرية التي لا لزوم لها في العالم، الأكثر سطحيةً والأكثر هامشية التي تعيش على حساب غيرها، وليس على حسابها الخاص. أنتم تعيشون بالأفكار الثورية الأكثر يسارية الغريبة عنكم، التي تعجزون عن مجابهتها وعن الاستسلام لها، والتي تحسدونها من عجزٍ. وأنتم لا يسعكم حتى أن تكونوا بالنسبة إلى البشرية ذلك الدرس التراجيدي، تلك التجربة المفيدة التي يمثلها الثوريون والاشتراكيون والفوضويون الحقيقيون. أنتم، الراديكاليون - الليبراليون ليس لديكم تلك البدايات التي كان من شأنكم أن تدافعوا عنها حتى النهاية، وتواجهوا بها ضغط الفوضى الطبيعية من اليسار. ويمكن أن نتلمس في هذا العجز ثمار الليبرالية التي لا تمتلك أسسًا أنطولوجية. أنتم غير واثقين أبدًا في ما إذا كانت توجد أسس أنطولوجية في الدولة، وفي الأمة، وفي جميع الكليات التاريخية. وأنتم تدمركم التيارات الأكثر تطرفًا وحزمًا، والأكثر إيمانًا وتعصبًا. أنتم، الراديكاليون - الليبراليون، المتشككون، بحسب نمطكم الروحي، لا يسعكم تحريك التاريخ. الإيمان الزائف ينبغي أن يواجَه بالإيمان الحقيقي، لا بالتشكيك والكفر. الكفر والتشكيك، الازدواجية، التلفت من حولكم، العيش على حساب الآخر، على الأفكار الغربية بسبب غياب الأفكار الخاصة، تلك هي خصائص الراديكالي القاتلة. لهذا يحتل الليبرالي - المحافِظ مرتبةً أعلى من الليبرالي - الراديكالي، وهو أكثر مبدئية، ويعرف بما يواجه المثل العليا الغريبة. الليبرالية، كونها بدايةً مجردة مكتفية ذاتيًا تدافع عن حرية الشخصية، من السهل أن تتحول إلى فوضوية. هذه الفوضوية تكون شديدة السذاجة، شديدة المثالية، ليست تدميرية إطلاقًا، لكنها شديدة الضعف. مثل هذا الليبرالي - الفوضوي كان سبنسر[41] (Herbert Spencer)، مثلًا. وكذلك كان ف. همبولدت[42] (Friedrich von Humboldt).

يجد هذا الأمر التعبير عنه في الرغبة في جعل الدولة تنحدر إلى الحدود الدنيا وإفراغها كليًّا على نحو تدرُّجي، وهو ما يمثل عدم فهم الطبيعة المستقلة للدولة. ليس في هذه الفوضوية الليبرالية من حافز حقيقي وليس من واقع، بل هي تحمل طابعًا نظريًا ومكتبيًا. لكن هذا الميل الفوضوي يُضعف الليبرالية داخليًا. إن عيوب الليبرالية كلها ونقاط ضعفها مرتبطة بكونها هي بأسرها لا تزال تُقيم في طور حرية آدم العتيق، ولم تعرف الحرية الجديدة المادية لآدم الحديث الذي بُعث روحيًا.

(37) يبدو أن الكاتب يقصد حركة الإصلاح الديني والاجتماعي - السياسي الكبرى التي انطلقت في عام 1517 على يد مارتن لوثر. (المترجم)

(38) كاتب فرنسي - سويسري وصحافي وناشط سياسي زمن الثورة الفرنسية والبونابرتية (1767 - 1830). لدى دخول الجيش الروسي باريس في أيار/ مايو 1814، قُدم إلى الإمبراطور الروسي ألكسندر الأول. في نهاية حياته دعا إلى عودة الملكية إلى فرنسا. (المترجم)

(39) ناشط سياسي فرنسي، زعيم «حزب النظام» المحافظ، وزير خارجية فرنسا (1849). أكثر ما اشتهر بمؤلفه التاريخي - السياسي **الديمقراطية في أميركا** الذي يوصف بأنه «أفضل كتاب عن الديمقراطية وأفضل كتاب عن أميركا في آن واحد» (1805 - 1859). (المترجم)

(40) مجموعة اقتصاديين من مانشستر طوروا نظرية ليبرالية الفيزيوقراطيين والكلاسيكيين الاقتصادية حتى اتخذت شكلها المنطقي النهائي. ليس على الدولة، في رأيهم، أن تفرض احتكارها أي شيء، وليس لها أن تفرض رسومًا جمركية رادعة، أو أن تحدد مدة يوم العمل، وأن تضع تشريعات صناعية وغير ذلك. (المترجم)

(41) فيلسوف إنكليزي وسوسيولوجي، أحد مؤسسي نظرية التطور (Évolution)، مؤسس المدرسة العضوية في السوسيولوجيا، ليبرالي (1820 - 1903). (المترجم)

(42) فيلسوف ولغوي ألماني، رجل دولة ودبلوماسي (1767 - 1835). (المترجم)

الرسالة الثامنة

في الديمقراطية

في مطلع كتابه الرائع عن **الديمقراطية في أميركا**، يتحدث توكفيل حول انطباعه عن تطور الديمقراطية المطرد: «الكتاب التالي كُتب كله تحت تأثير نوع من الرعب الديني الذي أحدثه في نفس الكاتب مرأى الثورة الجامحة الآتية من جميع هذه القرون عبر العراقيل كلها، التي تتقدم الآن إلى الأمام وسط الخراب الذي أنتجته هي». أنا على معرفة جيدة بشعور الرعب هذا. واختبرته منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، تقريبًا منذ زمن الطفولة أول مرة، ثم في زمن الصبا. وكان الشعور به حادًا إبان الثورة الروسية الأولى في عام 1905، وبلغ مبلغًا مؤلمًا في ربيع 1917، حين بدأ طوفان الثورة الروسية الثانية «العظيمة». ليست الديمقراطية بدايةً جديدة وليست أول مرة تدخل بها العالم، بل هي بداية أزلية، سبق أن عرفها العالم القديم جيدًا. لكنها أول مرة تصبح فيها مسألة الديمقراطية مسألة قلق ديني. فهي لم تعد تُطرح على المستوى السياسي، بل أخذت تُطرح على المستوى الروحي. فليست الأشكال السياسية هي المقصودة بالحديث، حين يعانون الخوف الديني من المسار المتصاعد للديمقراطية، بل المقصود أمر آخر أكثر عمقًا. والديمقراطية ليست شكلًا جديدًا للدولة، بل هي روح خاصة. وكما أنه لم يحدث أن سادت فكرة الديمقراطية العالم بشكلها المجرد، من المستبعد أن يحدث هذا الآن. لكن روح الديمقراطية أحرزت الكثير من الانتصارات . والديمقراطية، كفكرة مجردة مكتفية بذاتها وغير خاضعة لما هو على رفعة، هي تأليه للإنسان وإنكار للمصدر الإلهي للسلطة. الشعب يكتفي بذاته. والبداية الأعلى في حياته هي إرادته الخاصة، بغض النظر عما تبتغيه هذه الإرادة وما هو محتواها، وما الذي تتوجه إليه. وتُمجّد إرادة الشعب لأنها تتوطد شكليًا، ومن غير صلة بمضمونها. ويفترض مضمون الديمقراطية قيمًا محددة خارقة فوق البشر. وما إن تلتفتوا إلى مضمون إرادة الشعب حتى لا يعود بإمكانكم تأليهها. لأن إرادة الشعب قد تبتغي الشر، وتكون حينئذ موضع إدانة، أو أن تبتغي الخير ومضمون الحياة الإلهي، وعندئذ ينبغي عدم الإقرار بإرادة الشعب بأنها البداية العليا، بل هي هذا الخير وهذا المضمون الإلهي عينه. هذا هو الأمر الذي لم تفكروا فيه كفاية. فالإقرار بإرادة الشعب بدايةً عليا في الحياة الاجتماعية لا يمكن أن يكون غير تمجيد لبداية شكلية ليست ذات مضمون، تمجيد للاستبداد الإنساني. ليس المهم ما يريد الإنسان، بل المهم أن يتوافر ما يريد الإنسان. أريد أن يتوافر ما أريد. تلك هي المعادلة القصوى للديمقراطية، لسلطة الشعب. وليس في وسعها أن تذهب أعمق من ذلك. المبدأ الديمقراطي لا يهتم بمضمون إرادة الشعب بذاته وحال هذه الإرادة. الإرادة الشعبية قد تبتغي أسوأ الشر، ولا يستطيع المبدأ الديمقراطي حيال الأمر شيئًا. ليس في المبدأ الديمقراطي أي ضمانة بألا يخفض تطبيقه المستوى النوعي للحياة البشرية ويدمر أعظم القيم. تنطوي الفكرة الديمقراطية المجردة على أعظم الازدراء لميزات الإنسان والشعب ولمستواهما الروحي. وكانت هذه الفكرة تود لو تحول اهتمام الإنسان عن مضمون الحياة البشرية وأهداف هذه الحياة، وتوجيهه كليًا نحو أشكال التعبير عن الإرادة. تحمل سيادة الشعب طابعًا كلي الشكلية. ويبقى من غير المعروف ما سوف يريد الشعب حين يُترَك لإرادته أمر اختيار نمط الحياة الذي يريد إقامته.

أنتم آمنتم بالديمقراطية لأنكم فقدتم الإيمان بالحق والحقيقة. ولو كنتم تؤمنون بالوجود الموضوعي للحق والحقيقة، لكان عليكم وضع الحق والحقيقة فوق إرادة الشعب وإخضاع هذه الإرادة لهما. لكن الحق والحقيقة بالنسبة إليكم هو ما سوف يريده الشعب ويقوله. أنتم تريدون تسليم الحق والحقيقة إلى قرار غالبية الأصوات وتمريرهما عبر حق التصويت العام. إنه الكفر بعينه، إنه الشِرك الموجود في أساس الأيديولوجيا الديمقراطية. أنتم تريدون أن تستخلصوا من الأكثرية، من الكمية، الحق والحقيقة عن إدارة المجتمع. لكن، هل يمكن أن يكون للحق والحقيقة علاقة بمعايير

الأكثرية والكمية؟ للحق والحقيقة مصدر مختلف، مصدر إلهي مستقل عن إرادة الإنسان. الحق والحقيقة يمكن أن يكونا في الأقلية وليس في الأكثرية، بل هما دائمًا في الأقلية. إنه شعور يبلغ حد الخوف تقريبًا، كيف أمكن الناس أن يصلوا إلى تلك الحال من الوعي، بأن رأوا في رأي الأكثرية وإرادتها مصدر الحق والحقيقة ومعيارهما! النزعة إلى الشك (scepticisme) هي التبرير الوحيد الذي يمكن أن يكون لمبادئ الديمقراطية، لمبادئ الأكثرية والكمية. إن المتشككين والمدَمَرين والمعزولين عن الأسس الأنطولوجية للحياة عليهم أن يلجأوا إلى قرارات الأكثرية ومعايير الكمية. إذا لم يكن من وجود للحق والحقيقة فسوف نعتبر ما تقره الأكثرية هو الحق والحقيقة. لكن، حتى لو كان هناك حق وحقيقة، إنما لا أعرفهما ولا أعرف سبل بلوغهما وأشكك دائمًا بهما، فلا يبقى لي سوى الاعتماد على الأكثرية والبحث في الكمية البشرية عن بُدُل الميزات التي أفتقدها شخصيًا! لهذا بالذات، تثير الثورة الديمقراطية المخاوف الدينية، لأنها تشهد على الانحطاط الروحي للبشرية، على تزايد الإلحاد، على التشكك الرهيب، عن فقدان سائر المعايير القيمية النوعية للحق والحقيقة. الديمقراطية هي إبيستمولوجيا (épistémologie) اجتماعية متشككة. هذه الإبيستمولوجيا يعترف بها أولئك الذين فقدوا منابع الحياة الروحية. لهذا، فإن لنمو الديمقراطية في العالم معنى قاتلًا. وهو يسير على نحو متوازٍ مع تجويف الروح، مع فقدان الله من الروح. **المساواة الديمقراطية هي فقدان القدرة على تمييز قيمة الحياة الروحية.** إنه التباس من أولئك الذين كفوا عن إعلاء شأن القيم النوعية. لا يسع الأيديولوجيا الديمقراطية للكميات إلا أن تؤدي إلى مملكة مَن هم الأسوأ وليس مَن هم الأحسن.

الإرادة في رفع شأن الحياة والنوعية والقيم لم تكن موجودةً في الأساس الذي قامت عليه الديمقراطية. ولا تخلق الديمقراطية من ذاتها أي قيمة جديدة، بل ليس في وسعها أن تخلق. فهي تنشأ خارج أي تفكير في القيم ومضمون الحياة. والحقبة الديمقراطية المساواتية في التاريخ الإنساني هي خفض للمحتوى النوعي القِيمي للحياة، خفض لنمط الإنسان. لم يكن للديمقراطية من مصلحة في تربية نمط إنساني رفيع، لذلك هي عاجزة عن خلق حياة أفضل. كان رسول الديمقراطية جان جاك روسو يؤمن بالطيبة الطبيعية للطبيعة الإنسانية وبراءتها، ويعتقد أنها سوف تتجلى ببهائها كلها حين يقوم شكل من أشكال سلطة الشعب. هذا الزيف الجذري أسقطته الحياة نفسها بالتجربة التاريخية، وبالفكر الأكثر عمقًا وتعقيدًا. ولم تكن مطروحة بالنسبة إلى وعي روسو مسألة الانتصار على الخطيئة والشر، ومسألة تربية الإنسان والشعب وخلق نمطٍ إنساني أرفع. ينبغي فحسب نزع قيود الشعب ومنحه فرصة التعبير عن إرادته وبناء المجتمع وفق إرادته، ليحل عندئذ وضع طبيعي تمامًا. فقد فقدوا في القرن التاسع عشر الثقة في الوضع الطبيعي للإنسان والوضع الطبيعي للمجتمع، ولم تسعهم إقامة الديمقراطية على هذا الأساس الفلسفي، كما لم يكن في وسعهم استبدالها بأي شيء آخر. وبقي من غير المفهوم لماذا العثور الحر الطليق غير المشوه على الطبيعة البشرية عبر الديمقراطية وسلطة الشعب، يؤدي إلى الخير، ويوّلد الحقيقة الاجتماعية. لم تكن الفلسفة الوضعية للقرن التاسع عشر تؤمن بأي حال طبيعية خيرة. لكنها كانت تُجيز الديمقراطية بسهولة وتبررها، وتطلب تقديم آيات التبجيل للإنسان الطبيعي الراهن وفرادته الخاطئة. صحيح أن الميتافيزيقا الديمقراطية تؤكد أن كل إنسان بمفرده يخطئ، وهو موجود في الباطل والزيف، لكن إرادة الجميع، إرادة الشعب، إرادة الجماعة هي إرادة سليمة لا تخطئ. وتبرز هنا مشكلة فلسفية شديدة التعقيد لم تفكروا فيها أنتم، الديمقراطيون - الوضعيون. ما هي طبيعة هذه

الجماعة التي تسمى الشعب، والتي تقرون بها سيدة؟ هل الشعب الذي تقرون له بالسلطة العليا يمثل وحدة حقيقية محددة، وهل يمتلك نواة أنطولوجية؟ أنتم اسمانيون، ولستم واقعيين، والشعب، كجماعة بشرية، لا يمكن أن يكون بالنسبة إليكم حقيقة أنطولوجية، فهو ليس سوى مجموع ميكانيكي. الإرادة الشعبية خاصتكم لا تتم فيها سوى عملية جمع حسابية. أنتم تؤمنون بغالبية الأصوات. لكن، من خلال جمع إرادة الكل لا تتحصل إرادة عامة. الماركسية التي كانت التعبير المتطرف للروح المساواتية العالمية، فككت الأوهام الديمقراطية، وقتلت الميتافيزيقا الديمقراطية. ويجدر الإقرار بأن هذا الأمر هو فضيلة تُحسب لها. تنفي الاشتراكية - الديمقراطية وجود الشعب كوحدة واقعية حقيقية، وتفككه إلى طبقات وجماعات ذات مصالح ونفسيات متضاربة، ولا توجد، بالنسبة إليها، إرادة شعبية ولا بداية سيادية. إرادة البروليتاريا هي فوق إرادة الشعب، وتُنسب إليها جميع المواصفات الإلهية التي كانت تنسبها الميتافيزيقا الديمقراطية إلى الشعب. البروليتاريا فوق الشعب، وهي وحدة حقيقية. إنه وهم جديد، صنم جديد، لكنه يفكك الوهم القديم، الصنم القديم، «الشعب». فالشعب، بالمعنى الذي تصوره الميتافيزيقا الديمقراطية، ليس موجودًا. لا يمكن أن تكون لهذا «الشعب» أي إرادة. فهو ليس سوى تفاعل معقد لمجموعات اجتماعية ذات مصالح وخلفيات نفسية مختلفة، أو جمع ميكانيكي لوحدات بشرية منفردة.

الشعب هو أيضًا جسم سري باطني، هو شخصية جَمعية. والشعب بهذا المعنى هو أمة، وهو يتسع لجميع الطبقات والمجموعات ولجميع الأحياء والأموات. لكن الشعب بهذا المعنى لا تريد الديمقراطية أن تعرفه ولا تعرفه، وهو ليس أبدًا في مرمى بصر الديمقراطية. الشعب والديمقراطية، ليس فحسب ينبغي عدم الخلط بينهما ومطابقتهما، بل من الضروري التمييز بينهما ووضعهما في مواجهة بعضهما بعضًا. وكلمتا «ديمقراطية» و«ديمقراطي» يستخدمونهما بمعنى جد مبهم وغير محدد. فهم يعنون بكلمة الديمقراطية من جهة طبقات المجتمع الكادحة من الفلاحين والعمال والإنتلجنسيا العاملة، ومن جهة أخرى النزعة الديمقراطية وسلطة الشعب، أي الشكل السياسي، والشعب بوصفه السيد المستقل للبلاد. ومن الواضح أنه يتم خلط الديمقراطية بوصفها بنية شعبية بشرية، بالديمقراطية بوصفها نهجًا سياسيًا معروفًا ونزعة سياسية بشكل عشوائي. فيقولون «فلان ديمقراطي»، أي إنه شخص من عامة الشعب أو من بيئة قريبة من عامة الشعب، يتحدر من شرائح المجتمع الدنيا، كما يقولون كذلك «فلان ديمقراطي»، أي إنه شخص صاحب نزعة ديمقراطية وقناعات ديمقراطية، مع العلم أنه يتحدر من منشأ أرستقراطي. وفي كلتا الحالين كلمة «ديمقراطي» وكلمة «شعبي» لا تمتلكان سوى القليل مما هو مشترك. **الشعب** لا يعني الطبقات «الديمقراطية»، وقد لا تكون «للشعب» قناعات ديمقراطية. وقد يلتزم الشعب نمط تفكير ليس ديمقراطيًا البتة، وقد لا يكون ذا ميول ديمقراطية أبدًا. وهذا ما كان يحدث في التاريخ في ظل الحال العضوية للشعب. والديمقراطية هي الخروج من الحال العضوية، هي تفكك وحدة الشعب، هي الشقاق فيه. الديمقراطية ميكانيكية إلى حد بعيد، وتقول إن الشعب لم يعد موجودًا كجسم متكامل. الديمقراطية هي حال مَرَضية للشعب. ليس من ديمقراطيات ظهرت في حقب التاريخ «العضوية»، بل هي لا تظهر. الديمقراطية وَليدة الحقب «الحَرِجَة». ولا يمكن الديمقراطية أن تكون تعبيرًا عن روح الشعب، لأن روح الشعب لا يمكن التعبير عنها سوى في الجسد العضوي، والديمقراطية هي ميكانيزم. الديمقراطية تأخذ الإنسان كوحدة حسابية تساوي، رياضيًا، أي وحدة أخرى. فالشعب بالنسبة إليها يتفكك بوصفه وحدةً عضوية إلى ذرات، ثم يتجمع لاحقًا كجماعة

ميكانيكية. الشعب لا يتكون من وحدات حسابية وذرات. الشعب هو عضوية تراتبية كل إنسان فيها كائن مختلف لا يتكرر بنوعيته. لهذا بالذات، إرادة الشعب لا يمكن التعبير عنها بمجموع بشري، في رأي الغالبية. التصويت العام هو طريقة غير صالحة للتعبير عن القيم النوعية في حياة الشعب. في وسع الأقلية أن تعبر على نحو أفضل وبشكل كامل عن إرادة الشعب كوحدة عضوية تمتلك روحًا مَجمَعية. وفي وسع الفرد أن يعبر عن الإرادة وعن هذه الروح، أفضل مما تعبر الكمية البشرية جمعاء. وهذا ما تقوم عليه أهمية الأشخاص العظماء في الحياة التاريخية من قادة وقياصرة. الشعب ليس كمية بشرية، ليس حشدًا بشريًا. هذا ما سهوتم أنتم عنه في عصر الديمقراطية. الكمية البشرية هي التي تسود في ديمقراطياتكم، وأنتم تعتقدون أن الشعب يقف خلفها. لكن هذا هو زيفكم الكبير الذي ينبغي أن يُفتضح. الكمية البشرية هي غبار تحمله إرادة الغبار. ولا يمكن إرادة هذه الكمية البشرية أن تكون إرادة الشعب. ولا يمكن الإرادة هذه أن تكون مجموعًا عشوائيًا يتأرجح مع كل نسمة تَهب. إن مملكتكم الديمقراطية يمزقها صراع الأحزاب التي تقبض على مصائر الدول فيها، وهذا يكفي للقول إن الأمر ليس في مصلحتكم ولا يسمح بالتصديق بأن الشعب يجد التعبير عن نفسه في هذه المملكة. إن الحكم الديمقراطي وهم في نهاية الأمر. لقد سبق أن ذكرت أن ما هو ممكن في الواقع هو إما الأرستقراطية وإما حكم الدهماء. ونادرًا ما يكون استبداد الأحزاب أرستقراطيًا؛ إذ لا يتم هنا انتقاء مَن هم الأفضل والأقدر. في سيادة الشعب يموت الشعب، يغرق في الكمية الميكانيكية ولا تعثر على التعبير عن نفسه العضوية المتماسكة التي لا تتجزأ. وهو لا يعثر على هذا التعبير سوى بشكل لاعقلاني. في سيادة الشعب يموت الإنسان أيضًا. لأن استبداد الشعب لا يتوقف عند حقوق الإنسان الأصيلة، كما لا يضمن عدم المساس بهذه الحقوق. الديمقراطية الاستبدادية ينبغي أن تواجَه بروح الشعب وحقوق الإنسان، لأنها تهيئ لأشد أنواع الاستبداد رعبًا.

***

أصبحت شعوب الغرب الأكثر تقدمًا تشعر بالاستياء من الديمقراطية منذ زمن بعيد، وتحاول الخروج إلى أشكال جديدة. أزمة الأيديولوجيا الديمقراطية تتفاعل منذ زمن بعيد. وأنتم، الديمقراطيون الخُلص، المؤمنون بتفوق الفكرة الديمقراطية، أصبحتم أصحاب نمط تفكير ونمط مشاعر عفى عليهما الزمن. كان هناك في العالم الأوروبي مدٌّ ديمقراطي غرقت فيه أوروبا أكثر فأكثر. هذا المد يتواصل ولم يبلغ الطوفان. لكن، بدأت أيضًا الحركة المعاكسة. فقد بدأ الجزر في الحقل الفكري منذ زمن بعيد. حدود الديمقراطية أضحت معروفة، وغدا القنوط والخطر الديمقراطيان باديين للعقول النَيرة. الكمية لا يسعها أن تخلق النوعية. المجتمع الذي تفكك إلى ذرات، إلى نقاط رياضية، لا يمكن تجميعه وإعادة توحيده ولا يسعه الحصول على صورة متناغمة من طريق الميكانيك، من طريق احتساب الأصوات وتسليم السلطة للأكثرية. إرادة الشعب هي نوعية لا يمكن الحصول عليها من توليفات كمية. اختفت إرادة الشعب وماتت في الوقت عينه الذي أَعلَنت فيه الديمقراطية تَفَوق إرادة الشعب. **الديمقراطية هي البحث العقيم عن إرادة الشعب التي ماتت**. إن جميع أجهزة التمثيل الديمقراطي للإرادة الشعبية تمثل محاولات يائسة لتجميع الإرادة المبعثرة. في التمثيل الديمقراطي تبقى إرادة الشعب مبعثرة وينهض جزء ضد جزءٍ. البرلمان الديمقراطي هو حلبة صراع من أجل المصالح والسلطة. من الصعب أن تسمع فيه صوت شعب موحد. ولا يُسمَع سوى في أزمنة استثنائية وعبر أشخاص استثنائيين. إن احتساب الأصوات الذي يرتبط بمليون مصادفة، لا يقول شيئًا عن قيمة الإرادة الشعبية. إن حق التصويت العام الذي لا

يزال حتى الآن بالنسبة إلى كثيرين منكم عقيدة لا جدال فيها، يثير أعظم الشكوك. فهو مبدأ ميكانيكي، كمي ومجرد. حق التصويت العام لا يعرف أشخاصًا بعينهم، بنوعياتهم المختلفة، بوزنهم المختلف، بل يتعاطى حصريًا مع أشخاصٍ مجردين، مع ذرات ونقاط رياضية. ولا يعرف أيضًا جماعات اجتماعية عضوية. إن حق التصويت العام هو ابتعاد من المضمون النوعي للحياة، وهو لا يريد أن يعرف أي انتقاء نوعي. من أين جاءت الثقة في أنه يمكن بهذه الطريقة بلوغ مجتمع راقي النوعية؟ إنه من إيحاء فكرة المساواة. صدقتم أن المساواة ليست مساواةً نسبية، بل ميكانيكية، وأنها حقيقة عظيمة وخير عظيم، وأن كل ما يخصها أمر جيد. لكن تمجيد المساواة هذا هو الخطيئة الأصيلة، ويفضي إلى استبدال طبيعة الإنسان الملموسة النوعية الفردية، بطبيعة مجردة كمية وعديمة الشخصية. إن حق التصويت العام القائم على المساواة الزائفة هو إنكار للإنسان. في نتائج حق التصويت العام ثمة، حقًا، ما هو غير إنساني، بل معادٍ للإنسان.

إن لكل إنسان مؤهلاته الخاصة وإنجازاته النوعية، إذا لم يؤخذ كونه نقطة رياضية مجردة. ومبدأ المؤهلات هذا هو مبدأ أكثر حقيقةً وإنسانية من أن يُنفى كليًا. مبدأ المؤهلات هو مبدأ نوعي، لا كمي، وهنا تكمن حقيقته. يمكن مبدأ المؤهلات أن يتشوه ويتراجع، كما يمكن أن يُفهم بشكل مادي صرف، كمؤهلات مادية. لكن هذا لا يقول شيئًا البتة ضد حقيقته الأساسية، لأن كل شيء في العالم يمكن أن يتشوّه، وكل شيء يمكن إساءة استخدامه. لكن الأمر الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك، سواء بالنسبة إلى الوعي الديني، أو بالنسبة إلى الفكر الفلسفي، هو أن الإنسان يجب أن يؤخذ بمؤهلاته، أي أن نختار مَن هم الأفضل والأقدر. ليس من وسائل خارجية اجتماعية لأخذ الإنسان بجميع خصوصيته الفردية التي لا تتكرر. غير أنه توجد نوعيات جماعية للناس يمكن رصد دلالاتها، مثل نوعيات التعليم، نوعيات الخبرة الاجتماعية، نوعيات التواصل التراثي التاريخي، نوعيات التجربة الثقافية الأعلى. المؤهلات في جوهرها ينبغي أن تكون روحية. لكن المؤهلات الروحية تمتلك دلالات تعابيرها المادية أيضًا. المستوى الثقافي الأرفع يرتبط ببنية المجتمع المادية أيضًا، وبالتشكلات التاريخية التي تبلورت. وكي لا يكون التمثيل ميكانيكيًا بحتًا وكميًا، ينبغي الالتفات فيه إلى القوى التي تشكلت تاريخيًا وتغربلت نوعيًا. الخبرة الاجتماعية والتواصل التراثي الاجتماعي يمتلكان قيمة ينبغي عدم تجاهلها وعدم تدميرها باسم أفكار ونظريات تجريدية. المجالس المحلية[43] (Zemstvo)، مثلًا، كانت تمثل في روسيا تشكيلًا تاريخيًا نوعيًا، تراكمت فيه الخبرة الاجتماعية والتقاليد. وتدمير المجالس المحلية وعدم الرغبة في منحها الأفضلية في التمثيل، هو تدمير للنوعيات الاجتماعية وغرق في ظلمة الكمية. أعتقد أن في البيروقراطية، ومع أخطارها كلها في السلطة غير المحدودة، ثمة وجود لنوعية الخبرة والمعرفة والتواصل التراثي، وهي الأمور التي ينبغي أخذها في الحسبان. من المستغرب أن نعمد إلى إثبات أفضلية الشريحة الثقافية الأرفع التي يجب أن تكون على وزن مختلف في الحياة الاجتماعية عن الشرائح التي دونها نوعية. الإنسان ليس كائنًا مجردًا، بل ينبغي أخذه في البيئة التاريخية والتواصل التراثي. ويمتلك أهمية عظيمة أيضًا منشأ الإنسان وأصله، وتربيته وغرائزه وتقاليده، وذكرياته وعلاقاته. لهذا، كانت الأعراق التاريخية تمتلك أهميةً أكبر بكثير مما تستنتجه السوسيولوجيا المجردة خاصتكم والأيديولوجيا الديمقراطية. تحت هذه الأشكال الخارجية يختبئ أمر معين مهم بالنسبة إلى الحياة. لا يمكن مسألة الديمقراطية أن تُطرح بصورة مجردة ومعزولة، بل ينبغي أن تكون مرتبطة بالثقافة. ويسقط حينئذٍ المثل الأعلى للديمقراطية المجردة. لم تتمكن الديمقراطية من إطاحة النظام التراتبي للمجتمع الذي تتصل جذوره بالنظام التراتبي الكوني. إن عودة الفكرة

القروسطية عن التمثيل التشاركي (corporate) في فرنسا إلى الحياة من جديد يشير إلى الاستياء العميق من الديمقراطية المجردة الميكانيكية الكمية. وقد بدأوا يدركون أنه لا يجوز أخذ الإنسان كذرة منعزلة وإقامة مجتمع ودولة من هذه الذرات. توجد تراتبية تشكلات عضوية ينتمي إليها الإنسان. هذه التشكلات العضوية يجب أن تحظى بتمثيلها. غير أن المصيبة في أن جميع التشكلات العضوية دمرها تقريبًا عصر الديمقراطية، وأصبح الإنسان معزولًا ووحيدًا، والتشاركات (corporation) «الشركات» الجديدة ترتبط في ما بينها بمصالح اقتصادية لا غير. توجه السنديكالية الفرنسية (syndicalisme) ضربات شديدة إلى الفكرة الديمقراطية، وتنشط فيها بصورة منتظمة روح الشراكة الكبرى، النقابة العمالية. لكن الشراكة هذه تمتلك أساسًا اقتصاديًا صرفًا وتحركها مصالح الصراع الطبقي دون سواها. وهي ظهرت في حقبة تفسخ الإرادة الشعبية، لكن سيطرة مثل هذا النوع من الشراكات لا يمكن أن تخلق بناءً عضويًا للمجتمع، بل تفضي إلى الثورة الدائمة ليس إلا. تشير السنديكالية، وكذلك عودة فكرة التمثيل التشاركي إلى الحياة، إلى أزمة عميقة في الديمقراطية. وأخذوا يدركون أن الشعب ليس جمهورًا، ليس حشدًا كميًا، بل هو يمتلك بنية معقدة وتمايزًا نوعيًا، الأمر الذي يحتم وجود نظام تمثيل أكثر تعقيدًا، وليس على هذه الدرجة من الميكانيكية والمساواتية، كما هو عليه نظام حق التصويت العام. في مبدأ التمثيل السوفياتي عينه ثمة نصيب من الحقيقة لن يزول. لكنكم لن تعثروا أبدًا على نظام تمثيل مثالي النوعية، لأن التمثيل عينه هو من البدايات التابعة، أي البدايات النسبية العابرة في الحياة الاجتماعية. للثقافة الروحية الأولوية على أي شكل سياسي، وعلى التشاركات أن تمتلك أساسًا روحيًا بالدرجة الأولى.

***

الأيديولوجيا الديمقراطية هي العقلانية القصوى. فهي تستند إلى الإيمان بإمكان عقلنة الحياة الإنسانية وترتيبها على نحو نهائي بقوى الإنسان بمفرده. الديمقراطية الأصيلة ينبغي أن تنفي وجود بدايات غير عقلانية في الحياة الاجتماعية ولا يسعها قبولها. إن المجتمع القائم على ميكانكية الكميات، على حق التصويت العام، الذي يتقبل الإنسان كنقطة رياضية، هو مجتمع عقلاني كليًا، لا يتحمل تدخل أي قوة غير عقلانية. الجمهورية الديمقراطية ذات الحكم البرلماني هي المجتمع المُعقلَن. وهي محاولة لمطابقة الدولة التي تمتلك دومًا أساسًا صوفيًا لاعقلانيًا، مع مجتمع معقلن كليًا. الديمقراطية تريد إذابة الدولة في المجتمع بصورة كلية من دون أن يبقى منها شيئًا. ليس في وسع أيديولوجيا الديمقراطية أن تقر بالدولة كحقيقة أصيلة خاصة، بل هي تختصر كليًا الدولة إلى مجتمع، أي إنها لا ترى في الدولة سوى وظائف المجتمع. وتختصر المجتمع إلى العلاقات بين البشر. وعلى هذا النحو تختفي كل أسس أنطولوجية للدولة والمجتمع. ولا يبقى سوى المصالح، سوى إرادة الإنسان وعقله مبررًا وحيدًا للدولة والمجتمع. وليس من قوى أخرى أكثر رفعة وغموضًا تنشط في الدولة والمجتمع. إن مثل هذه المساواة للدولة بالمجتمع، ومثل هذه العقلنة للمجتمع وترتيب شؤونه بواسطة القوى البشرية بمفردها، تمثلان خطرًا كبيرًا بالنسبة إلى الشخصية البشرية. لأن الشخصية البشرية، بكل تنوعها وأصالتها، محمية ببدايات المجتمع اللاعقلانية. والدولة المستندة إلى اللاعقلانية هي أكثر احترامًا للشخصية الإنسانية وأقل تطاولًا عليها من المجتمع الكلي العقلانية. لكن العنصر اللاعقلاني في المجتمع البشري عصي على الاقتلاع، ويطيح مزاعم ديمقراطيتكم العقلانية كلها. لن تتمكنوا من السيطرة على هذا العنصر اللاعقلاني. والعقلنة التامة للمجتمع البشري كان من شأنها أن تكون انتصارًا للكمية على النوعية.

وتنبغي مباركة تلك البداية «المظلمة» في حياة المجتمعات البشرية التي تجعل العقلنة الكلية لهذه المجتمعات مستحيلة، والتي هي (العقلنة الكلية) على هذا القدر من الخطورة بالنسبة إلى الشخصية الإنسانية. وليس في وسع أي ديمقراطية أن تعبر عن حالات الشعب المختلفة نوعيًا. إنها لكثيرة جدًا القوى الفردية التي تؤثر في الحياة العامة. وهذا يطيح بكل هياكلكم الديمقراطية.

إن الديمقراطية الواضحة، المجردة، الاستبدادية، هي الطغيان الأشد هولًا، وهي تقتل الإنسان. إن سلطة الجميع غير المحدودة هي أقبح من سلطة الشخص الواحد الاستبدادية. وانتصار مثل هذه الديمقراطية ليس ممكنًا سوى للحظات فحسب، لكن هذه اللحظات كانت دائمًا الاعتداء الأشد هولًا على حرية الإنسان. في هذه اللحظات، كانت تنهض الظلمة من الأسفل وتغمر المجتمع، لكنها قصيرة حياة هذا الاستبداد الديمقراطي، فهي تقع على حد نصل تنزلق عنه. وتطيحها قوى لم تلحظها الأيديولوجيا الديمقراطية. وهذا من شأنه أن يُفرح البشرية. ولو كانت الديمقراطية الكلية ممكنة، لكان من شأن البشرية أن تموت، أن تغرق في الظلمة. إن فكرة سلطة الشعب عينها التي لا يحدها شيء ولا تخضع لما هو على رفعة، ليس فيها أي حقيقة، ليس فيها أي حقيقة عن الإنسان أيضًا، عن الأنموذج الإنساني، عن طبيعته الروحية اللامتناهية التي ليس من المقبول أي تطاول عليها. ليست حقوق الإنسان المقدسة موجودة في الديمقراطية ولا تنتج منها. وفي وسع الشعب ذي السيادة أن ينتزع من الإنسان كل ما يرغب فيه، كل ما يجده ضروريًا لخيره. إن استبداد الشعب هو الاستبداد الأشد هولًا، لأن الإنسان في ظله يرتبط بالكمية المباشرة، بغرائز حشود الدهماء. لا يسع إرادة الشخص المنفرد أو إرادة الأشخاص الكثر أن تذهب بعيدًا في مطالبها، كما تفعل إرادة الجميع. يمكن المرء أن يحمي من إرادة المستبد الفرد جزءًا من وجوده، لكن حمايته من إرادة الشعب المستبد أمر أكثر صعوبة بما لا يقاس. الديمقراطية، في التعبير الأقصى عن ذاتها، لا تريد السماح بحقوق الحياة الخاصة، وهي تميل إلى تحويل الحياة الإنسانية كلها إلى حياة عامة. إنه لمن الصعب، بل من الصعب جدًا أن يحتمي المرء من الديمقراطية التي لا حدود لها في انتشارها ومطالبها، فهي تجتاح مساكننا وتتغلغل في أفكارنا ومشاعرنا. إنها تريد أن تجعل الإنسان كائنًا اجتماعيًا لا غير. إن نمط حياة المجتمعات الديمقراطية يفضي بكل شيء فيها إلى الرتابة. هذا النمط لا يطيق التأمل والمتأملين، ولا يترك مكانًا وزمانًا للتأمل، فهو معاد لفائض الإبداع لدى القلائل. قلتم كثيرًا في استبداد المجتمعات القديمة وطغيانها ووعدتم بإقامة مجتمع الأحرار. لكن هذا كله أوهام وخداعُ نفسٍ. في ظل أقسى أشكال الاستبداد في الماضي، كان يبزغ فجر شخصيات، ويتألق نجم عباقرة وقديسين، وكانت ممكنة حياة التأمل والحياة الحميمة، كما كانت تقوم نهضات إبداعية عظيمة. وكان كونستانتين ليونتييف محقًا، حين قال: «في ظل الأتراك كان هناك شهداء في سبيل الإيمان، وفي ظل الدستور البلجيكي بالكاد سوف يكون هناك رهبان!». الديمقراطية ليست مواتية لظهور الشخصيات القوية المشرقة الخلاقة، فهي تخلق بيئة اجتماعية مساواتية لإفراغ الشخصية كلية وإخضاعها لها. إن رأيكم الاجتماعي الديمقراطي هو الاستبداد الأشد من أي استبداد آخر؛ إذ يضطهد النفس الإنسانية، ويقلم الأجنحة. كان استبداد محاكم التفتيش القديم يترك أفقًا أرحب للفرادة الإنسانية، ويأخذها في الحسبان أكثر. إن أسوأ أنواع التعصب وعدم التسامح قد يكون، مع ذلك، تعبيرًا عن احترام الفرادة الإنسانية واحترام حياة الإنسان الروحية. فالكنيسة، حين تنفي المهرطق وتلعنه، فهي تعترف بالقيمة المطلقة للنفس البشرية، وتلتفت لمصيرها الفردي الذي

لا يتكرر. أما احتقار الديمقراطية للنفس البشرية وعدم الالتفات إليها وإلى حياتها الفردية ومصيرها، فهو، حقًا، أمر مخيف وقاتل. إن مملكة ديمقراطيتكم المادية عديمة الروح هي مملكة التنين الأكثر رعبًا ذي المليون رأس. ومن المرعب للإنسان الوقوع في هاوية الكمية هذه، في المجتمع الجشع الرتيب هذا. حين يضطهدون الشخصية ويحجمونها، ويعرّضونها حتى للتعذيب، إنما يعترفون بها شخصية، من حيث المبدأ، ويبقى هذا الأمر أقل سوءًا مما يفعلون، حين ينكرون مبدأ وجودها عينه ويستبدلونها ببدايات رتيبة لا شخصية لها. ليس قليلًا ما قامت به المملكة الاستبدادية الروسية القديمة من اضطهاد للشخصية الإنسانية، بل وتعذيبها حتى، لكن، بما أنها كانت مملكة مسيحية أرثوذكسية، كانت تعترف بالشخصية الإنسانية، وبقيمة النفس الإنسانية. وروحيًا، ليس الاستبداد على هذه الدرجة من الفظاعة. كان المستبدون القدماء يملكون أساسًا دينيًا، لذلك كانوا يعترفون بالحياة الروحية للإنسان، ولم ينظروا إلى الإنسان كذرة اجتماعية. استبدادكم الديمقراطي الجديد لا يرغب في امتلاك أساس ديني، وهو يتجاهل كليًا حياة الإنسان الروحية، ولا يُقَوّم الإنسان إلا من وجهة نظر المنفعة الاجتماعية. هذا الاستبداد ليس على علمٍ بسر مولد الإنسان، ولا بسر حياته، ولا بسر مماته. الإنسان يصبح عبدًا للمصلحة الاجتماعية، لغالبية الأصوات، للرأي العام، عبدًا لمصالحه الخاصة.

إن ديمقراطيتكم هي على عداء عميق لروح الحرية، وكان يجدر بكم الكف عن التغني بالتحرر من الاستبداد والطغيان الذي تزعمون أن حركاتكم الديمقراطية ستأتي به. الحرية أرستقراطية وليست ديمقراطية، وهي تتوجه إلى الشخصية وليس إلى الحشود. أما حريتكم الاجتماعية فلعلها هي الاستبداد الأسوأ، وفي وسعها أن تتحول إلى استعباد للجميع. وديمقراطيتكم على عداء شديد لروح الإبداع. وهي ليست فحسب لا تشرع الأبواب أمام الإبداع، بل تُضَيق جميع السبل وتُطبق على جميع الاندفاعات الإبداعية. إن العصور الأكثر إبداعيةً في حياة البشرية النوعية هي عصور أرستقراطية وليست ديمقراطية. إن ديمقراطيتكم هي على عداوة عميقة مع الثقافة العليا. وكان بودها لو تخفض من مستوى الثقافة، وتحد من العنصر النوعي في الثقافة في سبيل تعزيز العنصر الكمي. الحركات الديمقراطية يحركها الحسد تجاه الثقافة العليا، وكراهية النوعيات العائدة للآخرين. ويترك هذا الأمر بصمة الوضاعة على نمط الثقافة الديمقراطية. لقد بدأ عصر ديمقراطيتكم بإنكار العظماء والعباقرة والقديسين. وهو يصارع ضد امتيازات الشخصيات الإبداعية. الشغف المساواتي يعكر إدراككم، يشوه قيمة إرادتكم وأفكاركم وأحاسيسكم، ويعرقل الارتفاع إلى الأعلى. الشغف المساواتي يفضي دومًا إلى خفض مستوى الشخصية والثقافة في الزمن الديمقراطي. لا يتمكن الممتلئون بالشغف الديمقراطي من أن يطرحوا على أنفسهم سوى المهمات السخيفة والمسَخِفة في الثقافة الروحية. إن مثاليات الديمقراطية هي مثاليات برجوازية صغيرة. إن تقاليد الديمقراطية هي تقاليد برجوازية صغيرة. تنصَبُ إرادة الديمقراطية على تراجع الجنس البشري. وتود هذه الإرادة، ليس لو تقضي على السلالات العرقية فحسب، بل أن تبيد جميع الفروقات النوعية في المجتمع، جميع النتائج النوعية للانتقاء العرقي. هذا الأمر متعذر البلوغ. قيم الشعب النوعية لا يمكن محوها وإبادتها نهائيًا. لكن الإرادة تدفع الديمقراطية نحو ذلك. كان المجتمع الديمقراطي يود لو يكون مجتمعًا مبسطًا ومختلطًا. كان من شأن ذلك أن يكون الطغيان الأشد مرارة.

ليس من خضوع أكثر مرارة وإذلالًا من الخضوع للإرادة البشرية وتعسف الأقران. يمكن إخضاع النفس لإرادة عليا، لحقيقة عليا، لبدايات عليا، يمكن إنكار الذات باسم هذه البدايات. غير أن كرامة الطبيعة الإنسانية الإلهية، وعزة النفس البشرية النبيلة تنتفض ضد أن يُخضِع المرء حياته كلها لمن هم على قدم المساواة من البشر أو أدنى. وإخضاع النفس للكنيسة، للدولة، للقومية، للحقائق العليا والقيم، أمر نبيل ومفَضل. لكن، لماذا علي أن أخضع لمصالح حشد بشري وغرائزه وشهواته؟ روحيًا، لا يمكن إجباري على هذا الأمر. ليس الأمر ممكنًا سوى عبر الإكراه الفيزيائي. الديمقراطية تريد إكراهي على الخضوع للبشر ولما هو بشري حصريًا. الخضوع للمرتبة التسلسلية قد يكون تبجيلًا للبداية العليا الخارقة فيه. فيه رمزية مقدسة. لا يُكَرم الإنسان في الكاهن والقيصر، سواء كان إنسانًا مساويًا أم أدنى، بل يُكَرم النظام التراتبي للفضاء الاجتماعي. الديمقراطية تدمر كل رمزية مقدسة. من أجل كرامة الإنسان ومن أجل حرية الإنسان ينبغي الحد من الديمقراطية ووصلها ببدايات أخرى وإخضاعها لبدايات مختلفة. سلطة الشعب هي سلطة الإنسان. وسلطة الإنسان لا تعرف حدودها وتعتدي على حرية الإنسان وحقوقه. حرية الإنسان وحقوقه لا تضمنها سوى البدايات ذات الطبيعة الخارقة فوق الإنسانية، المتعالية عن الاستبداد البشري. الحرية القصوى يتم بلوغها بتوليفة من مبادئ عدة. لأن كل استبداد، خلا استبداد الله، هو خطر بالنسبة إلى الإنسان. من المهم بالنسبة إلى حرية الإنسان الحقيقية، وبالنسبة إلى كرامته وضمان حقوقه، أن تكون إرادة الشعب مشدودة إلى الخير وأن يتملكها الحق والحقيقة. إن تحرير الإنسان والشعب هو تحرير إرادة الإنسان والشعب من الشر، وإخضاع هذه الإرادة للحقيقة الإلهية. وإذا كانت إرادة الشعب خاضعةً لعواصف الشر، فهي إرادة مستعبَدة ومستعبِدة. وكيف أمكنكم أنتم أن تصلوا إلى الإقرار بأن إرادة الشعب هي بذاتها الخير الأعلى، وأن تبحثوا فيها عن مصدر التحرير؟ أنتم وقعتم في خطيئة عبادة الإنسان ومشيتم على درب عبادة الإنسان. ومن أجل أن يحرر الإنسان نفسه والآخرين، عليه الإقرار بإرادة عليا، أعلى منه، وعليه البحث عنها وتحقيقها في حياة المجتمع. إن مبدأ سلطة الشعب هو بذاته مبدأ كافر. يمكن الإقرار بالديمقراطية كواحدة من البدايات الثانوية في الحياة الاجتماعية، لكن ليس من الجائز، دينيًا، الإقرار بها البداية العليا. وليس بين المسيحية والديمقراطية ما هو مشترك، ولا يسعها تقديم التبرير للديمقراطية. هذه المحاولة للتقريب بين المسيحية والديمقراطية هي كذبة زمننا الكبرى، هي استبدال مثير للاشمئزاز. المسيحية تراتبية. إن الوحي المسيحي حول القيمة اللانهائية للنفس البشرية، وعن تساوي جميع النفوس البشرية أمام الله في القيمة، ليس وحيًا ديمقراطيًا، وليست مساواة ديمقراطية. الأخوة المسيحية ليست مساواة ديمقراطية. إن كل ما هو قيمي نوعي هو في المسيحية، كل ما هو فردي لا يتكرر، كل ما هو فريد، كل ما هو مرتبط بالشخصية، لهذا هي تراتبية. هذا هو ما لم تتمكنوا يومًا من فهمه: علاقة الشخصية بالتراتبية. أنتم تعتقدون أن حال المجتمع المساواتية التبسيطية المختلِطة، هي حال مواتية للشخصية، وأن البداية التراتبية معادية للشخصية. وهذا هو كذبكم الأكبر، ضحالتكم الروحية. إن وجود الشخصية عينه يفترض النظام التراتبي للكون، والتمايز القيمي النوعي والمسافة الفاصلة، يفترض البيئة الاجتماعية والعالمية التي لا تمثل هوة لا شكل لها من المساواة الشاملة وخلط جميع الأمور بعضها ببعض.

***

كان ينبغي أن تمر الشعوب عبر تجربة الديمقراطية، كان عليها أن تختبر الأداء الذاتي للديمقراطية. وليس من أجل ترتيب أمورها ديمقراطيًا إلى أبد الآبدين، بل لمعرفة عبثية الادعاءات الديمقراطية وفراغها. الديمقراطية هي وضع انتقالي. وثمة زيف في منشأ الديمقراطية عينه. وتنشأ الديمقراطيات عبر الديماغوجيا والتمسح الوضيع بمصالح الجماهير وغرائزها. ومن هذا المنبع النجس لا يمكن أن تولد أي حقيقة اجتماعية. إن عمل الهواة وتأكيد الكمية البشرية للذات هما في أساس الديمقراطية، ولم يتمكنا من أن يعملا لمصلحة التشكلات الاجتماعية التي نشأت في هذا الجو النفسي. أصبحت الديمقراطية أداة للمصالح والأهواء البشرية، ومسرحًا للصراع على السلطة والهيمنة. وعززت الديمقراطية شهوة الخطيئة في الحياة. تفهم الديمقراطية السلطة كحق، وليس كواجب. وكل فكرة عليا تموت في المجتمعات الديمقراطية. سيطرة الديمقراطية تعني سيطرة مصالح المجموعات الاجتماعية المختلفة وصراعها من أجل السلطة. وهذا هو مصدر انحطاط الديمقراطية، الدودة، التي تقوّض المجتمعات الديمقراطية من الداخل. ثمة دجل روحي في أساس هذه المجتمعات. وتوضح تجربة الديمقراطية أن الإنسان لا يستطيع ترتيب أموره بقواه الذاتية، ولا يستطيع عقلنة الحياة الاجتماعية بعقله الصغير. إن خيانة الشرائح القيادية، تراتبيًا، في الجسم الاجتماعي لرسالتها، دفعت الشعوب إلى طريق التجربة الديمقراطية. وتبين أن ليس من قدرة وإمكان لترميم البناء العضوي القديم. دُمرت الحياة العضوية القديمة في الثورات الديمقراطية، وليس التعطش للعودة إليها سوى حلم رومانسي. والشعوب لا يمكن إلزامها بالنظام الملكي الأرستقراطي القديم. الشعوب تمر عبر التشقق والانقسام، عبر موت العضوية القديمة. لكنها لا تخلق حقيقة جديدة وجمالًا جديدًا، بل هي تسقط في الزيف والقباحة. وهي عليها أن تختبر كثيرًا، وأن تلفظ كثيرًا، وأن تمر بكثير من المعاناة، قبل أن تبلغ العضوية الجديدة، وقبل أن تجمع نفسها باسم الفكرة العليا. ويبقى السؤال المُعَذِب حول ما إذا كانت الشعوب تستطيع الوصول على هذه الأرض إلى المجتمع الصالح والرائع؟ من الصعب تصديق الأمر، والمسيحية لا تعلمنا إياه. تستمر البدايات الكونية في الوجود بالمجتمع البشري، وهي تمتلك أساسًا أنطولوجيًا عصيًا على الاستئصال يرسو في الواقع الإلهي عينه. لكنها معقدة جدًا علاقة هذه الأسس الأنطولوجية بظاهرات المجتمع. خلف المجتمع المرئي الظاهر ينشط مجتمع داخلي خفي. وهذا الأخير هو الذي ينقذ العالم من التحلل، ويحول دون عودته إلى الفوضى. ثمة قوى خفية تنشط في المجتمعات البشرية لا تأخذها في الحسبان النظريات العقلانية كلها حول المجتمع.

لا يمكن أن تتوافر مخارج بحت سياسية واجتماعية من الأزمة العميقة للديمقراطية. ويسود شعور في العالم الأوروبي بأن جميع الأشكال السياسية قد أصابها وهن قاتل. وهم يكررون من جديد البدايات القديمة المعروفة ويولفون بينها. الإبداع السياسي يجف. ومن الصعب ابتكار ما هو جديد. وحان الوقت منذ زمن بعيد بالنسبة إليكم أنتم، مَن على هذا القدر من الإيمان بالسياسة والمجتمع الظاهري، أن تتعمقوا أكثر، أن تتفكروا أكثر بوقف تشتيت الطاقة في الخارج وتوجيهها نحو الداخل. أزمة الديمقراطية ليست أزمة سياسية، بل هي أزمة روحية في المقام الأول. ويتكشف في الأزمة هذه زيف الأسس الدينية للديمقراطية. ومحاولات تقديم تفسير ثيوقراطي للديمقراطية وتعليله، هي زيف وإغواء أكبر من التفسير والتبرير الثيوقراطي للقيصرية. أنا لست من أنصار فكرة الأوتقراطية البيزنطية - الثيوقراطية ولا أؤمن بإمكان العودة إليها. غير أنه يوجد في هذه

الفكرة القديمة عمق أكثر، وجمال ونبل أكثر مما في فكرة الديمقراطية الثيوقراطية. إن بَرَكَة الله لا يمكن أن تحل بالكمية البشرية، بالحشد البشري. البَرَكَة هي اصطفاء. والديمقراطية الثيوقراطية هي إنكار للاصطفاء. البشرية كفرت بالبدايات الواحدة المنقذة الحياة الاجتماعية الطامحة إلى السيطرة الحصرية. إن معبود سلطة الشعب يطيحون به كما يطيحون بمعبود السلطة الأحادية. تعقدت مهمات المجتمع إلى ما لا نهاية. ولا يبقى في الديمقراطية سوى الحقيقة الأخلاقية للبساطة وحدها، المقابلة لعلاقة النبلاء بالشعب. إن علاقة أخوة الإنسان للإنسان ينبغي أن تكون الأساس الروحي لكل مجتمع لائق. سبق للمسيحية أن وضعت، داخليًا، حدًا لطموحات جميع بدايات المجتمع بالهيمنة والتفوق. فالحلم الثيوقراطي للعالم المسيحي لا يجد التعبير الوافي له في أي بداية اجتماعية منفردة. وعلى الوعي المسيحي أن يستنتج، في نهاية الأمر، أن ليس في المجتمع الدنيوي الظاهر بداية مستقلة واحدة يمكن إقامة مملكة الحقيقة الإلهية عليها. البداية العليا يجب البحث عنها في أعماق النفس. الديمقراطية يجب أن تؤطرها الحياة الروحية، بالدرجة الأولى، وتُخضِعُها. وهذا يطرح مهمة التربية الداخلية للديمقراطية. ويقر بضرورة هذه المهمة أفضل المفكرين والعاملين السياسيين. لكن، كم يبدون عاجزين عن حلها! فالديمقراطية المنتصرة لا تخضع لتربيةٍ وتثقيف، وتبقى على سطح الحياة وترفض الغوص عميقًا. وليس من شيء غير رعب الحياة، غير موت جميع الآمال، في وسعه أن يجبر الديمقراطية المعتدة بذاتها، كما الملكية والأرستقراطية المعتدة بذاتها أيضًا، على التعمق، على البحث عن مخرج في الحياة الروحية. هكذا، تتركز جميع الأزمات السياسية في الأزمة الدينية. لقد أُخِذَت الديمقراطية كثيرًا بمنافع الحياة الدنيوية. وكفت عن الإيمان بأن للمجتمع البشري هدفًا فوق دنيوي أيضًا. إن الحركة الديمقراطية العالمية التي تثير القلق الديني لدى الأشخاص العميقين والمرهفين، تفضي إلى تشاؤم مرير. لكن التشاؤم هذا ينطوي على بداية سليمة. فهو يُلفِت الإنسان إلى الحياة غير الدنيوية. إن تجربة الإنسان مع الديمقراطية يجب أن توجهه نحو الله. وفي هذا تكمن أهمية الديمقراطية.

(43) هيئات إدارة محلية نصت عليها إصلاحات عام 1864، وأُلغيت في عام 1918 على يد السلطة البلشفية. (المترجم)

الرسالة التاسعة

في الاشتراكية

الاشتراكية ليست من اختراع زمننا. الاشتراكية هي واحدة من البدايات الأزلية التي سبق أن نشطت في العالم القديم. وفي وسعكم أن تقرأوا كثيرًا لدى بولمان[44] (Pöhlman) مما هو مفيد على هذا الصعيد في كتابه الرائع **تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة**. سوف تعرفون أنه كان يحصل آنذاك أيضًا صراع طبقات شرس، وكانت تقوم ثورات للجماهير، وكان هناك طمع وجشع طبقات مالكة، وحسد وحب انتقام طبقات ليست مالكة، ونشأت حينذاك أيضًا طوباويات اجتماعية. وبين بولمان ومايير[45] (Eduard Meyer) وسواهما، أن الاقتصاد في اليونان كان أكثر تطورًا وتعقيدًا مما كان شائعًا في السابق، وكانت هناك رأسمالية حملت معها التناقضات كلها. كان في جميع الأزمنة صراع طبقات، وكان يتصارع مَن يملك ومَن لا يملك، وكان هناك فقر وعوَز، وكانت مسألة الخبز اليومي تعذب الإنسان. مصادر المسألة الاجتماعية موجودة في لعنة الكتاب المقدس القديمة: «سوف تكسبون خبزكم بعرق جبينكم». والكتاب المقدس يعرف هذه المادية الاقتصادية. لكن البداية الاشتراكية أخذت تظهر في القرن التاسع عشر في أقصى شكل متطرف. وأخذت تتحول أكثر فأكثر إلى أسلوب المرحلة الطاغي والمُقَرر. أصبحت نزعة عصرنا الاقتصادية (economisme) حاضرة في كل مكان ومقررة في كل شيء. لم يعد من مهرب منها في كل مكان. ومادية ماركس الاقتصادية لم تكن اختراعًا نظريًا، بل كانت تعكس واقعًا معينًا. وحدث شيء ما في الوقع نفسه استدعى نظرية ماركس كردة فعل للفكر. الاشتراكية المعاصرة لها طبيعة ردة الفعل (réflexe)، وليس من بداية خلاقة فيها. الاشتراكية هي من لحم المجتمع البرجوازي - الرأسمالي ودمه، هي ظاهرة داخل هذا المجتمع. وتبقى روحيًا في هذه المساحة. الاشتراكية برجوازية حتى أعماقها، ولا ترتفع أبدًا فوق الشعور البرجوازي بالحياة والمثل العليا البرجوازية في الحياة. هي لا تريد سوى برجوازية عامة متساوية بالنسبة إلى الجميع، برجوازية ثابتة إلى الأبد، برجوازية معقلنة منظمة بصورة نهائية، برجوازية معافاة من مرضها الداخلي الذي يقوّضها، برجوازية تتخطى مخلفات البداية اللاعقلانية فيها. ربطت الاشتراكية مصيرها بالطبقة التي خلقها النظام «البرجوازي»، بالبروليتاريا، وليدة الرأسمالية. فقد توهم أيديولوجيو الاشتراكية، عبيد الحاجة الذين لا يعرفون الحرية الروحية، أن البروليتاريا المكونة من ربيبي الرأسمالية في وسعها أن تكون الطبقة - المسيح المخلص. أضفيتم على هذه الطبقة، كما على شعب الله المختار، جميع الفضائل والبطولات وقدمتموها على أنها الجنس المتفوق وخالق الحياة الجديدة. إن وضع الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي وضع محزن، يستدعي التعاطف والمساعدة. لكن، ليست في النمط الروحي لهذه الطبقة سمات رفيعة على نحو خاص. إنها طبقة تُذِلها الحاجة، ويسممها الحسد والحقد، وهي محرومة وفرة الإبداع. هل يمكن أن يولد من هذه السمات الروحية نمط إنساني رفيع ونمط حياة اجتماعية رفيعة؟ إن النمط البروليتاري هو، في الأغلب، النمط الإنساني الأدنى المحروم من السمات النبيلة، سمات الأحرار روحيًا. هذه السمات النبيلة، سمات الأحرار روحيًا هذه، قد تكون لدى أبسط العمال والفلاحين. لكن، من أجل ذلك ينبغي ألا يكون لديه وعي «بروليتاري» ونفسية «بروليتارية». أنتم تريدون إقامة مملكتكم الجديدة على الوضاعة، على عبودية الروح والشر. إن أنموذج الطبقة - المسيح المخلص خاصتكم تفضح طبيعتكم الروحية.

إن «برجوازية» تلك الحقبة التاريخية ذات النمط الرأسمالي والاشتراكي و«بروليتاريتها» هما خيانة للأسس الروحية للحياة وخروج عليها. ارتكبت الأولى هذه الخيانة وخرجت على مقدسات «البرجوازية»، ومن ثم تبعتها «البروليتاريا». تعلمت «البروليتاريا» من «البرجوازية» الإلحاد والمادية، واكتسبت منها روح التنوير السطحي، وتشربت منها روح النزعة الاقتصادية، ودفعت

(البرجوازية) بها إلى طريق صراع المصالح الطبقية. أنا أعرف جيدًا أن «البرجوازية» و«البروليتاريا» تمثلان تجريدين لا يتفقان مع الواقع الحي ولم يغطياه قط. أنتم اخترعتم «البرجوازية» و«البروليتاريا»، وأحييتم هذه الأرواح المجردة وأضفيتم عليهما قوة سحرية تقريبًا، بعد أن أطلقتم عليهما تسميتهما. للمتخيلات (fiction) في حياة المجتمعات البشرية أهميةً ليست أقل من أهمية الواقع. وسمم متخيل «البرجوازية» و«البروليتاريا» حياتنا. ويتعين أخذ هذين المتخيلين في الحسبان، فهما يمتلكان حيزًا من الواقع في نفسية الإنسان والمجتمع؛ وإذ لا نعطي متخيلي «البرجوازية» و«البروليتاريا» معنًى أنطولوجيًا شاملًا، يجدر بنا الإقرار بأن الكثير من خطايا «البروليتاريا» وعيوبها أتت بالوراثة من «البرجوازية». ليس في «البروليتاريا» خاصتنا ما هو أصيل، بل كل ما لديها مستعار. أما الطبقات «البرجوازية» المالكة فتمثل واقعًا شديد التعقيد، حيث فيها الجيد والسيئ، الرفيع والوضيع، خليط من النور والظلمة، كما في سائر البشرية. ولعله من الكفر والجريمة وصم هذه الطبقات بالعار وعزلها، وإنكار صورة الإنسان والله فيها. إنها جريمتكم التي لا تليق بمن تعمد ومن آمن بأخوة جميع الناس في المسيح. لكن، في مملكة مقولتي «البرجوازية» و«البروليتاريا» التجريديتين حصلت «البروليتاريا» من «البرجوازية» على ما هو عيوبها، كما أتصور أنا، وما هو فضائلها، كما تتصورون أنتم. وماركس يقول إن «البروليتاريا» هي، في الحقيقة، وليدة «البرجوازية»، وإن الاشتراكية هي انعكاس للواقع الاقتصادي «البرجوازي»، ردة فعل دفاعية على هذا الواقع. إن طبيعة الاشتراكية هي طبيعة طبقية تحمل سمة ردة الفعل، وليس فيها اختراع خلاق، ليس فيها تحليق. إن الاشتراكية الأكثر ثورية هي رهينة خانعة للواقع الاقتصادي، مقيدة بالهموم الدنيوية، أفرزتها الحاجة. الاشتراكية وليدة الحاجة المريرة وليس الحرية.

هاكم ما ينبغي تذكيركم به دومًا أنتم، المهجوسون أبدًا بالروح الجديدة للاشتراكية البروليتارية. الاشتراكية صنعتها البرجوازية، صنعتها الشريحة الثقافية العليا. وهي دخلت العالم كفكرة ولدت في الطبقات البرجوازية التي كان فكرها يعمل بكل إخلاص لحل التناقضات الاجتماعية والتغلب على الشرور والمعضلات الاجتماعية. هكذا، ظهرت اشتراكية سان سيمون وفورييه وأوين، وهكذا ظهرت في القديم اشتراكية أفلاطون. حتى صاحباكم ماركس ولاسال كانا «برجوازيين» وليسا بروليتاريين. في الطبقات البرجوازية فحسب يمكن الاشتراكية أن تكون حركة نبيلة ونزيهة للروح الإنسانية، أن تكون فكرة. الاشتراكية في الطبقات البروليتارية تصبح مصلحة، لا فكرة، وتكتسب طابعًا ماديًا على نحو ميؤوس منه، ويغدو من غير الممكن أن تكون فيها تضحية. في وسع البرجوازية فحسب أن تجعل الاشتراكية نبيلة. وليس من نبل سوى في الاشتراكية من الطراز الأفلاطوني، سوى في الاشتراكية الأرستقراطية. النبل هو في اشتراكية روسكين (Ruskin) التراتبية. الاشتراكية البروليتارية ليست نبيلة، وهي وضيعة وانتهازية من أسسها الروحية الأولى. وهي تخفض من مرتبة النمط البشري، الجنس البشري. الاشتراكية البروليتارية يحركها الغضب والحسد ونزعة الثأر التي تتحكم بحركاتكم الاشتراكية الجماهيرية منذ قديم الزمان وحتى يومنا هذا. إن نفسيات الجماهير الثائرة والشرائح الدنيا المنتفضة كانت هي عينها في سائر الأزمنة. وكانت هذه النفسيات قبيحة دومًا وبشعة. والقسط الأكبر من المسؤولية عن هذه النفسية المَرَضية القبيحة تتحمله الطبقات العليا التي لم تقم بمهماتها، وكانت الأولى التي خانت المقدس والحقيقة العليا، لكن هذا لا يغير من تقويم النفسية «البروليتارية». فالشعور المسيحي بالإثم لدى كل إنسان، يحجبه في هذه النفسية الوعي غير المسيحي للغضب البروليتاري. إنه لبؤس عظيم أن يشعر المرء

بنفسه بروليتاريًا، إنه ارتداد مَرَضي، إنه قَطع مع الوطن والآباء، لا حال رفيعة يمكن أن يولد منها نمط حياة رفيع. وقد لا يشعر العامل بنفسه بروليتاريًا. وخطيئتهم لعظيمة أولئك الذين يدفعونه إلى طريق الشعور والوعي الذاتي البروليتاري. إن قبح النفسية البروليتارية والاشتراكية البروليتارية التي تولد منها، يُظهر بوضوح حقيقة التراتبية، ونبل النمط الروحي وجماله الذي يحيا في التراتبية العضوية. النفسية البرجوازية هي الوجه الآخر للنفسية البروليتارية، فهي ليست تراتبية أيضًا، كما أنها سقطت من النظام العضوي وليست نبيلة. إن الشعور والوعي الذاتي «البرجوازي» بكونه مالكًا، هو أيضًا حال سيئة خاطئة كما الشعور والوعي الذاتي البروليتاري بكونه غير مالك. «البرجوازي» و«البروليتاري» توأمان. هذان الأنموذجان يخلق بعضهما بعضًا ويدعمه. إن عربدة الكَسب في المجتمع الرأسمالي كان ينبغي أن يخلق الاشتراكية. في الاشتراكية حقيقتها السلبية أيضًا، وهي حقيقة أكبر مما في الديمقراطية.

المسألة الاجتماعية تولدها أسباب داخلية لا خارجية. وليس من الممكن معالجتها بوسائل مادية خارجية. تُطرح المسألة الاجتماعية وتُعالج في البيئة السيكولوجية، وترتكز معالجتها على هذه الدوافع الروحية العاطفية أو تلك. وتعاون الطبقات فحسب يولد جوًا دافئًا سليمًا في معالجة المسألة الاجتماعية. وحين لا تتم معالجتها سوى بحركات من الأسفل فحسب، فإن هذه المعالجة تنطوي على دوافع شريرة غير سليمة تنشط فيها. إن الحركة الاجتماعية التي تقوم على مبدأ الصراع الطبقي لا غير، لا تزرع الغرائز العليا في الطبيعة البشرية، بل الغرائز الدنيا. وهي ليست مدرسة في نكران الذات، بل مدرسة في الجشع، ليست مدرسة في الحب، بل مدرسة في الكراهية. إن المعالجات الطبقية الصرف الآتية من الأسفل للمسألة الاجتماعية، تمزق وحدة الجنس البشري وتقسمه عرقين متخاصمين. هذه الحركة تجعل النمط النفسي للإنسان أكثر تدنيًا. وهي تنكر النظام الكوني، أي التراتبي للمجتمع. إن هذه المعالجة الثورية للمسألة الاجتماعية تفترض الانفصال عن الأسس الروحية للحياة وإنكارها واحتقارها. إن الاشتراكية الطبقية الثورية تفكر وتعمل كأن ليس من وجود للروح الإنسانية والحياة الروحية، وكأن ليس من وجود لما هو داخلي، بل خارجي فحسب لا غير. إنها تجريد مخيف عن الحياة الروحية، عن المضمون الحقيقي للحياة.

يكف الإنسان عن الوجود في هذه الاشتراكية، ولا تعمل فيها سوى المقولات الاقتصادية لا غير. أما الحركة من الأعلى إلى الأسفل في معالجة المسألة الاجتماعية، فهي تراتبية بمبدئها، تعترف بوجود الإنسان وحياته الروحية، وتتوجه إلى الغرائز النبيلة غير الأنانية في الطبيعة الإنسانية. مثل هذه الحركة تعترف بأن من الضروري إعادة تكوين الإنسان والمجتمع الإنساني روحيًا، وأن المسألة الاجتماعية لا تعالج بالوسائل المادية وحدها، وأن الجنس البشري هو جنس إلهي واحد يمتلك بنيانًا تراتبيًا عضويًا. الحركة الاشتراكية الإنكليزية هي نمط أرفع من الحركة الاشتراكية الألمانية أو الفرنسية. فالصراع الطبقي مخفف فيها، ويتحقق فيها تعاون بين الطبقات، وتتوحد فيها الواقعية العملية مع النبض المثالي. وكان كارلايل وروسكين والاشتراكيون المسيحيون ملهمي هذه الحركة. بعد حفلات عربدة الكسب الرأسمالي، بعد المانشيسترية، بدأت الطبقات المالكة المسيطرة تستوعب مهمتها، وبدأت تشارك، بالجزء الأفضل منها، في الإصلاح الاجتماعي للمجتمع. وتم انتزاع مخالب الاشتراكية الثورية. ويمكن أن تُربط الاشتراكية جزئيًا بالمُحَافَظة.

***

إن المقارنة بين الاشتراكية والمسيحية وتقريبهما بعضهما من بعض كانا دومًا يبدوان لي كفرًا. لا يؤكد التشابه بين المسيحية والاشتراكية سوى أولئك الذين يبقون على السطح ولا يغوصون إلى العمق. في العمق، يتكشف التناقض والتعارض الكامل بين المسيحية والاشتراكية، بين ديانة الخبز السماوي والخبز الدنيوي. ثمة «اشتراكية مسيحية»، وهي تمثل ظاهرة بريئة تستحق التعاطف في كثير من الأمور. أنا شخصيًا على استعداد لأن أعترف بأنني «اشتراكي مسيحي». لكن «الاشتراكية المسيحية» تملك القليل جدًا مما هو مشترك مع الاشتراكية، أو أنها لا تملك شيئًا تقريبًا. وهي لا تُسمى كذلك سوى لأسباب تكتيكية، بل هي ظهرت للنضال ضد الاشتراكية، ومثلت ردة فعل الكاثوليكية على الاشتراكية وبَشرت بالإصلاحات الاجتماعية على أساس مسيحي. كان هناك حركات «اشتراكية» كثيرة على أساس ديني في تاريخ المسيحية الماضي، لكن هذه الحركات كانت عادة حركات هرطوقية وطائفية مناهضة للكنيسة. كانت جميع هذه التيارات الدينية - الاجتماعية مشبعة بالأفكار الأبوكاليبتية وأفكار يوم القيامة، وكانوا ينتظرون التحقق الفوري لمملكة المسيح الألفية الملموسة على الأرض ويحاولون تحقيقها بالقوة. وغاب عن بال جميع هذه التيارات المسيحية - الاشتراكية أن مملكة الرب تأتي بشكل غير ملحوظ، وأن مملكة المسيح ليست من هذا العالم. كانت حقبة الإصلاح غنية بمثل هذه الحركات التي كانت تخلط المسيحية بالاشتراكية. لكن نتائج هذا الخلط كانت مريرة. ومثل «الألفية»[(46)] (chiliasme) القائم على خلط المسيحية بالاشتراكية، كان من شأنه أن يكون تحذيرًا رهيبًا. إن الأباطيل الدينية من نوع «الألفية» قد افتضح أمرها منذ زمن بعيد. في يوم من الأيام، أسس جان دو لايد (Jean de Leyde) «أورشليم السماوية» على الأرض، وحقق مملكة المسيح الألفية الملموسة. إن ذلك الجحيم الذي تكشفت عنه أورشليم السماوية هذه، وذلك العنف وتلك الدماء والضغائن التي ترافقت معها، كان من شأنها أن تلزم سائر المتدينين بالتفكير مليًا في الأمر. إن تجارب إقامة مملكة المسيح على الأرض، في الطبيعة القديمة، من دون تغيير الإنسان وتغيير العالم، كانت دومًا، وسوف تبقى، بمنزلة إقامة الجحيم على الأرض، وليس الجنة على الأرض، هي طغيان رهيب يبيد الطبيعة البشرية عن بكرة أبيها. لا يجوز أخذ مملكة المسيح بالعنف ولا يجوز إحلالها في الطبيعة القديمة، علمًا أن حلول هذه المملكة يعني تغيير الطبيعة القديمة والانتقال المبارك من مملكة العنف إلى مملكة الحرية. إن خلط المسيحية بالاشتراكية، ومساواة المسيحية بالاشتراكية والملكوت الدنيوي والرفاه الدنيوي، هو من سمات القيامة اليهودية، هو ظاهرة يهودية في بيئة مسيحية. وليس مصادفة أن ماركس كان يهوديًا. إنه ظاهرة الأبوكاليبتية اليهودية، ظاهرة «الألفية» اليهودية في ساعة متأخرة من التاريخ، في جو العصر المادي الإلحادي. إنه اتهام الطبيعة الأبوكاليبتية اليهودية المعادية للمسيحية، اتهام الانتظارات الأبوكاليبتية اليهودية. كانت الأبوكاليبتية اليهودية القديمة ثورية ومناهضة للتاريخ. وقامت على أساسها انتفاضة المتعصبين. وكانت روح الأبوكاليبتية تختلف عن روح النبوة التي لم تكن ثورية وكانت مشبعة بالتاريخية. والأبوكاليبتية اليهودية الاشتراكية الجديدة هي الأخرى ثورية ومناهضة للتاريخ. يجب التعمق أكثر في طبيعة الاشتراكية المعادية للمسيحية. إن الاشتراكية، كظاهرة عالمية، لها مصدر ديني - يهودي. تنشط فيها البدايات عينها التي من أجلها رفض اليهود المسيح. إن «الألفية» اليهودية مشبعة بالآمال بملكوت الله الملموس على الأرض وانتظار المسيح الذي سيحقق مملكة الشعب اليهودي الدنيوية ونعيمه الدنيوي، ولا تتقبل أسرار الجلجلة، وتتعارض مع ظاهرة المسيح - المصلوب. في جو أبوكاليبتي محموم لم يكن الشعب اليهودي ينتظر المسيح المسيحي، بل المسيح الاشتراكي، ولم يكن ينتظر المملكة الألفية المسيحية، بل المملكة الألفية

الاشتراكية. إن سحر الاشتراكية، سحر المملكة الدنيوية والنعيم الدنيوي من دون تضحيات المسيح وصلبه، من دون المرور عبر الجلجلة، هو الذي أفضى إلى رفض المسيح ورفض عذابات صلبه. هنا، برزت عقدة التاريخ العالمي. هنا، تَحَددَ المصير المأساوي للشعب اليهودي بوصفه محور التاريخ العالمي. إن مسألة الاشتراكية على ارتباط أشد عمقًا وحميمية بالمسألة الدينية اليهودية مما يتهيأ لكم، أنتم جميعًا الاجتماعيون - العقلانيون. وإذا كانت الحركة الديمقراطية في العالم تثير قلقًا دينيًا، فإن الحركة الاشتراكية تثير قلقًا دينيًا أشد. ثمة بعد ديني في مسألة الاشتراكية، وهذه واحدة من المسائل الأخيرة في التاريخ العالمي التي تفضي بنا إلى نهاية العالم. للاشتراكية جذور شديدة القِدَم، لا اجتماعية فحسب، بل دينية أيضًا. لن تتكشف طبيعة الاشتراكية وتظهر هويتها سوى في مراحل التاريخ المتقدمة، حين تظهر جميع تناقضات الوجود البشري. تطمح الاشتراكية إلى أن تكون، ليس إصلاحًا اجتماعيًا فحسب، ولا تنظيمًا للحياة الاقتصادية كذلك، بل تطمح إلى أن تكون أيضًا ديانة جديدة تحل مكان ديانة المسيح. تدخل الاشتراكية العالم الآن مع طموح ديني، وهي تريد لو تكون الكل بالكل، وهي تطالب بموقف منها من مستوى الموقف الديني. تأخذ الاشتراكية الثورية بالإغواءات الثلاثة جميعها التي رفضها المسيح في الصحراء وتريد أن تبني مملكتها عليها. فهي ترغب في تحويل الحجارة خبزًا، تريد الخلاص عبر المعجزات الاجتماعية، تريد المملكة الدنيوية هذه. الاشتراكية هي ترتيب شؤون الإنسان على الأرض من دون الله وضد الله. وكان دوستويفسكي يدرك هذا الأمر ويتنبأ به. الاشتراكية هي إقامة برج بابل. الاشتراكية تُنهي العمل الذي بدأته الديمقراطية، العمل في العقلنة النهائية للحياة الإنسانية، وطرد جميع القوى الغامضة، الخارقة والإلهية منها. الاشتراكية تريد أن تستحوذ على الحياة الإنسانية بصورة أعمق وأشمل مما تريده الديمقراطية. فهي تطمح إلى إقامة حياة جديدة كليًا. المسيح حَمَلَ إلى العالم ليس السلام، بل السيف. وقَسَم الناس بالروح. والاشتراكية هي أيضًا تحمل إلى العالم ليس السلام، بل السيف. وهي تقسم الناس بحسب الوضع الاقتصادي. وهي لا تعترف بوجود الروح، بل لا تعترف بوجود الإنسان. إنها تستبدل الإنسان بالمقولة الاقتصادية. ديانة الاشتراكية قاتلة الإنسان. فهي تبدأ من إنكار بنوة الإنسان للإله. تقوم على أساس تجربة العبد الثائر، لا الابن، على أساس الشعور بالإهانة الدفينة. فمن قام من التراب يريد أن يكون إلهًا. الاشتراكية هي مملكة ناس من تراب يتخيلون أنفسهم آلهة. الوعي المسيحي للإنسان ببنوته لله لا يمكن أن يقود هذا الإنسان إلى الاشتراكية. هذا الوعي النبيل لا يتفق مع الكراهية الطبقية. الاشتراكية تعتدي على حرية النفس الإنسانية وعلى أصالة وجود الإنسان. فهي تعد بالعقلنة التامة للمجتمع في مقابل التخلي عن الأسس الروحانية للمجتمع. وكان على حق الجنتلمان صاحب الوجه المضحك عند دوستويفسكي الذي أراد أن يرسل إلى الجحيم كل الرفاه الاجتماعي ويعيش بإرادته الحرة. إن ملكوت الله على الأرض ليس ممكنًا في طبيعتنا الفيزيائية، وفي ظل عبوديتنا وخطايانا ورذائلنا، والرغبة عينها في إقامته في ظل هذه الظروف، هي رغبة كافرة. من الصعب عليكم أن تفهموا أن الرغبة عينها في فرض ملكوت الله على الأرض يمكن أن تكون كافرة. لكن الأمر لا بد من فهمه. في ملكوت الله على الأرض المفروض هذا سوف تنشط ليس روح المسيح، بل الروح المعادية للمسيح. الاشتراكية الثورية هي واحدة من الإغواءات المعادية للمسيح.

***

إن اشتراكيتكم هي فضيلة بالإكراه وأخوّة بالإكراه. وهذا ما يجعل اشتراكيتكم مقرفة، لهذا هي منفرة جماليًا وأخلاقيًا. اشتراكيتكم الثورية لا تعترف بتلك الحقيقة المسيحية الأساسية، بأن الأخوة بين البشر لا يمكن أن تكون سوى ثمرة الحب الحر، سوى التألق الروحي الأرفع للتواصل بين البشر. أما أنتم فكان بودكم لو تكرِهون الناس على الأخوة بالقوة. أنتم أخذتم الأخوة من المسيحية، أنتم سرقتموها وتستخدمونها بلا حياء، من دون أن يكون لكم أي حق في ذلك. ليست الأخوة بين الناس ممكنة سوى في المسيح ومن خلال المسيح. الأخوة بين الناس ليست حالًا طبيعية عادية للناس والمجتمعات البشرية. في الحال الطبيعية ليس الإنسان للإنسان أخًا، بل ذئبًا، والناس يخوض بعضهم ضد بعض صراعًا شرسًا. في الحال الطبيعية تسود الداروينية. واشتراكيتكم تنطلق من هذا الصراع الطبيعي، وتريد أن ترسخ الأخوة على الأرض من خلال الصراع الأشد عنفًا. المرض والعيوب الداخلية تنهش اشتراكيتكم كلها. وهي تريد أن تقيم فضيلتها على الشر ومن خلال الشر. أنتم تريدون إقامة الأخوة بين الناس ليس من خلال المسيح، ليس من خلال المحبة الفاضلة، بل من خلال الكراهية وثورة طبقة على طبقة. أنتم تخلطون، بصورة ميؤوس منها، الأخوة بالجماعة التي توحدها المصالح الاقتصادية. لا يمكن الإنسان في مملكتكم أن يصبح أخا الإنسان مطلقًا، يمكنه أن يصبح «رفيقًا» لا غير. لكن، ما المشترك بين «الرفيق» (كلمة وضيعة جماليًا) والأخ؟ كل الفرق بين الاشتراكية والمسيحية هو في هذا الفرق بين «الرفيق» والأخ. الأخ يُجِل في أخيه الإنسان، صورة الله وشبيهه، الأخ يتحد مع أخيه كابنَي أب واحد. الأخوة تفترض شراكة الأبوة. وأولئك الذين لا يعرفون الأب وينكرون الأب، لا يسعهم أن يكونوا أخوة. الرفيق لا يُجِل الإنسان في الرفيق، بل الطبقة، المقولة الاقتصادية، الرفيق يتحد مع الرفيق من خلال المصالح الاقتصادية المشتركة. الرفاق لا يتذكرون أبوتهم، ولا يريدون معرفة الأب الواحد، هم الأبناء الضالون. إن مقولتكم الاشتراكية «رفيق» تعني احتقارًا عظيمًا للإنسان. «رفاقيتكم» تقسم الجنس البشري معسكرين عدوين وتعتبر كل شيء مباحًا بالنسبة إلى المعسكر المعادي. ديانتكم توحد وتفرق تبعًا للمصالح المادية. وهل من أمر أشد معاداةً للروح المسيحية من هذا؟ إنه لمرعب، حقًا، كل تقريب للرفاقية الاشتراكية من الأخوة المسيحية. كانت تود الرفاقية الاشتراكية لو تحول العالم إلى مؤسسة تجارية - صناعية، توحد المصالح المادية بين الجميع فيها، وليس لديها من أسباب لخوض صراع مادي في ما بينها. الأخوة المسيحية تضع لنفسها أهدافًا أخرى، ليس لها ما يجمعها مع التجارة والتوحد من خلال المصالح المادية. إن اشتراكيتكم مع مَثلكم «الرفاقي» الأعلى الوضيع يبين مرة أخرى أن الأخوة مستحيلة كنظام طبيعي، وليست ممكنة سوى بوصفها فضيلة. الأخوة مستحيلة في غير المسيح، في غير محبة المسيح الفاضلة. إنها لقبيحة ومجرمة جميع سرقاتكم الكنوز التي تعود إلى المسيح وحده من دون القبول بالمسيح نفسه ورفضه. الأخوة من دون المسيح هي عبودية، هي عنف وتسلط. الأخوة هي مملكة الحرية مع المسيح فحسب. الأخوة من دون المسيح، من دون الحب الإلهي، هي رفاقية قسرية مفروضة بالعنف المادي. إنه لأمر مخيف من دون الأخوة الفاضلة، إنه موت للإنسان، موت للشخصية الإنسانية. عبر حب المسيح تترسخ كل شخصية إنسانية في وحدانيتها. الأخوة في المسيح هي تجمع شخصيات. الأخوة من دون المسيح هي رفاقية، هي تجمع لا وجه له، ويستحيل أن تميز الوجوه فيه. الاشتراكية القصوى والنهائية هي عينها الرفض الأقصى والنهائي لحرية الإنسان. يمكن إجباري على احترام كل إنسان وحقوقه، ومطالبتي بالاعتراف بالمواطن في كل إنسان. لكن لا يسع أحدًا أو شيئًا في الكون، حتى الله نفسه، إكراهي

على الأخوة، ويطالبني بعلاقة أخوة مع مَن لم أختره وأحبه. إنها مسألة حريتي التي لن أتخلى لكم عنها في مقابل جميع ثروات الأرض. إنني أحتفظ بحقي في المحافظة على مسافة مع الآخر، وأقر بضرورة المسافة كحق طبيعي. لا يمكن إجباري على قرب أكبر، وعلى حب أكثر تجاه شخص آخر، سوى ذاك الذي أريده وأختاره بحرية. اشتراكيتكم تريد إجباري على ذلك، وأنا أحتقر اعتداءاتها العنفية. سياسيًا، أنا أقر بالمواطنة، ودينيًا، أنا أقر بالأخوة. لكنني أرفض الرفاقية من أساسها كخلط قبيح لمخططات مختلفة بعضها ببعض، كتطاول قبيح لمقولة اجتماعية لأداء دور ديني والحلول مكان المقولة الدينية.

ثمة أشكال انتقالية عدة للاشتراكية. بعضها في وسعه أن يقدم نفسه بريئًا من الناحية الدينية. لكن، ولكشف الطبيعة الحقيقية للاشتراكية ورؤية الزيف والشر اللذين تحملهما إلى العالم، ينبغي أخذ الاشتراكية القصوى والتعاونية القصوى. إن تعاونيتكم القصوى، هي أسوأ ما يمكن أن ينتظر الإنسان والإنسانية. إن يبلور أحدٌ بعدُ تصورًا ملموسًا كافيًا عن حدود هذه التعاونية، مع العلم أنه ينبغي أن نتذكر أن الناس في طوبى توماس مور يتحركون بصعوبة كما في الجمهورية السوفياتية، وفي مذهب إتيان كابه(47) (Étienne Cabet) يُسمح بصحيفة رسمية واحدة فحسب. وليس سوى الثورة الروسية فحسب تلمح إلى أنها تمثل جنة التعاونية. لكن معظمكم، أنتم الاشتراكيون، يعجز عن معرفة حدود تطلعاته وأحلامه. إن معظمكم، أنتم الاشتراكيون، انتقائي ويخلط البدايات بعضها ببعض. أنتم أنفسكم لا تعرفون من أنتم. أنتم أداة قوى ليست بشرية، قوى إبادة الإنسان. إن حدود التعاونية هي تأميم الإنسان كله، كل جسده وكل روحه. التعاونية لا تريد أن تُبقي على شيء في ملكية الإنسان الفردية. وهي تريد أن تُخضع كل شيء في الإنسان لسلطتها المفترسِة. التعاونية، بشكلها الأقصى والديني الكاذب، ترغب في الإنسان كله. لم تكن أي دولة، حتى الأشد تسلطًا وطغيانًا، لتمتلك مثل هذا الطموح. كان كثير من الناس يبقى حرًا وفرديًا، وليس مبرمجًا ومعقلنًا، حتى في ظل أقسى الطغيان وأشده. كل دولة، مهما كان شكل الطغيان فيها، كانت، مع ذلك، تعترف بالإنسان كائنًا حرًا، وكانت تدرك حدودها. كان يمكن الدولة أن تضطهد الإنسان، بل وتعذبه حتى. لكن لم يكن لديها الطموح بالتنظيم القسري للإنسان السوي والبشرية كلها، وفرض الفضيلة القسرية. لذلك، كانت تسمح بالتنفس بحرية. ليس في الكون ما هو أسوأ من الفضيلة القسرية. باسم كرامة الإنسان وحرية الإنسان، باسم طبيعته السامية، يجب إعطاء الإنسان بعض الحرية بالخطيئة، حرية الاختيار بين الخير والشر. لو قُدر للجماعية أن تتحقق بشكلها النهائي في يوم من الأيام، فإن حرية الإنسان سوف يتم القضاء عليها نهائيًا. سوف يتم تأميم روح الإنسان وجسد الإنسان وإعطاؤهما طابعًا اجتماعيًا (socialisation)، وليس تأميم أدوات الإنتاج المادية فحسب. التأميم وإعطاء الطابع الاجتماعي سوف يتعمقان أكثر فأكثر. هذه العملية المميتة لا مفر منها ولا مهرب. ولا يمكن هذه العملية أن تقتصر على الجانب المادي من الحياة فحسب. عبثًا تريدون تهدئة النفوس بالقول إنه سوف يتم تأميم الجانب المادي من الحياة فحسب، أما الروح فسوف تصبح أكثر حرية. هذه هي الكذبة الكبرى، هذا هو الخداع وخداع الذات الأكبر. أنتم سوف تبدأون من تأميم النفس البشرية، من قتل الشخصية. أنتم تريدون، بتأميم الروح هذا، خلق كَنَسية روحية كاذبة. باطلةٌ كَنَسيتكم هذه، لأن الكَنَسية الحق هي لكنيسة المسيح المشرعة للروح الإنسانية منذ زمن بعيد. الكَنَسية الحق تتسع لشخصية الإنسان وحريته. أما كَنَسيتكم فلا تطيق الشخصية الإنسانية والحرية الإنسانية. إن تعاونيتكم القسرية تدمر كل قاعدة مادية للثقافة الروحية الحرة. أنتم

تريدون مصادرة جميع الوسائل المادية التي يستحيل من دونها الكشف عن أي ثقافة روحية وتجسيدها في عالمنا الخاطئ، أنتم تريدون سحبها من الاستخدام والتداول الفردي الحر وتقديمها إلى وحشكم. إن المبادرة الفردية الحرة لن تعود ممكنة في أي أمر. إن وسائط التعبير عن الحياة الروحية وأدواته سوف تكون حكرًا على الدولة، على الكومونة المركزية والجماعة. ولن تحوزها الشخصية وتجمع الشخصيات الحرة

التي تضع نصب عينيها أهدافًا لا تطيب للجماعة المركزية والحاكمة. وتصبح الطباعة الحرة للكتب والمجلات والصحف مستحيلة، لأن كل شؤون الطباعة تصبح في أيدي المجموعة المركزية وتصبح في خدمة مصالحها وأهدافها. تغدو ممكنةً «ثقافة البروليتاريا» فحسب، وليس الثقافة الحرة. تبقى حرية الروح التي لا تتجسد، وعلى الروح الإنسانية أن تكف عن التجسد.

أنتم خلطتم حقل الحقوق بحقل الأخلاق، وتودون أن تقيموا على هذا الخلط تعاونيتكم القسرية. ويحمل هذا الخلط الخطر الأعظم على حرية الإنسان. فالحقوق هي بداية إلزامية، تحمي الحرية الإنسانية وتدافع عنها. وهي تجعل تعايش الناس وتواصلهم أمرين ممكنين، حتى حين يكون الناس خاطئين وشريرين، حين يكونون عنفيين وانتهازيين. لا يمكن المجتمع البشري أن يقوم على المحبة بوصفها بدايةً إلزاميةً وإكراهية. المحبة بين الناس ليست سوى تلوين لحرية التواصل البشري، ليست سوى نعمة هذا التواصل. المحبة الإلزامية والقسرية هي تناقض فظيع وإساءة لطبيعة الحب نفسها. على المستوى الطبيعي، على المجتمع البشري أن يمتلك أسسًا إلزامية وقسرية تحول دون التفكك الفوضوي. إن المجتمع البشري الموجود في هذا العالم الشرير، في هذه الطبيعة المتداعية، يجب أن يُحكم ليس بالحب وحده، بل وبالقانون أيضًا. في القانون والحقوق ثمة طاقة إلهية فاعلة. وأولئك الذين يقولون ببداية المحبة فحسب للمجتمع البشري ويرفضون أي بداية أخرى، ينكرون المحبة المسيحية ويستبدلونها بمحبة ما مختلفة، بمحبة قسرية، بمحبة رهيبة لغياب التسامح فيها. على هذه المحبة اللامتسامحة أراد ليف تولستوي أن يؤسس التواصل البشري. أنتم جميعكم، التعاونيون، تريدون أن تقيدوا الناس بعضهم ببعض، مع العلم أن ليس في دواخلهم من مشترك في ما بينهم، بل ويكره بعضهم ببعض. أنتم تريدون تقييد بعضهم ببعض بالحاجة والمصالح المشتركة. إن محبتكم الاشتراكية هي الحاجة القاسية، هي القسرية الشريرة. إن الحقوق التي تكرهون، هي حماية للطبيعة البشرية وخيارها الحر. أنتم لا تريدون أن تتركوا شيئًا لحرية الإنسان ولحريته في المحبة. أنتم لم تخلطوا الحقوق بالأخلاق فحسب، بل خلطتم أيضًا حقل الحق الخاص بحقل الحق العام. أنتم تنكرون كليًا الحق الخاص وتستبدلونه بالحق العام. وهذا يعني أنكم تخلطون الحرية بالحاجة وتستبدلون الحرية بالحاجة. أنتم تريدون حرية الحاجة القسرية. أنتم لا تريدون حرية الانتخاب والسقوط، ليس لأن الإنسان لديكم كامل وأنتم تريدون تطويره، بل لأنه، بطبيعته الداخلية، ليس موجودًا بالنسبة إليكم، وهو ليس موجودًا سوى كردة فعل على الحاجة الاقتصادية فحسب.

***

الزيف هو في أساس حافز الاشتراكية الأخلاقي. ويغري هذا الزيف الأشخاص العاطفيين. إن الخطب الاشتراكية عن الفقراء والأغنياء في جميع الحالات، خطب كاذبة حتى أعماقها. إن حافز الاشتراكية الأخلاقي هو خليط من العاطفية الكاذبة والتعاطف المتصنع والقسوة وروح الانتقام المتوحشة. عادةً ما تفضي العاطفية إلى القسوة. إنه قانون الحياة العاطفية. إن الاشتراكية هي،

بطبيعتها الأخلاقية، قسوة عاطفية وعاطفية قاسية. إن الجانب الذاتي - الأخلاقي في الاشتراكية هو الأشد قبحًا وزيفًا فيها؛ إذ إنه هو الذي يهدد بتحويل الحياة البشرية جحيمًا. أما الجانب الموضوعي العلمي الثقافي في الاشتراكية فهو الأكثر حياديةً وبراءة. إن أخلاقية الاشتراكية التي بلغت حد التعصب الأعمى وتعجب كثيرين، تمثل وجوهها الأشد إلحادًا ورعبًا. إن الخلاص من مثل هذه الأخلاقية القبيحة القاتلة ينبغي البحث عنه في حافز الموضوعية، في التواضع المعرفي أمام ضرورة العملية الاجتماعية وموضوعيتها. إن من شأن حافز الموضوعية أن يخفف من غلواء نفوسكم الغاضبة، وأن يخفض من مشاعر الغضب. أنتم تعيشون في جو نفسي موتور وغير سليم، تصل فيه الكراهية الطبقية إلى الذروة. إن طبقات كاملة هي، بتصوركم، شريرة، وتثير فيكم مشاعر الغضب. هذا الشر في طبقات كاملة من المجتمع يؤكده ما يسمى «الاشتراكية العلمية» التي على عكس الجانب الموضوعي من النظرية، تعقد آمالًا كبيرة على تأجيج المشاعر الغاضبة لدى الطبقات الأخرى. الزيف هو في الأساس الأولي لفهمكم أصل الشر الاجتماعي وعدم المساواة. ولد حافز الاشتراكية الأخلاقي لديكم من الوعي المزيف بأن الفقر والرياء الاجتماعي والمعاناة تأتي جميعها من الإرادة الشريرة للطبقات المالكة الحاكمة. وأنتم تحبون أن تعلنوا عن ذلك حتى حين تكونون من أنصار الاشتراكية «الموضوعية العلمية». لكن سوء استخدام المقولات الأخلاقية هذا في فهم الواقع الاجتماعي، يفضي إلى التشوه الأخلاقي والفجور. إنه لأمر سيئ أن ينظر المرء إلى الإرادة السيئة للناس ولطبقات بحالها هناك، حيث تنشط عوامل ذات طابع موضوعي، هناك، حيث الحاجة الطبيعية تفرض إرادتها الحديد. إضافة إلى ذلك، أنتم تسيئون استخدام المقولات الأخلاقية في الحياة الاجتماعية، وتنفون كليًا المسؤولية الأخلاقية وسلامة عقل الشخصية الإنسانية. إن هذا الجمع بين الأخلاقية القصوى واللاأخلاقية المطلقة يخلق بيئةً روحية غير سليمة.

توجد أسس موضوعية للمجتمع، تغور عيمقًا في الطبيعة، في نظام الحياة الكونية. إن تشكل المجتمع لا يرتبط بالتعسف الشرير لطبقات المجتمع هذه أو تلك. المجتمع هو ظاهرة الطبيعة، وقانونه مرتبط بقانون الطبيعة. المجتمع هو قانون طبيعي مبارك ومظفر، ينتمي إلى مخطط آخر، يُقاس بمقاييس مختلفة، هو مجتمع رباعي الأبعاد مقارنة بأبعاده الثلاثية تلك التي تدور فيها الحياة الاجتماعية القانونية. لكن مجتمع الأبعاد الثلاثية يمتلك أسسًا موضوعية طبيعية، وينبغي التفتيش فيها عن تفسير البؤس والشقاء في حياتنا الاجتماعية. ومن وجهة نظر أعمق، فإن الحاجة الموضوعية في الحياة الاجتماعية تمتلك معنى روحيًا وأخلاقيًا؛ إذ تنشط فيها حقيقة إلهية تنعكس منكسرة في طبيعة مظلمة وخاطئة. إن جذور التعاسة البشرية وشقاء الإنسان هي في طبيعة الإنسان والعالم، الخاطئة. الطبيعة الخاطئة تخضع لقانون صارم. لا تدخل مملكة الحرية سوى الطبيعة المتجسدة والمنبعثة، وليس طبيعة الإنسان أو الإنسانية فحسب، بل طبيعة العالم كله والكون بأسره. تُطرح أمام الإنسان مهمة الانتصار الصعبة على الطبيعة والسيطرة على قواها العاصفة وبرمجتها من أجل أهداف كونية عليا. إن فقر المجتمعات البشرية وعوزها يرتبط، بالدرجة الأولى، بالمستوى الضعيف للانتصار على القوى الطبيعية العاصفة والسيطرة عليها، وبالاعتماد على هذه القوى عينها. فهمت الماركسية، بجانبها الموضوعي - العلمي، أن البنية الاجتماعية للمجتمع، بفروقاته الطبقية وعدم المساواة، تتحدد بحال القوى المنتِجة، ومستوى الانتصار على

الطبيعة، والقيم والثروات المادية التي تمت مراكمتها. لكن الماركسية هي نظرية متناقضة داخليًا؛ إذ يصطدم الجانب الموضوعي - العلمي فيها بالجانب الذاتي - الطبقي المرتبط بالحافز الثوري والأخلاقي للاشتراكية.

توجد في الفلسفة الاشتراكية طبيعتان: في واحدة منهما تنتصر اللحظة الطبقية على اللحظة الموضوعية، والحقيقة على مر التاريخ هي في ثورة المعدَمين والشر في وجود المالكين عينه، وفي الأخرى اللحظة الموضوعية أقوى من الطبقية، وفي الحقب التاريخية المختلفة يتم الإقرار بتقدمية الطبقات والمهمات المختلفة التي تُطرح أمامها. عمليًا، الاشتراكية الثورية تتحرك دومًا وتستمد إلهامها من اللحظة الأولى، فهي تتعاطف مع جميع الحشود الثائرة، مع كل ثورات الدهماء في التاريخ، وفي الأزمنة كلها تدين وتلعن، بوتيرة واحدة، جميع الطبقات العليا، جميع الشرائح المالكة والمثقفة. وتقيم عبر التاريخ كله خطًا يقسم الجنس البشري جنسين، مملكتين: «البرجوازية» و«البروليتارية». تختلط في الماركسية لحظتا الاشتراكية هاتان. لكن الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين ترجح لديهم كفة «البروليتاريا» على مر التاريخ والاعتراف بها طبقة ثورية - تقدمية. ويتلازم هذا الاعتراف مع كراهية «البرجوازية» كطبقة مضطهِدين ومسؤولة عن جميع الشرور الاجتماعية. وتاريخ اشتراكية كاوتسكي كُتب بهذه الروحية. أما دور «البرجوازية» التقدمي والثوري الذي تحدث عنه ماركس، فلا يلقى أي موقف إيجابي أخلاقي منه. وكان لاسال (Lassalle) يقول بوجهة نظر معاكسة تمامًا، وهو الذي كان أعلى قامةً من البيئة الفكرية الاشتراكية، والذي ينبغي الاعتراف بأنه الأفضل بين الاشتراكيين. كان لاسال يعترف بأن «الفكرة» العالمية التقدمية كانت تحملها الطبقات المختلفة في مراحل التاريخ المختلفة، وأن الشريحة الثالثة كانت حاملة هذه «الفكرة»، أما الآن فهي الفئة الرابعة. لهذا، كان لاسال يقوم عاليًا دور الطبقات البرجوازية التاريخي ويدين انتفاضات الطبقات الكادحة التي لا تتلاءم مع «فكرة» المرحلة التاريخية، على غرار الحروب الفلاحية إبان عصر الإصلاح. الاشتراكيون الروس عاجزون كليًا عن أن يكونوا مع وجهة النظر التاريخية، لهذا فإن روحية لاسال غريبة عليهم. هم واعظو أخلاق موتورون، وكثيرًا جدًا ما يتحول وعظهم الأخلاقي بلاهة أخلاقية.

تلك هي القضية التي قليلًا ما فكرتم فيها، والتي تدفعونها عن أنفسكم بوعظكم الأخلاقي القبيح. لكن، هل اللامساواة الاجتماعية ليست ضرورةً ومشروعة، أم هي نعمة وخير وحقيقة؟ لماذا أقررتم أنتم بمسلمة أخلاقية، بأن اللامساواة الاجتماعية هي شر؟ في مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة المادية، تعطي اللامساواة الحجم الأقصى من الخيرات، والمستوى الأقصى من تلبية حاجات الشعب. أما المساواة فتفضي إلى الإفقار، إلى إضعاف إنتاجية العمل، إلى تبديد موارد ثروة الشعب وغذائه. في ظل المستوى غير المرتفع للتطور المادي، حين لم يسيطر الإنسان بصورة كافية بعد على القوى الطبيعية في الطبيعة، فإن اللامساواة الاجتماعية، وتمييز طبقة مالكة وصاحبة امتيازات، هو الخلاص الوحيد، وهو يصب كذلك في مصلحة المعدَمين والجماهير الشعبية. إن حقيقة وجود شريحة ضئيلة العدد من الأثرياء والمالكين، لا يسعها، هي بذاتها، أن تكون مصدر الشرور الاجتماعية والشقاء. وتأكيد ذلك ليس سوى سوء استخدام لمقولة الكمية. إن انتزاع الموارد المادية من هذه الشريحة الضئيلة العدد لا يسعه أن يُحدث تغييرًا يذكر في وضع الجماهير الشعبية بأعدادها الهائلة كميًا. فمن أجل النهوض بالرفاه المادي للجماهير، بعددها الكبير كميًا، ينبغي عدم إفقار الكمية الضئيلة، بل زيادة الإنتاجية وتطوير القوى المادية المنتجة. المسألة الاجتماعية قابلة

للمعالجة من طريق الإنتاج، بالدرجة الأولى، لا التوزيع. إن المساواة في الفقر التي يطالب بها كثرٌ منكم، هي تدمير للثقافة البشرية، وخفض مستوى الحياة. إن اشتراكية الفقر هي الاشتراكية الأشد هولًا. ولقد أثبتت الحوادث بعد الحرب العالمية أن الاشتراكية هي وليدة الفقر، لا الغنى. كان من شأن اشتراكية الغنى، اشتراكية الوفرة، أن تكون مقبولة أكثر. حين يطالب متعصبو الاشتراكية الثورية بأن من الأفضل أن يكون الجميع فقراء من أن توجد قلة محظوظة مِمن يملكون، ولهم القدرة على المحافظة على مستوى أرفع من الثقافة، فإن أخلاقية هؤلاء يحركها الحسد والانتقام اللذين يُرفعان إلى مرتبة التقديس. لأن المحاكمة الأخلاقية السليمة يجب أن تقر بأن من الأفضل أن تكون قلة على مستوى ثقافي رفيع، من أن يكون الجميع على مستوى متدن. **اللامساواة هي شرط تطور الثقافة.** هذه مسَلمة. ولا يزال من غير الثابت لماذا المساواة هي أرفع من اللامساواة أخلاقيًا؟ ما دامت لا يمكن أن تكون اللامساواة بحد ذاتها حقيقة ونعمة ينبغي أن نتطلع إليها؟ **واللامساواة سوف تكون في ملكوت الله أيضًا. كل وجود مرتبط باللامساواة.** ينبغي ألا يكون في العالم فقراء وجوعى، وينبغي أن يتوافر للجميع عيش لائق إنسانيًا، لكن الأمر لا يتطلب مساواة. في الانتفاضة عينها ضد أسس النظام الاجتماعي باسم العدالة، ثمة دجل ديني يخلق مشاعر الغضب. ليس من المقدر لنا أن نعرف لماذا هذا غني وذاك فقير، لماذا تكون من نصيب كل إنسان هذه التجارب أو تلك. ليس للبشر أن يعتقدوا أنهم أكثر عدالةً من الله، وفي وسعهم تصحيح ظلم بروفيدانس. النضال الثوري من أجل العدالة يولد الكراهية. ليس النضال من أجل العدالة، بل المحبة هي التي ينبغي أن ترشدنا في مساعدة الفقراء والمعذبين. ليس النضال من أجل عدالة مجردة، بل الغريزة الخلاقة يجب أن ترشدنا في البناء الاجتماعي.

***

علّمنا المسيح أن من الأسهل أن يدخل الجمل من ثقب الإبرة، من أن يدخلَ غنيٌ ملكوت السماء. بالنسبة إلى كثرٍ، ممن ينضوون شكليًا في المسيحية، من دون أن يطلعوا على أسرار الديانة المسيحية، يبدو هذا الكلام اشتراكيًا تقريبًا. أنتم، الاشتراكيون، تحبون إساءة استخدام الإنجيل وتتذكرونه حين يكون ذلك مطلوبًا من أجل أهدافكم اللادينية والمعادية الدين. ثمة شيء ما قبيح ونجس في هذه الاستشهادات من الإنجيل وفي هذه التفسيرات لنصوصه. كلمات المسيح عن الأغنياء لها معنى مناقض كليًا لما كان بودكم أن تضعوه فيها. كل من يقارب سر الحياة في داخله وليس ظاهريًا، يجب أن يكون واضحًا له أن المسيح كان يهتم بمصير الأغنياء، بأرواحهم، حين قال إنه من الصعب، بل ومن الصعب كثيرًا، أن يدخلوا ملكوت السماء. كان يريد القول إن من السهل أن يصبح الأغنياء عبيد العالم المادي، عبيد الأشياء المادية، وإنهم محرومون حرية الروح، لذا يصعب دخولهم ملكوت السماء، ملكوت الأنفس الحرة التي تحب الله أسمى ما في العالم وكل ما هو من هذا العالم. أراد المسيح تحرير الأغنياء روحيًا، وكان مهتمًا كذلك في خلاصهم من أجل الأبدية، كما وخلاص سائر النفوس البشرية. جاء إلى العالم من أجل الجميع، من أجل الفقراء ومن أجل الأغنياء، على حد سواء. وحين قال كلماته عن صعوبة دخول الأغنياء ملكوت السماء، لم يكن يفكر في مصالح الفقراء المادية، بل في مصالح الأغنياء الروحية. فهو كشف عن القيمة المطلقة لكل نفس إنسانية، بغض النظر عن وضعها الاجتماعي. كان من غير الممكن أن يكون لديه مقبولون ومرفوضون تبعًا للوضع الاجتماعي. أما الخطاب الاشتراكي عن الأغنياء فيحتل موقعًا معاكسًا تمامًا للمسيحية، ويطفح بكراهية الأغنياء وحسدهم. الاشتراكيون يريدون تعقيد دخول الفقراء أيضًا ملكوت السماء. كلمات المسيح موجهة إلى الإنسان الداخلي، إلى النفس الإنسانية. أما

الكلمات الاشتراكية فهي موجهة إلى الإنسان الخارجي، إلى قشرة الإنسان المادية، وتلمس فيها دومًا عدم رؤية الإنسان الداخلي. تحدّث المسيح في تعاليمه عن الفقر الفاضل، الإلهي المبارك، كحرية الروح العليا وجمالها. وهو ليس مباحًا سوى للقلائل. فقير الله القديس فرنسيس الأسيزي حقق صورة جمال الفقر هذه كليًا. لكن، ما علاقة الاشتراكية بهذا كله؟ علّمنا المسيح أن للفقراء أفضلية أمام الأغنياء، وأن دخولهم ملكوت الرب أسهل. الاشتراكيون يتحدثون دومًا عن أفضليات الأغنياء الكبرى، يحسدونهم عليها، ويريدون انتزاعها منهم وإعطاءها للفقراء. المسيح علّمنا أن نَهبَ ثرواتنا. الاشتراكيون يعممون انتزاع الثروات الغريبة. المسيح دعا إلى إطعام الجوعان ووهب القميص الأخير. وينبغي أن يكون هذا فعل فيض محبة. توجه المسيح بذلك إلى الإنسان الداخلي، إلى عمق النفس البشرية. ولم يكن الأمر وصفة تدبير اجتماعي ظاهري، لم يأتِ الإنجيل بكلمة واحدة عنه. الاشتراكيون لا يدعون إلى إطعام الفقير ووَهب القميص الأخير للقريب. فهم يتوجهون إلى الإنسان الخارجي. هم يدعون الجوعان إلى انتزاع لقمته. يزرعون في رأس الفقير فكرة أن الثروة أمر ممتاز، وأن حصة الغني منها حصة يُحسد عليها، وهم بذلك يسممون قلب المسكين. أراد المسيح ألا يكون هناك جوعى، وأن يكون الجميع شَبعان، وأن يكون للجميع قميص. الموقف المسيحي من الحياة يتطلب العناية بالجوعى، بالتعساء والمحرومين. يوم القيامة سوف يسأل المسيح كلًا منا الإجابة عن مصير الجوعى والتعساء والمحرومين. وسوف يكون من الصعب على الأغنياء إيجاد الجواب هذا. كم هي روح المسيح هذه على نقيض من الروح الاشتراكية! كشف المسيح عن البناء الروحي للإنسان، وليس الحقيقة الموقتة عن البناء الاجتماعي للمجتمع. وموعظة المسيح الإنجيلية كلها تشير إلى وجود الملكية واللامساواة الاجتماعية؛ وإذ لا يمس البناء الاجتماعي الذي تحدده دومًا ظروف طبيعية وتاريخية معقدة، يعلّمنا المسيح حقيقة المحبة والتضحية بالذات الأبدية. الاشتراكيون يريدون أن يجعلوا الفضيلة والمحبة والتضحية والإحسان المسيحية مستحيلة وغير ضرورية. عظيمة هي حكمة المسيحية التي لا ترتبط، بالنسبة إليها، القيمة المطلقة للنفس البشرية بالوضع الاجتماعي، بل هي تترسخ في كل وضع اجتماعي. في وسع السيد والعبد أن يكونا أخوين في المسيح، مع بقائهما في وضعهما الاجتماعي. المسيحية تطلب أن يتم الاعتراف بنفس السيد ونفس العبد قيمتين مطلقتين ومتساويتين أمام الله، وبأن يحترم السيد في العبد صورة الله ومثاله، لكنها لا تدعو إلى ثورة اجتماعية، ولا تقول إن نظامًا اجتماعيًا محددًا إلزامي في الأزمنة كلها على حد سواء. وعلّمنا بولس الرسول أن العبد إذ يبقى ضمن الوضع الاجتماعي الذي كان من نصيبه، قد يكون مثاليًا وفي وسعه أن يسير على درب المسيح. المسيحية الكنسية غريبة عنها كليًا العناصر الاجتماعية الثورية، ولم تكن هذه العناصر سوى في الحركات الهرطوقية والطائفية. كانت المسيحية تحتل أهمية بالغة في القضاء على العبودية في العالم، لكن عمل المسيحية في هذا المجال كان عملًا روحيًا، وليس اجتماعيًا، عملًا داخليًا، وليس خارجيًا. تقر المسيحية بأن جميع التغيرات الاجتماعية تتحدد بقانون خاص، وبأن الاستمرارية التاريخية لا يمكن إلغاؤها وتدميرها على المستوى الخارجي للحياة. للمسألة الاجتماعية جانبها التقني، ووسائلها العلمية ومشروطيتها المادية. تعترف حكمة المسيحية الكونية بكل ذلك، على عكس الطائفية. وليس من خلاص نهائي من الشرور الاجتماعية والبؤس سوى في الانسجام الكوني، سوى في ملكوت الرب. وليست متاحة قبل ذلك سوى خطوات نسبية. المسألة الاجتماعية عصية على الحل، وليست قابلة للحل سوى المسائل الاجتماعية. الخير المسيحي حرٌ، لذلك هو يفترض بعض الحرية للشر.

***

أيديولوجية الاشتراكية هي أيديولوجية العمل المادي غير النوعي. وهي معادية العمل الروحي والنوعي. ومن الخطأ التأكيد أن الاشتراكية تأخذ تحت حمايتها العمل في كلانيته، العمل كونه بدايةً عالمية، وتمثل فكرة العمل. الاشتراكية تمثل العمل الميكانيكي المادي غير النوعي، وتنكر الطبيعة الخلاقة للعمل. إن مشكلة العمل كونه إبداعًا لا تعني الوعي الاشتراكي مطلقًا، ولا تقع في حقل اهتمامه. والاشتراكية، في هذا المجال، هي في حال خضوع مذل للمجتمع البرجوازي الرأسمالي البغيض، بالنسبة إليها، والعاجزة عن الارتفاع فوقه. الاشتراكية تؤله البروليتاريا، لكن ليس لديها احترام للعمل. فالطبيعة المادية للاشتراكية تمنعها من فهم طبيعة العمل الدينية. تحرير العمل ضمن حدوده هو، بالنسبة إلى الاشتراكية، تحرير من العمل. إن أيديولوجية العمل تتحول إلى أيديولوجية العداء للعمل القائمة على أساس حسد أولئك المُحَررين من العمل. ليس في حافز الاشتراكية مسؤولية للعمل. والاشتراكيون يودون لو يستدعون الطبقات البرجوازية إلى العمل ليس إلا من الإحساس بالضغينة والانتقام. إن موقف الاشتراكية من العمل يفضح طبيعتها السلبية اللاإرادية، يفضح تبعيتها لما هي ردة فعل عليه. الاشتراكية لم تحمل إلى العالم أفكارًا بتطوير العمل وتعزيز طبيعته الخلاقة النوعية. فهي تستند في أساسها إلى الكمية المجردة في العمل. نوعية العمل لا تريد أن تعرفها الاشتراكية، بل هي تحتقرها. لكن للعمل حقوقه المقدسة التي لا تنفصل عن واجباته المقدسة. حين ينفي رأس المال حقوق العمل المقدسة ويقمعها، فهو بداية شريرة وينبغي النضال ضده. رأس المال هو بداية ضرورية في الحياة الاقتصادية، من دونها ليس في وسع العمل أن يتطور، لكن في وسعه أن يتحول إلى بداية مجردة مكتفية بذاتها، ويسقط حينئذٍ من التراتبية العضوية. والاشتراكية تريد أن تمثل العمل الساقط من التراتبية العضوية والمتحول إلى بداية مجردة. توجد تراتبية نوعية للعمل. ومقدس ذلك العمل الذي يقيم في هذه التراتبية النوعية. وعرف أفلاطون هذا جيدًا. وعرف هذا أيضًا روسكين في العصر الحديث. لكن هذا لا يعرفه الاشتراكيون. فالعمل المادي، بوصفه بدايةً مجردة، بدايةً كمية، لا وجود له. إنه وهم بنى عليه ماركس هذا الكثير كله. العمل يمتلك أساسًا روحيًا. وإنتاجية ما يسمى العمل المادي تتوقف على الحال الروحية للإنسان. إن ديسيبلين العمل هو ديسيبلين روحي. ويمتلك، في نهاية المطاف، أساسًا روحيًا؛ إذ من دون الأسس الروحية، من دون الديسيبلين الروحي، يفسد العمل، يتذرر، وتتحول الحياة الاقتصادية إلى كومة من القمامة. إن اشتراكيتكم المادية عاجزة عن مواجهة مشكلة ديسيبلين العمل وتنظيمه. ديسيبلين العمل وتنظيمه لا يمكن أن تكون سوى تراتبية. وهنا تصطدمون بالتناقض الذي يقضي عليكم. يُعتبر المجتمع الاشتراكي مجتمعًا عاملًا. لكن الاشتراكية المادية ليست قادرة على تنظيم العمل، بل هي تُخل بتنظيمه، لأنها تنكر النظام التراتبي للعمل. وهي تدمر الأسس الروحية للعمل. وانتفضت الاشتراكية منذ ولادتها ضد تقسيم العمل. لكن تقسيم العمل هو أساس المجتمع البشري والثقافة البشرية، أساس ديسيبلين العمل وتراتبيته النوعية. فإسقاط تقسيم العمل هو إسقاط الفضاء الاجتماعي، هو نهاية الثقافة النوعية. إن جعل العمل متساويًا كميًا هو إهانة لمَن هم الأفضل وانتقاء غير المؤهلين، وإنكار للقدرة والمواهب، وللخبرة والتعليم، والمهنية والعبقرية. وعبثًا يفكر بعضكم، الأكثر تعلقًا بالحرية، أن الرتابة المادية الكلية، وتحويل كل نوعية إلى كمية، يمكن أن يخلي المكان للتنوع الروحي، للفروقات النوعية في الحياة الروحية. ليس من وجود لتجريدية الحياة

المادية وتجريدية الحياة الروحية. كل شيء مترابط ومتشابك في الفضاء الاجتماعي. ومهما بررتم، فإنكم مكرهون على الإقرار بسيادة العمل المادي وإنكار كل استقلالية للعمل الروحي. أنتم تحتقرون العمل الروحي وممثليه. أنتم تريدون استعباده بالعمل المادي. هذان هما تجريدتان بالنسبة إليكم، وأنتم تريدون لو تُخضعون واحدة منهما للأخرى كليًا. لذلك، فإن الاشتراكية ليست مخيفةً للرأسمال فحسب، بل هي أكثر رعبًا بالنسبة إلى العمل الروحي، بالنسبة إلى الإبداع، أي إلى النفس البشرية في نهاية المطاف. اشتراكيتكم هي انتفاضة المادة ضد الروح، هي منازلة المادة مع الروح. مملكة الرأسمالية البرجوازية كانت هي أيضًا مملكة المادة التي كانت تدمر الروح، وأنتم، ورثة هذه المملكة واستمراريتها، تطفئون جذوة الروح.

***

إن فكرة الثورة الاجتماعية العالمية لديكم هي انهيار (Zusammenbruch'a) للمجتمع الرأسمالي، وتشكل خلطًا رهيبًا لأفكار علمية واجتماعية - سياسية مع أفكار دينية. إن القفز من مملكة الحاجة إلى مملكة الحرية التي تحدث عنها ماركس وإنغلز، هو انتقال من عملية تاريخية إلى عملية فوق تاريخية، هو نهاية التاريخ العالمي. الثورات الاجتماعية، بمعنى الكارثة العالمية التي تبدأ مرحلة تاريخية جديدة، لم توجد، ولا يمكن أن توجد. العملية الاجتماعية هي، بطبيعتها، عملية جزيئية. ومن الناحية الطبيعية، هي لا يمكن أن تكون سوى تحول (évolution)، لكن ليس ثورة (révolution). العمليات الاجتماعية لا تمتلك ما هو مشترك مع انقلابات الدولة السياسية، مع إطاحة السلطة التي تحصل في يوم واحد، مع المؤامرات والانتفاضات والصدامات المسلحة. لا يمكن بالحراب والمدافع تغيير العلاقات الاقتصادية، وإقامة نظام جديد للمجتمع. وهذا صحيح أيضًا بالنسبة إلى الثورات الاجتماعية المضادة، لا بالنسبة إلى الثورات فحسب. التطور الاجتماعي يفترض سلطة متنامية للإنسان على الطبيعة، زيادة الإنتاجية الاقتصادية والتغيير الأخلاقي في علاقة الإنسان بالإنسان. وهذه العمليات الاقتصادية والأخلاقية لا تذَكرُ بالثورات والكوارث. إن الجانب الموضوعي - العلمي من الماركسية يفضي إلى نفي فكرة الثورة العالمية. وإذا كانت الماركسية قد دعت، مع ذلك، إلى الثورة الاجتماعية وآمنت بها، فذلك لأنها لم تكن علمًا فحسب، بل كانت عقيدة أيضًا، ولم تكن تمتلك طموحات اجتماعية فحسب، بل طموحات دينية كذلك، طموحات دينية كاذبة. إن الأمل بالثورة الاجتماعية هو أمل ديني كاذب، هو عملية استبدال وخداع نفس. كانت القصووية الثورية الاجتماعية تقوم دائمًا على الخلط بين النسبي والمطلق، بين الاجتماعي والديني، بين الوسائل والغايات. من الناحية الطبيعية، ينبغي أن تترسخ في الواقع التاريخي تعددية الوسائل. إن حل المسألة الاجتماعية في حدود الأبعاد الثلاثية لهذا العالم، لا يمكن أن يكون سوى حل نسبي ومعقد. «الثورة الاجتماعية» ليست ممكنةً سوى كعملية تفكك وتحلل. إن الإصلاحية الاجتماعية التي ترمي إلى حماية مصالح العمل والعمال، ينبغي أن تكون متفقة مع الاستمرارية التاريخية والتقاليد، ومع حقوق الإنسان المشروعة وحرياته. ينبغي التوليف بين المبادرة الفردية الحرة من جهة، والتخطيط الحكومي وإنشاء التعاونيات من جهة أخرى. وهذا يعني أن البداية الاشتراكية، بحقيقتها النسبية والجزئية، ينبغي أن تكون متناسقة مع البدايات الأخرى، مع البدايات المحافِظة والليبرالية. إن الإصلاح الاجتماعي للمجتمع، وتخطيط الإنتاج وتنظيم العمل ينبغي أن يتم تنسيقها مع بدايات الملكية الخاصة، لأن بداية الملكية على علاقة لا تنفصم مع بداية الشخصية. لبداية الملكية أسس دينية وروحية عميقة، وهي تتجذر في حرية

الإنسان الروحية، في صلته العضوية الروحية مع أسلافه وذريته. لكن بداية الملكية يمكن أن يعلَقَ بها أقبح أنواع سوء الاستخدام، ومن السهل جعلها أداة للجشع والطمع، وهي يمكن أن تتحول إلى أداة للاضطهاد. بداية الملكية ليست البداية الأعلى والمطلقة، بل ينبغي أن تكون خاضعة لبداية أرفع، ينبغي أن تُرسم لها حدود. الملكية الاستبدادية المكتفية بذاتها تنتج دمارًا رهيبًا في الحياة البشرية، تصبح بداية دموية. وحينئذٍ تكون الانتفاضة الاجتماعية على شيء من الحق. الملكية ينبغي أن تكون روحانية داخليًا، وحينئذ تكون مبررة ولها رسالتها. وهي تمثل إحدى البدايات الأزلية للحياة الإنسانية. إن روح الجشع والبخل والأنانية، الروح المتعطشة للتلذذ وإغواء البذخ القبيح وعديم الذوق، ينبغي التصدي لها بروح مختلفة. الروح «البرجوازية» تجب مواجهتها بالنضال الروحي. الاشتراكية غير قادرة على الانتصار على الروح «البرجوازية»، لأنها هي نفسها مشبعة بهذه الروح «البرجوازية»، وهي وليدتها. وأنتم، الاشتراكيون، أبناء العصر «البرجوازي» هذا، لن تفلحوا أبدًا في الفرار من الأبعاد الثلاثية للعالم «البرجوازي». والانتقال إلى البعد الرابع للوجود الإنساني هو انقلاب روحي داخلي، هو ثورة دينية. إن الانتصار على الفقر والجوع، وضمان الحد الأدنى الضروري من الوجود الإنساني لكل عضو في المجتمع، مهمتان متواضعتان وبدهيتان، ومعالجتهما لا تعني الانتقال إلى بُعد مختلف، إلى وجود فوق تاريخي. الاشتراكية التامة والنهائية غير ممكنة ومضرة للإنسان، لطبيعته الروحية ولكرامته العليا. إن انتصار ديانة الاشتراكية من شأنه أن يوقف نمو الإنتاجية ويشل الإبداع. وهو يدمر حافز العمل. من شأن هذا الانتصار أن يجعل الوفرة الإبداعية غير ممكنة، لأن **الوفرة تفترض اللامساواة والتنافس والانتقاء**. بالنسبة إلى الغالبية العظمى من البروليتاريا التي سوف تُعرف البشرية نفسها بها، لن تكون في حاجة إلى الثقافة النوعية الرفيعة، وسوف تكون نهضة الحياة الروحية لزوم ما لايلزم. وسوف تكون السلطة العليا التي لا يحدها شيء، بيد هذه البروليتاريا. **وباسم حرية الإبداع، باسم تلوين الحياة، باسم النوعيات الرفيعة يجب أن تكون اللامساواة مُسَوغة**. وليس مصادفةً أن يكون الوضعيون والماديون هم أكثر من يقف ضد اللامساواة. فهم ليس في وسعهم أن يفقهوا معناها. لأن، لا يمكن فهم المصير البشري في نظام العالم الغامض هذا إلا عبر النظرة الدينية للحياة، ولكل إنسان قدره الخاص وراء حدود الحياة الدنيا. وإنه لظلم مخيف وقاس أن نطالب بظروف متساوية لسائر البشر. فظروف الحياة التقليدية والسهلة نسبيًا بالنسبة إلى شخص، قد تكون قاسيةً لا تطاق بالنسبة إلى شخص آخر. إن مساواة شخص جاهل وجَلِف بشخص ذي ثقافة راقية رفيعة، لا يمكن أن يطالب بها سوى الحقد والكراهية. إن تحسس الشقاء يتوقف على تنظيم الإنسان، على دم الأجداد الذي يغلي فيه، على التربية، على مستوى الثقافة، على الموهبة. إن العصر البرجوازي - الرأسمالي قبيح بتسوويته ومساواته، وهو يقتل كل ما هو فردي.

تقوم الديانة الاشتراكية على إنكار الخلود والانتفاض في وجه النظام الإلهي للعالم. كان دوستويفسكي يدرك جيدًا أن الاشتراكية هي نتيجة إنكار الخلود. لهذا، في الاشتراكية تعطش للحياة الدنيا وهو تعطش الموتى. كم هي مبتذلة وقبيحة طوباوياتكم جميعها، وهي كلها ذروة القيم الصغيرة! إن الزيف الروحي هو في أساس تخيلكم. إنكم تريدون، بتخيلكم الاجتماعي المريض هذا، أن تقتلوا فيكم الخوف من الموت، إنكم تريدون الحصول على بديل للخلود. إن التخيل الاجتماعي والطوباوية الاجتماعية قتلا فيكم المشاعر الدينية، وأضعفا وعي معنى الحياة وأغلقا الخلود بالنسبة إليكم. وكان من شأن التشاؤم الاجتماعي السليم أن يكون منقذًا لكم وأن يبدأ شفاؤكم

الروحي منه. إن اشتراكيتكم تطمح إلى أن تكون ديانة جديدة، روحًا جديدة، لا ترتيبًا اجتماعيًا فحسب، وليس الحصول على الخبز الدنيوي للجوعى (وغالبًا ما تمنعون هذا الخبز الذي كان في السابق)، إنكم تعلنون ديانة الخبز الدنيوي ضد ديانة الخبز السماوي. إن اشتراكيتكم الطموح معادية للتاريخ في العمق، ولا تفقه أسرار التاريخ، لذلك هي رجعية في جوهرها. وهي تسعى إلى نهاية تاريخ معادية للمسيح. وليس سوى الأخوة المسيحية العظيمة الرامية إلى نهاية تاريخ مسيحية في وسعها الانتصار على إغواء الاشتراكية.

***

إن فكرة الديمقراطية وفكرة الاشتراكية فكرتان متناقضتان. الاشتراكية الديمقراطية من نوع اشتراكية جوريس[48] (Jean Jaurès)، ليست اشتراكية حقيقية. أنتم جميعًا، الاشتراكيون الثوريون، المناشفة، الاشتراكيون اليمينيون من مختلف الأطياف، لستم اشتراكيين حقيقيين، أنتم جميعًا ديمقراطيون، أكثر من كونكم اشتراكيين. الاشتراكيون الحقيقيون هم الشيوعيون. والشيوعيون محقون؛ إذ يضعون اشتراكيتهم بمواجهة الديمقراطية. الديمقراطية هي شكليًا، من دون مضمون، وهي غير مبالية بتوجه الإرادة الشعبية. الإرادة الشعبية ليست ذات مضمون في الديمقراطية الشكلية. الديمقراطية متشككة ومع ذلك فهي شديدة التفاؤل. الاشتراكية متشائمة تجاه الإرادة الشعبية الشكلية، وهي معنية في أن يكون للإرادة الشعبية توجه محدد ومضمون محدد. الاشتراكية لا تؤكد إرادة الشعب السيادية، بل الإرادة السيادية للطبقة، إرادة الطبقة - المسيح المخلص، البروليتاريا. فالبروليتاريا وحدها هي المتحررة من الخطيئة البِكر في الاستغلال. إن الاشتراكية المنسجمة مع ذاتها لا تسمح سوى للبروليتاريا بالتعبير عن إرادتها، وليس لأي بروليتاريا، إنما للبروليتاريا الاشتراكية وحدها، للبروليتاريا الوفية «لأفكار» البروليتاريا. والبروليتاريا التي يجب أن تسيطر، ليست البروليتاريا الفعلية الإمبريقية، إنما «فكرة» البروليتاريا لا غير. وباسم «فكرة» البروليتاريا يمكن ارتكاب أي عمل عنفي ضد البروليتايا الفعلية. الكلمة الأولى هي للأقلية التي تمثل الحامل الحقيقي «لفكرة» البروليتاريا، والتي تحافظ على الإيمان الصحيح. الدولة الاشتراكية ليست دولة علمانية، بل هي دولة مقدسة كدولة ديمقراطية. وهي، بالمبدأ، لا يمكن أن تكون متسامحة، ولا يسعها أن تعترف بأي حرية. وهي لا تعترف سوى بحقوق أولئك الذين يعتنقون العقيدة الحق، العقيدة الاشتراكية. وهي أقرب ما تكون إلى الدولة التسلطية الثيوقراطية. الدولة الاشتراكية هي شيطانقراطية. الاشتراكية تعتنق عقيدة خلاصية. البروليتاريا هي طبقة - المسيح المخلص. إن حَفَظَة «فكرة» البروليتاريا الخلاصية هم تراتبية خاصة، هم الحزب الشيوعي الذي على مركزية قصوى ويتمتع بسلطة دكتاتورية. لا يُسمح بأي تعبير عن إرادة الشعب. فمن الضروري إخضاع الشعب بالقوة لإرادة البروليتاريا «المقدسة»، وإخضاع البروليتاريا عينها «لفكرة» البروليتاريا. قليلون هم مَن يعرفون الحقيقة ويُخضِعون للحقيقة، وهم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. إنه لا يشبه الديمقراطية في شيء! على الاشتراكيين الحقيقيين أن يحتقروا الديمقراطية المتشككة، الفارغة من كل مضمون. الاشتراكية تريد أن تنتقل إلى مضمون الحياة، وتكتشف الحقيقة والإرادة الصالحة. والاشتراكية محقة في ذلك أكثر من الديمقراطية. لكنها تقترب من الحدود الأخيرة للعدم. إن فكرة الاشتراكية فارغة تمامًا، فكرة عدمية. إن مغزى الحياة وأهدافها لا يمكن أن تكون اجتماعية وتتحدد بالإشارات المادية الخارجية. لا يمكن مغزى الحياة وأهدافها أن تكون سوى روحية. لا يجوز البحث عن الإرادة

الصالحة خارج صلاح الإرادة وقداستها. إن جميع الأشكال الاجتماعية والسياسية دائمًا شكلية. وكلاهما ينبغي إخضاعه لأهداف الحياة الروحية. الثيوقراطية كانت ترمز إلى ملكوت الرب، لكنها لم تبلغه في الواقع. وهنا كانت تكمن أسباب سقوطها التاريخي. تثبت الاشتراكية، بصورة نهائية، عبثية جميع المساعي الخارجية إلى المجتمع الكامل والحياة الكاملة. والتحقق الحقيقي للحياة الروحية الكاملة هو العلاج لقضايا المجتمع المعاصر.

(44) هو Robert von Pöhlmann، باحث ألماني بارز بالتاريخ القديم، حاول في كتابه **تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة** إثبات فكرة أن الاشتراكية كما سقطت في القدم فهي لن تصمد في العصر الحديث (1852 - 1914). (المترجم)

(45) هو Eduard Meyer، اختصاصي ألماني معروف بالتاريخ القديم وتاريخ مصر والشرق. أشهر أعماله: **تاريخ العالم القديم**، 5 أجزاء (1855 - 1930). (المترجم)

(46) chiliasme من كلمة χῑλιάς اليونانية - ألف، أو millénarisme اللاتينية - ألف أيضًا. مفهوم لاهوتي، أو تصور مسيحي عن الآخرة حول طبيعة انتصار حقيقة الله على الأرض، تصور حول «العصر الذهبي» حين يحكم المسيح والمسيحيون الأرض على امتداد 1000 عام. (المترجم)

(47) فيلسوف فرنسي، رائد المدرسة الشيوعية (1788 - 1856). (المترجم)

(48) من قادة الحركة الاشتراكية الفرنسية والعالمية، مناضل ضد الاستعمار والنزعة العسكرية والحرب، فيلسوف ومؤرخ. اغتيل عشية الحرب العالمية الأولى (1859 - 1914). (المترجم)

الرسالة العاشرة

في الفوضوية

الفوضوية (l'anarchisme) هي، كما الاشتراكية، من التطلعات الأزلية التي برزت منذ القِدم في المجتمع البشري، ومن حدود الفكر الاجتماعي للإنسان. لكن حافز الفوضوية الثوري يختلف عن حافز الاشتراكية الثوري؛ إذ ثمة تناقض داخلي بين هاتين الطبيعتين، وإن كان يوجد تحول غير مرئي للواحدة منهما في الأخرى. وإذا كانت الاشتراكية تبلغ العدم في تعطشها إلى المساواة، فإن الفوضوية تبلغ العدم في تعطشها إلى الحرية. سقف الاشتراكية - مساواة فارغة. وسقف الفوضوية - حرية فارغة. وإذا كانت الاشتراكية تؤمن بقداسة التنظيم، فإن الفوضوية تؤمن بقداسة استقلالية الإنسان الذاتية الطبيعية والروحانية[49] (animisme). الفوضوية تؤمن أنه يمكن أن يولد التناغم من الفوضى بالطريق الطبيعية. في الفوضوية، إيمان بالإنسان أكثر مما في الاشتراكية، علمًا أن ليس من أسس لهذا الأمر مطلقًا. الفوضوية تنكر أهمية القانون بالنسبة إلى الحياة الإنسانية، بالنسبة إلى المجتمع، بالنسبة إلى مسارات التاريخ، تنكر كل تراتبية، كل حق وكل دولة. بالنسبة إلى الوعي الفوضوي المنسجم مع نفسه، ليست العملية التاريخية ذات معنى بتاتًا، وعلى الإنسان التخلص من سائر الزوائد المتحجرة في الدولة والثقافة. الفوضوية المنسجمة مع ذاتها لا تقر بأي إنجاز في المسار التاريخي الطويل للبشرية. وهي تريد إحياء الإنسان الطبيعي، المتحرر من جميع الارتباطات، من جميع ذكريات التاريخ. كل شيء ليس سوى غلاف ضابط للإنسان الحر بطبيعته، وكل التاريخ ليس سوى أصفاد تقيد الإنسان. الفوضوية لا تقر بأي قانون داخلي للعملية التاريخية. في وسع الإنسان، بل ينبغي له، أن يحرر نفسه كليًا في كل لحظة من التاريخ، وفي أي نظام اجتماعي كان. طبقات المجتمع «البروليتارية» التي تمثل الاشتراكية هي عينها التي تمثل الفوضوية، بل تعترف هذه الأخيرة بذاتها أيديولوجية البروليتاريا الرثة، تعترف بكونها الشريحة الخامسة. أنتم، الفوضويون، تحبون التشدق بالحديث عن حرية الإنسان، وعن الشخصية، إلا أنكم تتنفسون الحقد الطبقي عينه الذي يتنفسه الاشتراكيون، أنتم أيضًا لا يسعكم الارتفاع فوق وجهة النظر الطبقية. وهذا هو التناقض الداخلي للفوضوية، ويمكن أن نتلمس في هذا الأمر عدم حريتها وارتباطها بأدنى أشكال الاشتراكية. يقوم الأساس الروحي للفوضوية على الشعور الثوري المتمرد بالإهانة، على إحباطات الحياة، على الضغينة ضد تلك القيم والثروات التي لم تُتح حيازتها وبقيت غريبة. أيديولوجية الفوضوية قريبة للدهماء والمتشردين الساقطين من التراتبية الاجتماعية. إن الهوس الفوضوي بالتدمير يولد من الكراهية وحب الانتقام. ولا يشعر الفوضوي في المجتمع البشري، في الثقافة الإنسانية، بأن أي شيء يخصه أو يقربه أو أنه ملكيته، بل يتصور كل شيء غريبًا وكريهًا يقمعه. الدولة بالنسبة إلى الفوضوي ليست دولته، بل هي غريبة، جائرة وكريهة. ما الذي يقر به الفوضوي ملكية له؟ لا شيء. وهو لا يمتلك ملكية مادية (أحيانًا قد يمتلكها)، ليس هذا فحسب، بل هو لا يمتلك، وبالدرجة الأولى، ملكيةً فكريةً، ولهذا يُراكِمُ غضبًا مدمرًا في قلبه. ماكس شتيرنر (Max Stirner)، وهو الفيلسوف الأشد أهميةً وتطرفًا بين فلاسفة الفوضوية، كتب كتابًا بعنوان **الأوحد وملكيته**، بكل شيء، بل بالعالم بأسره، ملكيةً «للوحيد». لكن هذا خداع مخيف للذات. فهو، في الواقع، سَرَقَ «الوحيد» وحرمه من كل ملكية. «الوحيد» هو بروليتاري روحي، وليس له ما هو خاص به؛ إذ إن جميع الحقائق الروحية والقيم الروحية ليست له، بل غريبه عنه، لذلك هي مكروهة منه. «الوحيد» يعيش في صحراء، في صحراء روحية مخيفة. وليس «من شيء» لديه يبني عليه عمله، بل ليس «من شيء» يشكل مضمون حياته، يشكل غاية حياته. وجميعكم أنتم، الفوضويون الثوريون، مثله بروليتاريون روحانيون كما «وحيد» شتيرنر، مثله

بائسون، مثله فارغون، مثله منعزلون ومنفصلون عن سائر مصادر الحياة الروحية والثروات الروحية.

الفوضوية هي ذرية، هي تَفككُ جميع الكلانيات الاجتماعية إلى ذرات تُرسخ ذاتها، إلى أفراد يبدأون التاريخ كله من أنفسهم، ينكرون سائر الحقائق العليا. إن غلبة الفوضى من شأنها تهديم كل تراتبية الحقائق المتراتبطة عضويًا في ما بينها، من شأنها تهديم كل نظام الكون ودفع الفوضى إلى الثورة ضد الكون. وأول ما يحدث في ثورة الفوضى هذه هو أن جميع الحقائق الكونية، حقائق دنيا الله التي ولدت في النور، تصبح عرضةً للشك. وتغوص هذه الحقائق في الظلمة الفوضوية التي يتم الاعتراف بها على أنها الحقيقة الواقعية الوحيدة. تتحرر الفوضى وتتوهم الذرات التي ترسخ ذاتها، أنها قادرة على خلق عالم جديد. هذا ما يحصل تحت النظريات الفوضوية التي تبدو على هذا القدر من الشاعرية والتسامي. من وجهة النظر الفلسفية، فوضويتكم هي اسمانية متطرفة، هي إنكار لواقعية جميع الكلانيات والجماعات من أممٍ ودولٍ وإنسانية وكونٍ وإله. جميع الحقائق تحولها الفوضوية إلى أشباح خانقة. وهي تريد لو تُعري الإنسان، أن تضع الإنسان في الفراغ وأمام الفراغ. لكن، ألا يتحول الإنسانُ على هذه السبيل إلى الشبح الأخير من الأشباح؟ ألا تدمرون أنتم الإنسان الذي كان معيار حكمكم الأخير، والذي باسمه تُرتم على العالم أجمع وعلى الله؟ بالنسبة إليكم، أنتم الفوضويون المنسجمون مع أنفسهم. الشخصية الإنسانية هي الشبح الأكثر سطحيةً من بين جميع الأشباح. عليكم أن تذهبوا إلى الأكثر بعدًا وتتعمقوا في عملية التفكك والتذرر والتحلل الثورية. لقد حولتم الإنسان ذرة. وإنسانكم نفسه يتفكك إلى ذرات. الثورة تغور عميقًا. والإنسان هو كليانية، هو وحدة حقيقية. الأجزاء تثور على الكل وتُفسد نواة الشخصية الإنسانية ومركزها الروحي. إن اسمانيتكم المدمرة عليها أن تتمادى أكثر فأكثر، وليس عليها أن تحافظ على أي حقيقة واقعية. لماذا الإنسان الفرد هو أكثر حقيقةً من جميع الحقائق الخارقة التي دمرتم أنتم؟ هذا هو الحكم المسبق البائس الذي ترفضونه بصعوبة. ليسوا كثرةً منكم الذين يتجاسرون على ما هو راديكالي يذهب حتى النهاية في تدمير كل حقيقة واقعية في العالم. هذا التدمير كان من شأنه أن يكون، حقًا، بلا نهاية. إن لانهائية هذا التدمير تكشف الهوة المظلمة التي يخافها أكثر المتطرفين من بينكم. ومع ذلك، أنتم ما زلتم شديدي الاعتدال. حتى ماكس شتيرنر، الأكثر جرأة من بينكم، حافظ على خرافة «الوحيد». لكن الفوضوية المنسجمة مع ذاتها كان عليها ألا تعترف إلا بحقيقة هوّة العدم الفوضوية، بلانهائية التفكك والتحلل البائسة. الفوضوية يجب أن تشمل الفردية وكل «أنا» بشرية. فوضويتكم هي التناقض عينه والدمار عينه. ليس في وسعكم أن تتوقفوا عند أي شيء وتستيكنوا. التيار المظلم يجرفكم نحو الهاوية. أنتم ليس في وسعكم أن تتحدثوا باسم أي شخص. لا يبقى أي شخص حقيقي بالنسبة إليكم. أنتم ليس لكم حق التلفظ بأي اسم. الطريق الفوضوية هي طريق التدمير الذاتي للشخصية، طريق موت أنا الإنسانية. فمن يفجر بالديناميت جميع الحقائق التي ترتفع فوقه، جميع القيم والمقدسات، فهو إنما يفجر نفسه أيضًا، يفجر «أنا»، خاصته، يقتل شخصيته ويقحِمها في لجة العدم الفوضوي. «أنا» الإنسانية، الشخصية الإنسانية، الفردية الإنسانية توجد جميعها، إذا كانت توجد حقائق أعلى من الإنسان، أعلى من «أنا» خاصته المغلقة. الإنسان موجود بكل عمقه، إذا كان الله موجودًا، وهو يموت، يتفكك إذا كان الله غير موجود، إذا مات الله فيه. الإنسان يبقى دائمًا لأن ثمة فوقه ما يجعل حقيقته الخاصة لانهائية العمق ولانهائية المحتوى. الإنسان الذي ليس فيه سوى البعد المسطح، وليس فيه بُعد العمق، يتلاشى مع الهواء ويفقد الحق باسمه الذي منحه إياه الله منذ زمن. لكن، هل تعرفون أنتم بعدًا للكائن الإنساني

غير البعد المسطح؟ ينتفض ويثور الإنسان الذي يغدو مسطحًا بصورة نهائية. الحقائق التي هي فوق الإنسان، والتي تربطه بالواقع الإلهي العميق، تحافظ على الإنسان وعلى أنموذجه وسيمائه وكرامته، وتحول دون تحلله وموته في الهوة المظلمة، في الطبيعة الفوضوية. في قاع الفوضوية يمكن أن نعثر دائمًا على شخصية خليعة فقدت صورتها، فقدت نقطة ارتكازها الروحية. الفوضوية قاتلة الإنسان أيضًا، كما الاشتراكية. ليس لديكم أنتم الفوضويون، من تحررونه. أنتم لا تحررون الإنسان، بل تحررون العدم الفوضوي الذي يموت فيه الإنسان.

إن تلك الحقائق وتلك القوى التي تريد الفوضوية أن تتخلص منها، تحمي الإنسان من العواصف التي تشكل خطرًا على صورته. الكنيسة، بنظامها التراتبي، تحمي صورة الإنسان، وتحمي الشخصية الإنسانية من شياطين الطبيعة، من العواصف، التي تحيط به وتهدده من جميع الجوانب. الدولة، بنظامها التراتبي، تحمي صورة الإنسان من العواصف البهيمية، من الظلمة المتصاعدة من أسفل، وهي تعترف بالإنسان كائنًا فردًا، وتحميه من الإرادة الشريرة التي تتخطى جميع الحدود. الحقوق تحمي حرية الإنسان من الإرادة الشريرة للناس الآخرين والمجتمع برمته. القانون يدين الخطيئة، ويضع حدًا لها، ويجعل الحد الأدنى من الحرية ممكنًا في الحياة الآثمة للبشرية. الفوضوية تنكر الخير والشر، وتعتبر الطبيعة البشرية، بدَهيًا، صالحة وغير خاطئة، لكن هذا بالذات ما يجعل الفوضوية لا تحرر الإنسان، بل تستعبده أكثر. وبهذا تُغرق الفوضوية الإنسان في اللجة، في الفوضي البهيمية العبودية، وتضع الشخصية الإنسانية تحت رحمة الشياطين. الفوضوية ترسخ حرية الاستعباد لدى البشر. أنتم، الفوضويون - المُحَرِرون لا تعرفون حرية آدم الجديد المولود في المسيح. إن حريتكم الفوضوية هي الحشرجة الأخيرة لآدم القديم، للإنسان الطبيعي المتداعي. فمن هو حقًا حر روحيًا لا يمكنه أن يكون فوضويًا، وليس لديه مَن وما يُسقِطه. إن ميول الفوضوية هي ميول عبد. الذي يصبو حقًا إلى التحرر لا يمكنه أن يكون فوضويًا؛ إذ هو يريد، بالدرجة الأولى، أن يحرر نفسه من طبيعته الخاصة الوضيعة، من سيطرة العواصف المظلمة عليه. الفوضوية تريد أن تحرر الإنسان بالمطلق، من دون أن تغير طبيعته وتعدلها، وتتركه عبدًا للخطيئة والأهواء. وهي تبتغي مملكة الحرية من دون تضحية. لكن المسيح هو المُحَرر، والحرية هي حيث روح الرب. أنتم لا تريدون أن تعرفوا المسيح وروح الرب، وتتوهمون أنفسكم أحرارًا، وأنتم عبيد. حرية الإنسان لا يتم بلوغها بالثورات والانتفاضات. الحرية الفوضوية هي حرية بالنفي «مِن»، وليس حرية «من أجل»، حرية شكلية، وليست ذات مضمون. هذه حرية الأطفال الذين يرغبون في الحصول على فرصة القيام بكل ما يخطر على بالهم، لكنهم لا يعرفون بعد ما الذي يخطر. هل فكرتم أنتم يومًا لماذا أنتم بحاجة إلى الحرية، وكيف سوف تستعملون حريتكم، وبأي مضمون إيجابي سوف تملأونها؟ إنني أشك في أنكم فكرتم عميقًا في الأمر. أنتم ترغبون في الحصول على فرصة القيام بكل ما ترغبون. لكن، هل رغبتم في شيء ما جوهري؟ هل قمتم باختيار طريقكم؟ هل أحببتم ما يجعل ما تحبون يملأ حياتكم بمضمون رفيع؟ لا يتكلم أحد منكم كلمة عن الأمر. أنتم، ليس لديكم أي هدف. إن جماعاتكم الفوضوية الحرة هي طوباويات مثالية برجوازية صغيرة محرومة من أي معنى عميق. إن الوسائل التي تلجأون إليها في الصراع، تسبغ عليكم اللون الأسود - الأحمر المشؤوم، وتمنحكم طابعًا شيطانيًا تقريبًا، لكن أهدافكم بائسة وتافهة. أنتم تسعون، عبر وسائل مرعبة ومجرمة، إلى نعيم دنيوي مثالي، إلى جنة طبيعية في منازل صغيرة مع حدائق. إن انتفاضاتكم وثوراتكم الدموية المخيفة ينبغي أن تنتهي بلا شيء. إن حافزكم

كله هو في وسائل النضال، لا في أهدافه. الحرية الفوضوية هي حرية فارغة، حرية من جميع ارتباطات الوجود، من الله، من الكون، من جميع الاجتماعات البشرية. لكن، ماذا ستفعلون في اليوم التالي بعد أن تسقط الروابط الإيجابية كلها التي تملأ حياة الإنسان؟ أنتم أنفسكم لن تعرفوا ما ستفعلون. أنتم سوف تشعرون بضجر قاتل وملل من الفراغ ورعب من العدم. أنتم أنفسكم سوف تفضلون عبودية هذه الحرية الخاوية. والعبودية لن تجعلكم تنتظرونها طويلًا. الحرية الخاوية الفارغة من أي معنى تتحول فورًا إلى عبودية. أنتم سوف تكونون عبيد أنفسكم وعبيد أمثالكم وعبيد الطبيعة المظلمة الجامدة. الفوضوية لا تعرف الحرية الحق، كما الاشتراكية لا تعرف الأخوّة. الفوضوية تفتضح سر جميع الاتجاهات السلبية التي تؤله الإنسان الطبيعي المتداعي. وهي في قعر كل ثورية واشتراكية وديمقراطية. ولا يستطيع أي من هذه الاتجاهات مواجهة الفوضوية بما هو جدي، لا يستطيع مجابهتها. إن التعرية الجذرية لزيف الاتجاهات السلبية هي فضيلة للفوضوية.

***

يمكن الكشف في أساس الفوضوية الدينية عن ضمور الإحساس بالشخصية، فالشخصية مسحوقة عند أتباع تولستوي والمناهضين للروح وسواهم من الفوضويين الدينيين. وهم يرون أن قانون الحياة الإلهي يتبلور في الشخصية المنمحقة، ويودون أن يبلغوا بالجميع إلى اللامبالاة التامة ويجعلوهم متساوين كليًا. الأنموذج الفردي على استعداد للاعتراف بالفوضوية الدينية خطيئةً. وبدأت فوضوية تولستوي الدينية من شخصية أفلاطون كاراتايف[50] (Platon Karataev) المنمحقة كليًا. لكن، إذا كانت الفوضوية الدينية لا تعرف الشخصية، فإن فوضويتكم اللادينية لا يسعها أن تتلفظ أبدًا بكلمة «شخصية»، لأنها منقطعة كليًا عن هذا الواقع. أنتم تنكرون كل سلطة وتطيحون كل سلطة بكل هذه السهولة وانعدام المسؤولية، لأنكم لا تعرفون الشخصية ولا تثمنون الأنموذج الذي تحتضنه. لهذا، أنتم لا تخيفكم الفوضى العديمة الهيئة والسيماء، بل هي تجتذبكم. إن المطالبة بالشخصية مطلقة الحرية التي لا تعرف أي سلطة فوقها، تدمر الشخصية وتغرقها في الفوضى العديمة الهيئة والسيماء. تلك هي المفارقة الرئيسة في الفوضوية. أنتم تعتقدون أنكم تنتفضون وتثورون باسم الشخصية، باسم حريتها المطلقة وتأليهها، لكن هذا ليس سوى خداع مخيف للذات. فوجود الشخصية يتطلب حدودًا وفوارق، يتطلب الحماية من الفوضى العاصفة، عديمة الهيئة والسيماء. لا تكتسب الشخصية حريتها في الإلغاء الكيفي لكل الحدود والفوارق، ولا في احتضان الفوضى المظلمة المُدَمِرة، بل في النظام والتناغم الكوني والتاريخي. والشخصية الإنسانية والحرية الإنسانية ترتبطان ارتباطًا وثيقًا بالتراتبية. تلك هي الحقيقة المغلقة بالنسبة إليكم أنتم جميعًا، وليس الفوضويين فحسب، بل والاشتراكيين والديمقراطيين والليبراليين وأسرى الأشكال والأفكار السياسية والاجتماعية الإيجابية كلهم. **إن وجود الشخصية مرتبط باللامساواة الأنطولوجية**.

الشخصية ليست ممكنة سوى في الفضاء، فضاء الوجوه والسيماء المتمايزة. التمايز هو ترسيخ الفروقات. للكون نظام تراتبي، لكل شخصية فيه مكانها الوحيد ومهمتها الوحيدة، كل شيء فيه وحيد لا يتكرر. وكل استعباد للشخصية، كل خلط لها مع اللاشخصية، وكل عنف يمارس عليها من اللاشخصية، هو نتيجة الوضع اللاكوني للعالم، نتيجة استعباده من الفوضى التي تفرق وتُقيد. الشخصية مستحيلة في الفوضى؛ إذ يستحيل في الفوضى تمييز السيماء والصور. كل شيء في الفوضى مشوش ومختلِط. في الفوضى لا تمكن المحافظة على ما هو حميمي. الفوضى لا تعترف

بأي شيء فريدًا لا يتكرر، يتميز من كل ما عداه بنوعيته ودوره. الفوضى لا تعرف حدودًا لطوفانها، لضغطها الساحق. الوضع الفوضوي للعالم هو وضع لا سيماء له كلية، ولا يمكن تمييز الفردي فيه. ثمة احترام في النظام الكوني لما هو فردي لا يتكرر، لما هو حميمي، ثمة وقاية من الاختلاط الشامل للأمور بعضها ببعض. في عاصفة الفوضى ليس من احترام لأي شيء. العاصفة تعترف بكل شيء لها، تقتحم كل مكان، وتتغلغل في كل شيء، وتبتذل كل شيء. فهي لا تعرف أمكنة مقدسة، ولا تعرف ما لا تُنتهك حرمته. الأناركية (anarchie) هي الفوضى، هي إنكار النظام الكوني للعالم، هي الاختلاط الشامل للأمور بعضها ببعض، هي انتهاك تلك الحدود التراتبية كلها التي كانت تحمي وجود الشخصية. لهذا، تحمل الأناركية معها استعباد الشخصية والقضاء عليها. تقضي الأناركية في مجال حدودها، في الهوة المشرعة فوقها، على جميع الحقائق، وتحيلها إلى عدم. وحلاوة الأناركية لمَن أغوتهم، هي حلاوة العدم. وذلك لأن التمسك بالوجود ومضاعفة ثرواته أمرٌ على صعوبة مؤلمة. والدرب نحو ذرى الوجود يمر عبر الآلام. وأنتم تريدون أن تتخطوا الآلام فورًا وتقتحموا ملكوت العدم. في عصور الثورات تصدف لحظات تنتصر فيها الأناركية. تقتحم العواصف الفوضوية الفضاء الاجتماعي وتطيح كل نظام وتناغم كوني. يتم اختراق جميع الحدود وتختلط جميع الأمور بعضها ببعض. الإله أو الشيطان عديم السيماء هو الذي يفوز في الثورات. وبعضكم على استعداد أن يسمي، وبفرح، اسم هذا الإله. هذا الإله هو ديونيسوس. إنه هو الذي يقيم احتفالاته المجونية في عواصف الثورات. فهل يحمل الحرية معه، هل يحرر الشخصية، هل يقود الإنسانية إلى أعلى؟ كلا، فالسلطة المطلقة لهذا الإله تمزق الشخصية، وهو يُقحِم النمط الإنساني في لجة مظلمة لا سيماء لها. ولم يكن الإله ديونيسوس في اليونان القديمة إله الشخصية، إله النمط الإنساني. ليس في ديانة ديونيسوس ولدت الشخصية، ولم تتسامَ الروح الإنسانية فيها. في حفلات المجون الديونيسية تم تطويق اليونان وطافت عليها أيضًا عواصف الشرق الفوضوية الآتية من شواطئها والثائرة على حكامها. صورة الإنسان تسامت وظهرت في ديانة أبولون، إله الشكل والحدود. الإنسانية الأوروبية كلها والثقافة الأوروبية بأسرها هي من صنيع التحويل الأبولوني للعواصف الديونيسية. هكذا، ولدت صورة الإنسان. حررت المسيحية الإنسان من عبادة الجن وأعلت شخصية الإنسان. الفوضوية أرادات لو تبعث عواصف شياطين الطبيعة من جديد وتضع الإنسان تحت رحمتها. الفوضوية لا تريد، بل لا تستطيع أن تُنير العواصف. وهي تريد أن تصدق بقداسة هذه العواصف، وتَبقَى على جهلها للشر. الفوضوية هي توليفة غير طبيعية ومتناقضة بين العفوية الديونيسية والعقلانية غير المحدودة. فهي تؤمن بعقلانية العاصفة عينها. فالفوضى تلبس لبوس النظام الجديد العقلاني للحياة وهو شر، وليست الطبيعة البكر التي سبقت التقسيم إلى الشر والخير.

***

تقوم الفوضوية التاريخية بتربية الإنسان والإنسانية، وتجعل انتقاء العناصر النوعية ممكنًا، وكذلك ازدهار الحياة والإبداع في الجزء المصطفى من البشرية، في الأرستقراطية الروحية. في كل نظام للحياة تمر طريق هذه الأقلية عبر الآلام، عبر عدم الاعتراف والنضال المرير في سبيل أفكارها. لكن وجود هذه الأقلية استمر، من حيث المبدأ، بفعل حمايته من الحشود البشرية الفوضوية. كانت الحياة الحميمية الداخلية ممكنة دائمًا، وإن كانت مليئة بالمعاناة، وكانت الباطنية - الداخلية (Esotérisme) ممكنة دائمًا في التاريخ. الفوضوية تنكر، مبدئيًا، كل حياة باطنية - داخلية، وهي تقف ضدها، كما ضد البداية الأرستقراطية والتراتبية. وهي كانت تود لو تسحق هذه

الحياة التراتبية الرفيعة بالفوضى الطبيعية. في حركاتنا الفوضوية يطيح مَن هم تحت مَن هم فوق. لهذا الأمر معنى، ليس ماديًا فحسب، بل وروحي أيضًا. النظام التراتبي للكون هو السبيل لكشف الحقيقة الداخلية العليا ومصادر النور وحمايتها. الفوضوية تريد قذف كل حميمي من الأواني المقدسة في عاصفة الحشود الفوضوية. وتهدد بهذا القذف على نحو خاص الفوضوية الدينية والصوفية - الباطنية. الفوضوية الميتافيزيقية والصوفية - الباطنية مناهضة للتراتبية. لذلك، تميل هي إلى الابتذال، وتخون النوعية بالكميات، ولا تعترف بأي مقام مقدس، ولا بأي سياج للمعابد، ولا بأي سُترٍ للأسرار. لكن، ومن جهة أخرى، تثير النزعة الفوضوية الدهشة بانخفاض المحبة لديها والتسامح تجاه الناس، وتجاه الحشود البشرية. إن تأليه الفوضوية للاضطراب والعشوائية، وعداء الفوضوية لكل ترتيب حياتي ونظام، يحمل معه ما لا يحصى من المصائب والآلام للجماهير البشرية، للإنسان المتوسط. لكن، مَن يملك الحق بدفع الآخرين وذوي القربى إلى الفوضى، إلى البلبلة واضطراب الحياة بأسرها، إلى الجوع والبرد، إلى عدم توافر المتطلبات الحياتية البسيطة والحقوق البدهية؟ في جميع الأحوال، إن مثل هذا الموقف تجاه الناس ليس مقبولًا بالنسبة إلى المسيحي.

إن أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين، كان عليهم أن يفكروا في هذا الأمر. فترتيب الحياة الإنسانية الذي لا يسمح بتحويلها جحيمًا، هو واجب كل مسيحي. وتتجلى في هذا محبة الناس والتسامح تجاه الضعف البشري. وليس أقبح وأقل انعدامًا للمسؤولية من الفوضوية الصوفية - الباطنية التي تستمتع بالهاوية والاضطراب، بالعفوية غير المحدودة وظلمة الطبيعة البكر، بل هي تدعو إلى ذلك وتزين بالغموض مثل هذه الحالات من حياة الشعب، وتطلق تسمية «برجوازي» على كل نظام، وكل تدبير، وكل تنظيم للحياة. وأقل شيء يمكن أن نعثر عليه في هذا اللغط الباطني - الفوضوي هو روح المحبة. ثمة من روح المحبة أكثر في أقسى أشكال الدولة. في الدولة ثمة تسامح مع الخطيئة البشرية، مع الضعف البشري، ثمة إدراك مسؤول لشرور الحياة، ثمة تدبير لتلك الظلمة التي تملأ حياة البشرية. وهو زائف أيضًا تأويل وتفسير الفوضوية الأبوكاليبتي. وتترك تأثيرها، هنا أيضًا، تلك الروح السلبية غير الرجولية وغير المسؤولة. إن إنكار أساس السلطة والدولة على أساس أن نهاية العالم تقترب، وأن كل شيء في التاريخ قد استنفد ونضب، هو إغواء ديني، هو فشل ديني. نحن لا يسعنا أن نعرف الأزمنة والمواعيد. والمسيح يتحدث عن ذلك. وعلينا في جميع الأزمنة أن نقوم بواجبنا وأن نعلي الروح المقدام والنشيطة. ومن وجهة نظر تتسم بعمق أكبر، يتحقق التاريخ في الأزل، ولا يتم في الأزمنة سوى توقعه ليس إلا. في الأزل تُطرح مهمة التاريخ. لهذا، ليس من مسوغ للفوضوية الأبوكاليبتية أيضًا. فهي تجعل التاريخ مِزَقًا من الوقت، تجعله عملية موقتة. إنها تريد أن تخرج من الوقت كعبدٍ للوقت.

إن البداية التراتبية للسلطة، والقانون التراتبي للكنيسة والدولة والحقوق ينبغي أن يبلغا بالبشرية حتى نهاية الأزمنة. هذه البدايات ليست قابلة لتجاوزها سوى في البعد الأزلي، وليس في بعد الزمن التاريخي. لكن البداية السماوية للسلطة سوف تبقى موجودة في شكل مُحَور حتى في الأبدية وفي الحياة السماوية أيضًا. ولن تكون هناك من فوضوية. ويمكن أن تتوقف السلطة عن العمل بما هي بداية قسرية وعنفية، لأنها تعمل على هذا النحو في الوسط المادي والمظلم فحسب، لكن لا يسعها عبوره. وهي تعمل في التراتبية السماوية وفي الفضاء السماوي أيضًا. بداية السلطة هي بداية أزلية، وليست فحسب ردة فعل موقتة على الشر. تسعى الفوضوية إلى تدمير الكون، لذلك كان

بودها لو تقضي على السلطة التي تحكم الكون وتمسك به وتنظمه. الحرية الفوضوية لا تتسع للعالم والله. ضيقة هي هذه الحرية، وليس من مكان في خوائها لأي ثروة. الفوضوية لا تبتغي أبدًا جعل الإنسان حرًا حقًا، بل لا تريد سوى أن يعترف بالمُقَيد حرًا، من دون أن تغير من طبيعتها عند هذا ولو قليلًا، أي إنها تريد الخداع والغش. الحرية الفوضوية ليست حرية فعلية. الوعي الفوضوي لا يعرف الحقيقة التي يقدرها حكماء البشرية، حقيقة أن الإنسان هو كونٌ مصغر. فلو أنكم عرفتم هذه الحقيقة الداخلية العميقة، لكنتم أنهيتم انتفاضاتكم وثوراتكم الخارجية. الذي يقر بنفسه كونًا مصغرًا لا يستطيع الثورة على الكون، وهو يحرر نفسه بالكشف عن الكون في نفسه، ذلك هو الإنجاز الأعظم للحرية البشرية. ليس عاليًا التصور الذي تملكون عن طبيعة الإنسان، عن رتبة الإنسان. وتريدون أن تجعلوا كل إنسان غير محدود الحرية حاكمًا متسلطًا. يا له من طموح بائس وفارغ! يا له من تفاخر بالنفس! الديالكتيك الداخلي للفوضوية يقتلها، يقودها إلى تدمير الذات وإبادتها. في هذا الديالكتيك يكمن قدر الفوضوية. ديالكتيك الفوضوية يدمر الحرية، يدمر الشخصية، يدمر كل حقيقة.

الفوضوية تحمل الموت، لا الحياة والقيامة. إن الفوران الفارغ للمشاعر الفوضوية، ليس سوى اختبار للنفس الإنسانية. يتعلم الإنسان على هذه الدرب الكثير مما هو سلبي. ويُفتضح أمر الزيف الأسطوري لجميع الاتجاهات «اليسارية» السلبية. الفوضوية تكمن داخليًا في الليبرالية، في الراديكالية، في الديمقراطية وفي الاشتراكية. ما الذي في وسع جميع هذه الاتجاهات أن تتصدى به للفوضوية، ما هي البدايات الأنطولوجية الكامنة فيها؟ ليس مقنعًا كل ما يقولونه ضد الفوضوية. الفوضوية يجب أن تكون في النهاية بمنزلة العقاب الداخلي، بمنزلة النهاية لكل السبيل الذي ابتعد من المركز الروحي. وللحقيقة، ثمة في الفوضوية إغواء ما، بل هو الإغواء الأقصى؛ وإذ تتجاوزه البشرية، تخرج، بصورة نهائية، إلى الحياة الحق. الحد الذي قد تبلغه الفوضوية، لن يكون سوى الاستبداد الأشد هولًا، سوى تسلط إله زائف ما، يرتفع فوق الفوضى الثائرة.

تستبق ظهور هذا الاستبداد مملكة الوقحين وسيادة الجاحدين، يستبقه تدني الأنموذج الروحي للإنسان والإنسانية. ليس نمط الميول الفوضوية من النبل بشيء. ينكر هذا النمط الميلاد الطيب، الأصل الطيب والانتماء إلى نسب كريم. وهو لا يعرف أي ميلاد وأي أصل، ولا يربط نفسه بأي نَسَبٍ. لهذا، يصبحون فوضويين بكل تلك السهولة جميع أولئك الذين يشعرون بأنفسهم حثالةً، ومع ذلك يتعطشون للعيش مع الجماهير وفي الجماهير. الأشخاص الذين يميلون إلى العزلة والوحدة، ليسوا مفهومين، لكنهم شديدو التركيز، عميقون، تأمليون، لا يثمنون الحياة مع الجماهير وفي الجماهير لا يصبحون فوضويين. الفوضوية هي واحدة من وسائل اكتساب موقع بين الجماهير. هذه الوسيلة ليست ممكنة بالنسبة إلى الشرفاء. يسهل على البوهيميا الأدبية - الفنية أن تلتحق بالفوضوية غير المحددة. لكن هذا لا يرتقي بالنمط الروحي للفوضوية. لأن في البوهيميا الأدبية - الفنية عادة ما يُفتقد المركز الروحي والصلة العميقة مع مصادر الحياة. ليس من تمييز للنوعيات في البوهيميا ذات النزعة الفوضوية، ليس فيها أرستقراطية روحية، ليس من وعي لكرامة الإنسان الرفيعة بكونه ابن الله، ليس من روح رجولية. البوهيميا الفوضوية هي بيئة سلبية سلسة القياد للتيارات السائدة، وهي على استعداد لتحقيق طلبات سيد الحياة، بل هي على استعداد لعبادة آلهة مختلفة. والبيئة الروحية المواتية بالنسبة إلى الفوضوية تكون دائمًا مفككة، تضيع فيها الملامح

الواضحة لنمط الإنسان. عبر إغراء الفوضوية تريد القوى الظلامية والنفوس الظلامية نزع سلاح الإنسان في اللحظة الأشد حرجًا في التاريخ العالمي، حين تكون الروح الفروسية ضرورية. وليس هذا من قبيل المصادفة، بل ثمة في الأمر مخطط داخلي معين ومعنى محدد. الفوضى تريد إطاحة الكون وهي في لبوس الخير، في لبوس روح الحرية. ومن أجل مواجهة أوهام الفوضوية وخِدَعِها، ينبغي التحلي بالشجاعة ونضج النفس، ينبغي التسلح بعمق المعارف ووضوح الرؤية. ليست روح الإبداع هي التي ترتقي في الفوضوية. ولا يسع الإبداع الحقيقي في الإنسان سوى أن يناهض الفوضوية.

(49) الاعتقاد بوجود الروح والأرواح، الاعتقاد أن كل ما في الطبيعة له روح. (المترجم)

(50) إحدى شخصيات رواية ليف تولستوي **الحرب والسلم**. وهو فلاح روسي بسيط، متدين، معدوم الشخصية. يتعرف إليه على جبهة القتال مع نابوليون النبيل والضابط بيار بيزاخوف (Pierre Bezukhov)، إحدى الشخصيات المركزية في الرواية. (المترجم)

الرسالة الحادية عشرة

في الحرب

الحياة في هذا العالم صراع. والصراع، وليد الشقاق الآثم، ينشأ من النقيصة. لكن عبر الصراع يتم تخطي ذلك الشقاق ويتم تجديد الحياة. الحرب شكل من أشكال الصراع النبيلة، وإن كانت رهيبة أيضًا. الحرب متناقضة (antinomique) بطبيعتها، وهي تناقض مُتحَقق. تُخاض الحرب باسم الحياة، وهي في خدمة كمال الحياة. والحرب تزرع الموت. غاية الحرب هي السلام والاتحاد. كانت الحروب الوسيلة الأشد قوةً لتوحيد البشرية. فقد تآخت الشعوب في النزاعات الدموية والمواجهات. منذ العصور القديمة كانت المجتمعات البشرية تتحد في أجسام تاريخية كبيرة، في إمبراطوريات عظيمة، عبر الحروب كانت الشعوب تتمدد على وجه البسيطة، وتشكلت بهذه الطريقة البشرية الواحدة، وتشكل التاريخ العالمي الواحد! والحرب كانت التعبير عن الشقاق الأكثر دموية في البشرية، التعبير عن الكراهية المتبادلة بين الشعوب والتعطش للتدمير. الحرب هي الظلام والنور، هي الكراهية والمحبة، هي الأنانية البهيمية والتضحية الأسمى بالذات. لا يمكن الحرب أن تكون إما خيرًا وإما شرًا فحسب، بل فيها خير عظيم وشر عظيم. الحرب هي وليدة الخطيئة وفِدية الخطيئة. الحرب تتحدث عن مأساوية الحياة في هذا العالم، عن استحالة الترتيب النهائي للأمر فيه، واستحالة السكينة المطلقة والنعيم فيه. الحرب تسدد أقسى الضربات للإنسان العادي وسكينة الإنسان العادي وطمأنينته. شيطان الحرب كان دائمًا يأخذ البشرية بعيدًا وينتزعها من انهماكها اليومي ومحدوديتها. الحرب أكثر ما تتحدث عن القوى اللاعقلانية، الشيطانية في الإنسان، عن النيران التي يمكن دائمًا أن تندلع وتحرق جميع المصالح البشرية. الحرب هي الإنكار المُجَرب للنظرة العقلانية للتاريخ. لأن الشعوب ينبغي، حقًا، أن تفقد عقلها، دوريًا، كي تخوض الحرب. ثمة عدم تكافؤ لاعقلاني بين الحرب ومصالح الأشخاص المنفردين والشعوب بأسرها. التضحيات الرهيبة للحرب لا تبررها أي مصلحة. هذه التضحيات الرهيبة تتطلب تبريرًا يتخطى العقل، تتطلب معنى وهدفًا يقومان خلف هذا الجزء الإمبريقي المقتطع من الحياة الدنيوية. وإذا كان العقل، في رأي السوسيولوجي الظريف ب. كيد (B. Kidd)، يعجز عن الموافقة على أهداف التقدم، ولا يسعه تبرير التضحية بالمصالح الفردية باسم المصالح البعيدة للجسم الاجتماعي، الأمر الذي يفترض تبريرًا يتخطى العقل، تبريرًا دينيًا، يصبح الأمر صحيحًا أكثر بالنسبة إلى الحرب. لا يقع ضحية الحرب الإنسان المنفرد فحسب، بل تقع ضحيتها أجيال بأسرها. هل يمكن مصالح أشخاص منفردين ومصالح جيل بأسره أن تبرر مثل هذه التضحية بالذات؟ ينبغي التخلي عن عقولنا الصغيرة كي نبرر مثل هذه التضحية. إن التبرير العقلاني للحرب بمصالح محددة هو تبرير مستحيل وسخيف، أيًا كان شأن هذه المصالح. لهذا بالذات، يكون العقلانيون والوضعيون ضد الحرب بالمبدأ، وهم يميلون، عادة، إلى المسالمة. أما المتدينون فيتقبلون الحرب وفظائعها بسهولة أكبر ولا يقفون عادة ضد الحرب، وإن كانوا يدركون شرورها.

أنتم، المسالمون - الإنسانويون الذين تقفون عادة ضد الحرب وتدعون إلى السلم الأبدي، أنتم لا تؤمنون بالمعنى الأسمى للحياة البشرية، لا تؤمنون بالحياة الأبدية. والقتل في الحرب يُخيفكم أكثر مما يخيف المسيحيين المؤمنين الذين يحفظون في قلوبهم الوصية بالمحبة الإلهية. وهو أمر مفهوم، وليس في وسعه أن يُدهش سوى أولئك الذين لا يتعمقون بمعنى الحياة. أنتم تنظرون إلى حياة الإنسان بسطحية شديدة، ولا ترون سوى الجزء الذي على السطح من هذه الحياة. وأنتم تريدون لو أن هذا الجزء من الحياة على السطح كان على أكثر ما أمكن من الطمأنينة والكفاية والمسرة. وليس ما هو أعمق من ذلك وأعلى بالنسبة إليكم. أنتم يُخيفكم القتل الفيزيائي، كما لا يُخيف المسيحيين

الذين يعرفون الحياة الأبدية، لأن كل شيء ينتهي، بالنسبة إليكم، مع الموت الفيزيائي. وأنتم لا تتنبهون إلى أن القتل الروحي أشد هولًا بألف مرة من القتل الفيزيائي. هذا في حين أن حياتنا السلمية مليئة بالقتل الروحي. نحن، من دون أي حرب، نقتل القريبين منا بمشاعرنا وأفكارنا، نُصدر تيارات قاتلة في جميع الجهات، نُسمم أرواح الناس بسموم رهيبة. حياتنا السلمية مليئة بالكراهية والغضب، وهذه الكراهية وهذا الغضب يقتلان الناس. يقول الإنجيل إنه يجب الخوف من قَتَلَة الروح أكثر من الخوف من قَتَلَة الجسد. هكذا، في الأزمنة الأكثر سلميةً، وغير الحربية، تدور حرب قاتلة للروح، تسمم نفوس الناس وتدنسها. لماذا لا يُخيفكم هذا الأمر؟ كل قتل هو، في جوهره الداخلي، قتل روحي لا جسدي. القتل ليس تحريكًا لذرات المادة. القتل هو فعل إرادة يستهدف نفي وجه إنساني وإبادته. وفي الحرب، ومن وجهة نظر أكثر عمقًا، لا يحصل مثل هذا القتل.

إن القتل الفيزيائي في أثناء الحرب لا يستهدف نفي الوجه الإنساني وإبادته. الحرب لا تفترض الكراهية للوجه الإنساني. في الحرب لا يحدث فعل قتل روحي للإنسان. المحاربون ليسوا قتلة. وليست على وجوه المحاربين سيماء قتلة. تمكن رؤية هذه السيماء على وجوهنا السلمية أكثر. قد تترافق الحرب مع عمليات قتل كأفعال كراهية روحية تستهدف وجهًا إنسانيًا، وهي تترافق فعليًا مع مثل عمليات القتل هذه، لكن هذا ليس من جوهر الحرب في شيء ولا من طبيعتها الأنطولوجية. الشر ينبغي البحث عنه ليس في الحرب، بل قبل الحرب، في الأزمنة الأكثر سلميةً في الظاهر. في هذه الأوقات السلمية، تحصل عمليات القتل الروحانية، يتراكم الحقد وتتراكم الكراهية. في الحرب، يُفتدى بالتضحية ما ارتُكِب من شر. في الحرب، يأخذ الإنسان على عاتقه عواقب طريقه، يتحمل المسؤولية، يتقبل كل شيء، بما فيه الموت. لأن، في الحقيقة، ليست حياة الرفاه الطويلة على الأرض هي عاقبة جميع هذه التدابير المتخذة على الأرض من دون الإله، بل الموت هو عاقبتها. الحرب عملية تظهير عظيمة. ينعكس فيها على السطح كل ما يحصل في العمق. إن عمليات القتل الروحانية التي ارتكبت سابقًا، تظهر فيها على المستوى الجسدي. الحرب ليست شرًا بذاتها، بقدر ما هي مرتبطة بالشر، وتأتي نتيجة للشر الأشد عمقًا. في الطبيعة الروحانية للحرب خيرها الخاص بها. وليس من قبيل المصادفة أن أخيار الناس الإنسانويين قد تكونوا في الحروب. يرتبط بالحروب صَقل الرجولة والشجاعة والتضحية بالذات والبطولة والفروسية. فالفروسية والطبع الفروسي لم يكونا ليوجدا في العالم، لو لم تكن الحروب. بالحروب يرتبط ما هو بطولي في التاريخ. رأيت وجوه أشخاص شباب ذاهبين، طوعًا، إلى الحرب. كانوا ينخرطون في الكتائب الضاربة مع الموت المحقق، تقريبًا. لن أنسى وجوههم أبدًا. وأنا أدرك أن الحرب تتوجه، ليس إلى الغرائز الدنيئة في الطبيعة البشرية فحسب، بل إلى الغرائز السامية أيضًا، إلى غرائز التضحية بالنفس وحب الوطن، وهي تتطلب موقفًا جَسورًا من الموت. وليس علينا أن ننسى أن الناس يذهبون إلى الحرب ليموتوا أيضًا، وليس ليقتلوا فحسب. لهذا، فإن الحرب، وفي ظل الموقف اللائق منها، تسمو بالروح الإنسانية وتُكرمُها. إن لتشاؤمكم طبيعة برجوازية صغيرة متواضعة. إن مثلكم الأعلى للعالم الخارجي هو مثل أعلى برجوازي للرخاء الدنيوي، تحتدم تحته الكراهية والضغينة البشرية. النزعة السلمية (pacifisme) هي، بالنسبة إلى البشرية الخاطئة، زيف وكذب واحتيال ظاهري. إن خشيتكم من العنف الجسدي تأتي من موقفكم غير الروحاني من الحياة، من إيمانكم الاستثنائي بالعالم المادي. لكن العنف الجسدي ليس موجودًا كواقع حقيقي مستقل، بل هو موجود فحسب كحال روحية للإنسان والعالم. إن كل ما هو مادي لا يمتلك سوى طبيعة رمزية

استدلالية. أنتم تريدون إزالة النتيجة مع الإبقاء على السبب، تريدون القضاء على التعبير الخارجي من دون تغيير الجوهر الداخلي. في نزعتكم السلمية ثمة جانب سيئ غير موات لوصف موقفكم من الحياة. الحرب تتحدث عن واقع تاريخي أصيل، وهي تمنح التاريخ الشعور بالرجولة. النزعة السلمية هي إنكار لاستقلالية الواقع التاريخي والمهمات التاريخية. النزعة السلمية تُخضع التاريخ لنزعة أخلاقية مجردة أو سوسيولوجية (sociologisme) مجردة. وهي تعطل التاريخ قبل نهايته الروحانية - الفعلية.

***

سيكولوجية الحرب أمر مثير للاهتمام. فيها ينبغي أن نبحث عن مفاتيح لأحجية سيكولوجية الجماهير الشعبية، وهي النفي الأشد للتبرير العقلاني للمجتمع. فإذا كان من غير الممكن، عمومًا، إقامة مجتمع على عقد اجتماعي عقلاني، فكيف يمكن أن تقوم حرب على مثل هذا العقد. الحرب تقوم دومًا على أسس غير عقلانية، وتفترض خضوع الإنسان لأهداف هي أرفع من المصالح التي يسعه بلوغها. فلا يمكن خوض الحرب باسم أهداف عقلانية، نفعية، شديدة الوضوح والتوازن. إنه لمن الجنون خوض الحرب باسم أهداف عقلانية، ومن ذروة «التعقل» خوض الحرب باسم أهداف جنونية فحسب. وهذه هي المفارقة الأساس في سيكولوجية الحرب. وكل عقلنة للحرب هي اغتيال لها، وكل محاولة لجعل أهداف الحرب مفهومة جدًا يقضي على الاندفاع إليها. لا يجوز خوض الحرب من أجل «الأرض والإرادة»، تمامًا كما لا يجوز خوضها باسم منفعة مجردة للدولة، باسم «المضائق» وسواها. لا يمكن خوض الحرب على نحو جيد سوى باسم أهداف متهورة، غامضة، بعيدة وغير مفهومة، خوض الحرب بالغرائز اللاعقلانية، من دون تفكير ونقاش، من أجل «الدين والقيصر والوطن»، من أجل المقدسات الشعبية، بسبب حب الوطن الذي يسمو فوق المصالح كلها. الحرب ينبغي أخذها بعضويتها الغامضة، والبقاء فيها خاضعٌ لمقدسات لا تُترجم إلى أي مصلحة. المطلب الديمقراطي بأن تكون أهداف الحرب ومغزاها مفهومة من جميع المشاركين فيها، ومن أجل أن تُخاض الحرب من خلال حق الاقتراع العام، وأن يقرر كل جندي، بحرية وتعقل، ما إذا كان يريد أن يحارب، وما إذا كان للحرب من معنى، هو سخافة ثورية - عقلانية، هو جهل مخيف بطبيعة الحرب وطبيعة العسكر. البلاشفة أيضًا يُجبرون الشعب على الحرب باسم الجنون واللامفهوم، باسم الثورة الاجتماعية العالمية والأممية الثالثة وما إلى ذلك، لذلك هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحاربوا. الجماهير دائمًا يجب أن تشارك في الحرب باسم ما هو غير مفهوم، ما هو غامض وغير عقلاني. وكلما كان هدف الحرب غير مفهوم، غامضًا وغير عقلاني، كانت الحرب تُثير حماسة أكثر قداسة، وكانت القوات أكثر تنظيمًا وطاعة، وحاربت على نحو أفضل. الجماهير البشرية لا يمكن أن تُنظمها وتخضعها للديسيبلين سوى البدايات اللاعقلانية وغير المفهومة من قبلها وتتعامل معها كمقدسات. البدايات القريبة جدًا والمفهومة تُخِل بالنظام. حاولتم أنتم تنظيم الجيش الروسي ونشر الديسيبلين فيه في أثناء الثورة على أسس عقلانية - ديمقراطية. أنتم مجانين أو مجرمون، تخيلتم أنه يوجد جيش من دون نظام تراتبي. أنتم انتزعتم الروح من الجيش، أنتم قمتم بإبادته وحولتم طاقته القتالية نحو تلك الأهداف التي اجتذبته إليها غرائز بسيطة مغايرة، اجتذبته لاعقلانية أخرى للجماهير. الحرب الأهلية، الحرب الاجتماعية للطبقات، غدت ممكنة لأنه اندلعت فيها قوة عصف غير عقلانية، وكانت تتحكم بها غرائز بهيمية. لكن حربًا وطنية عقلانية -

ديمقراطية كانت غير ممكنة. في عهد الثورة الفرنسية، كان الجيش مظفرًا ويحارب جيدًا لأنه كان خاضعًا لغريزة حب الوطن الغامضة، وكانت توجهه أمة خلاقة. الحرب لا يقررها شعب إمبريقي تجريبي ولا يخوض غمارها، بل تخوض غمارها أمة شديدة النزعة التجريبية الإمبريقية.

الجيش هو كائن حي باطني. ولا يحارب جيدًا سوى ذلك الذي تذوب شخصيته، بفرديتها، في هذا الكائن الحي. لا يستطيع أن يحارب من له تفكيره الخاص وتحليله الخاص. فالتجاوز الغامض للفردية الخاصة وللكيان الخاص يجعل تقبل فظائع الحرب أمرًا ممكنًا. أمام هذه الفظائع، يُحظر على المرء أن يشعر بنفسه شخصيةً مفكرة منفردة. ويستحيل أن يكون هناك فعل حرب خارج الخضوع التراتبي المتبادل. البداية التراتبية في الجيش هي البداية اللاعقلانية بالنسبة إلى الشخصية. الحرب هي تعبير عن لاعقلانية الحياة، وهي تقول بصوت عالٍ باستحالة عقلنة الحياة كليةً. إن دمقرطة الجيش هي عقلنته، أي قتل الروح الواحدة للجيش، وتفسيخه إلى ذرات. إن النقد العقلاني والأخلاقي للحرب يفترض بعثرة جميع الحقائق الواقعية الروحانية الغامضة. روح الجماهير تتناثر، تتبعثر حين تخرج الجماهير من الخضوع إلى الأهداف الغامضة المقدسة للحياة. ومن يخوض الحرب باسم هدف غامض ومقدس يقف في مرتبة أعلى بما لا يقاس من ذاك الذي يخوض الحرب باسم هدف قريب وبالغ الوضوح. الحرب، كما جميع ضحايا التاريخ، تندلع أيضًا باسم هذا وذاك اللذين يخضعان لأهداف الحرب ولا يفقهونها. ولا يسعهما أن يتخطيا ما تعنيه الحرب بالنسبة إليهما سوى صورة غير واعية في أعماقها الغامضة، سوى باستسلامها أمام المقدسات. إن كل العملية التاريخية والعالمية بضحاياها وآلامها تتحقق بالنسبة إلى كل هذا وكل ذاك، بالنسبة إلى قدره الأبدي. لكن هذا عصيٌ على الإدراك عقلانيًا وتجريبيًا - إمبريقيًا، هذا يفترض تحقق أهداف خارج نطاق الحياة الدنيوية. لهذا، السبب تتقبل المسيحية الحرب بفظائعها وآلامها. ويتقبلها بصعوبة أولئك الذين ينكرون الخلود وينتهي كل شيء مع هذه الحياة. حين يموت الإيمان بالحقائق السامية، حين يتناثر كل شيء، حينئذٍ لا يجوز الاستمرار في الحرب، حينئذ يجب إنهاء الحرب.

***

حرب الشعوب تعارضونها أنتم بحرب الطبقات، وجميع ضحايا هذه الحرب مبررة بتصوركم. أنتم تُرعبكم عمليات القتل التي تحصل في الحرب، لكن أنتم لا تخشون ارتكاب القتل في حروبكم الطبقية الثورية. وتتوقف خطاباتكم الإنسانوية حين يدور الحديث عن حروبكم الثورية. حين تخوض أمةٌ الحرب مع أمة، تصبحون أنتم لطفاء رقيقين، تخافون الدماء وتدعون إلى الأخوّة. لكن، حين تتمكنون أنتم من تحويل صراع الأمم إلى صراع طبقات، تصبحون متعطشين للدماء، وتنكرون ليس الأخوّة فحسب، بل وتنكرون احترام الإنسان البدهي للإنسان. الحروب التاريخية للشعوب لا تعرف أبدًا مثل هذا الإنكار للإنسان، كما في الحروب الثورية للطبقات والأحزاب. للحرب آدابها الإلزامية في الموقف من الخصم. العدو الشجاع يدفنونه مع التكريم العسكري اللائق. في الحروب الثورية الطبقية كل شيء يُعتبر مباحًا، ويتم التنكر لكل آداب إنسانية متعارف عليها. يمكن التعامل مع العدو كما مع الحيوان. الحرب لا تخل بالنظام التراتبي الكوني، بل هي خاضعة له. لا يُخل به سوى «الحرب الأهلية». الحرب تشبه المبارزة. شعبان تضيق بهما الأرض معًا، وهما يشعران بأنهما يهين بعضُهما بعضًا، لذلك يصطدمان وجهًا لوجه وهما يعتبر أحدهما الآخر

جديرًا بالمنازلة. والحرب هي أرفع أخلاقيًا وأكثر روحانيةَ من الصراع الاجتماعي، من «الحرب الأهلية» التي ليست حربًا. الحرب تقوم على الاعتراف بكلانية ووحدة العضويات الروحانية. الصراع الاجتماعي، الحرب الأهلية تنكر جميع الكلانيات والوحدات والعضويات الروحانية، وهي تبعثرها، تفتتها. الصراع الاجتماعي لا يعرف سوى وحدة المصالح أو تباينها، وهو لا يعرف وحدة الروح أو تباينها. لا يمكن الحرب الأهلية إلا أن تؤدي إلى الوحشية. والحروب الأهلية لا تولدها الأهداف الغامضة للشعوب ولا قدرها التاريخي، بل تولدها الأهداف المفهومة للعقل، الأهداف المرتبطة بسقوط الإنسان أو الجماعات البشرية من المجتمع، المرتبطة بالمصالح. الحروب الإمبريالية هي، بطبيعتها، أرفع من الحروب الاجتماعية. فيها فكرة عضوية ترتفع فوق تشعب المصالح البشرية ويخضع لها البشر، فيها قدر الشعوب التاريخي الذي ينتصر على محدودية الأفق البشري. وللحروب الإمبريالية منذ القدم هدفها المتمثل بالوحدة الشاملة. عبر الحروب العظمى اختلطت وتوحدت الأعراق والقبائل والقوميات، توحدت البشرية على سطح الكرة الأرضية. الحرب لا تنفي الوحدة الحقيقية الواقعية المولودة ليس من المصالح، بل من أعماق الوجود نفسه. إلا أنها تتحدث عن الحياة اللاعقلانية والمتناقضة في الوحدات الحقيقية الواقعية تراتبيًا.

زائفة هي فلسفة الحرب تلك وأخلاقها التي تعتبر حرب الشعوب المتخاصمة هي صراع إرَم وعاد، صراع النور والظلمة، الخير والشر. النور والحقيقة لا يمكن أن يكونا في الحرب أبدًا في جانب واحدٍ، والشر والظلمة في الجانب الآخر. إن فرض مثل هذا التنظير الأخلاقي المبسط على الحرب يُسقط على الواقع التاريخي مقولات الأخلاق الفردية ويؤدي، في نهاية الأمر، إلى نتائج لاأخلاقية. حين يحارب شعبي شعبًا معاديًا، فسوف يكون من المذموم أخلاقيًا أن أصور شعبي جوهرة الكمال، وأرسم الشعب المعادي وغدًا كالحًا. في صراع الشعوب ينبغي أن تكون هناك «عقيدة»، وأن تترك هذه العقيدة أكبر تأثير ممكن في الحياة العالمية. و«عقيدة» شعبي ليست الوحيدة التي تمتلك الحق بالوجود. فالشعوب الأخرى لديها «عقائد» أخرى، وهي تمتلك حيثياتها. تحصل مباراة بين مثل هذه «العقائد»، كما لو أنه انتقاء طبيعي للعقائد الأعتى. ويترك الله لشعوبه حرية مثل هذه المباراة. ويضع الشعب جملة قواه الروحانية في الصراع من أجل «عقيدته». وفي الصدام بين الشعوب لا يمكن أن تكون الصوابية الأخلاقية إلى جانب واحد سوى نسبية. الحرب ليست صراعًا من أجل الحقيقة الأخلاقية والعدالة. ومن الصعوبة أن نعرف أين هي العدالة ونفهمها في صراع الشعوب التاريخي العظيم. فلماذا كان من العدالة أن ينتصر الإغريق على الفرس أو الفرس على الإغريق، الرومان على الغاليين أو الغاليون على الرومان، نابوليون على العالم أجمع أو العالم أجمع على نابوليون؟ ولماذا قد يكون عادلًا تعزيز إمبراطوريات ما أو دمار أخرى؟ هل من العدالة تدمير الإمبراطورية التركية أو المحافظة عليها؟ هذه الأسئلة بمعظمها مستعصية على الحل، لأنها طُرحت خطًا. الحرب هي صراع ليس من أجل العدالة، إنما من أجل القوة الأنطولوجية للأمم والدول. وقد يكون المعيار البيولوجي أكثر ملاءمةً هنا من المعيار الإثني. يمكن أن نرى الحقيقة في الانتصار، روحيًا وماديًا، للأمم القوية والحيوية في مرحلة ازدهارها، على الأمم الضعيفة المتهالكة والمتلاشية. في الحرب يحصل التنافس بين أرواح الشعوب، يحصل اختبار قوتها. الحرب هي صراع من أجل أن يحقق كل طرف غايته في العالم. الشعب الذي يشعر بنفسه شعبًا مختارًا يحركه شيطان الدعوة، لا يسعه التوقف في الطريق التي سار عليها. إلا أنه

ينتظره عقاب جوهري، إذا كان مجبرًا أن يرتكب في طريقه كثيرًا جدًا من العنف، إذا كان يحمل إلى العالم كثيرًا جدًا من الآلام والمآسي.

الحروب، بطبيعتها، مختلفة النوعية جدًا. ثمة حروب بين شعوب متعادلة، إلى حد ما، بقوتها وثقافتها. في هذه الحالة يحصل سباق وتنافس شديدان، لهما أن يقررا لمن ستكون الهيمنة في العالم، وطابع مَن سيطبع التاريخ لاحقًا. وثمة حروب شعوب قوية ورفيعة الثقافة ضد أخرى ضعيفة وخفيضة الثقافة. في هذه الحال قد يكون هدف الحرب هو الاستعمار وزرع ثقافة أرفع وتعميمها. الأنموذج الأول من الحرب مدعو إلى تحقيق مهمات إمبريالية. ثمة حروب شعوب مضطَهَدة من أجل تحررها، هي الأضعف ظاهريًا، لكنها لا تزال تحتفظ بقوتها الروحية داخليًا. هذه الحروب ليس هدفها تحقيق الوحدة الشاملة، بل الدفاع عن الفرادة. وهي لا يمكن أن تتحقق على يد الأمم الصغيرة والضعيفة، بل تشارك فيها الأمم الأكثر قوة التي تأخذ على عاتقها الدفاع عن الأضعف باسم مهماتها العالمية. وأخيرًا، ثمة حروب تجتاح فيها شعوب قوية، بربرية ليست متحضرة شعوبًا على ثقافة رفيعة، إلا أنها أضحت متهالكة ومتداعية، ينخرها مرض أخلاقي داخلي. هكذا كانت - حين حدثت - غزوات العالم الجرماني روما والعالم الإسلامي بيزنطيةَ. في وسع هذه الغزوات أن تحمل طابعًا تدميريًا شديد التوحش. لكن، مع ذلك، تمتلك هذه الحروب معنى داخليًا ما، لا تلحظه نظرتنا السطحية. أوروبا المتحضرة، لا يزال في وسع غزوات العالم المغولي المسلحة أن تهددها. لكن، مهما كان الطابع الذي تحمله الحرب، هي مؤشر إلى دينامية التاريخ المتوترة. أما النزعة السلمية (pacifism) فهي تُفضي إلى نظرة جامدة للتاريخ. ومعادلاتكم الثورية - الديمقراطية المبتذلة التي تنفي «عمليات الاحتلال» وتعني نفي دينامية التاريخ، هي مُطالبَة غبية بوقف التاريخ غير قابلة للتحقق، هي انتصار السكينة على الدينامية. دينامية التاريخ هي سلسلة معقدة من الاحتلالات. ومن الصعب جدًا أن نطبق مقولة العدالة على هذه الاحتلالات على امتداد العملية التاريخية بأسرها. فهي تتطلب توازنًا تاريخيًا، لا عملية دينامية تحصل دائمًا في النزاعات المأساوية والكوارث. عملية التاريخ الدينامية هي صِدام الأعراق والقبائل والأمم وتشابكها، هي عملية تعزيزها وإضعافها، هي تنقلها على سطح المعمورة واستيلاؤها على الأراضي أو فقدانها، هي إعادة توزيع أدوارها على الأرض وأمكنتها. ليس من حال ثابتة ساكنة في وجود الشعوب، كان من شأنها أن ترسم لها حدودًا عادلة إلى أبد الآبدين. إن أكثر الأمكنة ثباتًا ورسوخًا على الأرض تم الحصول عليها بالدينامية. والاحتلالات في الماضي، التي نتقبلها مع النتائج التي تمخضت عنها، هي ليست أكثر عدالة من الاحتلالات في المستقبل.

التاريخ لم ينتهِ. دينامية التاريخ لا تضعف، بل هي تتعزز. التاريخ لا يقترب من الازدهار الدنيوي، من الجنة الدنيوية، من كمال العالم الأزلي. كل شيء يقودنا إلى الاعتقاد أن العالم يسير نحو صراع رهيب، نحو صدامات جديدة بين القوى التاريخية، نحو اختبارات جديدة لبسالة الروح، لتصليب عود فروسية النفس. سطح الكرة الأرضية لم يتم ترتيبه بعد. ثمة مهمات تاريخية كثيرة ما زالت تنتظر حلها. المسألة الشرقية عصية على الحل سلميًا. أنتم تريدون إضعاف الشعوب داخليًا وتجريدها من قواها، بانتظار لحظة الصدام الرهيب، حين تكون قواها الروحية قد تعرضت لتجارب رهيبة. إن الإنكار الديمقراطي والاشتراكي للحرب هو، بالمبدأ، نزع سلاح خبيث جدًا للشعوب المسيحية، نزع سلاح الجيوش القديمة من أجل تشكيل الجيش الأممي الجديد للمملكة الدنيوية. الروح الاشتراكية للأممية تحل محل روح الكون المسيحية. والمسيحية أيضًا تتمنى السلام

وأخوّة الشعوب لكل العالم. لكنها هي تريد بأن يكون سلامًا داخليًا حقيقيًا وأخوّة داخلية حقيقية. في السلام المسيحي والأخوّة المسيحية سوف يُهزم الشر. أما في سلامكم وفي أخوّتكم فسوف يبقى الشر غير مهزوم إلى الأبد. إن نزعتكم السلمية هي إنكار للشر، هي عدم الرغبة في معرفة الشر، هي الرغبة في ترتيب أموركم مع الشر كأنه ليس موجودًا. لهذا، لن تبلغوا أنتم أبدًا الأخوّة الكونية ولا السلام الأبدي. نزعتكم السلمية تقضي نهائيًا على البداية الفروسية، على الصراع الفروسي المقاتل مع الشر.

إن عقيدتكم بسلام الشعوب الأبدي، هي عقيدة برجوازية. أنتم تريدون السكينة والرفاهية الظاهرية، من دون أن تكفروا عن الشر، من دون أن تنتصروا على الشر الداخلي. أنتم تريدون مواصلة اقتراف عمليات القتل الروحية، مُبعدين عواقبها عن أنفسكم، ومن دون أن تختبروا أهوال القتل الفيزيائي. أنتم تريدون أن تزعموا أن الشعوب مسالمة، وأن العدائية الشريرة فيها قد تمت الغلبة عليها. أنتم تودون خلق لبوس خارجي لأخوة الشعوب، من دون تلك المحبة الداخلية التي في وسعها وحدها أن تخلق هذه الأخوة. أنتم تودون الذهاب من الخارجي إلى الداخلي وتنسون الداخلي في الطريق. أما الطريق الحقيقية فهي الطريق من الداخلي إلى الخارجي. ابحثوا عن ملكوت الله وكل ما بقي سوف يعقبه ويتحصل لكم. أنتم تعتقدون أن ملكوت الله سوف يعقب كل ما بقي. لهذا، أنتم لن تأتوا أبدًا إلى الأخوّة بين الناس والشعوب. لا يمكن خلق الأخوّة على بدايات اقتصادية وحقوقية، فهي لا يمكن أن تُستنتج من أي مصلحة ولا يمكن أن يكفلها أي حق. هي ملكوت الروح. إن السلام الحقيقي الأنطولوجي ينبغي أن يكون سلامًا مسكونيًا، والأخوّة الحقيقية، الأخوّة الأنطولوجية - الفعلية ينبغي أن تكون أخوّة مسكونية. والحرب لا تدور على مساحات محدودة من الأرض، لا تُخاض على الصعيد الفيزيائي فحسب. الحرب تُخاض على جميع مستويات الوجود، في جميع التراتبيات، إنها تُخاض في السماوات أيضًا. ملائكة الرب تقاتل في التراتبيات العليا ملائكة الشيطان. لكن أسلحتهم أكثر رهافة وأثيرية. النظر الثاقب عليه أن يعثر على الحرب في كل مكان في الكون، في أعمق الطبقات وأكثرها بعدًا. فالحرب المرئية المادية ليست سوى الكشف عن الحرب الروحية غير المرئية. وكم هي مسطحة وبائسة، مقارنة بحياة العالم الحقيقية هذه، جميع أمملياتكم وسلاماتكم الدائمة وسواها، مما اخترعتم.

إن النبوءات المسيحية الأبوكاليبتية لا تقول إنه لن تكون هناك حروب على مشارف الآخرة، وسوف يعم السلام والرفاه، بل على العكس، تقول هذه النبوءات إنه سوف تكون هناك حروب رهيبة على مشارف الآخرة. إن الشعور الأبوكاليبتي بالتاريخ يناقض السلم الأبدي. إن جميع الطوباويات عن الجنة على الأرض، وعن السلام والرفاه على الأرض تتحطم على الأبوكاليبتي. الشعور الأبوكاليبتي بالتاريخ هو شعور مأساوي. وهو يعلمنا تلك الحقيقة القاسية، أن العالم لا يتزايد الخير فيه فحسب، بل والشر أيضًا، وأن الصراع الأشد رعبًا لا يزال أمامنا. أمامنا، على المستوى الروحي، تنتظرنا الحرب الأشد هولًا، حرب المملكة المعادية للمسيح مع ملكوت المسيح. حرب المسيح مع المسيح الدجال، حرب الأوفياء للمسيح مع مَن غرر بهم المسيح الدجال، هي سوف تكون الحرب الأخيرة. هذه الحرب الروحية الرهيبة سوف يكون لها تجلياتها المادية. الحرب كانت عند المنبع عينه للثقافة البشرية. الحرب تذهب إلى نهاية الثقافة البشرية عينها، إلى ذروتها. السلم «الأبدي» البرجوازي والاشتراكي لن يحول دون هذه الحرب الأخيرة والحروب التي تسبق

هذه الحرب الأخيرة. سوف يكون هناك بعد صدام بين العالم الآري - المسيحي والشرق المنغولي. الحرب الأبوكاليبتية سوف تنقل الصدام المادي إلى المستوى الروحاني. وهي تُلقي ضوءًا ارتداديًا على ماضي البشرية بأسره، على الوجه الداخلي الروحاني للصراع المادي بأسره. إن العالم الخارجي، الاقتصادي والحقوقي، يغطي العمق الروحاني للحياة والجذوة الخفية فيها. لكن هذا الغطاء لا يسعه أن يكون أبديًا.

ثمة نفاق في سلميتكم الإنسانيوية - الديمقراطية والأممية - الاشتراكية، ثمة رغبة في تفادي عواقب الشر، وليس الشر عينه. الحرب متناقضة بطبيعتها، وهي تقاوم جميع النظريات العقلانية السَلِسَة. والحرب متناقضة عميقًا بالنسبة إلى الوعي المسيحي أيضًا. فالحرب تستثير صراعًا مأساويًا في روح الإنسان المسيحي. ويتصادم في هذا الصراع ليس الخير والشر، ليس الحقيقة والبهتان، بل يتصادم خيران اثنان، تتصادم حقيقتان. أنتم لا تعرفون هذه التراجيديا. أنتم لا تريدون أن تعرفوا سوى تصادم الخير المجرد مع الشر المجرد. لكن حياة الإنسان هي أكثر تعقيدًا وتشوشًا. مأساة الحياة الإنسانية تكمن جذورها في تصادم قيم من مستويات متفاوتة، في حتمية الخيار الحر بين قيمتين وحقيقتين عزيزتين بالقدر عينه. الوطن قيمة لا جدال فيها، والوطنية (patriotism) هي حال روحانية رفيعة أيضًا. لكن محبة الوطن قد تصطدم بمحبة قيم أُخرى لا يقاربها الشك أيضًا، مثل محبة الإنسان والإنسانية، محبة الثقافة الرفيعة والإبداع الروحاني... والحرب لا يمكن تقبلها سوى على نحو مأساوي. وليس من الخطيئة سوى تمني الحرب واستمتاع بالحرب. هذا كفرٌ. ينبغي تمني السلام، ويجب الشعور بالحزن والخوف من الحرب. المحبة يجب أن تنتصر على الشر والشقاق. لكن المحبة تعمل في الحرب أيضًا منعكسة في عصف أسود. المحبة المنكسرة في ظلمة تتحول غضبًا، بحسب نظرية جاكوب بوهمه (Jakob Böhme). والأمر عينه يحدث في عصف الحرب. وفي هذا تقوم حقيقة الحرب. لكن الحرب هي حقيقة متناقضة، تنشط فيها بدايات أخرى أيضًا، بداية الكراهية الحاقدة والوصولية الشريرة. لهذا، لا يمكنها إلا أن تثير الحزن. الحرب تضع الإنسان وجهًا لوجه مع الموت، وملامسة سر موت الإنسان هذه تجعل الإنسان أكثر عمقًا.

لكن يمكن الحرب أن تتحلل داخليًا وتغدو حقيرة، ويمكنها أن تفقد عقيدتها ومعناها. وهذا ما حدث للحرب العالمية في أيامنا هذه في إثر الكارثة الروسية. الحرب العالمية الليبرالية لم تعالج أي مهمة وانتهت بسلام سيئ. الحرب مستمرة داخليًا. لم تكن لدى حلفائنا عقيدة إيجابية للحرب ولا وعي لمهمة منوطة بهذه الحرب. أيديولوجية التحالف كانت إنسانوية - سلمية، والعقيدة المرشدة كانت العقيدة الماسونية. لكن الماسونية تريد، في آخر المطاف، إضعاف جميع الأمم وسلبها طابعها الخاص بها، واستبدال كنيسة المسيح بكنيسة إنسانوية مزيفة والوحدة الواقعية الملموسة للبشرية بوحدة مجردة. أوروبا المسيحية القديمة تموت من العداوة، من حرب فرنسا وألمانيا الداخلية المستمرة. ألمانيا كَبُرَت بالهزيمة وتستحق موقفًا آخر غير الموقف منها الذي كان في أثناء الحرب. القوى المعادية للمسيحية وسعت الحرب وانتزعت منها معناها الداخلي. لذلك، أصبح السلام واجب التحقق. تمر في التاريخ مراحل، تصبح الحرب فيها شرًا لا شك فيه، وينبغي حينئذ للغريزة الدينية - الروحية أن تطلب السلام لكل العالم. وإذا لم يحل السلام حينئذ في أوروبا، فإن أوروبا مهددة بالموت، مهددة بانتصار الشرق المنغولي. ولا يجوز أن نضلل أنفسنا بالآمال المتفائلة، فشقاق أوروبا الروحاني يقدم المبرر للتنبؤات المتشائمة.

الرسالة الثانية عشرة

في الاقتصاد

يصطبغ زمننا هذا بلون الاقتصادوية. كل شيء يحمل وَشمَ الاقتصادوية، الاقتصادوية سحقت الحياة الرفيعة. لم يسبق أن أعطي الاقتصاد من قبل مثل هذه الأهمية في حياة الإنسان، ولم يسبق للإنسان أن شعر من قبل بمثل هذا التبعية للاقتصاد، لم يسبق أن وُضِعت الإنتاجية الاقتصادية في مثل هذه المكانة الرفيعة وتحولت إلى هدف بذاتها. وليس من قبيل المصادفة أن تكون نظرية المادية الاقتصادية قد وضِعت في عصرنا. وعكست هذه النظرية وضع المجتمع الأوروبي ليس أكثر. فقد استعبدت الحياة المادية حياة الإنسان الروحية. وانعكس هذا التجلي للواقع سلبًا في التفكير كنظرية مادية اقتصادية، ليست الحياة الروحية بالنسبة إليها سوى بنية فوقية على الاقتصاد. «البنيات الفوقية الأيديولوجية» التي ينتقدها الآن الماديون الاقتصاديون والاشتراكيون، كانت هي العلامة على نبل الروح الإنسانية، على الحاجة إلى السمة المقدسة للحياة. هذه «البنيات الفوقية» النبيلة أخذوا ينتقدونها ويشرحونها ماديًا، حين تمت الهيمنة الوضيعة للحياة المادية على الروحية. وليس من قبيل المصادفة أن قام في زماننا المفكر المسيحي سيرغي بولغاكوف[51] (Sergei Bulgakov) ومن الطرف المقابل للروح، بوضع نوع من الفلسفة الدينية الاقتصادية في كتابه **فلسفة الاقتصاد**، أعلن فيها صوفيانية[52] (sophianique) الاقتصاد. إن تيارات أيديولوجية كثيرة في عصرنا تحددت بتأثير الاقتصادوية الضاغط. والتيارات الأكثر عمقًا منها هي على استعداد لأن ترى في الاقتصاد بداية الوجود الميتافيزيقية العميقة. وكان ليف تولستوي دومًا عبدًا للاقتصاد، أعطى مسيحيته كلها طابعًا اقتصاديًا. الاقتصادية موجودة كذلك في «فلسفة القضية العامة»[53] للفيلسوف نيكولاي فيودوروف. لم يبلغ الخوف من الحاجة وحياة العوز في يوم من الأيام ما بلغه من مقاييس مُحبِطة الآن. لم يشعر الإنسان يومًا بمثل هذا الضيق والاختناق من الجوانب كلها، وبمثل هذا التخلي عنه وتركه لقدره. إن اضطهاد الاقتصادوية هو نتيجة فقدان أي تبرير مقدس للحياة الاقتصادية. ثمة شيء ما رهيب تفاقم في حياة الإنسان في القرنين التاسع عشر والعشرين. حياة الإنسان تصبح على قدر متزايد من الصعوبة. وهي تنتقل من العمل الأفقي (extensive) إلى العمل العمودي (intensif)، من الأنموذج الروحي الأفقي إلى الأنموذج الروحي العمودي. لم يعد هناك من فسحة للإنسان في أي شيء، كل شيء أصبح ضاغطًا. أصبحت الأرض ضيقة على الإنسان. وكبل نمو السكان والحاجات الإنسان بالاقتصاد. إن دخول الآلة في حياة الإنسان كان أكثر الثورات راديكالية في التاريخ البشري، وجعل جميع أسس الوجود البشري الأزلية تهتز. تغير إيقاع الحياة البشرية. ويُفتقد أكثر فأكثر الإيقاع المشترك مع إيقاع الطبيعة. وتغدو الحياة البشرية أقل طبيعية بصورة متزايدة. يمر الإنسان عبر التفسخ والتنافر. ما هي الحاجة التي تحدد سلطة الاقتصاد في الحياة الإنسانية؟ **الحاجة هي تعبير عن الوضع غير الكوني للعالم**. والغلبة النهائية على الحاجة تتطلب هجوم التناغم الكوني، تخطي حال العالم المادية التي تعني حاله غير الكونية، حاله الممزقة والمقيدة. إن وجود قوانين للطبيعة المادية، وجود حياة في جسدنا الفيزيائي تربطنا بالجسد الفيزيائي للعالم بأسره، تفترض حالًا للإنسان وللبشرية غير مكتملة، خاطئة، محتاجة. مجانين، أولئك الذين يعتقدون منكم ببلوغ الجنة الاجتماعية والنعيم، بلوغ الحرية المطلقة وزوال الشر والآلام، مع البقاء في الجسد الفيزيائي، البقاء رعية مملكة الطبيعة المادية وقوانينها. المملكة المادية الطبيعية هذه تتطلب من الإنسان اقتصادًا، عملًا اقتصاديًا، همومًا اقتصادية. إن كلمات الإنجيل حول لامبالاة طيور السماء وزنابق الحقول، موجهة إلى الإنسان الداخلي الروحاني، لكنها لا تنطبق مطلقًا على المستوى الخارجي للحياة، غير قابلة للتطبيق عليه مباشرة.

أنتم، الاشتراكيون، اخترعتم أن الحاجة هي وليدة عدم المساواة، وأن الحاجة سوف تتوقف ما إن تقوم مملكة المساواة. إن هذا التصور هو، من وجهة النظر الاقتصادية، أحد أسخف التصورات التي يمكن تخيلها. يتحدث الاشتراكيون عن هذا الموضوع على سبيل التحريض في ذروة انفعالاتهم الثورية. لكنهم، على الصعيد المعرفي، وفي حال التفكير الأكثر هدوءًا، حتى الاشتراكيون الأعمق فكرًا لا يؤكدون هذا الأمر. يمكن العثور حتى عند ماركس على رفض مقولة الأخلاق الكاذبة تلك، بأن كل الشرور تأتي من اللامساواة. فاللامساواة، من وجهة النظر الاقتصادية، لم تكن ضرورية فحسب، بل ومحمودة أيضًا، حيث بفضل اللامساواة كان ممكنًا بلوغ أقصى الإنجازات في الحياة الاقتصادية، وأقصى درجات التغلب على الحاجة. ليست اللامساواة هي التي تخلق الحاجة، بل الحاجة هي التي تخلق اللامساواة، وسيلةَ تكيف إنقاذية، مخرجًا يحول دون الانحطاط الاقتصادي والثقافي وموتهما. وهذا يؤكده مسار الثورة الروسية. اللامساواة هي أداة هائلة لتطور القوى المنتجة. التعادل في الفاقة، في الفقر، كان من شأنه أن يجعل تطور القوى المنتجة مستحيلًا. اللامساواة هي شرط كل عملية إبداع، كل مبادرة خلاقة، كل انتقاء للعناصر الأكثر ملاءمةً للإنتاج. اللامساواة تخلق وضعًا اجتماعيًا، يُمكّن شعوبًا من أن تعيش فيه وتلبي حاجاتها، حتى في ظل تطور غير كبير للقوى المنتجة. إن موقفكم الاشتراكي من اللامساواة وتقسيم العمل هو خلط لا يميز كليًا بين المقولات الاقتصادية والمقولات الأخلاقية. وبفعل هذا الخلط فحسب أنتم تساوون بين اللامساواة واستغلال عمل الآخر، بين أشكال العمل والجرائم الأخلاقية. صحيح أنه يوجد استغلال لعمل الآخر وموقف مجرم أخلاقيًا للطبقات المالكة تجاه الطبقات المحرومة، إلا أن هذا القول هو من مستوى مختلف مبدأيًا عن القول بتنظيم الحياة الاقتصادية. أنتم تفتخرون بماركس، بوصفه العقل الأكثر موضوعية وعلمية، الذي لم يكن يغشى المعرفة عنده أي أمر ذاتي. لكن كل نظرية فائض القيمة عند ماركس كانت تقوم على خلط المقولات الاقتصادية بالأخلاقية، والتعتيم بالذاتي على الموضوعي. ونظرية فائض القيمة هي التي أصبحت المُحفز الذاتي الأخلاقي للاشتراكية الثورية. وإذا كانت نظرية القيمة - العمل المشكوك جدًا بسماتها العلمية هي نفسها خلط المقولات المختلفة بعضها ببعض، فإن ذلك الاستنتاج (deduction) الذي استخلصه منها ماركس في نظريته

عن فائض القيمة، تحول خطابة في الأخلاق الثورية ضد المستَغِلين الأوغاد. هذه النظرية الذاتية - الأخلاقية، الثورية - الطبقية هي في تناقض صارخ مع جانب آخر من نظرية ماركس يتم الاعتراف فيه بالغلبة الموضوعية للحظة الإنتاج في الاقتصاد على لحظة التوزيع والاستهلاك. فإذا كان شكل التوزيع، وإذا كانت بنية المجتمع الاجتماعية، تحددهما أشكال الإنتاج والتنظيم الضروري له في المرحلة المعنية من التطور، عندئذٍ تسقط جميع الخطابات المبتذلة عن اللامساواة والاستغلال بوصفهما مصدرين لجميع الشرور والويلات. وحتى العبودية نفسها يمكن الاعتراف بها خيرًا نسبيًا في تنظيم الإنتاج بالنسبة إلى عصرها.

المهمة الاقتصادية المطروحة أمام الإنسان، هي، بالدرجة الأولى، مهمة السيطرة على الطبيعة وتنظيم قواها العبثية الهدامة. من وجهة النظر هذه، لا يمكن الاشتراكية أيضًا أن تكون مبرَرَة إلا بوصفها شكلًا معروفًا لتنظيم الإنتاج، تنظيمًا للقوى الطبيعية. والماركسية نفسها تبرر الاشتراكية، بالدرجة الأولى، بوصفها تنظيمًا للإنتاج يرفع إنتاجية العمل في مرحلة معينة من التطور. إن الاشتراكية التي من شأنها أن تخفض إنتاجية العمل وتعرقل تقدم القوى المنتجة، هي اشتراكية

رجعية. وتلك هي الاشتراكية الروسية، وإن كانت قد ربطت نفسها بالماركسية. إنها تؤدي إلى الفاقة، إنها تدمر القيم المادية. إن نمو الإنتاجية والسيطرة على القوى العبثية للطبيعة، هما الشرطان الضروريان للانتصار على الحاجة والفقر والجوع على الصعيد المادي. إن عدم تنفيذ أمر إنتاجية العمل هذا وشرطها وتوقع الرفاه الاجتماعي في الوقت ذاته، هي بمنزلة المطالبة بمعجزة اجتماعية، هي ابتزاز للمعجزة من أولئك الذين لا يعترفون بالمعجزات وغير جديرين بها، روحيًا. إن مزاجنا الاجتماعي تتغلب فيه دومًا مُثُل الاستهلاك العليا على مُثُل الإنتاج. لديكم أنتم علاقة استهلاكية بالحياة، لا علاقة إنتاجية، وتريدون ترسيخ هذه العلاقة نهائيًا في الطبقة العاملة، مُنكِرين واجب العمل والديسيبلين الروحي للعمل. أنتم تصورون لأنفسكم الجنة الاجتماعية بأنها الحد الأقصى من الاستهلاك والحد الأدنى من الإنتاج. وأنتم تريدون لو تبيدون كليًا تلك الطبقة من الناس، المعنية بتعزيز الإنتاجية، بالمبادرة الإنتاجية والخطة الإنتاجية. إن مثَلكم الاستهلاكي الأعلى في الحياة، هو على أقصى ما يمكن من العادية، فليس فيه أي مهمة خلاقة. إن العامل الاشتراكي «الواعي» يريد أن يكون، بالدرجة الأولى، مستهلكًا، وهو يخوض الصراع في سبيل مصالح الاستهلاك، وليس مصالح الإنتاج، «الوعي» يحرره من جميع الالتزامات ويبث فيه طمعًا لا حدود له. قد يكون «البرجوازي»، وأكثر ألف مرة من أي عامل، غارقًا بالمصالح الاستهلاكية الأشد وحشيةً، لكن ليس في ذلك أي مثل أعلى، إنه، ببساطة، وضع حقير خاطئ ومجرم للإنسان، وجود بهيمي يهيمن، عمومًا، على وجود مَن يشبهون البشر. أما العامل «الواعي» فيمتلك مثلًا أعلى لجنة الاستهلاك الدنيوي، وهو بذلك يتميز من العامل العادي، ومن كل إنسان عادي مع حاجاته وهمومه وأحلامه المشروعة بحياة أفضل. المثل الاستهلاكية الاشتراكية العليا تدمر الاقتصاد، وتحول دون امتلاك الإنسان قوى الطبيعة. إن الثروة الوطنية القصوى والتغلب على الحاجة يتم بلوغهما حين يُرفع الكل فوق الجزء، حين لا يكون الهدف هو السلعة الاستهلاكية وكفاية الناس، إنما خير الدولة والأمة والثقافة وقيمها. وهذا لا ينفي أن مصالح الدولة والأمة والثقافة يمكن أن تتستر بها طبقات ويتستر بها أفراد منفردون.

لكن المثل الأعلى الاستهلاكي الاجتماعي يُؤدي إلى الفاقة.

***

لا يمكن الحياة الاقتصادية المادية أن تكون متناقضة مع الحياة الروحية، لا يمكن أن تكون منفصلة عنها ومنعزلة. إن السوسيولوجيا الثنائية التي تفصل الروح عن المادة في الحياة الاجتماعية خاطئة ووهمية. إن الحياة المادية بأسرها ليست سوى ظاهرة داخلية للحياة الروحية وتترسخ فيها. إن الحقيقة الجزئية للمادية الاقتصادية يمكن أن تكون مقلوبة، ويمكن، من وجهة نظر أكثر عمقًا، فهم الحياة المادية مشتقةً من الحياة الروحية. الديسيبلين الروحي للفرد والشعب هو على أهمية عظيمة بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية. إن ديسيبلين العمل وتنظيم العمل وإنتاجية العمل ترتبط كلها بالعوامل الروحية. فالروح، في نهاية المطاف، تنتصر على الطبيعة وتسيطر على القوى العبثية في الطبيعة. إن الاقتصاد، بوصفه تحقيقًا للقوى الطبيعية، تنظيمًا وتخطيطًا، هو فعل الحياة الروحية. وطبيعة الاقتصاد ترتبط بنوعية الروح. الاقتصاد ليس ظاهرة طبيعة مادية ميتة، بل هو مشبع بالطاقات الروحية للإنسان، ويتطلب التواصل بين الإنسان والطبيعة، يفترض التداخل المتبادل بينهما. العمل هو تجلي الروح، لا المادة، ويمتلك أسسًا روحية. إن نمو القوى الإنتاجية

المادية يتطلب طاقة هادفة، مبادرة خلاقة من الإنسان في العلاقة مع الطبيعة. والاستهلاك المادي لا يمكن أن يكون الهدف الوحيد للاقتصاد. فالغريزة الخلاقة للإنسان تحفزه هي الأخرى. الجسم الاجتماعي لا يمكن أن يكون ثنائيًا، ولا يمكن الناحية المادية فيه أن نفهمها على نحو مجرد. إن مثل هذا التجريد للحياة المادية وتجريدها من الروح يخلق سلسلةً كاملة من الظاهرات المَرَضية. يتم على هذا الأساس تضخيم فادح لأهمية الاقتصاد وسيادة الاقتصاد على الحياة ككل، ويمارس في الوقت عينه احتقارًا فاضحًا تجاه الاقتصاد، ويتم التعامل معه كشيء وضيع وتافه. وفي كلتا الحالين يجعلون الاقتصاد قوة خانقةً لا روح فيها. ينسون أن الاقتصاد هو الكشف عن قوة الروح الإنسانية، وأن عبره تتحقق مكانة الإنسان سيدًا في الطبيعة. الحياة الاقتصادية لا يمكن أن تكون مُسيطرة ولا مكتفية بذاتها. فهي ينبغي أن تكون خاضعة للبدايات العليا للحياة. في هذه الحال فحسب يحقق الاقتصاد مهمته في تنظيم الطبيعة. الاقتصاد لا يسمح بالانتصار القاتل للقوى الطبيعية، وهو يحد من سلطة الموت في نظام الطبيعة. ثمة في الفعل الاقتصادي جانب غامض، قليلًا ما يتم الاعتراف به في عصرنا العلماني. إن استخراج الخيرات المادية من الطبيعة هو عمل روحاني تتفتح فيه أحشاء الطبيعة للسيد الآتي لتملكها.

لكن النفس الإنسانية يمكنها أن تكون على عبودية متفاوتة لدى الحياة المادية، لدى الاقتصاد الذي خلقته هي. النفس الإنسانية يمكن أن تكون في تبعية عبودية ليس للبيئة الطبيعية فحسب، بل للبيئة الاجتماعية أيضًا. الرأسمالية والاشتراكية تمثلان بدايات مجردة لا تقابلهما أي حقيقة ولو بسيطة. لا توجد في الواقع، بشكلها النقي، بل لا يمكن أن توجد أي اشتراكية وأي رأسمالية. لكن هاتين البدايتين يمكن فهمهما كشكلين لعبودية النفس الإنسانية للاقتصاد، الاقتصاد الذي يقيمانه بنفسيهما. تستدعي النفس البشرية في ظل الاقتصاد الرأسمالي الفظيع وتُطور قوى تسيطر عليها هي بالذات وتستعبدها. ليس في وسع الإنسان أن يتغلب على قوى الطبيعة العبثية فحسب، بل على قوى الاقتصاد العبثية أيضًا التي توجد وتعمل وفق قانونها الخاص. يتلاشى المركز الروحي، وتضطرب المستويات التراتبية للحياة. حينئذٍ تحل الاشتراكية مكان الرأسمالية، مع جميع ادعاءاتها بتنظيم القوى العفوية للاقتصاد، وعقلنة الفوضى الاقتصادية. وتقع النفس الإنسانية في شكل جديد من العبودية. وها نحن قد رأينا ما تحمله الاشتراكية معها للعالم. فهي ينبغي ضمن مجالها أن تقضي على الإنسان نهائيًا. إن الاشتراكية تريد، من خلال تنظيم قوى الاقتصاد العبثية، أن تشتري الإنسان عبر تعميمه كله وتحويله إلى مقولة اقتصادية. لكن هذه العملية بدأت في الرأسمالية. ولا يمكن أن تواجَه العبودية الرأسمالية والعبودية الاشتراكية سوى بحرية النفس الداخلية من اضطهاد الحياة المادية. يُفهم الاقتصاد من داخله كظاهرة للحياة الروحية ووسيلة. ويمكن تحديد موقفين روحيين من الاقتصاد: فهو يمكن أن يقوم على عمل شرعي تنيره حقيقة العهد القديم، ويمكن أن يقوم على عمل خلاق يضيئه نور ديني جديد.

قامت الآلة بانقلاب ثوري حقًا في الاقتصاد، وليس بالمعنى السطحي للكلمة، بل بمعناها الأشد عمقًا. ومشكلة الآلة تنتمي إلى حقل المشكلات الميتافيزيقية العميقة. وذُعِر كثرٌ من مفكري القرن التاسع عشر الشرفاء من مسيرة الآلة الظافرة، وشعروا بالتناقض العميق بين الآلة والروح، ورأوا في انتصاراتها مكننةً للحياة الروحية وجعلها مادية، رأوا فيها إخمادًا للروح. هكذا شعر كثرٌ من خيرة الكتاب والمفكرين الروس أيضًا. أنا لا أتفق إلا جزئيًا مع هذه النظرة، وأعتقد أنها لا ترى

المسألة بكل عمقها. هذا، مع العلم أنني أشعر أنا أيضًا بالأخطار المرتبطة بسلطة الآلات، وأشعر باكتئاب قاتل من دخانها وضجيجها. إن الآلة هي، حقًا، صليب الطبيعة العضوية. فهي تعطل الإيقاع العضوي لحياتنا الطبيعية، وتمزق كل كمال عضوي. إن مكننة حياتنا هي العبور من خلال الانشقاق، هي الخروج من الكمال الأصيل الأولي التي تكون فيه الروح والمادة مرتبطتين على نحو لا ينفصم التي لا تزال فيه الروح باقية في أعماق المادة العضوية. إن انتصارات الإنسان الاقتصادية على الطبيعة ينبغي أن تؤدي إلى فصل الإنسان عن الطبيعة، إلى انشقاق الكمال وتشعبه. يخرج الإنسان من باطن الطبيعة، من عفويتها ويريد أن يكون سيد الطبيعة، يريد أن يمتلك قوى الطبيعة. والطبيعة تبتعد من الإنسان، تكفهر وتنضب من حوله. إن الظهور المظفر للآلة هو اللحظة الأشد أهميةً في صراع الإنسان مع الطبيعة. الآلة تحصد كل ما هو حي في الطبيعة. إنها تحمل الموت للحيوان والنبات. تذبل النباتات في كل مكان، حيث تنتشر سلطة الآلة. على الآلة أن تدمر الجسد الإنساني، أحد أكثر ظواهر الطبيعة العضوية كمالًا، وهي ينبغي أن تحل محل الجسد. تحمل الآلة في مسيرتها المظفرة الموت لجمال الآثار القديمة. وهذا يظهر بجلاء من النزعة المستقبلية(54) (futurisme) التي هي انعكاس لمكننة الحياة. إن الحلم الفخور للإنسان بالسيطرة على الطبيعة يفضي إلى التشوه، إلى موت الجمال، إلى تدمير الحياة المزدهرة. لقد سمحتم بمرور كذبة ما في طرح المسألة عينه حول تملك الطبيعة والسيطرة عليها. أنتم منفصلون عن روح الطبيعة. أنتم لا تريدون تملك الطبيعة من خلال الزواج، التملك ليس بالاتحاد معها، بل بالانفصال عنها. لذا، مُرةٌ وقَبيحةٌ، هي ثمار سيطرتكم على الطبيعة.

لكن، سيكون من الخطأ الاعتقاد أن الآلة تقتل الروح. وليس الروح، بل المادة العضوية، لحم العالم، هي التي تقتل الآلة. وهي (الآلة) لا تحمل معها الموت للحياة الروحية، غير القابلة للفناء، عمليًا، بل للوجود العضوي الحيوي، للوجود الأولي الأصيل. إن دخول الآلة في حياتنا يثير لدى كثرٍ من النفوس النبيلة الحنين إلى الكمال الضائع والعضوية المفقودة، إلى نمط الوجود القديم. لكنك لن تعيد الماضي بهذا الحنين الرومانسي المؤثر. إن حياة الإنسان الروحية ينبغي عليها البحث عن الكمال والجمال على سُبلٍ أخرى. إن انتصار الآلة وما تُحدثه من دمار يثير العداء للحضارة، ويفضح كذبها وزيفها، ويؤله البربرية، ويستدعي محاولات مؤلمة لعودة الكمال البدائي. لكننا نتلمس العجز والعقم في توجه الروح هذا. وكي تشعر النفس بالراحة وبحرية أكبر، يجب أن تفهم الطابع المزدوج والمتناقض لظهور الآلة في العالم. الآلة لا تضطهد الروح الإنسانية فحسب، بل وتحررها أيضًا، كأن تطلقها بمخالبها المعدنية من المادة العضوية التي كانت تنام فيها في البداية، ثم أخذت تصحو لاحقًا. تولد الآلة التشعب والانقسام اللذين يعقدان جدًا حياتنا الروحية ويجعلان أدق ظاهراتها ممكنة. الكمال العضوي الأول خشن، لا تشذبه سوى العلاقة الرومانسية بهذا الكمال العضوي في المرحلة التي يخرب فيها. الكمال العضوي الأول فقير إلى المعرفة. لقد تعمقت المعرفة وشُحذت حين مَر الإنسان عبر التشعب والانقسام. والعلاقة العميقة بالآلة ليست سهلة وبسيطة، كما يتصور رومانسيو الماضي. العالم يجب أن يمر عبر انتصار الآلة، وعلى الروح الإنسانية أن تصمد في هذه العملية، يجب أن تتحرر نهائيًا وتنتقل إلى كمال أعلى. الاقتصاد لا يمكن أن يتطور من دون الآلة. وإنكار الآلة هو إنكار لتطور الاقتصاد، هو عودة الإنسان إلى التبعية العبودية الأولى لقوى الطبيعة العفوية. المثالية الشعبوية والطوباوية ترسخ، في نهاية الأمر، تبعية الروح الإنسانية العبودية للبيئة المادية والاجتماعية، بما أنها تنكر قدرة الروح على الاحتفاظ

بالحرية أيضًا في ظل الانتقال إلى أشكال أعقد من الاقتصاد. هكذا، تُوضع الروح الإنسانية في تبعية حصرية للنمط الاعتيادي، لأشكال الاقتصاد المتخلفة. الماركسية، في هذا المجال، محقة أكثر من الشعبوية. ثمة في الآلة بداية سحر أسود. تختبئ وراء التقنية المعاصرة النفسية عينها التي كانت لدى المشعوذين السود، ذاك التعطش الانتهازي عينه للتحكم بالقوى الطبيعية بمساعدة وسائل خارجية. لكن عبر الآلة يتفتح إمكان سحرٍ أكثر إشراقًا، يقوم على حب أكثر للوجود الداخلي للطبيعة. ينبغي النظر ديالكتيكيًا إلى الدور التاريخي للآلة؛ إذ لا تمكن الإجابة بـ «نعم» أو «لا» حولها.

***

إن أهداف الحياة الاقتصادية ومعناها هي أعمق مما يتصوره الوعي الاقتصادي العادي. ولا يمكن هذه الأهداف وهذا المعنى أن تُدرك سوى في الوعي الذي يتعدى حدود الاقتصاد. الفعل الاقتصادي ينبغي أن يتغلب على ثقل وزن العالم المادي وقيوده، ينبغي أن يسيطر على القوى الفوضوية. لكن الانتصار على القوى الفوضوية للطبيعة وسيطرة الإنسان على المادية الضاغطة عليه، لا يمكن أن ينحصر بجزءٍ صغير من الطبيعة يحيط به على الأرض. إن اقتصادنا العالمي محاصر بالأخطار من جميع الجوانب، ومعرض لتأثير القوى الكونية. إن زراعتنا هي تحت رحمة القوى الكونية، ولم يتم سوى القليل من العمل لتنظيم تلك القوى الطبيعية التي تحيط بها. أمام الإنسان مهمة خلق **اقتصاد كوني**. ليس الاقتصاد الكوني طوبى نعيم الجنة المنقول من كوكبنا الأرضي إلى الفضاءات السماوية. إن مهمة الاقتصاد الكوني يطرحها الموقف الواقعي حقًا من الطبيعة، لا المجرد. لا يزال الإنسان لا يعي كفايةً عمق صلته بالحياة الكونية. كان يشعر يومًا، وبشكل مباشر، بعمق صلته بالحياة الكونية. وتَحَرر الإنسان في ما بعد من سلطة شياطين الطبيعة، وابتعد من الخان العظيم، وأخذ يشعر بالطبيعة آلية ضاغطة وبعيدة. إن إدراك الصلة الجديدة للإنسان بالكون وبما هو مشترك معه، ليس من نصيب سوى القلائل. لم يدخل الإنسان بعد عمق الطبيعة من أجل أن يمتلك قواها ويتحكم بها، لا أن يكون هو تحت رحمتها وتتحكم به. بقي الإنسان على السطح من الطبيعة، ومن على السطح يدير شؤون اقتصاده. على السطح تهيأت له تخيلات كثيرة، وتخيلات كثيرة خلقها هو بنفسه. ثمة الكثير مما هو زائف غير حقيقي، فعلًا، في سيطرة الإنسان المعاصر التقنية على الطبيعة، التي يفاخر بها إلى هذا الحد. إن قوتكم التقنية كلها وجميع تنظيماتكم الاجتماعية لا تغوص في عمق حياة الطبيعة. كم هي بائسة قوتكم التقنية كلها، وكم هي معتدلة جميع طوباوياتكم مقارنة بـ «مشروع» نيكولاي فيودوروف الذي عرضه في مقالته «فلسفة القضية العامة». طرح فيودوروف مهمة شديدة الجرأة بإقامة اقتصاد كوني، وتنظيم الطبيعة بأسرها، والانتصار على قواها القاتلة. وبيّن حدود مهمة الإنسان الاقتصادية. الاقتصاد ينبغي أن يكون، حقًا، انتصار الحياة على الموت. لكن، مَن منكم فكر في أن الاقتصاد ينبغي أن ينتصر على القوى القاتلة، وفي أنه ينبغي أن تتوافر فيه قوة باعثة؟ إن تقنيتكم واشتراكيتكم تشرعان الموت، تخضعان لقانون الموت ولا ترغبان في القيامة. وكي تنتصر قضية الحياة على قضية الموت، يلزم وجود مفتاح للكشف عن الحياة الكونية التي كل شيء فيها مترابط، ولا يمكن أي شيء أن يكون منفصلًا ومنعزلًا من دون عواقب مميتة.

كان سَحَرة جميع العصور يبحثون عن المفتاح لأسرار الحياة الكونية، وكانوا يرغبون في انتزاع أسرار الطبيعة بالقوة مع البقاء بعيدين وغرباء من روح الطبيعة عينها. كان السَحَرة السود

مغتصِبين وعشاق سلطة. لكن، مع ذلك، تمكنوا من معرفة بعض أسرار الحياة الداخلية للطبيعة. إن علومنا الإيجابية كلها وتقنياتنا على صلة كبيرة بالسحر أكثر مما يتصور وعيكم. أنتم نسيتم أصلكم وعلاقاتكم. التقنية هي السحر الجديد. فهي تريد معرفة سر الطبيعة والسيطرة عليها بالقوة سعيًا وراء أهداف بشرية أنانية، مع بقائها غريبة عن الحياة الداخلية للطبيعة. على التقنية أن تتحول، في نهاية الأمر، إلى سحر، أن تعثر على طبيعتها الحقيقية. ثمة في التقنية عنصر سحر أسود، وهي تُطلِق قوى لا يزال تأثيرها مجهولًا، وليست آمنةً إلى هذا الحد، كما يبدو عليه الأمر. إن عنصر السحر الأسود موجود في الاقتصاد الرأسمالي المعاصر أيضًا. فسلطة النقود على الحياة هي، حقًا، سلطة مخيفة، هي شكل من السحر الأسود. انفصلت النقود عن كل أساس أنطولوجي، ليس فيها جوهر حقيقي، وهي تمارس وجودًا وهميًا متخيلًا. فيها سحر السلطة والقدرة. إن مهمة خلق اقتصاد كوني، والانتصار على قوى الطبيعة القاتلة وتنظيم هذه القوى، مهمة سحرية وليس في وسعها أن تكون مهمة إيجابية - تقنية فحسب. لكن السحر في وسعه أن يكون سحرًا زاهيًا أيضًا. السحر الأسود يستعبد الإنسان نهائيًا. السحر الزاهي، الخاضع للبدايات الدينية، يحرر الإنسان. إن توسيع المشكلة الاقتصادية وتعميقها موجودان أيضًا في كتاب بولغاكوف (**فلسفة الاقتصاد**). فهم الاقتصاد فيه هو فهم ديني. لكن الدين عينه يحصل على طابع جد اقتصادي. يقر بولغاكوف بأن الاقتصاد صوفي - فلسفي. وهو يريد بذلك ربطه بروح العالم. إن كتاب بولغاكوف هو علامة على تعميق مشكلة الاقتصاد، ووعي طابعه الكوني. لكن ثمة خطرًا في نزع الاقتصادوية هذا عن صوفيا - العذراء الحكيمة التي لا تلد ولا تبني. ويصبح من الواضح أكثر، أن الانتصار على الشر الاجتماعي والحاجة، مهمة كونية، غير قابلة للتحقق في إطار المجتمع الدنيوي المحدود. إن نيكولاي فيودوروف على حق، وتبقى له الكلمة الأخيرة في ما تدعونه أنتم «المسألة الاجتماعية»: أصل الشر ليس في الفقر والحاجة، بل في الموت، الفقر والحاجة هما اشتقاق من الموت، و«المسألة الاجتماعية» على المستوى العالمي ليست قابلةً للحل سوى من طريق الانتصار على القوى القاتلة. ليست كافيةً هنا الوسائل الاقتصادية فحسب. على السطح من حياتكم، وفي آفاقكم المغلقة، ليست قابلة للحل سوى المسائل الاجتماعية، لكن ليس المسألة الاجتماعية العالمية. إن الاشتراكية التي طرحت ادعاءً فارغًا بحل المسألة الاجتماعية العالمية، لا تريد سوى توزيع سلطة المادة على الإنسان بالتساوي. إن مثل الاشتراكية الأعلى الاقتصادي الاستهلاكي التوزيعي معادٍ للدين وليس روحيًا إنه، في الحقيقة، مثل أعلى عبودي.

الغذاء المثالي، من وجهة النظر الدينية، هو الغذاء الإفخارستي. في الغذاء الإفخارستي، يتحد الإنسان مع الكون في المسيح ومن خلال المسيح. حينئذٍ يتطابق الاستهلاك والإبداع، يتشرب الإنسان في داخله الحياة الكونية ويفرز من داخله الطاقة الخلاقة في الحياة الكونية.

***

الاقتصاد هو نظام تراتبي. ولا يجوز أن نصوره لأنفسنا مفتتًا. وهو لا يسعه أن يكون مسرحًا لصراع الكل ضد الكل. كل اقتصاد هو عمل منظم، هو تنظيم القوى الطبيعية. الاقتصاد هو تفاعل القوى العقلانية واللاعقلانية. وهذا صحيح بالنسبة إلى ذلك الاقتصاد الرأسمالي الذي يحب الاشتراكيون وصفه بالفوضوي. الاقتصاد الرأسمالي لا يمكن وصفه بالفوضوي، سوى بمعنى مشروط ونسبي جدًا. إن شرور الاقتصاد الرأسمالي مرتبطة بالحياة الروحية للناس في هذا العصر، بسقوطهم الديني والأخلاقي، لا بالجانب الاقتصادي عينه للرأسمالية. ذلك لأن الاقتصاد

هو نظام تراتبي، وليس آلية تتكون من ذرات تقوم في أساسها على الفرد مع مواصفاته وقدراته، ومع ديسيبلينه في العمل. ويملك الديسيبلين المتقشف للفرد أهمية بالنسبة إلى الاقتصاد، كما أن عائلة المُتَقَشف المعروفة ضرورية من أجل العمل الاقتصادي. وفي ظل الاستهتار الشامل للفرد، ينهار الاقتصاد. الثورات ليست ملائمة للاقتصاد. ويستحيل إصلاح الاقتصاد وتطويره بالطرائق الثورية. ليست هذه طبيعة العملية الاقتصادية. ليس للتمرد وأعمال الشغب سوى تأثير مدمر في الاقتصاد. إن تدمير ديسيبلين العمل يُعيد الاقتصاد إلى الوراء. جميع تجارب الثورات الاجتماعية تدمر حرية الفرد في الحياة الاقتصادية. ويكف الفرد عن أن يُعمِل عقله ويكون مسؤولًا، فهو لا يملك حقوقًا ولا واجبات. كل شيء يريدون تحميله للمجموعة التي تتشكل بالطرائق الثورية من فوضى الذرات. لكن حرية الإنسان ترتبط بحرية الحياة الاقتصادية وحرية الفرد في الحياة الاقتصادية والمبادرة الحرة. إن تكريس أهمية الفرد في الحياة الاقتصادية لا يعني بالضرورة النزعة الفردية الاقتصادية. في الحياة الاقتصادية، الطرائق المعقدة متاحة، والبدايات المختلفة يمكن التوفيق بينها. لكن الإخضاع الكلي للفرد الاقتصادي للجماعة الاجتماعية أو للدولة يدمر الاقتصاد ويستعبد الفرد. إن الوجود الحر للفرد في العالم المادي يفترض توافر الحرية الاقتصادية، والأعمال الحرة والمسؤولة للإنسان تجاه الطبيعة المادية. لهذا، لا يسع «الاشتراكية» أن تكون سوى إحدى طرائق تنظيم الحياة الاقتصادية، وينبغي لها ألا تكون سوى وسيلة لتوفير الحرية الاقتصادية للفرد. كل فرد اقتصادي ينتمي إلى جسم اقتصادي، إلى تراتبية اقتصادية. لكن هذا يعني أن الفرد حر. إن عضو التراتبية العضوي هو حر. أما المستعبَد فهو عضو الجماعة التي ليست جسمًا تراتبيًا، بل لها بنية موحدة متعادلة ومتداخلة ميكانيكيًا، وليس فيها نوعية، بل كمية فحسب. أنتم كان بودكم لو تحولون المجتمع البشري مثلَ هذه الجماعة الاقتصادية المتساوية ذات النوعية الموحدة، وتجعلون الفرد البشري عبدًا نهائيًا لها. الاقتصاد هو جسم ذو هيكل مختلف النوعية تراتبي، لا جماعة ذات هيكل موحد النوعية متساوٍ ميكانيكيًا. وضد هذا ليست ممكنة أي ثورة تريد استبدال الجسم والفرد اللذين خلقهما الله، بالجماعة التي أنشأها التعسف البشري. إن تعميق مشكلة الاقتصاد ينبغي أن يربط الجسم الاقتصادي بالجسم الكوني. لم يشأ أيديولوجيو الرأسمالية أن يروا في الاقتصاد جسدًا، ولم يفعل أيديولوجيو الاشتراكية سوى مواصلة قضية الأولين بتدمير فكرة الجسم الاقتصادي. لهذا، فإن هؤلاء وأولئك معادون للفرد الإنساني. إن الكونية الاقتصادية ينبغي أن تكون متعارضة مع الرأسمالية والاشتراكية على حدٍ سواء.

إن مبدأ الملكية الخاصة يرتبط، على نحو لا ينفصم، بمبدأ التراتبية العضوية في الحياة الاقتصادية. لكن مبدأ الملكية حُرّف وانتُزعت منه الروح منذ زمن بعيد. الاشتراكيون ينجزون فحسب دمار الأسس الروحية للملكية الذي بدأ منذ زمن بعيد. انتزع العصر البرجوازي - الرأسمالي الملكية من جذورها الأنطولوجية. إن تحويل الملكية أداة للجشع والربح واضطهاد الأقربين يدمر الملكية روحيًا، ويهيئ التربة لإنكارها الاشتراكي. **إن الموقف الاشتراكي من الملكية هو السقف الأعلى للموقف العدمي غير المبرر أخلاقيًا والاستهلاكي النفعي تمامًا من الملكية ومن أشياء العالم المادي. الاشتراكية تؤمم الملكية وجميع أشياء العالم المادي لأنها لا تسمح بأي قيمة وأي معنى أخلاقي في الموقف الفردي للإنسان من أشياء العالم المادي والطبيعة**. جميع الأفعال الاقتصادية، هي بالنسبة إلى الوعي الاشتراكي، مجردة من الروح ومن أي هالة، وهي لاأخلاقية تتحدد بالمصالح الاقتصادية المجردة، لذلك يستحيل أن يترسخ فيها أي شيء قَيم روحيًا وأي شيء ذي معنى أخلاقي. أنتم، الاشتراكيون جميعكم، مهووسون بالاقتصاد

ويستعبدكم الواقع الاقتصادي، أنتم، في الحقيقة، تحتقرون الاقتصاد ولا ترون فيه سوى أشياء للنهب والتقاسم. أنتم لا تعرفون الاقتصاد الإلهي، ولا تمتلكون تبريرًا دينيًا للفعل الاقتصادي. بالنسبة إليكم ليس من وجود للجانب الغامض من الفعل الاقتصادي للإنسان في الطبيعة. لهذا السبب، أنتم تنكرون الملكية بهذه السهولة كلها. وأنتم في ذلك من الدم واللحم عينه لأولئك البرجوازيين الذين رفضوا مند زمن بعيد جميع المقدسات وانهمكوا في نهب الطبيعة من أجل الحياة الهانئة والمجهزة بوسائل الرفاه. أنتم تتمنون للجميع ارتكاب مثل هذا النهب، تتمنون للجميع بناء حياة هانئة ومجهزة بوسائل الرفاه وخالية من أي حنين وأسى على المقدسات. إن الموقف الاقتصادي من الطبيعة من دون حقوق وواجبات الملكية هو، بالنسبة إلى الإنسان الفرد، موقف ساخر من الاقتصاد والطبيعة، هو تحويل كل ما هو مادي موقتًا، عابر ووسيلة للجشع وأداة. هذه أيديولوجيا استهلاكية ليس إلا، نظرة إلى العالم المادي كله وسيلةً لتلبية الحاجة لا غير.

إن الملكية هي، بطبيعتها، بداية روحية، وليس مادية. وهي لا تفترض استهلاك الخيرات المادية فحسب، بل تفترض أيضًا حياة روحية للفرد والأسرة والعرق أكثر رسوخًا واستمرارية. إن بداية الملكية مرتبطة بطبيعة الفرد الميتافيزيقية مع حقها الداخلي بممارسة الأعمال التي تتغلب على الزمن العابر. لقد ولدت الملكية في صراع الفرد الإنساني مع قوى الطبيعة العبثية. إن روح الإنسان الحرة تفرض إرادتها على الطبيعة العفوية، وتولَدُ من هذا الفعل الحقوق الثابتة والواجبات. إن صلة الفرد بالملكية تُنعش علاقته بالطبيعة المادية، وتجعلها ليست استهلاكية صرفة. إن بداية الملكية مرتبطة كذلك بالعلاقة بالأسلاف، فالملكية هي تجسيد لصلة الآباء بالأبناء. إن حق الآباء بنقل ملكيتهم إلى الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد هو الإعلان عن فعل حب وصلة متجسدة ماديًا. إن مثل هذا الإعلان عن فعل الحب والصلة المتجسدة ماديًا هو في الحق بنقل الملكية إلى كل مخلوق محبوب وقريب. إن أفعال الإنسان الاقتصادية هي، بطبيعتها الميتافيزيقية، تتخطى حدود حياته الإمبريقية، وتتغلب على الزمن. بداية الملكية مرتبطة بخلود الإنسان الفرد، بحقوقه على الطبيعة المادية بعد الموت أيضًا. الجماعية التي تنفي كل حق بالملكية، هي عبودية الفرد لقوى الطبيعة العبثية. لهذا هي ملازمة للمراحل الأولى من تطور المجتمع البشري. لكنها تريد أن تُخَضِعَ الفرد الإنساني للحياة الاقتصادية في ذروة هذا التطور أيضًا. وهي تنكر حق الإنسان بالقيام بأفعال تبرهن سيطرته على الطبيعة المادية. إن الملكية الخاصة للأرض هي علاقة أكثر التصاقًا بالأرض من التأميم الاشتراكي لها. الملكية الخاصة للأرض تجعل حب الأرض ممكنًا، حب الحقل والغابات، حب تلك الشجرة التي جلس قربها الأجداد والأسلاف، حب الذكريات والتقاليد المتعلقة بهذه الأرض ومالكيها السابقين، إنها تحافظ على صلة الأزمنة والأجيال. إن تأميم الأرض وجعلها اشتراكية يثيران علاقة بالأرض استهلاكية جشعة فحسب، مادية جَلِفة، مجردة من أي دفء عاطفي، وهي تجعل العلاقة الحميمة بالماضي والأسلاف مستحيلة، وتقتل الحكاية والذكريات. تصبح العلاقة بالأشياء المادية لا هوية لها ونفعية حصرًا. ويصح ذلك في كل علاقة بمسألة اقتصادية. إن العلاقة الأكثر شخصية وحميمية بالنشاط الاقتصادي تفترض الملكية الخاصة وتفترض المستقبل الأكثر ثباتًا الذي يتخطى حدود حياة الناس الإمبريقية. إن التغلب المسيحي على كل ملكية وكل ثروة هو ظاهرة روحية، لا حياة اقتصادية. المسيح لم ينكر الملكية الخاصة على المستوى المادي حين اقترح توزيع المرء ملكيته على الفقراء، بل ثبَت بذلك وجود الملكية. إذا تم تدمير الملكية كليًا بطريقة قسرية - اقتصادية، فلن يبقى مكان للتخلي المسيحي الفاضل عن الملكية،

وسوف يكون غير ضروري وغير ممكن. إن عبادة القديس فرنسيس الفقرَ لم تكن إنكارًا للملكية على الصعيد الموضوعي - الاقتصادي، بل افترضًا وجود الملكية. في النظام الشيوعي، القديس فرنسيس مستحيل الوجود، كما مستحيلة الوجود أي عبادة للفقر. لكن بداية الملكية معرضة للتعفن والتحلل. إن عمليات سوء استخدام هائلة ممكنة العلاقة بالملكية. والملكية لا يمكن الاعتراف بها قيمة مطلقة وعليا. وهي ينبغي أن تكون محدودة وخاضعة لبداية أعلى. إن الإصلاح الاجتماعي للمجتمع يفترض رسم الحد هذا للملكية وإخضاعها لبدايات أخرى مرتبطة بالحياة الكونية. إن سلطة الإنسان على القوى العشوائية للطبيعة ينبغي أن تمتلك أساسًا أنطولوجيًا وقوة. إن التأليه الاعتيادي للملكية وسوء استخدامها في الحياة الاقتصادية يشوه هذا الأساس الأنطولوجي، ويجعل الإنسان عبدًا لخيرات وهمية ويعقد الاقتراب من صورة الإنسان. إنه إغراء على غرار إغراء الجماعية الذي يقضي نهائيًا على صورة الإنسان. ويمكن علاقة الإنسان بعملية الاقتصاد الإنتاجي أن تتخذ توجهًا مزيفًا من جهتين متناقضتين: إما أن يتم إنكار واجب العمل الاقتصادي، واجب الإنتاج، وإما أن يتم استعباد الإنسان للاقتصاد، وتأليه الاقتصاد. إن العلاقة الروحانية بالاقتصاد تتطلب إنسانًا متقشفًا، تتطلب الحد من شهوات الحياة. إن نمو الحاجات غير المحدود وتزايد السكان خلقا الحضارة الصناعية - الرأسمالية المحفوفة بالصدمات العظيمة والكوارث، ويدلان على فقدان الروح في الإنسانية الأوروبية. وإذا كانت الشعوب تريد أن تُبعث روحيًا، فعليها أن تسير على طريق التقشف الذاتي وتنشيط الحياة الاقتصادية.

(51) فيلسوف روسي لاهوتي، كاهن أرثوذكسي، كان يهتم بالماركسية في شبابه، التقى كلًا من كاوتسكي وبليخانوف وسواهما من القادة الماركسيين (1871 - 1944). (المترجم)

(52) من كلمة Sophia، وهو مفهوم روحاني لاهوتي فلسفي خاص، طوره الفلاسفة اللاهوتيون الروس في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأصبح يشكل العمود الفقري الناظم في الفلسفة اللاهوتية الروسية. (المترجم)

(53) ليس اسم كتاب أو مقالة للفيلسوف الروسي، بل هو الاسم الذي أعطاه أصدقاء الفيلسوف للبناء الفلسفي الذي شيده الفيلسوف في جميع مقالاته وأعماله، التي لم يكن هو نفسه ينشرها، بل يوزعها مخطوطةً على مريديه وأصدقائه. (المترجم)

(54) يُعتبر بيان المستقبلية (Manifeste du futurisme)، الوثيقة التأسيسية للاتجاهات الطليعية في الفنون الأوروبية مطلع القرن العشرين. ويُعرف البيان باسم «فيليبو تومازو مارينيتي» الذي نشره، إعلانًا مدفوعًا، على الصفحة الأولى من صحيفة **لو فيغارو** الفرنسية في 20 شباط/ فبراير عام 1909. أشهر أتباع «النزعة المستقبلية» الروسية الشاعران فلاديمير ماياكوفسكي وبوريس باسترناك. (المترجم)

الرسالة الثالثة عشرة

في الثقافة

تتبوأ الثقافة مركز الصدارة الروحية في الحياة الاجتماعية. وأهداف المجتمع لا تتحقق في السياسة أو الاقتصاد، بل تتحقق في الثقافة. وتقاس قيمة المجتمع ونوعيته بارتفاع مستوى الثقافة ونوعيتها. الثورة الديمقراطية التي تحصل في العالم منذ مدة طويلة، لا تبرر نفسها بارتفاع قيمة الثقافة ونوعيتها التي تحملها إلى العالم. الدمقرطة تخفض قيمة الثقافة ونوعيتها في كل مكان. فهي تصبح رخيصة أكثر، متاحةً أكثر، أكثر اتساعًا في التطور، مريحة أكثر ومفيدة، لكنها أكثر تسطحًا أيضًا، منخفضة في نوعيتها، قبيحة، غير ذات نمط. الثقافة تتحول إلى حضارة. والدمقرطة تفضي، لا محالة، إلى الحضارة. عمليات النهوض الرفيع للثقافة تنتمي إلى الماضي، لا إلى عصرنا البرجوازي - الديمقراطي الذي تعنيه العملية المساواتية أكثر ما تعنيه. في عصرنا المبتذل هذا تشعر الطبائع الخلاقة ذات الثقافة المرهفة بأنها أكثر وحدة وتجاهلًا مما في العصور السابقة كلها. لم يحدث قط أن كان مثل هذا الصراع الحاد بين الأقلية المنتقاة والأكثرية، بين ذرى الثقافة ومستواها المتوسط، كما هي الحال في عصرنا البرجوازي - الديمقراطي. فالصراع هذا كانت تُضعِف من حدته في العصور السابقة بنيةٌ أكثر عضوية للثقافة، لكن هذا الصراع يصبح مؤلمًا على نحو لا يطاق في الثقافة التي تفقد «العضوية» التي تتراجع عن بنيتها التراتبية، في الثقافة «النقدية» ببنيتها. وهو يثير حزنًا يتعدى الوصف لدى أفضل الناس في عصرنا. هذا الحزن ليس معروفًا بالنسبة إليكم، أنتم، أصحاب النفَس الديمقراطي، وليس مفهومًا ذلك الشعور بالوحدة في الثقافة المعاصرة. فالثقافة، بالنسبة إليكم، ليست سوى وسيلة لسياستكم واقتصادكم، ليس سوى أداة للرخاء، سوى ثقافة للشعب. أنتم، ليس في مقدوركم التغلب على نفعيتكم البدائية. ومهما حاولتم تزيين أنفسكم بالثقافة، يبقَ من الواضح والمفهوم جدًا أنه لا توجد، بالنسبة إليكم، أي قيمة للثقافة. أنتم تحتاجون إلى الحضارة كأداة لمملكتكم الدنيوية، لكن الثقافة لستم بحاجة إليها. ليست الثقافة والحضارة الشيء عينه. الثقافة ولدت من العبادة. منابعها قدسية. فهي بدأت حول المعبد وكانت، في مرحلتها العضوية، مرتبطة بالحياة الدينية. هكذا، كان الأمر عليه في الثقافات العظمى القديمة، في الثقافة الإغريقية، في الثقافة القروسطية، في ثقافة عصر النهضة المبكر. الثقافة ذات أصل نبيل. فقد ورثت طابع العبادة التراتبي. تمتلك الثقافة أصولًا دينية. وينبغي اعتبار هذا الأمر مثبتًا من وجهة النظر الأكثر إيجابية - علمية. الثقافة رمزية بطبيعتها. وحصلت على رمزيتها من رموز العبادة. الحياة الروحية لا تنعكس في الثقافة على نحو واقعي، بل تنعكس رمزيًا. وجميع إنجازات الثقافة هي رمزية بطبيعتها. لا تنعكس فيها إنجازات الوجود الأخيرة، بل إشاراتها الرمزية فحسب. تلك هي أيضًا طبيعة العبادة التي تعتبر الأنموذج (prototype) للأسرار الإلهية المُحققة. للحضارة دائمًا هيئة الوصولي. وهي لا تنطوي على صلة برمز العبادة. منشأ الحضارة دنيوي. وولدت خلال صراع الإنسان مع الطبيعة، وليس في المعابد والعبادة. الثقافة هي ظاهرة شديدة الفردية ولا تتكرر. أما الحضارة فهي ظاهرة عامة وتتكرر في كل مكان. للانتقال من البربرية إلى الحضارة سمات مشتركة بين جميع الشعوب، وهي سمات مادية في الغالب، مثل استخدام الحديد وسوى ذلك. أما ثقافة الشعوب القديمة في المراحل الأولى من تطورها، فهي شديدة الخصوصية ولا تتكرر، مثل ثقافة مصر وبابل واليونان وسواها. الثقافة تمثل الروح. أما الحضارة فليست سوى طرائق وأدوات.

يتحدد نُبل كل ثقافة حقيقية بكون الثقافة عبادة الأسلاف، هي تكريم القبور والنصب، هي صلة الأبناء بالآباء. الثقافة تقوم على التقاليد المقدسة. وكلما كانت الثقافة أكثر قدمًا، كانت على أهمية وجمال أكبر. الثقافة تفخر دائمًا بمنشئها القديم وبالصلة التي لا تنفصم مع الماضي العظيم. ترتاح في الثقافة نعمة قداسة خاصة. والثقافة، كما الكنيسة، أكثر ما تثمنه هي استمراريتها. ليس في الثقافة نذالة، ليس فيها علاقة لامبالاة بقبور الآباء. الثقافة الحديثة جدًا، ثقافة الزمن الأخير التي لا تملك تراثًا، تخجل من وضعها هذا. وهذا ما لا يمكن قوله عن الحضارة. الحضارة تقدر منشأها القريب، وهي لا تبحث عن ينابيع قديمة وعميقة. إنها تفخر باختراع الحاضر. وليس لها من أسلاف ولا تحب القبور. وللحضارة دائمًا هيئة كأنها ظهرت اليوم أو البارحة. كل شيء فيها جديد، كل شيء معد لوسائل راحة اليوم الراهن. في الثقافة يدور صراع الأبدية العظيم مع الزمن، مقاومة عظيمة لسلطة الوقت المدمرة. الثقافة تتصارع مع الموت وإن كانت أضعف من أن تنتصر عليه في الواقع. عزيزة عليها الأبدية، الاستمرارية، عزيز عليها التواصل، عزيز عليها رسوخ الإبداعات الثقافية والآثار. الثقافة التي على عمق ديني، تصبو دائمًا إلى القيامة. والثقافة المصرية هي الأنموذج الأعظم في هذا المجال للثقافة الدينية. كانت كلها تقوم على التعطش للخلود، التعطش للبعث، كانت كلها صراعًا مع الموت. وهذه هي الأهرامات المصرية تخطت الآلاف من السنين وصمدت إلى أيامنا هذه. الحضارة المعاصرة لم تعد تبني أهرامات، ولا تهتم أن تصمد آثارها آلاف السنين. كل شيء عابر في الحضارة المعاصرة. الحضارة، وخلافًا للثقافة، لا تتصارع مع الموت، لا تبتغي الخلود. فهي لا تتصالح مع سلطة الوقت القاتلة فحسب، بل تبني نجاحاتها كلها

وإنجازاتها على قوة تيار الوقت القاتلة هذه. يطيب للحضارة ويسعدها أن تقيم على المقابر وتنسى الموتى. الحضارة مستقبلية (futuristic). الحضارة فيها وقاحة الوصولي المتعجرف. هذه الوقاحة تنتقل إلى تلك الثقافة التي تريد أن تطلق الدين نهائيًا.

بدايتان تعملان في الثقافة: بداية مُحافِظة مشدودة إلى الماضي وتحافظ على صلة استمرارية معه، وبداية إبداعية مشدودة إلى المستقبل وتخلق قيمًا جديدة. لكن، في الثقافة لا يمكن أن تعمل البداية الثورية المدمرة. فالبداية الثورية هي، في الحقيقة، معادية للثقافة. الثقافة لا يمكن تصورها من دون الاستمرارية التراتبية، من دون اللامساواة النوعية. أما البداية الثورية فهي معادية كل تراتبية ومشدودة إلى تدمير النوعية. الروح الثورية تريد أن تتسلح بالحضارة، تريد اغتصاب منجزاتها النافعة، لكنها لا تريد الثقافة، فهي ليست في حاجة إلى الثقافة. وليس مصادفةً أن تحبوا أنتم الثوريون، إلى هذه الدرجة التحدث عن برجوازية الثقافة، عن البهتان الذي ولدت فيه جميع الثقافات، وتلقون بكل تلك الحماسة الخطب ضد ثمن الثقافة الباهظ، ضد اللامساواة والتضحيات التي تُدفع مقابلها. لا أحد من بينكم يقدر في داخله الثقافة، يحبها بوَلَهٍ، يشعر بها قيمته الخاصة، ثروته الخاصة. الثقافة خلقها أشخاص لا تمتون بصلة روحية لهم. لا شيء في المعالم العظيمة للحضارة يثير فيكم قشعريرة مقدسة. أنتم مستعدون أن تهدموا بسهولة كل صروح الثقافات العظيمة، كل قيمها الإبداعية باسم الغايات المصلحية، باسم مصالح الجماهير الشعبية. آن الأوان لفضح الموقف المزدوج من الثقافة. أنتم لا تستطيعون خلق ثقافة جديدة، لأنه لا يمكن خلق ثقافة جديدة لا تملك أي صلة تواصل مع الثقافة القديمة، لا تملك أي تراث، لا تجل الأسلاف. إن فكرة مثل هذه الثقافة الثورية الجديدة هي (contradictio in adjecto) (تناقض فاضح). ذلك الجديد الذي تودون خلقه، لا يمكن أن يسمى ثقافة. أنتم تتحدثون كثيرًا عن الثقافة البروليتارية الثورية التي تحملها إلى العالم طبقتكم - الرسالة. لكن ليس من إشارة، ولو بسيطة حتى الآن، على ظهور ثقافة بروليتارية، حتى وليس من إشارة إلى إمكان ثقافة كهذه. وبما أن البروليتاريا تتعاطى الثقافة، فهي تأخذها عن البرجوازية كلية. حتى الاشتراكية حصلت عليها من «البرجوازية». الثقافة تتفتح من أعلى إلى أسفل. المزاجية «البروليتارية» والوعي «البروليتاري» معاديان للثقافة في الحقيقة. أن يقر المرء بذاته، وعلى نحو مقاتل، أنه «بروليتاري»، فهذا يعني إنكار كل تراث وكل مقدس، كل صلة بالماضي وكل استمرارية، يعني أن ليس له أسلاف ولا يعرف أصله. في مثل هذه الحال النفسية لا تمكن محبة الثقافة وإبداع الثقافة، لا يمكن تقدير أي قيمة كأنها قيمة المرء الخاصة. في وسع العامل أن يشارك في الثقافة بالحياة، إذا لم يقر بنفسه «بروليتاريًا».

الاشتراكية لا تحمل معها إلى العالم أي ثقافة من نوع جديد. وحين يتحدث الاشتراكيون عن ثقافة روحية جديدة ما، تشعر دائمًا بالزيف في كلامهم. الاشتراكيون أنفسهم يشعرون بالحرج في الحديث عن هذا الموضوع. أما أولئك الاشتراكيون الذين يرغبون صدقًا في ثقافة جديدة، فهم لا يدركون أنهم بدأوا طريقهم من الناحية الخطأ. لا تُخلق الثقافة على مثل هذه الطرائق. لا يمكن جعل الثقافة ملحقًا لقضية جوهرية أساسية ما، مثل التسلية يوم الأحد. لا يمكن إبداع الثقافة إلا حين تُعتبر هي نفسها قضية جوهرية أساسية. الاشتراكيون يرغبون في توجيه إرادة الإنسان ووعيه، حصرًا، نحو الجانب المادي الاقتصادي للحياة. ويتظاهرون بعد هذا بأنهم ليسوا ضد الثقافة، وبأنهم يتعطشون للثقافة الجديدة. لكن من أي مصدر سوف تنشأ هذه الثقافة الجديدة، بعد أن تنضب في الروح الإنسانية جميع منابع الإبداع، وتكون الروح قد أطفأتها المادة وسحقتها؟ وسبق أن خفضت

الديمقراطية من مستوى الثقافة النوعي، وأجادت توزيع القيم الثقافية فحسب، وليس إبداعها. قامت الاشتراكية بخفض هذا المستوى أكثر. إن تقسيم الثقافة وتوزيعها لا يؤديان إلى أن يبدأ عدد أكبر من الناس عيش اهتمامات حقيقية بالثقافة. وعلى العكس، فإن التقسيم هذا والتوزيع يخفضان أكثر عدد الناس الذين يكرسون حيواتهم للثقافة العليا. أنتم لا تقومون بالتقسيم والتوزيع باسم الثقافة عينها، وليس بدافع إبداعي، بل لمصالح اقتصادية وسياسية، لاعتبارات مصلحية باسم منافع دنيوية. لكن الحياة الروحية الرفيعة لا تليق بأولئك الذين كرسوا طاقتهم كلها لمصالح الحياة المادية. أنتم الذين تقولون عن الثقافة إنها بنية فوقية فوق حياة المجتمع المادية، الاقتصادية، لا تستطيعون سوى تدمير الثقافة. علاقتكم بالثقافة لا يمكن أن تكون جدية في العمق. إن دمقرطة المجتمعات البشرية وتعميمها تلفظان الشريحة الثقافية العليا. لكن الثقافة مستحيلة من دون وجود مثل هذا الشريحة ومن دون احترامها. هذا الأمر ينبغي إدراكه واستخلاص الاستنتاجات المترتبة عنه.

لا يمكن أن تنشأ «علوم» و«فنون» بالطريقة الديمقراطية، ولا تُبتدع فلسفة ويخلق شعر، ولا يظهر أنبياء ورسل. إن إقفال المنابع الأرستقراطية للثقافة هو نضوب كل الينابيع. ولا يبقى للعيش روحيًا سوى رأس مال الماضي الميت، مع إنكار هذا الماضي وكرهه. وتتلاشى في الماضي أكثر فأكثر منابع الثقافة عينها، ويتزايد الانفصال عنها عمقًا. إن ثقافة العظمة الأوروبية كلها مرتبطة بتقاليد العصور القديمة. الثقافة الحقيقية هي الثقافة الإغريقية - الرومانية، ولا وجود لأي ثقافة أخرى في أوروبا. لهذا، كان عصر النهضة في إيطاليا عصرًا ثقافيًا بعمق، على عكس عصر الإصلاحات والثورات، ليس فحسب لم يقم بقطع ثوري مع تقاليد الثقافة، بل بعث تقاليد العصور القديمة وأقام عليها نهوضه الإبداعي الخلاق. إن الأنموذج الروحي لعصر النهضة هو أنموذج ثقافي وإبداعي. أما الأنموذج الروحي لعصر الإصلاحات فهو يعني تدمير التقاليد الكنسية والثقافية، ويعني بداية ثورية لا إبداعية. ثقافة العصور القديمة دخلت في الكنيسة المسيحية، والكنيسة كانت حارسة تقاليد الثقافة في عصر البربرية والظلامية. الكنيسة الشرقية حصلت على تراث ثقافة العصور القديمة عبر بيزنطية. أما الكنيسة الغربية فحصلت على تراث ثقافة العصور القديمة عبر روما. الطقوس الكنسية مشبعة بالثقافة، وحولها خُلقت الثقافة الجديدة لأوروبا القديمة. الثقافة الأوروبية هي، قبل كل شيء وأكثر من كل شيء، ثقافة لاتينية وكاثوليكية. فهي تنطوي على صلة وثيقة بالعصور القديمة. من خلالها تمكن دراسة طبيعة الثقافة. فإذا لم نك نحن، الروس، برابرة وخُزرَ (قبائل الخزر) حتى النهاية، فهذا لأننا حصلنا، عبر الكنيسة الأرثوذكسية، عبر بيزنطية، على صلة مع تقاليد العصور القديمة، مع الثقافة الإغريقية. جميع الثورات موجهة ضد الكنيسة وتريد قطع الصلة مع تقاليد ثقافة العصور القديمة التي تنطوي عليها الكنيسة. لذلك، فهي تمثل انتفاضة بربرية ضد الثقافة. وسبق أن بدأ الصراع ضد الثقافة النبيلة، ضد رمز الثقافة، من مناهضة الأيقونة، من مناهضة طقوس العبادة. وهذا هو المصدر الروحي للصراع ضد الثقافة.

***

لكل ثقافة مراحل ازدهارها ونهوضها الرفيع. في مطلع تطور الثقافة، ستكون البربرية والانحطاط في نهاية هذا التطور. البربرية والانحطاط يهددان الثقافة من الطرفين النقيضين. كل ثقافة تستنفد نفسها، تنضب وتميل نحو السقوط. تنفصل الثقافة في ذروتها عن أسسها الأنطولوجية،

تبتعد من ينابيعها الحياتية، تضمر وتأخذ في الذبول. خريف الثقافة هو الأوان الأكثر روعة ورقة. الزهور المتأخرة في الثقافة هي أكثر زهورها ذوقًا وأناقة. في هذا الأوان تبلغ المعرفة بالثقافة أدق مراحلها وأشدها تعقيدًا. إن تفسخ ثقافة الانحطاط يفتح الكثير مما هو مغلق على العهود الثقافية الأكثر تطورًا وازدهارًا. ليست مراحل هبوط الثقافة عديمة الجدوى بالقدر الذي نتصوره أول وهلة، بل هي تنطوي على تجليات إيجابية أيضًا. إن الكليانية العضوية المزدهرة لا تتيح معرفة الأضداد، لأنها تقيم سعيدة في أحدها ولا تعرف الآخر. إن التعقيد الكبير في الثقافة وضمورها ينتهك هذه الكليانية، يُخرجها من عدم رؤيتها السعيدة للأضداد. هوتان متناقضتان تتكشفان في الفن، في الفكر الفلسفي، في النزوع الغيبي. ويكتسب كل من الشر والخير معرفة أكثر وضوحًا. لكن الإرادة في الحياة، في تدبير شؤونها وتطورها لا تبقى على كليانتها السابقة. يظهر إعياء مرهف. فلم يعد هناك من إيمان في رسوخ الثقافة في هذا العالم، في إمكان بلوغ الكمال في ثقافة مزدهرة وجميلة. ويرتفع الاستياء من هذا العالم والحنين إلى عوالم أخرى. الثقافة تنطفئ في داخلها. وتتشكل فيها مواد من أجل عالم جديد، يتهيأ كشفُ جديد، بزوغٌ جديد. هكذا كان في مرحلة تراجع الثقافة الإغريقية - الرومانية القديمة. وتَكَشف في هذا التراجع شيء ما جديد ليس معروفًا لمرحلة ازدهار الثقافة القديمة الكاملة والمغلقة. في مراحل النهوض الرفيع السليمة، المزدهرة والكاملة للحضارة، ثمة دائمًا محدودية ما ورضا عن الذات، رضًا بهذا العالم المحدود. ولم يشعر العالم القديم عميقًا بالحنين الصوفي إلى العوالم الأخرى سوى في مرحلة الانحطاط الهلينية. بدأ حينذاك بحث مرير عن غيبيات مُخَلصة، حينذاك ظهرت تيارات مثل الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة. حينذاك تحقق في الفن العبور إلى ما وراء حدود الكمال الكلاسيكي لهذا العالم الدنيوي المسحوق بقبة السماوات المقفلة. وفي ملاقاة هذا الحنين العميق الذي أصيبت به الثقافة، جاء الوحي المسيحي من عمق الحياة، من جذورها الباطنية. كان ينبغي أن تبدو المسيحية بربرية للعالم الثقافي القديم. إن وحي العالم المسيحي ليس ملازمًا للثقافة، بل هو متسام عليها، وينبغي أن يتم فهمه كعالم ثقافي مقفل كدفق للبربرية. هذا النور الجديد يطفئ النور المتلاشي للثقافة المتقادمة ويظنه كثرٌ في البداية ظلمة.

تميل الثقافة نحو الغرب وتنضب أيضًا الثقافة الأوروبية كلها، وليس مكتوبًا لها أن تتطور بلا نهاية. وهي تبتعد أكثر وأكثر من ينابيعها الإبداعية، وتغدو أكثر فأكثر مجردة، وأقل فأقل أنطولوجية بطبعها. ويضعف أكثر فأكثر دفق الغذاء الديني في الثقافة الأوروبية. في ذروة ثقافتها اللاتينية العظيمة، كانت أوروبا الغربية تعاني الضمور والتراجع. في فرنسا أعطت الزهرات الأخيرة وأسرت النفوس بروعة ذبول الخريف. لكن تراجع الحضارة الأوروبية وذبولها يثيران الإحساس بالأسى والانقباض المميت. ثقافة العصور القديمة أنقذتها المسيحية، أنقذتها الكنيسة المسيحية من أجل الخلود. حاليًا، المسيحية عينها تهرم، لم يعد فيها ذلك

الصبا الخلاق. ولم يظهر نور ديني جديد. تحدث في التاريخ، دوريًا، دفقات من البربرية الداخلية والخارجية. هذه الدفقات ليس لها تأثير سلبي فحسب، بل هي تجدد الدم الهَرِم البارد للعالم القديم. تُضاف إلى الثقافة قوى طبيعية جديدة وتعطيها عصائر حياة جديدة. ثمة في طبع الثقافة خطر التحجر والجمود والإعجاب بالذات. قد تؤله الثقافة نفسها، وتفقد عندئذٍ معناها الإلهي، تفقد صلتها بالمنابع الإلهية للحياة. ويمكن أن يتحول التصدي لحمل الثقافة ونشرها كذبًا ونفاقًا. الثقافة خلقتها

الاندفاعات الإبداعية، لكنها، في تحجرها والإعجاب بذاتها، يمكن أن تصبح عدوة لكل اندفاعة إبداع، حينئذٍ تكون ثورة البربرية عقابًا طبيعيًا، ويمكن أن تفضي إلى سبلٍ جديدة. والثقافة الأوروبية مهددة حاليًا بضغط البربرية من الداخل والخارج. وبرز الشعور بذلك حين بدأت الحرب العالمية (الأولى)، وبلغ هذا الشعور أوجه حين انفجرت الثورة الروسية. لكن أشد ما يمكن خشيته هو أن البربرية الداخلية التي تهدد الثقافة الأوروبية في الحركات الثورية الديمقراطية الاشتراكية والفوضوية لا يمكن أن تضيف إلى الثقافة، الخالدة بطبيعتها، قوى فتية، قوى حياة طبيعية من أعماق الوجود، قوى وعواصف لم تتلوث في طبيعتها ونزوعها نحو النور. إن ذاك الذي تقف حياله أوروبا، هو أمر آخر كليًا. البربرية الثورية الداخلية تقتحم عالم الثقافة وهي ملوثة عميقًا بالأفكار المزيفة المناهضة للمسيحية، بشبه تعليم عقلاني مشوه، مع سيكولوجية «بروليتارية» مشوهة، مع إحساس خافت مشوّه بكنه الحياة، مع ادعاء شبه ثقافة ما مزيفة. وليس في هذه البربرية الثورية أي صراحة أو كمال طبيعي أو قرب من الأسرار الإلهية للطبيعة، بل هي مرت عبر الفبارك والمعالجة الصناعية، هي نفسها نتاج حضارة كافرة وقفت ضد الثقافة الرفيعة. أما من الخارج، فالثقافة المسيحية الأوروبية يهددها الشرق المنغولي الذي يمتلك فكرته المعادية للمسيحية، حضارته المعادية لنا وغير المفهومة من جانبنا. من هذه البربرية لا يمكن توقع دفق للقوى الخلاقة. الحضارة الأوروبية تقترب من سقف مخيف.

كانت تعمل في الثقافة دومًا بدايتان: كلاسيكية ورومانسية، وكانت في مختلف الأزمنة، تسيطر إما هذه البداية وإما تلك، وتخلق نمط الثقافة المسيطر. ومثلت اليونان النماذج الأرفع من الثقافة الكلاسيكية. لكن اليونان عرفت الثقافة الرومانسية أيضًا. بعد نيتشه يستحيل نفي ذلك. تتداخل الكلاسيكية والرومانسية، تتصارعان في ما بينهما وتتعاونان. الثقافة الكلاسيكية هي ثقافة أصيلة تحقق الإتقان في حدود الكمال المقفل والنهائي على الأرض. فهي تنشد الأشكال الصارمة التي لا تسمح بالاختراقات، ولا تتكشف فيها أبعاد لا حدود لها. الثقافة الرومانسية هي ثقافة تتميز باختراقات متسامية، تبلغ الكمال في اللامحدود، تحطم الكمال على الأرض وتحول دونه. أشكالها ليست صارمة، وتنطوي دائمًا على اختراقات، وتتكشف وراءها دومًا أبعاد بلا حدود. الثقافة الكلاسيكية لا تعرف عالمًا آخر خارج حدودها ولا تقول شيئًا بشأنه. الثقافة الرومانسية كلها من عالم خارج حدودها، وكلها مشدودة إلى الكمال في الأبد والخلود. الثقافة المسيحية هي ثقافة رومانسية بمبدئها، وليست كلاسيكية، مع العلم أن مبدأ الكلاسيكية ينشط فيها أيضًا بوصفه واحدًا من البدايات الأبدية. الثقافة الكلاسيكية تعني رضا الثقافة. هذا الرضا مستحيل في العالم المسيحي. فالعالم المسيحي هو مريض الحنين المتسامي. وطَبَعَ هذا الحنين ثقافته. الكمال في الثقافة على الأرض مستحيل بالنسبة إلى هذا العالم. البنية القوطية للنفس والبنية القوطية للثقافة، هي بنية مُمَيزة جدًا للعالم المسيحي. وكان من غير الممكن أن تحدث في العالم المسيحي نهضة كاملة ويحصل نجاح كامل حتى النهاية. كانت النهضة صراعًا عاصفًا بين البدايات الوثنية والمسيحية. واستوعبت الكنيسة المسيحية داخلها ثقافة العصور القديمة وحملتها عبر الظلمات، لكنها أعادت صوغها وأضافت إليها رمزيتها. ووسعت الكنيسة المسيحية سماء الوثنية وفتحت هوة عليا. وكانت توجد دائمًا ازدواجية في موقف العالم المسيحي الحقيقي من الثقافة. إن مشكلة الثقافة بالنسبة إلى المجتمع المسيحي هي مشكلة تراجيدية. هذه التراجيديا في الثقافة لم يعرفها العالم الوثني الكلاسيكي.

تراجيديا الثقافة هي نفي انغلاق الثقافة على الذات والرضا عن الذات. الثقافة الكاملة مستحيلة كما هو مستحيل المجتمع الكامل. الكمال ليس ممكنًا سوى في عالم آخر، في حقل آخر، في نظام مفيد، وليس في نظام طبيعي. للثقافة أسس دينية، وهي مليئة بالرموز الدينية، ولم يتم بلوغ نتائج أنطولوجية فعلية فيها. العلوم والفنون، الدولة والأسرة، الحقوق والاقتصاد، هي ليست حقائق الوجود الأخيرة، ليست المنجزات الأنطولوجية للمعرفة والجمال، للسلطة والحب، لاختلاط الناس وتنظيم الطبيعة، بل هي ليست سوى رموز لهذه المنجزات الحقيقية الواقعية. الثقافة غير الدينية كليًا مستحيلة ومنخفضة، لكن الثقافة الأنطولوجية - الدينية مستحيلة أيضًا. برزت الثقافة كاشتقاق للإله، برزت نتيجة الخروج من الهيكل، نتيجة الانفصال عن المركز الديني. إن عملية علمنة الثقافة هي عملية حتمية وقاتلة. العلمنة هي مأساة الثقافة الداخلية. عبر العلمنة، عبر الانقسام والتمايز، عبر الابتعاد من المركز الديني والاستقلالية الذاتية الكلية، تمر الفلسفة والعلوم والفنون والدولة والأسرة والحقوق والاقتصاد. الثقافة هي دينية بمنشئها وبوظيفتها. وهي تفقد طابعها الديني في أشكالها الأكثر كلاسيكية وإنجازاتها الأكثر كمالًا، في أشكالها الأكثر صرامة. لكن الطبيعة الرومانسية في الثقافة تذكر بمنشأ الثقافة وبوظيفتها وتهيئ أزمة الثقافة، مع العلم أنها عاجزة بذاتها.

***

أزمة الثقافة بدأت منذ زمن بعيد في قمم الثقافة. في أكثر ثمار الثقافة رهافة، نتلمس عدم رضا الثقافة، عدم كفاية الثقافة، انكسار سقيم فيها، نتلمس البحث عن سبل وجود يتخطى الثقافة. أزمة الثقافة والبحث عن وجود جديد أرفع من الثقافة، يتمان في تلك الأقلية المختارة في الشريحة الثقافية العليا التي عرفت الثقافة حتى النهاية ومشت دروب الثقافة. هذه العملية عرفها أشخاص مثل نيتشه وأبسين، مثل هويسمان وبلوا، مثل دوستويفسكي وتولستوي. بالنسبة إلى الغالبية الساحقة من الناس لا وجود لأي أزمة ثقافة. على الغالبية الساحقة أن تأتي بعد إلى الثقافة وتسير في دروبها. أزمة الثقافة، بطبيعتها، أزمة أرستقراطية، لا ديمقراطية. أنتم، الديمقراطيون والاشتراكيون، أنتم، الثوريون، لم تعيشوا أي أزمة ثقافة، حتى أنه لا يساوركم الشك في وجودها. وعداؤكم للثقافة «البرجوازية» لا يعني أي أزمة ثقافة، بل هو لا يعني سوى اللاثقافة، سوى الحسد تجاه الثقافة والمثقفين، وليس مأساة في داخلها. إن استخدام المقولات الاقتصادية الصرف والتقويمات الاقتصادية الصرف يعرقل الولوج داخل الثقافة والتعرف إلى حياتها السرية. سؤالكم الموجه إلى الثقافة، هو دائمًا سؤال بدهي بسيط، لا ينطوي على أي تعقيد، لا ينطوي على أي إشكالية وعمق. الحركات الثورية الديمقراطية والاشتراكية تشد في حقل الثقافة إلى الخلف، تخفض مستوى الثقافة النوعي وتضعِف الاهتمام بمشكلة الثقافة. «ثقافاتكم البروليتارية» لا تعني سوى أن الثقافة تمر بمحاذاتكم وأنتم بمحاذاتها. أنتم لا يعنيكم سوى «التنوير» الثوري للجماهير. لكن، حتى «التنوير» الأرفع شأنًا، تنوير القرن الثامن عشر مر بمحاذاة الثقافة الأصيلة وهيأ لسقوط الثقافة. ما لكم أنتم بمشكلات نيتشه ودوستويفسكي، وما لمشكلات نيتشه ودوستويفسكي بكم؟ ليس من شيء إشكالي بالنسبة إليكم، وأنتم تشعرون بأنفسكم «متنورين» جدًا حيال ذلك. إن «شبه تنوّركم» المعتز بذاته والوقح، الذي لا يهتز ولا ينحني أمام أي مقدس، هو على عداء عميق بالثقافة، يحط من الثقافة ويدمرها، لكنه لا يعي أي أزمة داخلية للثقافة ولا يفضي إلى تعميق هذه الأزمة، لأنه لا يفضي إلى

أي عمق. أنتم تريدون فحسب أن تكون الثقافة أكثر شعبية وديمقراطية ورخصًا وفي متناول اليد أكثر، وأن يختفي منها كل ما هو أرستقراطي وما هو شديد التعقيد والعمق وما يصعب الوصول إليه. أنتم تريدون الكتابة المبسطة واللغة المبسطة والفكر المبسط. هذا هو ما تعنيه ثقافتكم غير «البرجوازية». أنتم متواضعون جدًا في شؤون الثقافة، أنتم أقلويون، لا أكثريون، أنتم ناس الوسط. لكن أزمة الثقافة لم يتلمسها ويعيها سوى أولئك الذين كانوا قصوويين، لا أقلويين في شؤون الثقافة. إن أزمة الثقافة لا يمكن أن تجد التعبير عنها في التعلم المبسط لأصول الكتابة والقراءة. أنتم ما زلتم على معرفة سيئة بجدول الضرب، في حين أن جدول الضرب أصبح موضع شك في القمة فوق، لكن أنتم ما زال عليكم درسه. الثورة تخفف وقتيًا من أزمة الثقافة.

أزمة الثقافة تتحقق على نحو تراتبي، كما يتحقق كل ما هو أصيل، لا وهمي، في هذا العالم.

ليس لهذه الأزمة، بطبيعتها، ما هو مشترك مع ما تسمونه أنتم ثورات. هذه ثورة روحية أرستقراطية، وهي تحصل في بعد آخر. أزمة الثقافة تقوم في البعد العميق، وليس في البعد السطحي، كما جميع شؤونكم وحركاتكم. ماذا تعني أزمة الثقافة؟ الأزمة هذه هي معايشة ووعي عميق في ذرى الثقافة للتناقض الداخلي وعدم التطابق الداخلي بين الثقافة والوجود، بين الثقافة والإبداع. حين تبلغ الثقافة حدودها القصوى، حين تبلغ أقصى رهافاتها وتعقيداتها، يبدأون وعي أن المنجزات الأعلى للثقافة هي الوجود الجديد، هي الحياة الجديدة، وأن الإنتاجات العليا للثقافة غير متكافئة مع الاندفاعة الإبداعية، مع الوظيفة الإبداعية. لأن وظيفة الفعل الإبداعي، في الحقيقة، هي الوجود الجديد، الحياة الجديدة، الحقيقة الأنطولوجية، الجمال الأنطولوجي. إلا أن الاندفاعة الإبداعية مشدودة إلى الأعالي، يتصدى لها ثقل هذا العالم وتعود نحو الأسفل. تُخلق القيم الثقافية بدلًا من الوجود الجديد، وتُخلق الكتب واللوحات والمؤسسات بدلًا من الحياة الجديدة، بدلًا من العالم الجديد. في الثقافة والكتب واللوحات والمؤسسات كأن يحصل تقليل الحياة عينها، تجفيف الوجود. في الثقافة الكلاسيكية الشكلية المعاصرة، وفي علومها وفنونها، في مؤسساتها الحكومية والقانونية تتكشف هاوية متناقضة تمامًا مع هاوية الحياة عينها، هاوية الوجود عينه. هذا الأمر لا يمكن إدراكه في تلك البيئة التي تعيش فيها حشود، ليس من الناس غير المثقفين فحسب، بل ومن المثقفين أيضًا. هذا الأمر لا يتكشف سوى في الحدود القصوى للثقافة ونهاياتها، سوى في ذرى الإنجازات الإبداعية. هناك يسود حزن قاتل من العدم، تعطش للوجود الحقيقي، تعطش لتغيير العالم، تعطش لسماء جديدة وأرض جديدة. يلف مبدعو الثقافة عدم رضًا مأساوي من الثقافة وجميع منجزاتها. إلا أن عدم الرضا هذا لم يبلغ بعد مستهلكي الثقافة. لذلك، فإن الأزمة العالمية للثقافة لا تدور في الحركة الديمقراطية ولا في الثورات الجماهيرية، بل في الحركة الأرستقراطية، في الثورات الداخلية للروح. أزمة الثقافة تكشف بوضوح كم هي بائسة ومسطحة جميع التناقضات المبتذلة بين «الثوريين» و«الرجعيين»، بين «اليساريين» و«اليمينيين». هذه التناقضات لا تثير سوى رضًا سطحي فحسب، أما في العمق، فإن جميع التناقضات الحقيقية هي تناقضات أخرى، وجميع هذه القشور تسقط. يستمر في العالم منذ الأبد صراع تراجيدي وسوء فهم مأساوي بين أقلية تحيا بالإبداع، بالتفتيش الروحي، بالأفكار، تحيا بالشعر، وأكثرية تحيا بالمصالح، بالشهوات، تحيا بالنثر.

إن أكثر الأشخاص إبداعًا في قيم الثقافة يمكن أن يعيشوا عدم رضًا عميق من الثقافة ويتلمسون أزمتها العميقة. لكن الأشخاص، متوسطي الثقافة أو معدوميها ليس في وسعهم أن يستخلصوا من

هنا أي استنتاج ضد الثقافة، لا يستطيعون على هذا الأساس رفع اللاثقافة وشبه الثقافة إلى مرتبة مثالية. إن مأساة الثقافة وأزمتها، وتعطش أفضل الناس للانتقال إلى وضع مابعد الثقافة، إلى وجود جديد، إلى أرض جديدة وسماء جديدة، هذه كلها لا يمكن أن تكون حججًا لمصلحة أيديولوجية (قبائل) الخزر البربرية. للروس، وللسلاف عمومًا، علاقة ملتبسة بالثقافة. نحن نحب التحدث عن «برجوازية» الثقافة، يسهل علينا وضع أنفسنا فوق الثقافة. الميل إلى نفي الثقافة التي يرون فيها ارتدادًا عن الكمال الأولي، عن الأنموذج الحياتي الرفيع، والتعظيم من شأن الحياة الشعبية الكاملة التي سبقت الثقافة، أمر مميز لأعظم المفكرين الروس وأشدهم أصالة. لدى الروس غواية بالشعور بأنفسهم خُزَرَ ووضع أنفسهم في معارضة الهلينيين. أيديولوجية الخزر ولدت عندنا في زمن الثورة. وهي أحد أشكال هيجان عاصفة الثورة لدى الناس القادرين على إسباغ الشاعرية والباطنية على هذه العاصفة. أيديولوجية الخزر هي أحد أقنعة ديونيسوس. وهي، في صراعها مع وسطية كل ثقافة واعتدالها، لا تندفع إلى أعلى، إلى الهاوية العليا، بل إلى أسفل، إلى الهاوية السفلى. الخزر المعاصرون ينشدون الأناشيد، ليس للواقع الذي يتخطى الثقافة، بل للواقع الذي ما دون الثقافة. وهم قليلًا ما يسعون إلى سماء جديدة وأرض جديدة، وإلى تغيير العالم. إنهم وثنيون، تجري في عروقهم دماء بشرٍ لم يتسلموا سر الخلاص. أيديولوجية الخزر هي في روسيا نوع من القومية الوثنية المتحولة رسالية ليست مسيحيةً ومعادية للمسيحية. الخزر عليهم أن يكفروا عن خطاياهم في الخضوع للثقافة ومدرستها الصارمة.

الثقافة طريق حتمية للإنسان والإنسانية. طريق لا يمكن تفادي المرور فيها. وينبغي معاناة طريق الثقافة من أجل الخروج خارج حدود الثقافة، إلى الوجود الإبداعي الأرفع. وليس سوى في قمم الثقافة يتمكن الاندفاع الإبداعي من تحطيم أصفاد الثقافة التي تقيدنا إلى هذا العالم. ثمة أيضًا درب القداسة المتوافرة لغير الكثيرين. لكن هذه الطريق هي أيضًا طريق الثقافة العليا للروح. وهي في الأساس الأعمق للثقافة المسيحية. ظاهرتان تخرجان خارج نطاق المعايير الكنسية للثقافة: القداسة والعبقرية. لكن القداسة والعبقرية، الظاهرتان الأعظم للثقافة الروحية، هما المحركان الفعليان لها. البشرية محكومة بالثقافة. لكن تنشط في البشرية أيضًا قوى معادية لسبل إبداع الثقافة، قوى عدمية وفوضوية. الثورة العدمية والفوضوية ضد الثقافة لا تفضي إلى الخروج خارج نطاق الثقافة، بل هي تردها فحسب إلى الوراء، الأمر الذي يتطلب من الثقافة عملًا جديدًا. قلة من هم بحاجة إلى الثقافة الرفيعة. الجماهير المتوسطة من البشرية ليست بحاجة إلا إلى ثقافة متوسطة فحسب. وهذا ما يشير إلى البنية التراتبية للثقافة. الأهداف العليا للحياة العالمية والتاريخية مرتبطة بما هو مفهوم وضروري للقلة فحسب. لكن هذا المفهوم والضروري للقلة يشكل السند الروحي للعالم بأسره وللتاريخ كله. في الثقافة، ثمة ما هو باطني داخلي وما هو خارجي علني. وما هو مفهوم في المراتب العليا فحسب يتمتع بأهمية أساسية بالنسبة إلى المراتب الأكثر تدنيًا. الفلسفة ضرورية للتكنولوجيا. أزمة الثقافة تدور في المراتب العليا للحياة الإبداعية. لكن، لهذا الأمر أهمية عالمية. تسري موجة روحية من الأعلى حتى الأسفل. الحل الثوري لأزمة الثقافة من أسفل هو هراء فظيع. أهداف المجتمع خاضعة، داخليًا، للثقافة. جميعكم أنتم، الناشطون الاجتماعيون، لا تدركون هذا الأمر بصورة كافية، لهذا تبقى أهداف الحياة مغلقة عليكم، ووعيكم لا تملأه إلا وسائل النضال. لكن أهداف الثقافة أيضًا لا يسعها أن تكون أهدافًا نهائية. يقوم بعدها وعلى عمق أكبر

ملكوت الله. أنتم، الناشطون الثقافيون، لا تدركون جيدًا هذا البعد الديني. لهذا، أهداف الحياة مغلقة عليكم. هذا الأمر يدركه أولئك المبدعون الذين يعيشون أزمة الثقافة. هؤلاء يقفون أمام المهمة الأخيرة في تحقيق الثقافة في وجود جديد. هكذا نأتي إلى أبوكاليبتية الثقافة.

الرسالة الرابعة عشرة

في ملكوت الله

التاريخ بأسره مليء بالبحث عن ملكوت الله. والبحث هو روح التاريخ الدفينة، هو قدس أقداسه. أهداف التاريخ جميعها نسبية مقارنة بهذا الهدف، جميع الأهداف تتحول إلى وسائل فحسب. والتاريخ عينه، بمعناه الدفين، ليس سوى حركة نحو ملكوت الله. لكن وعي البشرية المحدود يبحث عن ملكوت الله في التاريخ عينه. وهذا هو بالذات التناقض الأساسي لفلسفة التاريخ الدينية. ملكوت الله هو هدف التاريخ، نهاية التاريخ، هو الخروج إلى ما بعد حدود التاريخ. لذا، لا يمكن ملكوت الله أن يكون في التاريخ. البحث عن ملكوت الله في التاريخ، في واقع الأرض التاريخي، هو وهم، هو خداع بصري. ملكوت الله هو ما وراء التاريخ وفوق التاريخ، لكنه ليس في التاريخ. هو دائمًا البعد الرابع مقارنة بأبعاد التاريخ الثلاثة. ولا يجوز البحث عن البعد الرابع داخل أبعاد الفضاء الثلاثة. تمامًا، كما ملكوت الله لا يجوز البحث عنه أيضًا داخل التاريخ. للتاريخ معنى مطلق، مصدر مطلق وهدف مطلق. لكن المطلق عينه لا يتسع له التاريخ. الواقع التاريخي يتسع له المطلق، الوجود الإلهي، لكن المطلق، الوجود الإلهي لا يتسع له الواقع التاريخي. النسبي هو ظاهرة داخل المطلق، لكن المطلق لا يسعه أن يقيم كله في النسبي. التاريخ ليس سوى درجة من الواقع المطلق. لكن الواقع المطلق لا يسعه أبدًا أن يُبعَثَ كله في التاريخ. «كل ما هو عابر ليس سوى رمز». يمتلك التاريخ معرفة رمزية في المقام الأول، وهو مليء بإشارات واقع آخر، واقع إلهي. تشير رمزية التاريخ إلى استحالة ملكوت الله داخل التاريخ عينه، استحالة ملكوت الحياة المطلقة في مرتبة ما من مراتب مسار التاريخ. ملكوت الله هو ملكوت روحي مطلق، ولا يسعه أن يكون ظاهرة في العالم المادي، وهو يفترض الانتصار على العالم المادي والانتقال إلى عالم آخر. الحياة المطلقة هي انتقال إلى مستوى آخر، إلى بعد آخر للوجود. وكل إنجاز للحياة المطلقة هو اختراق يتخطى نطاق النظام الطبيعي والتاريخي. ولا يمكن الحياة المطلقة أن تجد متسعًا لها في النظام الطبيعي والتاريخي. وبسبب دخول المطلق تنزاح جانبًا كل حياة طبيعية وتاريخية، تذوب وتفقد حدودها وتنتقل إلى اللامحدود.

إن اختراق المطلق لعالمنا الطبيعي والتاريخي، والاختراق باتجاه المطلق من عالمنا الطبيعي والتاريخي يشيران إلى أنه لا يوجد أي عالم مغلق، معزول ومُكتفٍ بذاته. يمكن أن تدخل «هذا العالم» قوى عوالم أخرى أكثر رفعة، وتدخل طاقات أنطولوجية، كما يمكن على حدٍ سواء أيضًا أن تكون هناك مخارج واختراقات من «هذا العالم» لعوالم أخرى أكثر رفعة. في عالمنا هذا، في حياتنا الطبيعية والتاريخية، يتوافر إمكان ولادة طيبة من جديد، الانعتاق من ثقل العالم، من عبء التاريخ ممكن، وممكنٌ تحطيم قيود النمط الحديدية. الواقع التاريخي ليس واقعًا مغلقًا، ليس سجنًا بأقفال حديد. ثمة اختراقات في الواقع التاريخي وفي الواقع الروحي الأعلى، ثمة تدفقات لطاقة الأبعاد الثلاثة في البعد الرابع. تنتهك هذه الاختراقات جميع النظريات حول العملية التاريخية، تحطم جميع نمطيات السوسولوجيات العقلانية. في السيرورة العالمية والتاريخية لا تعمل القوى الروحية الملازمة لها فحسب، بل تعمل كذلك قوى باطنية غامضة ليست خاضعة لأي احتساب: قوى طيبة وقوى مظلمة. والإنجازات الإبداعية الرفيعة للعملية التاريخية كانت اختراقًا من عالم آخر وفي عالم آخر. إن عدم التناسب بين المطلق والنسبي، بين ملكوت الله والتاريخ، لا يجوز تصوره كعزلة لحقل النسبي، كانفصال للتاريخ عن الحقائق العليا. النسبي هو في المطلق عينه، يفترضه المطلق نفسه. وعلى هذا يقوم تبرير النسبي وتقوم حقوق المطلق. النسبي ضروري داخليًا

لكشف اتساع المطلق. لهذا، لا يمكن للنسبي أن يكون منسلخًا عن المطلق وعلى النقيض منه. لا يمكن تصور تناقض عالم النسبي مع عالم المطلق. في عمق معين، غير مدرك، تختفي جميع الأضداد وتزول جميع التناقضات. إن وعينا المتجه إلى الخارج، المشدود إلى العالم، يصطدم دائمًا بسلسلة من التناقضات غير القابلة للحل. هذه التناقضات كأني بها تحمي حميمية العمق الحياتي وغموضه. في أعماق حياة روح الإنسان (وليس نفسه) يتكشف المطلق ويُتاح، نحن غارقون في الواقع المطلق، نحن لسنا عبيد الكون، لسنا تحت رحمة النسبي. نحن لا ننتمي كليًا إلى مملكة النسبي سوى حين تكون حيواتنا لا تزال في طور المشروع في الخارج. في انشدادنا نحو العمق، نحن ننتمي إلى واقع آخر، نحن شركاء في ملكوت الله. إن سر علاقة العالمين الاثنين في الإنسان والإنسانية هو سر المسيح، سر ظهوره في هذا العالم. إن ظهور المسيح في العالم كانت نقطة الاختراق الوحيدة التي لا تتكرر للإله نفسه في هذا العالم الطبيعي. ولا تتشابه أو تُقارن مع هذا الاختراق جميع الاختراقات الإبداعية الأخرى التي تنسحب عليها مقولة التعددية والتكرار. إن كلية الألوهية في المسيح ثابتة روحيًا وجسديًا. لكن ظهور المسيح لم يكن ظهور ملكوت الله على الأرض في العالم المادي، بل هو لم يكن سوى الوعد بملكوت الله. يعلمنا المسيح، أن ملكوته ليس من هذا العالم. وليس في وسع العالم هذا أن يتسع لملكوته، بل عليه أن يتحول، أن يصبح عالمًا آخر، أن يخرج من نفسه. إن البحث عن المملكة الحسية للمسيح على هذه الأرض، في هذا العالم المادي المحدود، ليس سوى واحدة من غوايات الوعي الديني، ليس سوى سراب له. إنها غواية يهودية، إنها ظاهرة يهودية داخل المسيحية.

إن انتظار ملكوت الله الحسي على الأرض هو نزعة ألفية (millénarisme) يهودية. اليهود كانوا ينتظرون المسيح - ملك الأرض الذي يقيم على الأرض مملكة إسرائيل المباركة. وهم أنكروا المسيح الذي ظهر في صورة عبد وقال أن مملكته ليست من هذا العالم. المسيح المصلوب هو النقيض الأبدي للمسيح الذي يحقق ملكوت الله على الأرض الذي يأتي بالفردوس الأرضي. إن طوبى الجنة الاجتماعية على الأرض هي تجربة نزعة ألفية يهودية. وينبغي لطبيعتها المادية ألا تحجب عنا مصادرها الدينية - اليهودية القديمة. المسيح المصلوب يقاوم طوبى النزعة الألفية التي تسللت إلى العالم المسيحي، ويرفضها. العالم كله عليه أن يمر عبر الصلب، عبر الجلجلة، قبل أن يأتي ملكوت الله، ملكوت المسيح. لن يدخل العالم والبشرية في ملكوت الله إلا بعد إنجاز سر الخلاص حتى النهاية. وهذا يعني أن ملكوت الله مستحيل في هذا العالم، في النظام المادي الطبيعي. ملكوت الله هو إعادة تشكل العالم كليًا، هو الانتقال إلى بعد آخر للوجود. إن النزعة الألفية اليهودية تريد المسيح - الملك الذي يحقق ملكوت الله على الأرض في الطبيعة القديمة من دون الصليب والصلب. وتنسى النزعة الألفية المسيحية المتهودة صلب المسيح وتريد، عبر الخلاص، القفز إلى مملكة المسيح الألفية المحسوسة على الأرض التي ما زالت قديمة، وتحت السماء التي ما برحت قديمة. والاشتراكية ليست سوى النزعة الألفية المعلمنة المنسلخة عن جذورها الدينية. إن طوبى الجنة الاجتماعية على الأرض، طوبى الكمال الدنيوي والنعيم الدنيوي والمطلق الدنيوي، ليست سوى نسيان صلب المسيح، سوى عدم الرغبة في تقاسم الجلجلة معه والابتعاد من سر الخلاص. الأساس الأولي الذي تقوم عليه طوبى الجنة الدنيوية هو إنكار الخلود، عدم الإيمان بالخلود، التعطش لهذه الوصلة من الحياة الدنيوية واشتهاء خيراتها. إن طوبى ملكوت الله على الأرض في الطبيعة المادية، عصية، هي مقاومةُ النظام الإلهي للعالم. ملكوت الله يُستبدل بملكوت غير الله.

***

الانتقال من المستوى التاريخي إلى المستوى الأبوكاليبتي يمثل تناقضًا عصيًا على الحل بالنسبة إلى العقل، فالعقل يميل إلى تصور هذا الانتقال كأنه يجري في التاريخ عينه، كأنه المرحلة الختامية في التاريخ. لكن هذا هو الوهم النظري عينه. يمكن الحديث عن الحقبة الأبوكاليبتية في التاريخ العالمي، عن علاماتها الأبوكاليبتية، لكن هذا لا يعني بعد الانتقال من التاريخ إلى المستوى الأبوكاليبتي. من جهة ثانية، لا يمكن تصور النهاية التي تتحقق في المستوى الأبوكاليبتي، بأنها ماورائية كلية، ونسبتها كليًا إلى العالم الآخر. المستوى الأبوكاليبتي الذي ننسب إليه حلول نهاية العالم ومعالجة التاريخ العالمي، لا يجوز تصوره من هذا العالم كليًا ولا ما ورائيًا كليًا، لا من هذا الجانب حصريًا ولا من الجانب الآخر كليًا. هذه هي مشكلة التناقض بالنسبة إلى وعينا العقلاني، مشكلة العلاقة بين الوقت والأبد. هكذا، مثلًا، فإن تصور الخلود كحياة ما ورائية، خلافًا للحياة الدنيوية التي من هذا الجانب من العالم، هو محدودية عقلانية. والخلود يتكشف في أعماق كل هنيهة من الحياة الدنيوية. هكذا أيضًا داخل التاريخ عينه، حيث تتكشف النهاية في عمقه كبعد آخر له النهاية في الوقت ليست سوى انعكاس لما هو معطى في العمق. نهاية التاريخ وتخطي التاريخ لن يكونا في التاريخ، نهاية الوقت وتخطي الوقت لن يكونا في الوقت. لكن هذا لا يعني أننا محكومون إلى الأبد أن نكون تحت رحمة لانهائية العملية التاريخية البلهاء، تحت رحمة تيار الوقت. بالنسبة إلى الوعي المسيحي ثمة خاتمة شمولية، ثمة انتصار على سلطة الوقت. بالنسبة إلى الوعي المسيحي مشكلة المجتمع البشري القصوى تنحصر في الإيمان بالآخرة (eschatology). لكن الإيمان المسيحي بالآخرة لا يمكنه أن يتجسد ماديًا. النزعة الألفية (chiliasm) كانت دائمًا إيمانًا بالآخرة يتجسد ماديًا. لكن هذا لا يعني أن الوعي المسيحي يتقبل الإيمان الروحاني بالآخرة (spiritualist eschatology). مملكة المسيح لن تكون في السماء فحسب، بل وعلى الأرض أيضًا، لن تكون مملكة روحانية فحسب، بل وجسدية أيضًا. لكن تلك سوف تكون أرضًا أخرى متغيرة، وذلك سوف يكون جسدًا آخر متغيرًا. إن نزول أورشليم على الأرض لا يمكن تصويره كتجسيد مادي. وهو لا يمكن أن يحدث في نطاق التاريخ ذي الأبعاد الثلاثة، بل هو البعد الرابع للتاريخ. إن الجسدية الشهيرة في مملكة المسيح ليست جسدية مادية فيزيائية. ينزرع الجسد العقلاني، يقوم الجسد الروحي. التاريخ في الوقت هو انعكاس على السطح لما يدور في العمق، في الأبدية. والخاتمة المتاحة في هذا التاريخ الزمني هي دائمًا تناقض غير قابل للحل، هي دائمًا وهم نظري بالنسبة إلى الوعي العقلاني. الحياة الجديدة، العالم الجديد هو ملكوت حقيقة إلهية أبدية، لا مستقبل يضع نفسه نقيضًا لماضٍ.

لم تلق مشكلة الإيمان بالآخرة في الوعي الدوغمائي المسيحي وفي الفلسفة المسيحية معالجة واضحة وملزمة للعموم. وكانت دائمًا تتكشف حول هذه المشكلة إمكانات مختلفة. ولم تجد القيامة (apocalypse) في تاريخ المسيحية متسعًا كاملًا لها، وكان الموضوع عن القيامة هو دائمًا الموضوع عن وحي جديد في المسيحية. هكذا، كان الأمر يومًا ما مطروحًا بالنسبة إلى يواكيم الفلوري[(55)] (Joachim of Flora)، هكذا هو مطروح بالنسبة إلى كثرٍ من المفكرين الدينيين في عصرنا ذوي الميول النبوئية. «رؤيا يوحنا» اعترف بها الكتاب المقدس وتم ضمها إلى العهد الجديد. لكن الكنيسة لم تجعل من هذا الكتاب المقدس تطبيقًا، على غرار ما فعلت في الكتب المقدسة الأخرى. ولم تصبح «رؤيا يوحنا» مصدرًا خلاقًا للعقيدة الكنسية، ولا لممارسة المسيحيين

الكنسية. بقي هذا الكتاب غامضًا مدموغًا بخاتم السرية الشديدة. هكذا كان ينبغي أن يكون عليه الأمر حتى زمن معين. وفي زمننا الذي يطلق عليه الأشخاص ذوو الحساسية الصوفية العالية، صفة زمن القيامة، فإن سوء الاستخدام غير المسؤول للقيامة يثير انطباعًا غر مريح. والتنبؤ بحلول نهاية العالم في زمن معين يناقض بوضوح كلمات المسيح، بأن لا أحد يعرف هذا اليوم وهذه الساعة. إن توقع نهاية العالم صباح بعد غدٍ ينزع كل مسؤولية عن الناس ويجعلهم سلبيين. في هذه الانتظارات يحصل دائمًا خلط المستويات المختلفة بعضها ببعض، ويشعر المرء بعدم نضج روحي وبعمل فج في إسباغ الصبغة المادية على الأسرار المسيحية. إن دخول الحقيقة المطلقة المسيحية في النسبية التاريخية يواصل سلسلة تناقضات لاعقلانية. والوعي «الأبوكاليبتي» يمكن أن يقدم حلولًا لهذه التناقضات الشديدة الفجاجة والعنف. وداخل المسيحية عينها، الصدام والتعاون بين المطلق والنسبي، بين الأبدي والتاريخي، هو أمر شديد التعقيد. وليست البابوية القيصرية (Papocaesarism) الغربية والقيصرية البابوية (Caesaropapism) الشرقية سوى البحث عن المطلق في النسبي، عن الأبدي في التاريخي. على هذا الأساس، قامت جميع تجارب الثيوقراطية الدنيوية والممالك المقدسة. ولم يكن ملكوت الله فيها سوى على نحو رمزي، لا على نحو واقعي - أنطولوجي. الكنيسة ليست ملكوت الله على الأرض، ووجود كنيسة المسيح في التاريخ، التي لا تتسع لها أبواب الجحيم، لا يقول بإمكان ملكوت الله على الأرض. كانت المطابقة بين الكنيسة وملكوت الله، مدينة الله، خطًا ارتكبه القديس أوغسطين[56] (Aurelius Augustinus) ترك أثره في المفهوم الكاثوليكي للكنيسة. الكنيسة ليست هي الثيوقراطية. والمزاعم الثيوقراطية الخارجية كلها قضى عليها التاريخ. إن عملية العلمنة القاتلة لم تتغلب ولن تتغلب على قدسية كنيسة المسيح، لكنها تتغلب على المزاعم الثيوقراطية، وتحطم الطوباويات العظيمة للممالك المقدسة. ملكوت الله يأتي على نحو تدريجي غير ملحوظ. وهو يدخل العالم على نحو غير مرئي ويمتلك العالم. من الأعماق، يأتي هذا الملكوت وإلى الأعماق مشدود هو. والملكوت المحسوس جدًا والمرئي جدًا هو ليس ملكوت الله بعد. والأوهام الثيوقراطية هي التي كانت أوهام ملكوت الله المتجسد المحسوس، ملكوت الله في الطبيعة غير المتجلية في الأبعاد الثلاثة للحياة الدنيوية. والكنيسة عينها يمكن أن نأخذها في البعد التاريخي، في تجلياتها على المستوى المادي، وفي بُعدِ العمق، في كيانها العميق. ثمة كنيسة خارجية عامة، ديمقراطية تقود الحشد البشري وتربيه من أجل حياة أرفع، وثمة كنيسة داخلية خاصة، عميقة تتكشف فيها الأسرار الأشد عمقًا والتواصل الأعمق من أجل المرتبة الأرفع. ولا يمكن أن يكون هناك أي تناقض بين هذين المفهومين للكنيسة. إن الكيان الروحاني الواحد الصلب للكنيسة، التراتبية ببنيتها، له مستويات للتجلي، له مركزه وهامشه. إن ديمقراطية المسيحية التاريخية تحمي أرستقراطية المسيحية الداخلية العميقة. أوهام ملكوت الله على الأرض تقوم على التصور بأن الداخلي العميق أُلقي به إلى السطح نهائيًا، وأن ما هو داخلي خاص يصبح خارجيًا عامًا بصورة كلية، وأن الروحي يصبح ماديًا بالكامل. لكن ملكوت الله ينتمي إلى العمق الدفين للوجود، لا للسطح منه، لا لقشرته المرئية والمحسوسة. ملكوت الله ليس محسوسًا، ملكوت الله ليس من هذا العالم. ملكوت الله هو التغيير الناجز للعالم. التواصل المسيحي لا يمكن أن يكون ثيوقراطية خارجية مادية. المجتمع المسيحي هو تواصل غامض في الروح، في الحب المسيحي. وهو لا يقارن بأي مجتمع ينظمه القانون. إن جميع المحاولات في مقارنة التواصل المسيحي في الروح القدس مع التيارات الديمقراطية، الاشتراكية هي زيف ديني وخداع. ليس لحرية التواصل المسيحي في الروح القدس ما هو مشترك مع «الحرية» الفوضوية،

وليس لأخوّة التواصل المسيحي في الروح القدس ما هو مشترك مع «الأخوة» الاشتراكية. التواصل المسيحي هو تواصل رحوم، تواصل في حب المسيح. أما التواصل الفوضوي والاشتراكي فهو ينتمي كليًا إلى مملكة الحاجة الطبيعية، إلى مملكة قيصر. كما أن كل ربط للمجتمع المسيحي بالدولة الوثنية القديمة أو بالاقتصاد الطبيعي المتخلف هو زيف ديني أيضًا. المسيح يفصل بين ملكوت الله ومملكة قيصر، ولا يمكن أن تتسع لملكوت الله أي مملكة لقيصر، قديمة أو جديدة، رجعية أو ثورية. إن التواصل الأخوي في المسيح هو الدخول السري في ملكوت الله. وتأتي هذه الأخوة في المسيح إلى العالم على نحو تدريجي غير ملحوظ. وليس في ملكوت الله أي مجموعة، ليس فيه سوى الشخصية المنفردة، وهو يتكون كله من شخصيات على مستويات تراتبية مختلفة. وفي ملكوت الله سيكون «مجد الشمس آخر، ومجد القمر آخر، النجوم غير النجوم، وتختلف النجمةُ عن النجمةِ مجدًا».

ليس في الأخوة المسيحية أي إشارة اجتماعية خارجية، ولا يمكن أن تكون لأي إشارة اجتماعية معايير. لم يكن في ما أتاه القديس فرنسيس[57] (Francesco d'Assisi) أي شيء مرتبط بالمملكة الاجتماعية، وجاء فيه ملكوت الله إلى العالم على نحو غير ملحوظ. كل ما هو اجتماعي مرتبط بالوسائل النسبية للحياة، وليس اجتماعيًا بالأهداف المطلقة. الهدف الاجتماعي المطلق غير وارد، الهدف المطلق ديني، لا اجتماعي. كل الاجتماعي الخارجي يمتلك في داخله نسبية مادية. وملكوت الله يتأجل حين يبدأون تصوره مملكة اجتماعية، حين يعتبرونه موجودًا على الأرض وفي الزمن. ثقل العالم يقيد الروح حين يجعلون النسبي مطلقًا. لكن محفز جميع الطوباويات الاجتماعية هو جعل النسبي مطلقًا. أنتم تجادلون في ما إذا كان ملكوت الله «يمينيًا» أو «يساريًا». لكن استخدام هذه المعايير في ملكوت الله هو هرطقة. وكل «اليمين» و«اليسار» يزول، حين تتلامسون مع سر ملكوت الله. الطوباويات الاجتماعية التي تقدم نفسها على أنها ملكوت الله، ينبغي أن يترسخ ضدها تشاؤم سليم وقساوة متعففة. هذا التشاؤم حيال العالم وكل ما في العالم، هو في الإنجيل والقيامة. وينبغي تذكيركم به تكرارًا. إن قيامات الإنجيل الصغرى وقيامة القديس يوحنا لا تتنبأ بانتصار محبة المسيح وغلبتها وحقيقة المسيح على الأرض.

***

تتحدث النبوءات المسيحية عن مجيء المسيح الدجال، عن انتصار أمراء العالم هذا، عن نضوب المحبة. إن جميع طوباويات النعيم الدنيوي، والكمال الدنيوي، والنصر النهائي للحقيقة على الأرض، هي في تناقض مستعصٍ مع النبوءات المسيحية. ما ذكرته رؤيا يوحنا اللاهوتي عن ألفية ملكوت الله يبقى سرًا دفينًا. وجميع محاولات كشف هذا السر وترجمته إلى اللغة العقلانية للطوباويات الدنيوية، ليست محاولات دينية، والبحث عن مملكة هذا العالم هو أقوى فيها من البحث عن ملكوت الله. وألفية ملكوت الله الأبوكاليبتية هي التخطي الرائع لتناقض الزمني والأبدي، الأرضي والسماوي، الماورائي والدنيوي، الأصيل والمفتعل. لهذا، لا يمكن التعبير عن هذا الملكوت بلغة أحد قطبَي هذا التناقض، لا يمكن نقله إلى مستوى الزمني، الأرضي والدنيوي. إن عجائبية القيامة مرتبطة بكون لغة هذا الكتاب ليست لغتنا. لهذا، فهي ليست مفهومة إلا رمزيًا. الرمز هو الزمن والأبد، العالم الدنيوي والعالم السماوي. ملكوت الله يتكشف لنا رمزيًا. وهذا هو الاعتراض الراديكالي ضد جميع محاولات تحويل ملكوت الله طوبى دنيوية. ونحن، إذ ندخل في الجو الأبوكاليبتي، نتعرض لخطر الاستبدال والازدواجية. فكل سرية القيامة وعدم جلائها،

وتناقضها ولاعقلانيتها، مرتبطة بإمكان الاستبدال والازدواجية هذه المتاحة للحرية الإنسانية. لا يمكن أن تكون القيامة على وضوح الإنجيل وبساطته. تتكشف فيها أقصى الازدواجية الروحية، ويظهر فيها أقصى الزيف والشبه العكسي للمسيح. كل شيء في الإنجيل يتحقق في جو وضوح الشمس والبساطة الإلهية، وتكتسي الكلمة جسدًا، ويخترق ضوؤها المبهر نفوس الناس. كل شيء في القيامة يتحقق في جو معقد ومختلط، وكل شيء في هذا الجو يتفسخ، كل شيء فيها مشبع بالحنق وصدام البدايات المتناقضة الشديد. وشعاع النور من وجه المسيح لا يقع على الأرض العذراء للبساطة الروحية والكمال، إنما على أنفس شديدة التعقيد والازدواجية، مرهقة ومعذبة بتاريخها الطويل، موضوعة أمام مشكلات جديدة كليًا. لقد سبق أن خرجنا من الجو الإنجيلي ودخلنا في الجو الأبوكاليبتي. جونا الروحي لا يشبه جو المسيحية الأولى. وهم يكفون عن تمييز وجه المسيح، ويخلطون بينه وبين الشبه النقيض. يتبدى وجه المسيح مهتزًا بالنسبة إلى الإنسان المعاصر. والروح المعاصرة زَلِقة جدًا، فلا الخير لها ثابت ولا الشر. يتراءى لها الشر في صور مخادعة للخير. روح المسيح الدجال هي روح الزيف والخداع، هي الروح الغامضة المراوغة في جوهرها الداخلي، لأن الجوهر هذا هو في العدم.

إن طوبى الجنة الاجتماعية على الأرض هي إحدى خدع أشباه ملكوت الله العكسية وأباطيلها. إن الحلم الاجتماعي الشاسع للأرواح المنهكة التي أضاعت كل ديسيبلين تقشفي في ضبط النفس، والتي انفصلت عن مركز الحياة الروحية، هو أرض خصبة للغوايات المعادية للمسيح. المسيح الدجال يغري بتحقق ملكوت الله على الأرض، بالنعيم الاجتماعي. وهو يعد بتحقيق ما لم يحققه صلب المسيح. بعد مجيء المسيح على الأرض لم تنتصر الحقيقة على الأرض. وهذا يغوي كثيرين. فقد أغوى الشعب اليهودي. وهذا يُدخل الباحثين المعاصرين عن الحقيقة الدنيوية في الغواية. وسوف يكون أرفع من المسيح ذاك الذي يحقق الحقيقة على الأرض، أو أنه سوف يكون المسيح الآتي، ذاك الذي سوف يحقق هذه الحقيقة ويُنهي عذابات البشر وآلامها. لكن المسيح لم يحقق الحقيقة والنعيم على الأرض، بل هو لم يعد فيها أساسًا. هو دعى الإنسان إلى حمل صليبه والسير وراءه. وهو علمنا أن الحياة على الأرض، في هذا العالم، هي صليب، وأن طريق ملكوت الله تمر عبر الجلجلة. أما أكثر من ذلك فعليه أن يمارس الغواية، ذاك الذي يعد بملكوت الله على الأرض دون جلجلة وتكفير عن الخطايا.

للحركة الاشتراكية والفوضوية في العالم أهمية دينية هائلة، لأن الحركة هذه تعمق مشكلة المسيح الدجال بالنسبة إلى الوعي المسيحي. هذه الحركة تُفضي إلى الحدود القصوى، بل تتحول بيئة روحية للقيامة. لقد كف الوعي المعاصر عن رؤية الشر بوضوح وتمييزه من الخير. تحصل عملية تعتيم ما. الحياة الروحية عَكِرَةٌ، لم تعد فيها بلورات شفافة، لم تعد فيها تلك اللؤلؤة التي يعطي المرء كل خيرات العالم من أجلها. تتسطح الشخصية في الإنسان المعاصر وتصبح مبهمة، تفقد وضوح الشكل وصلابة الحدود. وهذه التربة ملائمة جدًا لجميع تأثيرات القوى المظلمة. الشخصية هي في حوزة قوى ما مجهولة لا تعرفها. ليست الشخصية هي نفسها التي تنشط، إنما «شيء ما» فيها ينشط. جميع عمليات الغش والاحتيال المعادية للمسيح تقوم على إنكار الشخصية، على تدمير الشخصية. الشخصية التي تحتفظ بقوتها، بصورتها، بحدودها، يمكن أن تسقط، أن ترتكب خطيئة، أن تأتي شرًا، لكنها لا تستسلم لغوايات وخدع الصور المهتزة للروح المعادية للمسيح. ومناهضة

الروح المعادية للمسيح هي تعزيز الشخصية، بالدرجة الأولى، وتعزيز الديسيبلين الروحي في الشخصية، والدفاع في الشخصية الإنسانية عن صورة الله وشبهه ضد عواصف «العالم هذا» الزاحفة عليها.

تبتغي الزوابع الطبيعية تمزيق الشخصية وتهيئة التربة لمملكة المسيح الدجال الدنيوية. وعلى الشخصية أن ترسخ نفسها في المسيح من أجل مقاومة هذه الزوابع ومجابهة هذه العواصف. يظهر الشر في عصرنا متبرجًا بزينة جديدة. وليس شرًا بسيطًا هو الذي يغوي، بل هو شر معقد مربك. إن ما هو غامض وعَكِرٌ يأسر، يجتذب خرق جميع الحدود، جميع الخطوط الفاصلة وجميع الفروقات. هذا صحيح بالنسبة إلى حياة الإنسان الحميمة، كما هو صحيح بالنسبة إلى الحياة الاجتماعية أيضًا. الإنسان، حتى في الحياة الاجتماعية، يرغب في أن يندفع إلى الهاوية، في أن يستسلم للعواصف على أمل أن يكتسب حياةً جديدة، أن يبلغ ملكوت الله. يفقد الإنسان على هذه الدرب شخصيته، إلا أنه يأمل بالحصول على النعيم. يعيش الناس المعاصرون في الأوهام أكثر مما كان الناس في الأزمنة السابقة، وهم أقل واقعيةً، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأكثر انسلاخًا عن الواقع ومستسلمون لأهواء الرياح. أوهام التقدم، والثورة التي تحرر من كل شيء، والرفاهية الاشتراكية الدنيوية وما إلى ذلك، جميعها على أقصى البعد من الواقعية الأنطولوجية. الأوهام الثورية تبدأ أيديولوجيًا من العقلانية وتنتهي باللاعقلانية. ينتفض العقل البشري ضد التاريخ، ويؤمن بأنه يستطيع بقواه ترتيب الحياة البشرية على الأرض وعقلنتها حتى آخرها، من دون أن يترك مكانًا لعمل القوى الغامضة وما فوق العقلية. لكن الثورة العقلانية تنتهي بأن تأخذ الفوضى تتفلت، وتبدأ تسيطر القوى اللاعقلانية والظلامية. العقلانية الثورية واللاعقلانية الثورية تدمران على حد سواء سائر الحقائق الأنطولوجية، وتنكران معًا معنى التاريخ ولاعقلانيته الغامضة. تنشط في التاريخ قوى مستترة عقلانية ولاعقلانية. أولئك الذين هم تحت رحمة هذه القوى، غالبًا ما لا يعرفون هم أنفسهم بوجودها. إن عمل القوى اللاعقلانية كليًا يولد الوعي العقلاني كليًا. وهذه إحدى المفارقات في تناقضات الحياة الاجتماعية والتاريخية.

***

حين يسعى أصحاب الوعي الديني إلى ملكوت الله يساورهم شعور بأن حلول ملكوت الله على الأرض هو وحي جديد. كان يوجد في المسيحية منذ البداية جانب نبوئي، كان هناك تطلع إلى الآتي المجهول الذي لا تكشف عنه النصوص المقدسة سوى بالرموز والإشارات. لكن، هل من الممكن الاعتراف بوحي جديد بالنسبة إلى أولئك الذين يبقون أوفياء للوحي المسيحي الخالد؟ هذا واحد من تناقضات الوعي الديني المسيحي. المسيحية ليست إلهامًا وكشفًا فحسب، بل هي مستترة أيضًا. فملكوت الروح يبقى مستترًا، وهو يتكشف حول المستتر في الحياة الخلاقة للروح، في النبوءة الحرة. لم يكن من الممكن أن يكون إبداع الإنسان مكشوفًا في النص المقدس، بل يكتشفه الإنسان بنفسه على نحو حر. لكن الإبداع الديني الحقيقي متاح للإنسان فحسب، الذي يؤدي حقيقة القانون وحقيقة الخلاص الذي يشد إزر روحه عبر المسيح وفي المسيح. الإبداع ضد المسيح، الإبداع الذي ينتفض ضد القانون والخلاص، هو إبداع الفناء، إبداع وهمي شبحي. لا ياتي فيه ملكوت الله. إن إبداع الثقافة العلمانية مع وجهة نظر دينية، هو أفضل من الإبداع الديني الطائفي الذي يهدم المقدسات الخالدة للكنيسة. إن ليوناردو مع وجهة النظر الدينية، بمعنى ما، هو أفضل من

لوثر، وغوته أفضل من تولستوي. لوثر وتولستوي هما مدَمِران دينيان. أما ليوناردو وغوته فهما مبدعا قيم جديدة. هما في أمر آخر وعن أمر آخر. وأقل ما يمكن أن نراه من براعم إلهام جديد وإبداع جديد هو في الطائفية والبروتستانتية. هذه البراعم هي أكثر في الثقافة الإبداعية العلمانية، في الوفرة البارعة. الإبداع الديني للإنسان لا يمكن أن يكون سوى وحي حب الإنسان لله الذي يقابل وحي حب الله للإنسان. في مثل هذا الإبداع فحسب يأتي ملكوت الله الذي هو ملكوت الله الإنساني. إن دينامية الحياة الدينية تحدد السعي إلى ملكوت الله. لأن، في الحقيقة، ينبغي ألا يفارقنا أبدًا الشعور بِشَر هذا العالم وعقمه مع الحياة فيه. نحن علينا أن نجيد النضال من أجل كل ما هو قيم في العالم، وعلينا أن نجيد التخلي عن كل شيء باسم ملكوت الله. إن الإبداع الديني للإنسان ليس حقًا ولا مطلبًا، بل هو واجب ديني للإنسان، واجب فيض محبته. القيامة يمكن إدراكها على نحو سلبي أو ناشط. الوعي الأبوكاليبتي في روسيا هو، في غالب الأحيان، سلبية باطنية غامضة، هو انتظار ومعاناة خوف، وليس نشاطًا وإبداعًا. إن الموقف الناشط من القيامة لم يكن سوى عند نيكولاي فيودوروف فحسب. الوعي الأبوكاليبتي هو وعي خطر. وهو يمكن أن يذل الإنسان على نحو زائف ويرفعه على نحو زائف أيضًا. الوعي الأبوكاليبتي هو أمر حميم. ملكوت الله لا يمكن أن يكون نتيجة تطور ولا ثورة، هو تحول رائع. كان في الأرثوذكسية انتظار عظيم وصبر عظيم. لكن الساعة تحين لكشف الجانب النبوي - الأبوكاليبتي للمسيحية للنضال ضد الروح المعادية للمسيح المتنامية في العالم. لا يجوز إعطاء هذا العالم لقوى الشر نهائيًا. لم تعد الكلانية متاحة في المجتمع الدنيوي الآتي، والتقسيم حتميًا. لهذا، مستحيلةٌ الثيوقراطية الدنيوية. لكن، ينبغي حشد قوى ملكوت الله وتوحيدها. ابحثوا عن ملكوت الله وكل ما بقي سوف يأتي. هذا الأمر يبقى بالنسبة إلى المسيحي الحقيقة الدينية الأخيرة التي تبهت أمامها جميع الحقائق الأخرى. كل شيء غير ثابت، كل شيء غير صحيح، عدا ملكوت الله، لا شيء يجب فعله وخلقه سوى له. ملكوت الله ينبغي أن يُخلى المكان له من الدولة والاقتصاد والثقافة والعالم أجمع. في الخلود، وليس في الوقت يمكن أن يُهزم الزمن ويمكن أن يحل ملكوت الله. لكن الإرادة بحلول ملكوت الله في الخلود يمكن كشفها في كل لحظة من حياتنا، في عمقها. فليأتِ ملكوتك!

(55) راهب إيطالي، صوفي مسيحي، مؤسس النزعة الألفية القروسطية (1135 - 1202). (المترجم)

(56) لاهوتي وفيلسوف مسيحي، واعظ مسيحي شهير، أسقف مدينة هيبون قرب قرطاجة منذ عام 395، أحد آباء الكنيسة المسيحية، (354 - 430). (المترجم)

(57) قديس كاثوليكي، مؤسس الرهبانية التي تحمل اسمه (في عام 1209)، شكل انعطافة في تاريخ الزهد، وبالتالي مرحلة جديدة في تاريخ التنسك الغربي (1182 - 1226). (المترجم)

خاتمة

كتبت كتابي هذا **فلسفة اللامساواة** في صيف 1918، في جو من المقاومة الفكرية المتحمسة للثورة الشيوعية المنتصرة. وقد تكون انعكست في هذا الكتاب مشاعر جد سلبية لم تعد تتملكني الآن. لم أكن قد بلغت بعد الاسترخاء النفسي، ولم أكن قد خضت بعد في العمق التجربة الروحية للثورة، وما كنت قد فهمتها بعد حتى النهاية في ضوء الدين. وفي عام 1923، أجدني متفقًا مع الأفكار التراتبية الاجتماعية - الفلسفية الأساسية التي عبرت عنها في عام 1918، لكن داخلي غدا أكثر تطهرًا وتحررًا من سلطة المشاعر السلبية، من كل كراهية، وإن كانت هذه الكراهية استشاطت باسم فكرة حقيقية وإيمان حق. فالثورة الكافرة والشيطانية بطبيعتها، على المرء أن يقاسيها عميقًا على الصعيد الروحي، وعلى نحو مستنير دينيًا. ومن لم يُقاسِ من الثورة روحيًا ودينيًا، هو ذاك الذي لم يخرج منها سوى بمشاعر الغضب والكراهية، ومن لم يتعطش سوى لترميم الحياة القديمة بكل زيفها، التي ولدت الثورة. لم يقاسِ روحيًا ودينيًا ذاك الذي عاشها انتهازيًا. لم يقاسِ من الثورة روحيًا ذلك المالك أو الصناعي الذي يتعطش، بالدرجة الأولى، لاستعادة أملاكه وفباركه والثأر من أولئك الذين انتزعوها منه. لم يقاسِ من الثورة روحيًا ذلك السياسي الذي يحقد لأن ليس حزبه وليست أيديولوجيته هما اللذان انتصرا، وينتظر الساعة التي يصبح فيها داخل السلطة ويجهز فيها على أولئك الذين انتصروا بدلًا منه في الثورة. لم يقاسِ روحيًا من الثورة ذلك الأيديولوجي والمفكر الممتلئ غضبًا لأن أفكاره ملاحقة، وهو على استعداد للانضمام إلى كل قوة تثأر لتجاهله وسقوط أفكاره هذه. لم يقاسِ من الثورة روحيًا ذلك الإنسان العادي الذي لا يرى في الثورة سوى انتهاك مصالحه ونظام حياته المعتاد، وينتظر يوميًا إحياء هذه المصالح ونمط العيش المفقود هذا. قاسى من الثورة روحيًا ذلك فحسب الذي رأى فيها قدره العاثر وقدر شعبه العاثر، ذلك الذي لمس فيها عقابًا على خطايا الماضي، ذاك الذي مر عبر الندم، عبر التعرض، ليس لباطل الثورة فحسب، بل وباطل ما قبل الثورة أيضًا، ذاك الذي أدرك ضرورة التنوير وتغيير الحياة. وهذا لا يصبح ثوريًا أو ماقبل ثوري، بل يصبح إنسانًا مابعد ثوري، إنسان عهد جديد. إن معاداتنا الثورة ينبغي أن تكون مابعد ثورية، وليس ماقبل ثورية، ترسخ البدايات التي لا تشبه البدايات، والتي انتصرت إبان الثورة، أو تلك التي كانت سائدة قبل الثورة وأفضت إليها. لا يمكن المعاناة الروحية من الثورة أن تفضي إلى التعطش لإعادة الترميم، أي لإحياء العالم القديم مع كل باطله. إن باطل العالم القديم هو الذي أفضى إلى باطل الثورة، والعودة إليه هو جنون، هو حشر حياة الشعب في دوامة لا نفاذ منها. لا بد من الخروج من هذه الدوامة البغيضة من الثورات والارتداد عليها إلى حياة جديدة ما، إلى الانتقال إلى الخلق والإبداع. لا يجوز وضع باطل الشيوعية المعادي للمسيح في مواجهة الحقيقة «البرجوازية»، لأن في «البرجوازية» أيضًا لا يوجد المسيح، كما في الشيوعية، فهو كفر يولد كفرًا آخر. فالشيوعية ليست سوى الباطل الكافر للعالم البرجوازي الذي بلغ مداه على نحو ممنهج.

الثورة، بالنسبة إلي، ليست حدثًا خارجيًا، بل هي ليست سوى انعكاس لشيء ما يحصل معي وفي داخلي، هي ذنبي، هي ضعفي الداخلي. لو كنت أنا، وكان كل أنا، قويًا روحيًا بما يكفي وكانت لي قوة إيمان حقيقية، لما كانت حدثت الثورة، بل كان حصل تنوير وتحول في الحياة. أنا «رجعي» (ارتدادي)، وليكن، لدي ردة فعل، ردة فعل روحية عميقة ضد الباطل والكذب، ضد

كفر الثورة بالإنسان وبالله. غير أنه ينبغي فهم معنى هذه «الرجعية» (الردة). «رجعيتي» ليست رجعية «ما قبل الثورة»، بل هي «ما بعد الثورة». هي ردة ضد ثورة تلك المنجزات الروحية التي برزت نتيجة الفهم الداخلي لتجربة الثورة، نتيجة التراجع الداخلي عن هذه التجربة. هذه «الردة» لا تفضي إلى ترميم نظام حياة ما قبل الثورة، إلى حال الروح ما قبل الثورة. الثورة حدثت، وهي مثيرة للاشمئزاز، مثل كل ثورة، لكن ينبغي الذهاب إلى ما هو ممكن بعدها، وليس إلى ما كان قبلها. ما كان قبلها هو ما أدى إليها. سوف نسعى إلى ما لا يؤدي إليها. على الثورة ذاتها أن تستنفد نفسها وتنهي نفسها، فهي لا يمكن إنهاؤها من الخارج.

«يميني» أنا أم «يساري»؟ هو السؤال الذي لا يمكن أن يكون معنيًا به، سوى أولئك الذين لديهم وجهة نظر سطحية في الحياة الذين لا يعترفون بالعمق كبعدٍ. وبالفعل، فإن «اليمينية» و«اليسارية» تأتي من التحرك على السطح. وكل حركة صعودًا أو هبوطًا لا يمكن أن تكون «يمينية» ولا «يسارية». والحركة الخارجية نحو سطح الحياة والابتعاد من العمق قد أدتا بالشعوب إلى نزاعات دموية وكوارث لا مثيل لها. وأنا أود لو تبدأ حركة صعود وهبوط. لماذا أنا لست «يمينيًا» أبدًا ولا «يساريًا أبدًا. لا يمكن حشر أفكاري في هذه المقولات القديمة وغير المفيدة. الفروقات والتناقضات بين «اليمينية» و «اليسارية» تعمق، فحسب، الخلافات في البشرية وتغذي مشاعر الغضب. ينبغي البحث عن الحقيقة والعدالة، عن الله، وليس عن «اليمينية» و«اليسارية»، لا عن المصالح «اليمينية» و«اليسارية». الحقيقة لا تعرف مقولات «اليمينية» و«اليسارية»، وهي لا تغفر لتلك الغرائز التي تتأجج حول «اليمينية» و«اليسارية». ينبغي أن تحدث في العالم ردة روحية عظيمة ضد سلطة السياسة وسيطرتها، ضد شهوات السلطة السياسية، ضد غضب الأهواء السياسية. على السياسة أن تشغل مكانها الثانوي الخاضع، يجب أن تكف عن تحديد معايير الخير والشر، عليها أن تطيع الروح والأهداف الروحية. إن سيطرة السياسة، كما سيطرة الاقتصاد، هي تشويه لنظام الحياة التراتبي. البشر يكونون إما أخيارًا وإما أشرارًا، مخلصين لحقيقة الله أو مرتدين عنها، ليس لأنهم ملكيون أو جمهوريون، أرستقراطيون أو ديمقراطيون، أنصار النظام البرجوازي أو النظام الاشتراكي. على السطح من الحياة، يحتدم الصراع بين الأهواء والمصالح، تكشف عن نفسها شهوة السيطرة السياسية وتترسخ معايير وقيم خارجية. لكن، في الحقيقة، فإن المعايير الأشد عمقًا في التقويم، الأكثر روحية، ينبغي أن تحتل المكانة السائدة وتُخضع لنفسها معايير التقويمات السياسية المسيطرة وتدفعها إلى الخلف، ينبغي أن يتم التغلب في العالم على دكتاتورية السياسة التي يختنق العالم منها وينزف دمًا. حقًا، إن الاتحاد في العالم ينبغي أن يتم وفق مبدأ آخر، وفق معيار آخر. فالحياة الروحية ينبغي أن تحتل من جديد المكانة المسيطرة التي تليق بها تراتبيًا. ينبغي أن يتحد الناس بالدرجة الأولى، وفقًا للمبادئ والمميزات الروحية وليس السياسية. وحينئذٍ فحسب تقوم في العالم نهضة روحية. إن سلطة المجتمع الخارجي على النفس الإنسانية ينبغي أن يوضع حد لها.

جميع هذه الأفكار التي عانيت في بلورتها هذه السنين كلها، رأيت أن أضعها في خاتمة كي تُفهم أفكار كتابي بمعناها الصحيح. هذه الأفكار لا يجوز استثمارها من أجل أي هدف سياسي شرير. للمجتمع البشري أسس أزلية، وهذه الأسس تتحدث عن الأبدي، لا عن الموقت جدًا والفاني في الحاضر والمستقبل. إن التأمل في الحوادث الجارية في العالم في السنوات الأخيرة يؤكد حقيقة

التشاؤم التاريخي الذي يقوم على أسس راسخة في النبوءات المسيحية، والذي أؤمن به منذ زمن طويل. هذا التشاؤم التاريخي الشديد يحررنا من جميع الطوباويات الدنيوية وأوهام النظام الاجتماعي المثالي. لكنه لا يحررنا من واجب بذل قوانا كلها للاضطلاع بحقيقة المسيح. ليس من السهل الانتصار على الشر المتطرف في الطبيعة البشرية وطبيعة العالم، والنصر النهائي على الشر هو تغيير العالم هو «سماء جديدة» و«أرض جديدة». لكن هذا لا يعني أننا ينبغي أن نوافق على سلطة الشر والسلطة الشريرة، وأن إرادتنا ينبغي ألا تكون مشدودة إلى ذروة الحقيقة في الحياة.

29 آذار/ مارس 1923

برلين